موسوعة
الرسول المصطفى (ص)

فصاحة الرسول المصطفى (ص) وبلاغته

عادل البدري

دار الأثر
بيروت - لبنان

فصاحة الرسول المصطفى وبلاغته

موسوعة
الرسول المصطفى (ص)

فصاحة الرسول المصطفى وبلاغته

عادل البدري

دار الأثر
بيروت - لبنان

موسوعة الرسول المصطفى (ص)

(١١)

العنوان البريدي: لبنان ـ بيروت ـ الغبيري
ص ـ ب ـ ١٣٨/ ٢٥
البريد الالكتروني: E-mails:
almawsouah@hotmail.com
almawsouah@yahoo.com
الموقع في الإنترنت:
www.almawsouah.org

الطبعة الاولى
١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٢م

دار الأثر
للطباعة والنشر والتوزيع
Dar Al-Athar. Publisher

توزيع ونشر دار الأثر
بيروت ـ بئر العبد ـ شارع دكاش ـ بناية شحرور هاتف
٠١/٢٧٠٥٧٤ ـ ٠٣/٣٤٩٢٣٧ ـ
Em: alathar 2002 @hotmail.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا
وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ
بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝

صدق الله العلي العظيم

الأحزاب ٤٥ - ٤٦

كلمة الموسوعة

كيف يخلد الكلام؟ ولماذا يخلد؟

وكيف يموت الكلام؟ ولماذا؟

لا يمكن لنا أن نقول: إن المصالح السياسية والتأثيرات الاقتصادية هي التي يكون لها الدور في تخليد كلام من قصيدة أو قطعة نثرية أو خطبة أو ما شابه. وإن كنا نقبل مقولة التأثيرات الزائفة هذه، في فترات وجيزة لا تتعدّىٰ مرحلة سيطرة سياسي متعجرف أو ثريّ مغرور، على شعب يصفِّق طمعاً في دينار الثري أو خوفاً من سيف السياسي، وسرعان ما تتلاشىٰ تلك الكلمات والخطب، وتُنسىٰ تلك القصائد والأشعار، بعد زوال الدينار وفلّ السيف.

نعم.. ربما تخلد بعضها لا لمادتها المتزلّفة، بل لتواجد الفنون البلاغية البديعة في طياتها حيث يرجع إليها طلاب العلوم في الحقول الأدبية ليستفيدوا منها في دراساتهم اليومية.

أمّا أن تبقىٰ بسبب مضمونها وإبداعها معاً فلا يمكن أن يحصل ذلك إلا للروائع الأدبية البديعة التي تناغي الفطرة السليمة وتحاكي القيم والمثل العليا وتعالج مشاكل المجتمع من جهة، وتراعي أبدع الأساليب البلاغية التي تهزّ مشاعر الناس من جهة أخرى.

هذا في جانب.. وفي جانب آخر.. نرىٰ أن القليلين هم الذين

خلُدتْ روائعهم الكلامية، وإن كانوا قد راعَوْا الجهتين المذكورتين أعلاه، لا لأن كلماتهم لم تستحق البقاء والخلود بسبب إسفاف المضمون أو رداءة الأداء، بل لأن الأجيال البشرية المتلاحقة لا تنظر إلى المضمون والأداء فقط، بل تنظر أيضاً إلى الواقع الذي يكمن وراء ذلك المضمون وذلك الأداء، فكلما كان الواقع أكثر إخلاصاً وشرفاً وصدقاً ونفعاً للبشرية، كلما التفَّ حول كلماته وروائعه الأكثرون.

هذه الأثافي الثلاث تجمعت مكتملة في كلمات الرسول المصطفى ﷺ وعترته الطاهرة ﷺ.

فإننا نرىٰ أن كل القيم وأعلاها، ومجموع المثل وأرقاها، ومسلَّمات الفطرة السليمة والمنطق القويم قد اجتمعت في كلماته ﷺ، هذا من جهة، ومن أُخرىٰ فإن واقعه الشريف وحقيقته النورانية المخلصة وصدقه مع ربه ومع نفسه ومع أُمته هي التي سبَّبت تخليد كلامه.

علاوةً على جانب الإبداع الفريد الذي كان يتمتع كلامه به والذي كان سبباً من أسباب التفاف العرب حوله وهم أهل فصاحة وبلاغة، حتى استطاع بتفوُّقه البلاغي أن يثير إعجاب البلغاء في عصره ليصدِّقوا بحق، قولتيه المشهورتين: **«أنا أعرب العرب»** و **«أنا أفصح العرب»**.

ودراسةً لهذه العوامل مجتمعة، وتركيزاً على الجانب البلاغي والفصاحي بالذات، حاول أخونا الفاضل عادل البدري في كتابه المشتمل على تسعةٍ وأربعين فصلاً، أن يلقي الضوء أولاً على خصائص اللغة العربية والمؤشرات الفريدة التي أهَّلتها لتترجم كلام الله وتفصح من كلام نبيه المختار ﷺ، ليعرِّج بعدها على دراسة أوّلية وعاجلة لأُسس الفصاحة المحمدية وروائع البلاغة النبوية المشحونة

باليسر والسلاسة ورفعة الأسلوب ومتانة التركيب؛ كيما تكون منسجمة مع مضامين حياة الإنسان وتطلعاته، لتجعلها جديرة حقاً بالخلود والبقاء.

ونحن في موسوعة الرسول المصطفى ﷺ، إذ نبارك للمؤلف جهده المشكور، نعتبر ذلك انطلاقةً أولىٰ نرجو أن تستتبع محاولاتٍ جادّة في سبيل دراسة كلام الرسول ﷺ من حيث المضمون والأداء والإبداع.

محسن أحمد الخاتمي
بيروت ١٧/ صفر/ ١٤٢٣هـ
٣٠/ نيسان/ ٢٠٠٢م

المقدمة

لكلّ شيء حدود ومعالم ينتهي إليها، إلا النبوّة، فليس لوظيفة النبيّ حدود ومعالم تنتهي إليها رسالته ودعوته.

فالنبيّ سفير السماء، وظلّها في الأرض، فما أن ينشر جبرائيل جناح رسالته على نبي الله المختار حتّى تنبعث الطاقات، وتتفجّر المواهب، فلا يكون النبيّ محدوداً بحدود ومعالم ومعايير البشر.

فتبدأ مسيرة إعجازٍ وإبداعٍ يقف العقل مدهوشاً وحائراً بها، لا يدري ما يقول.

فمرّة يكون النبيّ طبيباً، يداوي ما عجزت عنه الأطباء، ومرّة يخرج لهم ناقة من الصخور، ومرّة ينزل لهم مائدة من السماء، يكون فيها ما لذّ وطاب، ويجد الآكل فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، فليس بمقدور الإنسان أن يصنع هذا بأيّ شيء، وبأيّ أداة، وبأيّ قوّة. . .

وقد كانت مسيرة الأنبياء حافلة بالمعجزات والعجائب من عصا موسى عليه السلام إلى الحوت التي التقمت يونس عليه السلام.

ويقف الإنسان أمام السماء مدهوشاً حائراً لهذا متعجباً لذاك؛ لأنّه يرى ذلك ملائماً لزمانه الذي يُبدع فيه العقل البشري إبداعاً يُلفت نظر أهل ذلك الزمان.

وهكذا تجري الأحداث وتسير الأيّام والسنون حافلة بمعجزات الأنبياء و خوارقهم إلى أن تأتي مرحلة النبوّة المحمدية على صاحبها وعلى آله أفضل الصلاة و السلام، فقد جاءت هذه المرحلة بنمط آخر، وهو الإعجاز اللغوي والبياني علاوةً على معجزاته الأخرى.

ولد المصطفى ﷺ وقد عُرفت الأمّة العربية بأنها أُمّة أدب وشعر وبيان، وكانت لهم فصاحة مشهودة، وكان رجالهم يفخر بما أُوتي من بيان وحُسن خطاب.

وفي هذا الزمن الذي جاء آخر أزمان الأنبياء، بعد أن رأت البشرية وسمعت المعجزات، التي طالت عيون وآذان بني الإنسان، ظهر إعجاز جديد هو الإعجاز اللغوي والبلاغي، رافعاً رايته نبيّنا المصطفى ﷺ بما أُوتي من جوامع الكلم، وقد هزَّهم من قبل بكلام الله ﷻ وقرع أذنهم، وها هو إعجازه الثاني كلامه ﷺ، إنّه إعجاز جديد ورائع أن يكون الكلم حجّة له ﷺ، فلم يكن لهم من الأدب والبيان ما يقف أمام بلاغة القرآن الكريم وفصاحته، سحرتهم بلاغته وفصاحته وما فيه من جمال وتكامل.

وهاهو المصطفى ﷺ جاءهم بلسان الفصاحة والبيان ليكمل حجّته عليهم، لسان البيان والرحمان، لا لسان الأصنام والشعراء، الذين كانوا يُنشئون القصائد من وحي الرمال والجمال، توكّئوا في بيانهم وفصاحتهم على قرائحهم، وهي قرائح بشر ينوء بضعفه وعجزه تحت موحيات ومحفزات محدودة، لم تكن بلاغتهم تتجاوز حدود مداركهم و رمالهم وجمالهم، وغاية ما يقول الأديب والشاعر العربي هو التعبير عن لواعج وأحاسيس إنسان، يقف بين أطلال وبعر، وامرأة قد أحبّها هجرت أرضاً طلباً لماء وعشب يملأ أحلام قومها، فيرفع رأسه حائراً ليجد قمراً منيراً لا يجد غيره، وتسنح له ظبية تذكره

برشاقتها رشاقة ودِقّة خصر من أحبّها، أو بقرة وحشية واسعة العين قد فتنته ؛ لأنَّ من فارقته كانت سوداء العين تتسع قليلاً، لأنّ بيئة الصحراء الحارة، والتي تملأ آفاقها الشمس المشرقة على الدوام، تفرض نمطاً من البشر عيونهم تضيق قليلاً، فلا حسَّ لهم أكثر من هذا، وإذا حرّقته الأشواق وجاشت به نفسه نظر إلى مضارب القبيلة وخيامهم وإذا بأحاسيس البطولة والفروسية تتداعى لذهنه وهو يغير ويسلب مع فرسان قبيلته، لِيغنم ناقة ويسبي جارية هيفاء ممشوقة القدّ، يملأ عيونه الحالمة بجارية بيضاء مخدّرة لم تأخذ حظّاً كثيراً من سواد اللون الموحي بامتهان المرأة وقلّة حظّها من الجمال والأناقة.

إنّها مفردات محدودة وكلمات مكررة أطلقوا عليها عبارات الجزالة والفخامة والفصاحة، ومهما قالوا في هذا ،فإنَّ أدب الصحراء والقحل والجدب فقير بكلماته وصوره، فهو لا يتّسع إلا لمدارك فارس يُغير وهو بين مشتبك القنا والرماح، تلمع له خاطرة تجعله يقول ما قال من لواعج وأحاسيس أخذت مأخذها في تاريخ العرب، وأصبحت من مفاخر التراث العربي، أبيات شعرية ونصوص نثرية قيلت في حينها فصارت فنّاً وأخذت طريقها في سلَّم مجد الأمّة وتاريخها الإبداعي [1]. وهو أدب رائع في حينه وزمانه يتناسب مع عقول منشئيها ومُتلقّيها، فهو تعبير عن وجدان وعواطف إنسان بدائي غير معقّد الإحساس.

وفي خِضَم هذه الأجواء وتلك الديار، التي لا مدنية فيها تنتظمهم ولا استقرار بيئي، ولا كتاب أديان، تأخذ هذه الكلمات

---

(١) ويلغ من اهتمامهم بالشعر أنّ القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل تهنئها وصُنعت الأطعمة واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر. العمدة لابن رشيق ١ : ١٠٩.

المقفّاة قداسة واستحساناً، وينبري الشعراء بينهم في تسابق ورهان، وإذا بنجم المصطفى ﷺ يسطع في سمائهم، فأيّ شيء صار ؟ كان كلامه ﷺ صاعقة أحرقت هذا الكلام، إنّه كلام لا يقوى ولا يصمد أمام الفصاحة والبلاغة التي جاء بها نبي الرحمة، كانت عاصفة بيان ورحمة أججت حروفاً وكلمات كانوا يتداولونها في لغتهم الثقافية واليومية، وضعها ﷺ في حلّة البراعة والبيان.

والبلاغة في الكلام البليغ لا تحصل بقدرة القادر على إحداث الحروف المركّبة، وإنّما تظهر بعلوم المتكلّم بالكلام البليغ، وتلك العلوم لا تحصل للعبد باكتسابه، وإنّما تحصل له من قبل الله ﷻ ابتداءً[1] وهذا ما كان من فصاحته وبلاغته ﷺ، فالوضع الربّاني والإلهام السماوي هو سرّ هذه الفصاحة والبلاغة.

ومع كون العرب أرباب البلاغة، وعنهم تؤخذ الفصاحة، فقد جعل الله ﷻ معجزات الأنبياء بالوجه الشهير أبرع ما يكون في زمان النبي الذي أراد إظهاره، فكان السحر في زمان موسى عليه السلام قد انتهى إلى غايته، وكذلك الطبّ في زمن عيسى عليه السلام، والفصاحة في زمن النبي محمد ﷺ.

وكان قد ولع العرب وصار ديدنهم ،لحين من الزمن، أن يتباروا بأجمل الكلم وأحسنه فعكفوا على تجميل اللفظ وتزيينه حتّى ظهرت طبقة من الشعراء تعيد صياغة ألفاظ القصيدة لأجل أن تظهر بالشكل الأحسن.

يقول القرطبي: وإذا كان فصيح العرب أن يصنع خطبة أو قصيدة فيستفرغ فيها جهده ثمّ لا يزال ينقحها حولاً كاملاً، ثمّ تعطى لآخر

---

(١) ينظر بحار الأنوار للمجلسي ٩٢: ١٢٥ ط طهران الدار الإسلامية.

بعده فيأخذها فيبدل فيها وينقّح، ثمَّ لا تزال بعد ذلك فيها مواضع للنظر والبدل، وكتاب الله ﷻ لو نزعت منه لفظة ثمَّ أُدير لسان العرب أن يوجد أحسن منها لم يوجد[١].

وكذلك حال كلام نبيه المختار، فالقرآن والحديث كلاهما يكمل الآخر، فكذلك كانت ومازالت ألفاظه ﷺ في أسلوبها وجزالتها وقوّتها مخالفة لجميع أساليب العرب في البيان، وكأنها لا تصحّ من مخلوق غيره.

التآليف في الفصاحة

إنَّ أول كتاب وضع له مؤلفه اسم الفصاحة عنواناً له، ونال شهرة في اللغة العربية، هو كتاب فصيح ثعلب لأبي العباس أحمد بن يحيى المتوفى سنة ٢٩١هـ، وقد اختار فيه ثعلب الفصيح من كلام العرب ممّا يجري على كلام الناس وكتبهم[٢].

وقد أراد به مؤلّفه أن يكون ما اختاره نموذجاً ومقياساً لفصيح اللغة.

وألّف عبد الله بن محمد بن سنان الخفاجي المتوفى سنة ٤٦٦ هـ كتاباً بعنوان سرّ الفصاحة.

وألّف أبو منصور الثعالبي المتوفى ٤٣٠هـ مفتاح الفصاحة.

وألّف أبوحنيفة الدينوري صاحب الأخبار الطوال كتاباً باسم الفصاحة أيضاً[٣].

---

(١) تفسير القرطبي ١ : ٧٨.

(٢) ينظر فصيح ثعلب ص٢ بتحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ط القاهرة ١٩٤٩م.

(٣) ذكره ابن النديم في الفهرست ١١٦ ط دار المعرفة بيروت.

وألّف السيّد الشريف أبو محمد الأطروش الحسن بن علي بن الحسن بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب فصاحة أبي طالب[١].

. وقد استأنس المحدثون لهذه التسمية فألّف السيّدان حسين يوسف موسى وعبد الفتاح الصعيدي كتاباً يحمل اسم الإفصاح في فقه اللغة[٢].

عادل عبد الرحمن البدري

---

(١) رجال النجاشي ٥٧ رقم ١٣٥ ط جماعة المدرسين قم.

(٢) طبع هذا الكتاب في القاهرة ١٩٢٩م.

اللغة وتعريفها وأهميتها

اختلف العلماء في تعريف اللغة، المحدثون والقدامى منهم، والشرقيون والغربيون، ولعلَّ أفضل تعريف عُرِّفت به اللغة هي كونها:

قدرة ذهنية مكتسبة يمثلها نسق يتكون من رموز اعتباطية منطوقة يتواصل بها أفراد مجتمعٍ ما.

وينبثق من هذا التعريف:

١) إنّ اللغة قدرة ذهنية تتكون من مجموع المعارف اللغوية، بما فيها المعاني والمفردات والأصوات والقواعد التي تنتظمها جميعاً، تتولّد وتنمو في ذهن الفرد، ناطق اللغة ومستعملها، فتمكنه من إنتاج عبارات لغته كلاماً أو كتابة، كما تمكّنه من فهم مضامين ما ينتجه أفراد مجموعته من هذه العبارات، وبذلك توجد الصلة بين فكره وأفكار الآخرين، وتتداخل في تكوين هذه القدرة عوامل فسيولوجية تتمثل في تركيب الأذن والجهاز العصبي والمخّ والجهاز الصوتي لدى الإنسان.

٢) إنّ هذه القدرة تُكتسب، ولا يولد الإنسان بها، وإنّما يولد ولديه الاستعداد الفطري لاكتسابها، ويدفعه لهذا الاكتساب في العادة شعوره بالانتماء إلى مجموعته البشرية نفسياً واجتماعياً وحضارياً، ورغبته في التعايش وتبادل المنافع والمصالح بينه وبين أفراد هذه المجموعة.

٣) إنّ هذه القدرة المكتسبة في طبيعتها تتمثّل في نسق متفق أو متعارف عليه بين أفراد ما يُطلق عليه الجماعة اللغوية، الجماعة الناطقة بلغة ما.

٤) إن اللغة ليست غاية في ذاتها إنّما هي أداة يتواصل بها أفراد المجتمع لتستقيم علاقاتهم وتسير أمور حياتهم[١] فاللغة للأمّة جهاز مواصلات لها.

ويكاد يتفق اللغِويون العرب في التعريف بأنها: أصوات يعبر بها كلّ قوم عن أغراضهم[٢].. وهي فُعْلة من لغوت أي تكلّمت، أصلها لُغْوَة ككُرة وقُلة وثُبة، كلها لاماتها واوات. وقيل: أصلها لُغَيٌ أو لُغَوٌ، والهاء عِوض وجمعها لُغىً مثل بُره وبُرىً.

واللَّغْو: النُّطق، يقال هذه لغتهم التي يلغون بها، أي ينطقون. ولَغْوَى الطير: أصواتها، والطّير تَلْغَى بأصواتها، أي تَنْغَم، ويُقال: سمعت لَغْوَ الطائر ولحنه.

وقال ابن الأعرابي: لغا فلان عن الصواب، وعن الطريق، إذا مال عنه، واللغة أخذت من هذا؛ لأنّ هؤلاء تكلّموا بكلام مالوا فيه عن لغة هؤلاء الآخرين[٣].

وقد كانت وما زالت اللغة من أعظم مظاهر حضارة الإنسان ورقيّه ؛ فلغة الإنسان قاموس أحاسيسه وأفكاره، وهي سجل حركة المجتمع وتطوّره ونموه، فعلاقة الفرد بمجتمعه وتبادل الأحاسيس

---

(١) الحصيلة اللغوية أهميتها ومصادرها وتنميتها للدكتور أحمد المعتوق ٣٣ ط الكويت ١٩٩٦م.
(٢) والتعريف الذي تقدّم أوسع دلالة.
(٣) لسان العرب ١٥ : ٢١٥(لغا)،ولعل مذهب ابن الأعرابي هو بيان معنى التطور اللغوي عند الإنسان.

والأفكار يتمّ عن طريق لغة مُعيّنة لها قواعدها ومعاييرها ينضبط بها تشريع الأمّة وحتى نشاطها الاقتصادي والعمراني، فكلّ أمّة من الأمم تضع مصطلحات ومعايير وقوانين لأفرادها يتحدّد لهم بها شكل الحياة ونمطها حتى النظام السياسي للأمّة، وينسحب ذلك إلى الوضع الروحي والديني للشعوب، فللأديان لغة ومصطلحات خاصّة بها تتحدد من خلالها وظيفة المتلقّي، أو ما يُسمّى في لغة فقهاء المسلمين التكليف الشرعي.

وقد عُني فقهاء المسلمين بعلوم اللغة وآدابها من زمن التشريع إلى زماننا هذا، و لن يدخل الفقيه مضمار الفتيا والاجتهاد ما لم يكن ملمّاً ضليعاً باللغة، فأسرار الكلام هي من أسرار التشريع. إنَّ التشريع وضع في كَلِم وهذا الكَلِم فُسّر بكلم، وهكذا دواليك تأخذ كلمات اللغة بعضها برقاب بعض، قال الله ﷻ لنا واصفاً ما يجري لمريم (ع): ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [١]، ويأتي كلام نبي الأمّة ومشرّع دينها محمدﷺ ليقول لنا: «**معنى السريّ هو الجدول**»[٢] ويأتي اللغوي ليقول لنا: إن الجَدْوَل هو النهر الصغير[٣] لا النهر الكبير.

إنها خطوات تتكامل وتتحرك.

وقد يأتي زمان لاحق يُسأل أهل اللغة عن معنى كلمة النهر، وقد يأتي زمان بعده تصبح كلمة النهر ـ بعد أن تكون قد هُجِرَت ـ كلمة غريبة تحتاج إلى من يشرحها.

---

(١) مريم: ٢٤.

(٢) ينظر الكشّاف للزمخشري ٣: ١٢، والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي الكلبي ٣: ٧ ط القاهرة، والتبيان ٥: ٣٤٣ و١١٨، ومجمع البيان ٥: ١٦٠.

(٣) لسان العرب ١١: ١٠٦(جدل).

وهذا البيان من وظيفة علم اللغة بعد أن يكون اللغوي قد رصد هذه المفردة في تطورها وتغيّر معناها[١] وينبغي الإشارة الى أنّه قد كانت وما زالت مادة اللغة وعلمها المنطوقات.

وقد حُظي الصوت اللغوي باهتمام العلماء والدارسين ومازال، وقد نجم عن هذا الاهتمام ظهور علم جديد هو علم الفوناتيك (phonetique)، أو علم الأصوات اللغوية، كما سمّاه القدامى بأسماء أشهرها علم التجويد، وهو علم لا يتناول من اللغة إلاّ عنصر الصوت فقط، فيحدد مخارج الأصوات وصفاتها والطرق المختلفة في إحداثها ويصنفها ويدرس ما يتصل بها[٢].

وتقوم نظرية الأصوات اللغوية على أنَّ اللغة هي: أصوات في حروف، وحروف في كلمات، وكلمات في جمل[٣].

ويمكن تحديد الصوت بأنه الجزء من الكلام الذي يتعذّر تقسيمه إلى أكثر من جزء واحد، فهو إذن أصغر أجزاء الكلام، ويدخل تحت الصوت كلّ من الحرف والعلامة والمدّة لعدم قابلية أيٍّ منها للتجزئة[٤].

والنظام الصوتي هو النظام الذي يحكم اجتماع الأصوات في الكلام، واللغة عملياً ذات طبيعة صوتية، وهذا ما فهمه عالم لغوي كبير، وهو أبو الفتح عثمان بن جنّي المتوفّى سنة ٣٩٢ هـ، فقال:

---

(١) يلاحظ بين لغة أهل العراق الدارجة أنَّ كلمة الشط تستخدم أكثر من كلمة النهر، وقد تكتسب هذه المفردة من القوّة في التعبير فتصبح لغة الثقافة والقلم إضافة إلى أنها لغة عوام الناس فتُهجر كلمة النهر فتصبح جزءاً من تراث المعجم العربي.

(٢) ينظر الوجيز في فقه اللغة لمحمد الأنطاكي ص١٣ منشورات دار الشرق بيروت.

(٣) فقه اللغة العربية وخصائصها للدكتور إميل بديع ص١٨ دار العلم للملايين بيروت.

(٤) حقيقة الإعلال والإعراب ص١٥ راسم الطحان ١٩٩٠ ط بيروت، الطبعة الأولى.

حدّها أنها أصوات يعبر بها كلّ قوم عن أغراضهم [١]. ولذا تعددت وزادت هذه اللغات.

فاللغات باعتبارها أصوات تُقدّر ما بين أربعة وخمسة آلاف لغة[٢].

وقد قدّروا عدد اللغات المتكلّم بها اليوم ثلاثة آلاف لغة، وليس لهذه اللغات أدب مكتوب سوى ما يقرب ٧٨ لغة منها[٣].

فالكلمة المنطوقة هي الأصل، ولا يزال لها حضور وحياة، ذلك أنَّ النصوص المكتوبة مضطرّة بطريقة ما ـ مباشرة أو غير مباشرة ـ إلى الارتباط بعالم الصوت، الموطن الطبيعي للغة كي تُعطي معانيها، وقراءة النص تعني تحويله إلى صوت[٤]، ولا تقتصر وظيفة اللغة على إمداد الفرد بالأفكار والمعلومات، بل إنها تعمل على إثارة أفكار وانفعالات ومواقف جديدة لديه تدفعه إلى الحركة والتفكير، وتوحي له بما يعمل على تفتيق ذهنه وتوسيع آفاق الخيال لديه وتنمّي قدراته الإبداعية، وهذا ما دفع بعض الباحثين لأن يربط اللغة بالفكر الإنساني ويقرر بأنّ إمكانية التفكير أوّلاً وأخيراً تستند إلى اللغة التي تستخدم في إبراز عناصر الفكر، ففرض إنسان دون لغة معناه فرض إنسان دون فكر.

---

(١) الخصائص ١: ٣٣ تحقيق محمد علي النجار، ط المكتبة العلمية بيروت، باب القول على اللغة وما هي.

(٢) ينظر مقدمة موجز تاريخ علم اللغة في الغرب ص٩ لروبنز، ترجمة د. أحمد عوض ط الكويت ١٩٩٧ م.

(٣) الشفاهية والكتابية، والتر أونج ص٥٤ ترجمة الدكتور حسن البنا عز الدين ط الكويت ١٩٩٤.

(٤) الشفاهية والكتابية ص٥٥.

ورأى بعضهم: أنّ اللغة هي التفكير نفسه.

وقيل: التفكير كلام باطن[١].

ويرى علماء النفس أنّ النموّ العقلي للإنسان منوط بنموّه اللغوي وأنّه كلّما تطوّرت واتسعت لغة هذا الإنسان ارتفعت قدراته العقلية فنما ذكاؤه وقوي تفكيره[٢].

فاللغة هي الفلك الذي تسبح فيه الكائنات الإنسانية.

واللغة أكبر من ذواتنا.

واللغة هي حياة كلّ البشر كلّ الذوات[٣]. ومن خلال اللغة يشرق شيء اسمه العالم أو الوجود أو الفكر أو الثقافة.

واللغة هي جهد الإنسان في التعرّف أو الإدراك والتميز.

واللغة نشاط الإنسان أو رؤيته الخاصّة، وإلاّ لما عرفنا كيف ترمز كلّ لغة برمز مختلف إلى شيء واحد، إننا بداهة لا ندّعي أننا نعرف لماذا سُمّي الحصان حصاناً، ولا نعرف لماذا سُمّي القمر قمراً.

إننا ننمو من خلال اللغة، وإنّ لغة المتحضّر تسهم في تحضره، كما تسهم لغة البدوي في بداوته، وعقولنا من بعض النواحي هي لغتنا ؛ ولذلك تجد وجود كلمة أو غيابها في لغة أمراً ذا مغزى. وقد رصد باحث معاصر الترابط الوثيق بين لغة الإنسان وحياته اليومية فقال: ولا يزال في اللغة الإنجليزية كلمات ليس لها مقابل دقيق في اللغة العربية. وقال أيضاً في الترابط بين أحاسيس الإنسان ولغته: فالرجل يبحث عن

---

(١) الحصيلة اللغوية ٣٦.

(٢) نفس المصدر ٣٧.

(٣) اللغة والتفسير والتواصل ٢١٣ للدكتور مصطفى ناصف ط الكويت ١٩٩٥م. ونقل عن هيدجر أنه قال: إنّ اللغة هي منزل الكائن البشري. الحصيلة اللغوية ٣٥.

كلمات لينقل موقفاً معيناً إلى إنسان آخر، نراه يجرب كلمة ثمّ كلمة أخرى ثم يجد كلمة ثالثة ترضيه. فقد وجد المتحدّث الكلمتين الأوليتين غير مقنعتين لسبب بسيط هو أنّ الموضع يتطلّب الكلمة الثالثة. وبهذا المعنى يمكن أن نتكلم عن موضوعية اللغة[١].

انتشار اللغة وديمومتها وأثر الأديان في ذلك

إنّ بقاء اللغة وانتشارها يرتبط بخصائص هذه اللغة وقدرتها على التواصل والتواكب مع حضارة الإنسان ونهضته في النمو والتطور.

فاللغة السخيّة الطلقة هي التي تعطي إجابات لأسئلة العلم والمنطق والأدب. فما دام الإنسان في حركة وتقدّم تتولّد لديه نظريات وأحاسيس، ولابدّ لهذه الأفكار والأحاسيس من لغة تستوعب وتغطّي حاجات الإنسان، فالمجتمع يخلق لغات كثيرة إلى جانب لغة الأدب، ولكن أيّ لغة تبقى ويكتب لها الدوام والخلود؟.

يقول الدكتور ناصف: هناك تأمّلات كثيرة مدارها أنّ اللغة هي طريقة الإنسان في استيلائه على هذا العالم، فهي تحمل صبغته، وتنقل إلى الأشياء عالمه.

اللغة في هذا المنطق هي وسيلة الإنسان لتسخير كلّ شيء لتناوله، واللغة هي انعكاس العالم على وعي الإنسان[٢].

وقد ذهب بعض العلماء إلى أنّ انتشار اللغات المختلفة على سطح الأرض واتصالها وصراعها يمكن أن يشبه بالصراع من أجل

---

(١) اللغة والتفسير والتواصل ١٣٣و١٦٤و١٤٠.

(٢) اللغة والتفسير والتواصل ١٦٤و٣٣٥.

البقاء في دنيا الكائنات الحيّة [١].

ومن العوامل المهمّة لبقاء اللغة واستمرارها هو الدين الذي يحتضن اللغة ويقيم وجودها.

ولو ألقينا نظرة على تاريخ الغرب لوجدنا للدين الأثر الواضح في العصور الوسطى[٢] لحفظ اللغة اللاتينية، وكان في ظلّ اضطراب العصور وانهيار السلطة والمعايير الوثنية أن نمت مكانة الكنيسة بوصفها ملاذاً، وبوصفها راعياً للمعرفة والتعليم.

وأكثر الآداب تشكيلاً لهذه الفترة هو الأدب المسيحي من مختلف الأنماط، ويرجع فضل كبير في حماية استمرارية التعليم والمعرفة للأديرة والكنائس، وأخيراً للجامعات التي أُنشئت في بداية العصور الوسطى، وفي المعاهد التي سيطر عليها رجال الدين المسيحي.

يقول روبنز: فإنّ الأدب الوثني، ونعني به الأدب الكلاسيكي للعصور القديمة، كان موضع ارتياب، وهناك أمثلة للعداء المتعمّد لهؤلاء المؤلّفين وللغة التي كتبوا بها في مقابل لاتينية الكتاب المقدّس المتأخرة التي هي أقرب للدارجة. . وظلّت اللاتينية لغة للمعرفة، وازداد سلطانها باستعمالها لغة للأدب البطريركي، ولغة للطقوس والإدارة في الكنيسة الرومانية الغربية، وهذا وحده ضمن للغة مكانة كبيرة[٣].

---

(١) موجز تاريخ علم اللغة في الغرب ٢٩٤.

(٢) العصور الوسطى مصطلح يُستعمل ليصف ويُميز فترة من التاريخ الأوربي تقع ما بين تفكيك الإمبراطورية الرومانية بوصفها منطقة موحّدة حضارياً وإدارياً، وبين سلسلة الوقائع والتغيّرات الثقافية التي عُرفت بعصر النهضة واعتبرت بشكل عام مرحلة بداية للعصر الحديث.

(٣) موجز تاريخ علم اللغة في الغرب لروبنز ص١٢٤.

وكانت قواعد اللاتينية هي الأساس لثقافة القرون الوسطى بوصفها فنّاً عقلياً بذاته، وبوصفها ضرورة لقراءة اللاتينية وكتابتها بشكل صحيح، وكانت كلّ هذه الدراسات تابعة للاهوت، أي دراسة الدين المسيحي والتعاليم المسيحية.

واعتبر النشاط التبشيري جانباً مهماً من جوانب عمل الكنيسة في معظم المذاهب، وقد تطلّب الاتصال بين المسيحيين وغير المسيحيين منذ البداية عملاً لغوياً ذا طبيعة عملية، كما ساهم على مرّ التاريخ في نمو وتطور العلم اللغوي مساهمة مهمّة. وقد ترك النشاط التبشيري للمسيحية أثراً مهماً وواضحاً في الآداب والعلوم، وذكر روبنز بأنَّ الأبجدية المستعملة اليوم للغة الروسية وبعض اللغات السلافية الأخرى، يرجع أصلها لأبجدية استنبطها في القرن التاسع المبشّران البيزنطيان، القدّيس سيريل والقديس ميثديوس من الكنيسة والإمبراطورية الشرقيتين، واللذان اقتبسا الأبجدية اليونانية ليستعملها السلاف الداخلون في المسيحية، رغم أن قدراً كبيراً من تدريس اللاتينية يجب أن يكون قد جرى خلال فترة حكم روما، فلا يُعرف إلاّ القليل عن منهج هذا التدريس، أمّا التبشير المسيحي وإنشاء الأديرة والكنائس في بلاد أجنبية فقد أعطى زخماً وحافزاً جديدين لتدريس قواعد اللاتينية، كما أنَّ المكانة التي تمتعت بها الكنيسة الرومانية في أوربا المسيحية، والتي تمتّعت بها اللاتينية لغتها الرسمية قد خلقت الرغبة في تعلّم اللاتينية.

وبعد اعتناق أيرلندا للمسيحية قي القرن الخامس الميلادي ازدهرت الثقافة اللاتينية بدرجة كبيرة في الألفية الأولى في مراكز التعليم التي أنشأتها الكنيسة، وقام رجال الكنيسة الأيرلندية بدور مهم في نشر المسيحية ومعرفة القراءة والكتابة في القارة الأوربية. وقد

درست قواعد اللاتينية في أيرلندا من خلال أعمال دوناتوس وبرشيان[١].

واللغة العربية، التي تكاملت في ظلّ ورحاب لغة النبي محمد ﷺ مؤيّدة بالقرآن، عبر بها الشارع المقدّس إلى تخوم أوربا، كلغة علم وثقافة وأدب، مع أعاصير الفتوحات التي عبرت الحدود الجغرافية والثقافية والسياسية القائمة آنذاك.

وقد ذكر روبنز بأنّه: وأثناء العصور الوسطى المتأخّرة كانت العربية والعبرية تدرسان في أوربا، واعترف باللغتين كلتيهما رسمياً في جامعة باريس في القرن الرابع عشر، وكانت اللغة العربية قد دخلت بقوّة مجال اهتمام شعوب البحر المتوسط منذ عدّة قرون سابقة كنتيجة للتوسع السريع للقوة العربية وانتشار الدين الإسلامي في معظم أراضي الشرق الأدنى وشاطئ شمال أفريقيا.

ووضع العبرية كلغة كتاب مقدّس أعطاها مكانة إلى جانب اللاتينية واليونانية بوصفها لغة جديرة بالاهتمام، ويرجع أصل المعرفة اللغوية العبرية لتفسير الأدب الديني للعبرانيين، بما في ذلك كتب العهد القديم، ولكن هذه المعرفة قد بدأت في التطور أيضاً منذ العصور الوسطى المبكّرة تحت تأثير الأعمال اللغوية العربية[٢].

وكانت اللاتينية بوصفها لغة أنيقة محتفظة بأدبٍ عظيم ،كانت هدفاً مناسباً للدراسة، وقد بقيت مستعملة كلغة مكتوبة في فترة ما قبل عصر النهضة، وكلغة منطوقة لطقوس الكنيسة الرومانية الكاثوليكية وكلغة تعامل للمتعلّمين، وقد استمرت الأعمال العلمية لبعض الوقت

---

(١) موجز تاريخ علم اللغة في الغرب ١٢٨.

(٢) موجز تاريخ علم اللغة في الغرب ١٧٠.

تكتب باللغة اللاتينية، ولكن ارتفاع مكانة اللغات المحلّية الأوربية وانتشار المعرفة العلمانية والدول العلمانية، قد عززا استعمال اللغات القومية بوصفها وسيلة مناسبة لنشر الثقافة والعلم[١] وقد خدمت العربية الإسلام كما خدمت اللاتينية في ما مضى الكنيسة الرومانية العالمية سابقاً. وقد كانت تراتيل العبادة وما زالت تؤدّى بلغة البيان العربي الأصيل، والإيقاع الجميل، وترتسم صور البلاغة والبيان في محاريب العبادة منصوصة بسحر المقال الأخّاذ برونقه[٢].

وكذلك الحال للغة السنسكريتية قي القارة الهندية، فالملهم الأصلي لعلم اللغة في الهند هو الحاجة التي أحسّ بها بعض الناس، للحفاظ على نصوص طقسية ودينية معينة منقولة شفهياً، ومنحدرة من المرحلة الفيدية، حوالي ١٠٠٠ ـ ١٢٠٠ ق.م، وهي أقدم مرحلة معروفة للأدب السنسكريتي[٣].

و لاريب أنَّ اللغة العربية كانت وما زالت تسير بخطوط متوازية

---

(١) موجز تاريخ علم اللغة في الغرب ١٨٨و٢٧٠.

(٢) ويتجلّى سحر البيان الأخّاذ في تراتيل وترانيم أدعية السحر المروية عن الإمام زين العابدين والداعين عليّ بن الحسين ﷺ فيأخذ قلبك وروحك إلى آفاق علويّة يدرك لذاذتها العارفون، ويقول الدكتور زكي محاسني: وإذا سلكنا سبيل التاريخ للأدب الديني وجدنا الأدب متبارياً مع زمن الدين في الحدوث فتلك الأناشيد الهندية السحيقة في أزمانها اتخذت الأدب وسيلة لظهورها، فكان الشعراء فيها أوّل العابدين وكانوا هم الأولى الذين نفحوا عطور الأناشيد في الهياكل والمعابد فرددت الألوف من المتعبّدين أشعارهم وأناشيدهم التي عاشت منذ عرف الإنسان الفكر والشعر سدنة العبادة اليومية.. وكان موضوع الأدب الديني يعاود تفكيري، ففي معاهد الدين التي شاهدتها في زورتي لأوربا سنة ١٩٦٠م كنت أجد أنّ الدراسات اللاهوتية مزيجة بنفحات أدب، وأنَّ الأناشيد الطلية تخطّ تواقيعها المرددة على منظومات لاتينية. الأدب الديني ٢٧ و ٢٨ ط مؤسسة البلاغ بيروت ١٤٠٨ هـ.

(٣) موجز تاريخ علم اللغة في الغرب ٢٢٧.

غير متقاطعة مع الدين الإسلامي الحنيف، فكان سرّ وجودها وبقائها أن ارتضاها الله لغة دينه المختار.

قال العقاد: وقد قيل كثيراً: إنَّ اللغة العربية بقيت لأنها لغة القرآن الكريم، وهو قول صحيح لاريب فيه، ولكن القرآن الكريم إنمّا أبقى اللغة لأنَّ الإسلام دين الإنسانية قاطبة وليس بالدين المقصور على شعب أو قبيل، وقد ماتت العبرية وهي لغة دينية أو لغة كتاب يدين به قومه ويحسبون أنهم وحدهم المخصوصون بالخطاب من عند الله، ولم تمت العبرية إلاّ لأنّها فقدت المرونة التي تجعلها لغة إنسانية، وتخرجها من حضيرة العصبية الضيقة بحيث وضعها أبناؤها منذ قرون.

إنّ هذه الفضيلة الإنسانية التي لا تفرّق بين العربي والأعجمي، ولا بين القرشي والحبشي لهي التي أنهضت لخدمة اللغة أناساً من الأعاجم غاروا عليها من حيف الأعجمية، أي أنهم غاروا عليها من لغة آبائهم وأمهاتهم، لأنها لغتهم على المساواة بينهم وبين جميع المؤمنين بالقرآن الكريم كتاب الإسلام، ولو كان هذا الكتاب عصبياً لا يُشرك في تراث الدين أحداً غير أبناء لغة من اللغات لما جاءت الغيرة عليه من الأعاجم كما جاءت من أبناء قحطان وعدنان[١].

اللغة العربية بين فصائل اللغات

لاحظ العلماء مجموعتين هامتين متميزتين في مجموع اللغات، سمّوا إحداها الفصيلة الهندية ـ الأوربية، والأخرى الحامية ـ السامية، وتنبّهوا إلى صلات القرابة بين اللغات الداخلة تحت كلٍّ منهما على حدة، وإلى الصفات المشتركة بين الفصيلتين كلتيهما.

---

(١) مقدمة الاستاذ عباس محمود العقاد لكتاب الصحاح ٧.

ثم جاء ماكس مولر بتقسيمه الثلاثي للغات، حين سمّى طائفة من اللغات الآسيوية والأوربية التي لا تدخل تحت الفصيلتين السابقتين بإسم اصطلاحي هو الفصيلة الطورانية، وإنّما كان الاسم اصطلاحياً لأنّ أفراد الفصيلة الأخيرة متنوعة جدّاً، ومتباعدة جدّاً، وليس بينها روابط لغوية واضحة، وهذا مادعا المحدثين من علماء اللغة إلى تقسيم ما بقي من اللغات الإنسانية إلى تسع عشرة فصيلة، تنفرد كلّ فصيلة منها بروابط من القرابة اللغوية في الأصول والقواعد والتراكيب، وبذلك أصبحت فصائل اللغات الإنسانية إحدى وعشرين أهمّها الأوليان، والباقية ثانوية متفرّقة في أنحاء مختلفة من العالم.

و الفصيلة الهندية ـ الأوربية هي أكثر اللغات الإنسانية انتشاراً، والشعوب الناطقة بها جليلة الأثر في الحضارة الإنسانية الحديثة، ومن العسير تحديد موطنها الأصلي.

وهي تشتمل على ثمان من طوائف اللغات:

١ ـ اللغات الآرية، بفرعيها الهندي والإيراني.

٢ ـ اللغات اليونانية، وتشمل اليونانية القديمة واليونانية الحديثة التي قامت على أنقاض القديمة في القرون السابقة للميلاد، ولغة اليونان في العصر الحديث.

٣ ـ اللغات الإيطالية، وأهم فروعها اللاتينية التي تشعّبت منها الفرنسية والإسبانية والإيطالية والبرتغالية والرومانية.

٤ ـ اللغات الجرمانية، وأهمّها شعبتان: شعبة اللغات الجرمانية الغربية وفيها الإنجليزية ـ السكسونية، والإنجليزية الحديثة، والهولندية والألمانية، وشعبة اللغات الجرمانية الشمالية وهي لغة الدانمارك والسويد والنرويج.

٥ ـ اللغات السلافية، وهي شعبتان صقلبية وبلطيقية، فمن الصقلبية الروسية، والتشيكية، والبولونية والبلغارية الحديثة، ومن البلطيقية الليتوانية، والبروسية القديمة.

٦ ـ اللغات الأرمنية.

٧ ـ اللغات الألبانية.

٨ ـ اللغات الكلتية التي كان ينطق بها شعوب الكلت، وقد غلبتها الآن اللغات الإنجليزية والفرنسية والإسبانية، وإن بقيت ظواهر منها في لهجات أيرلندا ومنطقة البريتون غربي فرنسا.

والفصيلة الحامية ـ السامية ذات مجموعتين:

١) مجموعة اللغات الحامية، وفيها المصرية والبربرية والكوشيتية، وقد اصطلح على إدخالها في مجموعة واحدة، مع أنَّ صلات القرابة بينها ضعيفة، ولذلك يعد بعضهم كلّ فرع منها مستقلاً برأسه على حدة.

واللغة المصرية تشمل المصرية القديمة والقبطية.

أمّا البربرية فهي لغة السكان الأصليين لشمال أفريقيا، تونس ومراكش وطرابلس والصحراء والجزر المتاخمة لها، وأهمّها اللغة القبيلية والتماشكية، وهي لغة قبائل التوارج (الطوارق).

وأمّا الكوشيتية فهي لغة السكان الأصليين للقسم الشرقي من أفريقيا، وبها يتكلّم نحو ثلث سكان الحبشة، وهنالك مناطق في الحبشة تتكلّم بلغة سامية.

٢) مجموعة اللغات السامية، يطلق العلماء على الشعوب الآرامية والفينيقية والعبرية والعربية واليمنية والبابلية ـ الآشورية لقب

السامين، وكان العلاّمة الألماني شولتزير أوّل من استخدم هذا اللقب في إطلاقه على تلك الشعوب، وقد شاركه عالم ألماني آخر هو إيكهورن في أواخر القرن الثامن عشر بتسمية لغات هذه الشعوب باللغات السامية، والتسمية لم تُخترع اختراعاً، فهي مقتبسة من الكتاب المقدّس الذي ورد فيه أنَّ أبناء نوح هم سام وحام ويافث، وأنّ القبائل والشعوب تكونت من سلالتهم.

ويبدو أنّ اللغات السامية قبل تفرقها كانت ترجع إلى أصل واحد، وتشكل شبه وحدة شعبية، إلاّ أنّ من العسير جداً تعيين ذاك الأصل وتحديد هذه الوحدة، لأنّ المهد الأول للساميين ما يزال غامضاً مجهولاً رغم أبحاث العلماء الكثيرة الواسعة الآفاق[١].

واللغة العربية هي إحدى اللغات السامية، ويريدون باللغات السامية اللغات التي يتفاهم بها أبناء سام، وهم في اصطلاحهم أهل ما بين النهرين وجزيرة العرب والشام، أشهرها العربية والسريانية والعبرانية والفينيقية والآشورية والبابلية والحبشية، ولم يبق حيّاً منها إلاّ العربية والحبشية والسريانية والعبرانية، والعربية أرقاها جميعاً[٢].

وقد اعتبروا العربية أشدّ اللغات السامية احتفاظاً بمقومات اللسان السامي الأول[٣].

واللغات السامية بوجه عام تشترك في عدد من الخصائص الدالّة على وحدة أصلها، فهي تمتاز عن سائر اللغات الأخرى بأنّ أصول

---

(١) دراسات في فقه اللغة للدكتور صبحي الصالح، الباب الثاني ـ العربية بين أخواتها السامية، ط دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٩ م.

(٢) ينظر تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ١ : ٣٧، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٨٣م.

(٣) ينظر دراسات في فقه اللغة للصالح ص٣٦.

كلماتها تتألف غالباً من ثلاثة أصول ساكنة، وإن كان بعض العلماء المحدثين يجنح إلى ثنائية الأصول السامية.

والقائلون بثلاثية الأصول السامية يردّون الرباعي منها إلى الثلاثي، فيردّون دحرج مثلاً إلى دحر أو درج لما فيها من معنى الإبعاد والدفع.

واللغات السامية تمتاز في دلالتها على المعنى الأصلي باعتمادها على حروف المباني، وفي تفرقتها بين المعاني المتكافئة باستخدامها حروف المعاني أو الحركات، نحو لفظ (ملك) فهو يدلّ على معنى مشترك بين عدد من الكلمات التي تتألّف من هذه الأصول الثلاثة، فمنه مَلكَ، مُلِكَ، مَلِكٌ، مُلْك.. إلخ[1].

وهذه السمة في اللغة العربية تتجلّى بشكل واضح في الاشتقاق، وهو توليد بعض الألفاظ من بعض، أو بعبارة أخرى أخذ كلمة من كلمة أو أكثر مع تناسب بينها في اللفظ والمعنى.

وقد قسمه ابن جنّي إلى قسمين فقال: الاشتقاق عندي على ضربين: كبير وصغير، فالصغير ما في أيدي الناس وكتبهم، كأن تأخذ أصلاً من الأصول فتتقرّاه فتجمع بين معانيه، وان اختلفت صيغه ومبانيه، وذلك كتركيب (سلم) فإنك تأخذ منه معنى السلامة في تصرفه، نحو سِلْم وسَلِم وسالم وسلمان وسلمى والسلامة، والسليم: اللديغ، أطلق عليه تفاؤلاً بالسلامة، وعلى ذلك بقيّة الباب إذا تأوّلته، وبقيّة الأصول، كتركيب (ضرب) و(جلس) و(زبل) على ما في أيدي الناس من ذلك، فهذا هو الاشتقاق الأصغر.

وأمّا الاشتقاق الأكبر فهو أن تأخذ أصلاً من الأصول الثلاثية،

---

(١) دراسات في فقه اللغة للصالح ص٤٨.

فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنىً واحداً، تجتمع التراكيب الستة وما يتصرّف من كلّ واحدٍ منها عليه، وإن تباعد شيء من ذلك عنه رُدَّ بلطف الصنعة والتأويل إليه كما يفعل الاشتقاقيون ذلك في التركيب الواحد(١).

وقد ضرب مثلاً بأصول (كلم) وتقاليبها: كمل، مكل، ملك، لكم، لمك، فهذه الصور الست تدلّ على القوّة والشدّة.

وقد رأى الأستاذ عبد الله أمين أنّ الاشتقاق أربعة أقسام:

١) الصغير، وهو انتزاع كلمة من كلمة أخرى بتغيير في الصيغة مع تشابه بينهما في المعنى واتفاق في الأحرف الأصلية وفي ترتيبها.

٢) الكبير، ويقصد به انتزاع كلمة من أخرى، بتغيير في بعض أحرفهما، مع تشابه بينهما في المعنى، واتفاق في الأحرف الثابتة وفي مخارج الأحرف المغيّرة، وذلك نحو جثا وجذا وبعثر وبحثر.

٣) الكُبار، وهو ما أسماه ابن جنيّ الكبير أو الأكبر.

٤) الكُبّار، بتشديد الباء، وهو المعروف عند اللغويين بالنحت، كالدمعزة من دام عزّك، والطَّلْبَقة من أطال الله بقاءك(٢).

فمعنى النحت أن تأخذ كلمتين أو أكثر وتنحت منها كلمة ثالثة تكون آخذة منها جميعاً، كقولهم: البسملة من بسم الله، والهيللة من لا إله إلاّ الله، والسبحلة من ﷺ، والحولقة والحوقلة من لا حول ولا قوّة إلاّ بالله، والحمدلة من الحمد لله(٣).

وقالوا: الاشتقاق من أغرب كلام العرب، وهو ثابت عن الله ﷻ

---

(١) ينظر الخصائص ٢: ١٣٣.

(٢) ينظر مقدمة الاشتقاق لابن دريد التي وضعها عبد السلام هارون ص٢٨ منشورات مكتبة المثنى بغداد.

(٣) ينظر تهذيب إصلاح المنطق للخطيب التبريزي ٣٨٥ باب ٨٣ ط مكتبة لبنان ناشرون، بيروت.

بنقل العدول عن رسول الله ﷺ، لأنه أوتي جوامع الكلم، وهي جمع المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة، فمن ذلك قوله ﷺ فيما صحَّ عنه: **«يقول الله أنا الرحمن خلقت الرُّحم وشققت لها من اسمي اسماً»** [(١)].

ولقدرة اللغة العربية على المطاوعة أصبحت لغة اصطلاحات وعلوم لما لها من طبيعة تعتمد على النحت والاشتقاق والتعريب فصارت متزامنة مع توالد الأزمان وجريانها.

واللغة العربية الفصيحة هي لغة عريقة وقد أخذت تكاملها وأوجها في الرقي مع ظهور الحياة الإسلامية، وهذه المرحلة التي أسميت عصر القرآن والرسالة كانت عنوان مجد الأمّة العربية، وشاركتها الأمم الأخرى في هذا المجد بانصهارها تحت لواء القرآن والشريعة المحمدية، فصار إطلاق اصطلاح الأمّة العربية أو الإسلامية يعني أمّة القرآن والنبي محمد ﷺ، فلذلك انبرى المسلمون واندفعوا على مدى قرون في تعلّم اللغة العربية الفصيحة وتعليمها لأنها أصبحت جزءاً من كيانهم الديني ووجهاً من أوجه العبادة.

وقد سجّل التاريخ لنا أقدم مستند لوجود اللغة الفصحى هو (نقش كُشِف في مدفن امرئ القيس بن عمرو ملك العرب، في النمارة من أعمال حوران وهو يرتقي إلى سنة ٣٢٨ للميلاد ـ ميلاد عيسى بن مريم عليه السلام ـ كما تدلّ الكتابة فيه على طور الانتقال من الحروف النبطية إلى الحروف العربية الشمالية التي لا تزال مستعملة حتى الآن)[(٢)].

---

(١) المزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي ١: ٣٤٦ بتحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرين، ط دار الفكر ودار الجيل ببيروت، مسند أحمد بن حنبل ١: ١٩١و١٩٤، مستدرك الوسائل ١٥: ٢٤٣.

(٢) الموجز في الأدب العربي وتاريخه لحنا فاخوري ١: ٢٥ ط بيروت دار الجيل.

خصائص اللغة العربية

والعربية تُعتبر أحكم اللغات نظاماً في أوضاع المعاني وسياستها بالألفاظ، وهي من هذا القبيل أعظمها ثروةً وأبلغها من حقيقة التمدّن بحيث لا تدانيها في ذلك لغة أخرى كائنة ما كانت، فالعرب لم يدعوا معنىً من المعاني الطبيعية التي تتعلّق بالحياة الروحية أو البدنية ممّا تهيأ لهم إلاّ رتّبوا أجزاءه وأبانوا عن صفاته بألفاظ متباينة تعيّن تلك الأجزاء والصفات على مقاديرها، فأوّل معاني الحياة الروحية الحبّ، وهذه مراتبه عندهم: الهوى، ثمّ العلاقة، وهي الحبّ اللازم للقلب، ثمّ الكلف، وهو شدّة الحبّ، ثمّ العشق، وهو اسم لما فضل عن المقدار الذي اسمه الحبّ، ثمّ الشعف، وهو إحراق الحبّ للقلب مع لذة يجدها، وكذلك اللوعة واللاعج، فإن تلك حرقة الهوى، وهذا هو الهوى المحرق، ثمّ الشغف وهو أن يبلغ الحبّ شغاف القلب، وهي جلدة دونه، ثمّ الجوى، وهو الهوى الباطن، ثمّ التَّيْم، وهو أن يستعبده الحبّ، ثمّ التَّبْل، وهو أن يسقمه الهوى، ثمّ التدليه، وهو ذهاب العقل من الهوى، ثمّ الهيام، وهو أن يذهب على وجهه لايستقر، وذلك لغلبة الهوى عليه، ومنه رجل هائم[(١)].

ومن المقرر الثابت أنَّ اللغة لا تتولّد فيها كلمة إلاّ للتعبير عن معنى حدث في أذهان أصحابها، فإذا وجدنا في لغة من اللغات اسماً لنوع من اللباس، نحكم حكماً قاطعاً بأن أصحابها عرفوه أو لبسوه، أو نوعاً من الأطعمة عرفنا أنهم أكلوه، وبعكس ذلك خلوّها من أسماء بعض الأدوات، فإنّه يدلّنا على جهلهم إيّاها، وقِس على ذلك الألفاظ المعنوية التي تدل على المعاني المجردة كالعواطف

(١) تاريخ آداب العرب للرافعي ١ : ٢٢٨.

والفضائل، فإنّ وجودها في اللغة يدلّ على أنّ أصحابها عرفوا تلك العواطف والفضائل وعانوها، ولذلك كانت لغات الأمم المتوحشة خالية من هذه الألفاظ وأمثالها.

واللغة العربية من أغنى لغات الأرض بالألفاظ العمرانية والسياسية، إنّ فيها عشراتٍ من الألفاظ لضروب الجماعات من الناس على اختلاف أغراض اجتماعهم، كالشعب، والجماعة، واللجنة، والزرافة، والسرب، والكوكبة، والقوم، والنفر، والشرذمة، والعصابة.

ومثلها لأماكن الاجتماع كالمحفل، والنادي، والندوة، والمأتم، والمجلس، والموسم، والمدرس، والمصطبة. وعشرات منها للتعريف عن فرق الجند، كالجريدة، والسرية، والكتيبة، وغيرها. وفيها للورق والقلم عشرات من الأسماء والألقاب كالملقاط، واليراع، والأنبوبة، والأسل، والجلفة للقلم، والقرطاس، والطرس، والمُهْرَق، والرق، والطلس، والمجلة، والصحيفة.. وقد عالجوا ألفاظ لغتهم معالجة الاستثمار فأكثروا فيها من المترادفات التي يدل عشرات أو مئات منها على معنى واحد أو معاني متشابهة.

وتوسّعوا في مدلول اللفظ الواحد حتى تعدّدت معانيه[١].

وكان من أثر هذه السعة في اللغة نشوء التفكير المعجمي الجامع للإمساك بناصية المفردات. بعد انكشاف الحال عن ثروة لفظية هائلة حاولت ـ فيما بعد ـ الذخائر الواسعة والمعجمات الشاملة أن تحتضن تلك الثروة اللغوية الضخمة التي تتمتّع بها العربية من قديم، والتي لا قدرة لأحدٍ على أن يحصيها إحصاءً، لأن هذه الثروة من الضخامة والسعة بحيث لا تسلس قيادها لمن يريد حصرها أو إحصاءها[٢].

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ١ : ٣٠ ط مكتبة الحياة بيروت.

(٢) ينظر مقدمة الصحاح ص٢٣ لأحمد عبد الغفور عطار ط دار العلم للملايين بيروت.

ثراء اللغة العربية وكثرة ألفاظها وتعدد لهجاتها

أحصى بعض الدارسين مفردات اللغة العربية بأنها تصل إلى اثني عشر مليوناً وثلاثمائة وخمسة آلاف وأربعمائة واثنتي عشرة لفظة[١].

وهذا الإحصاء يظلّ ناقصاً، مهما توفّرت لدى الدارسين والباحثين من وثائق معتبرة، فإنّ مدوّنات اللغة العربية كانت متأخّرة عن اللحاق بهذه الثروة العظيمة، وأقدم جمع لها يعود إلى أواخر القرن الثاني الهجري[٢].

ولا يخفى أنّ سعة العربية تنطوي على لهجات شتّى لأحياء العرب المختلفة، وتتفاوت تلك اللهجات تفاوتاً يتمثل في الأصوات تارة، وفي الألفاظ تارةً أخرى، وتفاوت الألفاظ هذا قد يكون في بنية الكلمة أو في إعرابها.

وقد اتفق الدارسون والباحثون على أن العربية، وإن كانت لغات عدّة، وإنّما تنقسم في الأصل إلى قسمين رئيسين هما: لغة الشمال، ولغة الجنوب[٣].

---

(١) الحصيلة اللغوية ٢٢١.

(٢) تعتبر مدونة كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي المتوفّى ١٧٥هـ أوّل وثيقة إحصائية وضعها الليث عن لسان الخليل.

(٣) ينظر الحديث النبوي الشريف وأثره في الدراسات اللغوية والنحوية للدكتور محمد ضاري حمّادي ٥٦ ط بغداد ١٤٠٢هـ.

وقد سيطرت اللغة العربية الشمالية على الجزيرة العربية بعد انحسار حضارة اليمن ولغاته كالسبئية والحِميرية، وهو ما عُرف من هذه اللغة باللغة الفُصحى أو لغة القرآن [١].

والعلماء يُطلقون على العربية الجنوبية اسم اليمنية القديمة أو القحطانية، ويلقبها بعضهم أحياناً بالسبئية، تسمية لها بإحدى لهجاتها الشهيرة التي تغلّبت عليها جميعاً في صراعها معها.

وإنّ كثيراً من النقوش المدوّنة على التماثيل والقبور والأعمدة والصخور والمذابح وجدران الهياكل والنقود قد هدتنا إلى أصول هذه العربية الجنوبية القديمة، وإلى طريقة رسمها وأسلوب تعبيرها، فعرفنا منها أنّ هذه اللغة بلهجاتها المتعدّدة تختلف عن اللغة العربية الشمالية، التي هي المقصودة بالعربية عند الإطلاق، اختلافاً جوهرياً أساسياً في القواعد النحوية، والمظاهر الصوتية والدلالات المعنوية [٢].

وحين جاء الإسلام وعيّن كتاباً واحداً للعبادات فقد ميّز اللهجات تمييزاً، فهو قد وحّد لهم أسلوب التعبير، ورغم أنه لم يحرم استعمال اللهجات المختلفة في الكلام والمعاملة، ولكن القرآن لم يشجع قراءة القرآن حسب اللهجات التي لم تسرد فيه، ولم يجُز التعبّد والصلوات بلغة غير اللغة التي نطق بها الرسول الكريم ﷺ، وباللهجة التي اختارها.

وهذا الاختيار في نظام العبادات للهجات معيّنة لا يعني اضمحلال وانسحاب اللهجات الأخرى انسحاباً نهائياً من تاريخ اللغة

---

(١) دراسة اللهجات العربية القديمة للدكتور داود سلوم ٩ ط بيروت عالم الكتب.

(٢) ينظر دراسات في فقه اللغة لصبحي الصالح ٥٢ ط دار العلم للملايين بيروت.

وآدابها، بل التحقت بمنعطفات الأدب واللغة الشعبية[١].

ولاشكَّ أنّ لهجة القرآن كانت لغة الأدب ولهجة المحافل الراقية، وهي في حد ذاتها لم تكن لهجة قريش خالصة، وإنّما كانت أمشاجاً من اللهجات المختلفة، التي استخدمها الشعراء والخطباء وأهل الفكر، فهي لهجة مختلفة بدليل الألفاظ المختلفة، فهي لهجة منتخبة[٢].

وقد تمخّض هذا الاختلاف والتداخل بين لهجات القبائل أن اختيرت بعض من هذه اللهجات كلغة تشريع وبيان لكلّ العرب فجاء قوله ﷺ: **«نزل القرآن على سبعة أحرف كلها كافٍ شافٍ»**، وبعضهم يرويه: **«فاقرءوا كما عُلِّمتُم»** [٣].

قال أبو عبيد: قوله ﷺ :سبعة أحرف، يعني سبع لغات من لغات العرب، وليس معناه أن يكون في الحرف الواحد سبعة أوجه، هذا لم يُسمع به قط، ولكن يقول: هذه اللغات السبع متفرقة في القرآن، فبعضه نزل بلغة قريش، وبعضه بلغة هذيل، وبعضه بلغة هوازن، وبعضه بلغة أهل اليمن، وكذلك سائر اللغات ومعانيها، مع هذا كلّه واحد، وممّا يبين ذلك قول ابن مسعود: إني قد سمعت القراء فوجدتهم متقاربين.

فاقرءوا كما عُلّمتم، إنّما هو كقول أحدكم: هلمّ وتعال،

---

(١) أصبح مصطلح الأدب الشعبي وأدب الجماهير يُطلق على الآداب والفنون التي اتخذت اللهجة العامية لغة التعبير فيها.

(٢) ينظر دراسة اللهجات العربية القديمة للدكتور داود سلّوم ١٢ ط عالم الكتب بيروت ١٩٨٦.

(٣) غريب الحديث للهروي ١ : ٤٥٠، التبيان ١ : ٧، مجمع البيان ١ : ٢٠و٣٨، تفسير الصافي ١ : ٥٩و٦٠.

وكذلك قال ابن سيرين: إنّما هو كقولك: هلمّ وتعال وأقبل، ثمّ فسّره ابن سيرين فقال في قراءة ابن مسعود: «إن كانت إلاّ زقيةً واحدةً»، وفي قراءتنا: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾[١] والمعنى فيهما واحد، وعلى هذا سائر اللغات[٢].

وكانت اللهجات العربية متبادلة في التأثير والتأثر، يقول سلوم: وكان الاختلاط بين القبائل العربية قد كسر قيود العزلة أمام اللهجات فكانت تصطدم بعضها ببعض فتضطر اللهجتان المتصادمتان إلى الأخذ والعطاء، وهذا معناه التقارب بين لهجة وأخرى.

والاختلاط الذي كان يتمّ أيّام السلم بسبب الأسواق التي تقام، وكذلك الوحدة الجغرافية ـ فالجزيرة العربية وحدة جغرافية من حيث المناخ ـ فكل القبائل تُضطر للهجرة بين الحين والآخر فلا توجد موانع كالجبال الشاهقة، والأنهار الكبيرة التي تمنع الهجرة، وينطبق هذا على كل الجزيرة العربية، ما عدا بعض مناطق اليمن حيث تمكّنت بعض القبائل من العزلة الاجتماعية، فاحتفظت بلهجتها نقية، وساعدت على تطوّرها ونموها بعيداً عن اللهجات الأخرى[٣].

وقد كانت لكلّ قبيلة لهجتها أو لغتها الخاصّة بها، كما كان إلى جانب هذه اللهجات جميعاً لغة مشتركة جامعة استمدّت خصائصها من لهجات وسط شبه الجزيرة العربية وشرقها متولّدة بتأثير التجارة والحجّ.

وهذه الثنائية في اللغة ليست وقفاً على العربية وحدها، ففي كلّ

---

(١) يس ٢٩و٥٣.

(٢) غريب الحديث للهروي ١: ٤٥١ وورد عن الصادق ﷺ قوله: نزل القرآن على حرف واحد من عند الواحد، انظر الكافي ٢: ٦٣٠.

(٣) دراسة اللهجات العربية القديمة ١٠.

لغة لسان عامي ولسان فصيح[١].

ونتيجة هذه التعددية اللغوية أن امتدّت إلى ما بعد نزول القرآن وظهور عصر الفصاحة وتوحيد اللغة.

وكان من أثر هذه الثنائية اللغوية أن جاءت أحرف غريبة من لغات القبائل، إذ كان الرسول يخاطب بعض وفودهم بلغاتهم، وبقيت من ذلك آثار مختلفة كحديثه المشهور الذي أبدل فيه (أل) بـ (أم) كما يصنع بعض العرب من حِمْيَر إذ قال: «**ليس من امبرّ امصيام في امسفر**» أي: **ليس من البرّ الصيام في السفر**[٢]. وكان الوحي الأمينﷺ قد علّمهﷺ عن اللهﷻ لغات جميع القبائل وأقدره على مخاطبة كلّ قبيلة بلهجتها[٣].

ظاهرة الإعراب في اللغة العربية

ومن خصائص اللغة العربية دون سواها من اللغات هو الإعراب، والإعراب هو تغيّر أواخر الكلمات بتغيّر العوامل الداخلة عليها بالرفع والنصب والجرّ والسكون.

واللغات الحيّة في العالم المتمدّن تُعَدّ بالعشرات، ليس بينها من اللغات المعربة إلاّ ثلاث، وهي العربية، والحبشية، واللغة الألمانية[٤].

---

(١) ينظر فقه اللغة العربية للدكتور إميل يعقوب ١٤٦و١٤٧، ط دار العلم للملايين بيروت.

(٢) ينظر تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي لشوقي ضيف ٤١، ط دار المعارف بمصر. وقد رواه أحمد في مسنده ٥: ٤٣٤.

(٣) ينظر تفصيل البحث في الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام لمحمد عبد المنعم خفاجة ٤٢، دار الكتاب بيروت.

(٤) تاريخ آداب اللغة العربية لزيدان ١: ٤٦.

والإعراب مظهر من مظاهر الفصاحة، فقولهم: عَرَّب منطقه، أي هذّبه من اللحن، والإعراب الذي هو النحو، إنمّا هو الإبانة عن المعاني بالألفاظ.

وأعرب كلامه إذا لم يَلْحَن في الإعراب، ويقال: عرّبت له الكلام تعريباً، وأعربت له إعراباً إذا بيّنته له حتى لا يكون فيه حضرمة(١).

ولَمّا أصابت العربية حظاً من التطوّر أضحى الإعراب أقوى عناصرها، وأبرز خصائصها، بل سرّ جمالها، وأمست قوانينه وضوابطه هي العصمة من الزلل، المعوّضة عن السليقة(٢).

الأمثال في اللغة العربية

وتمتاز اللغة العربية وأخواتها بنوع من الآداب كبير الأهمية هو الأمثال ليس منه في لغات الإفرنج إلاّ نتف.

والأمثال جزء مهم من آداب اللغات السامية ولاسيّما العربية والعبرانية وتندر في سواهما(٣).

والمثل يجتمع فيه أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية، فهو في نهاية البلاغة(٤).

وقد تجلّت براعته وبلاغته ﷺ في وضع الأمثال وصياغتها، وقد

---

(١) لسان العرب (عرب).
(٢) ينظر دراسات في فقه اللغة لصبحي الصالح ١١٨.
(٣) تاريخ آداب اللغة العربية لزيدان ١ : ٢٤.
(٤) مجمع الأمثال للميداني ١ : ٦.

تواردت أمثال كثيرة صنعها ﷺ بفصاحته وبلاغته، ومن ذلك قولهم للإنسان إذا مات عن غير قتل: مات حَتْف أنفه، وأوّل من تكلّم بذلك النبي ﷺ[(١)].

وأصله أن يموت الرجل على فراشه فتخرج نفسه من أنفه وفمه[(٢)].

قال علي عليه السلام: (ما سمعت كلمةً عربية من العرب إلاّ وقد سمعتها من النبي ﷺ وسمعته يقول: «مات حَتْف أنفه» وما سمعتها من عربي قبله)[(٣)].

الترادف في اللغة العربية

ومن خصائصها كثرة المترادفات فيها، وفي كل لغة مترادفات، أي عدّة ألفاظ للمعنى الواحد، ولكن العرب فاقوا في ذلك سائر أمم الأرض، ففي لغتهم للسنة ٢٤ اسماً، وللنور ٢١ اسماً، وللظلام ٥٢ اسماً، وللشمس ٢٩ اسماً، وللسحاب ٥٠ اسماً، وللمطر ٦٤ اسماً، وللبئر ٨٨ اسماً، وللماء ١٧٠ اسماً، وللبن ١٣ اسماً، وللعسل نحو، ذلك وللخمر مائة اسم وللأسد ٣٥٠ اسماً، وللحيّة مائة اسم، ومثل ذلك للجمل، وأمّا الناقة فأسماؤها ٢٥٥ اسماً.

وأسباب كثرة المترادفات في العربية متنوّعة، منها أنّ كثيراً من أسماء الحيوان أصلها نعوت ثم صارت أسماء، وبعضها مأخوذ من لغة أخرى.

---

(١) ينظر المزهر ١: ٣٠١ وانظر من لا يحضره الفقيه ٤: ٣٧٩.

(٢) مجمع الأمثال ٢: ٢٦٦ رقم ٣٧٧٠.

(٣) المزهر ١: ٣٠٢.

وقد يكون السبب في زيادة المترادفات استعارة أسماء حيوانات أخرى للدلالة على هذا الحيوان يكنّون بها عن بعض طبائعه[١].

قال قطرب: إنّما أوقعت العرب اللفظتين على المعنى الواحد ليدلوا على اتساعهم في كلامهم، كما زاحفوا في أجزاء الشعر، ليدلّوا على أنّ الكلام واسع عندهم، وأنّ مذاهبه لا تضيق عليهم عند الخطاب والإطالة والإطناب[٢].

وإنّ كثرة المترادفات في اللغة العربية وتعداد المعاني للفظ الواحد جعلتها واسعة التعبير، وسهّلت على أصحابها التسجيع، وكان التسجيع شائعاً في الجاهلية بلغة الكهّان على أساليب يستقبحها أهل اللغة لغرابة ألفاظها وركاكة تراكيبها.

ومن نتائج سعتها اقتدار أصحابها على كتابة المعنى الواحد بعدّة تراكيب، بين عاطل، ومهمل، ومُنَقَّط ومشترك، وأنّ بعضهم كتب تفسير القرآن بألفاظ ليس فيها حرف مُنَقّط.

وهناك تراكيب يشترط فيها إذا قرأ الألثغ لاتظهر لثغته لخلوّها من الراء، وقد خطب واصل بن عطاء خطبة طويلة لم يرد فيها حرف الراء، وكان إذا قال شعراً لم يورد فيه حرف الراء على الإطلاق، وذلك لا يتيسّر في اللغات الإفرنجية.

وقد جرّب بعضهم كتابة أسطر بالألمانية بدون راء، فلم يستطع ذلك إلاّ بشق النفس[٣].

ونتيجة لسعة العربية روي أن الصحابة قالوا يوماً ليس من

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية لزيدان ١ : ٤٨.

(٢) المزهر ١ : ٤٠٠.

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية لزيدان ١ : ٤٩.

حروف المعجم أكثر دوراناً في الكلام من الألف، فنهض أمير المؤمنين علي عليه السلام وخطب خطبة على البديهة تشتمل على الثناء على الله جل جلاله والصلاة على نبيه محمد وآله، وفيها الوعد والوعيد ووصف الجنة والنار والمواعظ والزواجر والنصيحة للخلق وغير ذلك وليس فيها حرف الألف[١].

الأضداد في اللغة العربية

ومن خصائصها أسماء الأضداد، فإنّ فيها مئات من الألفاظ يدلّ كلّ منها على معنيين متضادّين مثل قولهم: قعد للقيام والجلوس، ونضح للعطش والريّ، وذاب للسيولة والجمود، وأفد للإسراع والإبطاء، وأقوى للافتقار والاستغناء[٢].

وقالوا: السَّدَفُ للظلمة والضوء، قال أبو عبيدة في ذلك: السَّدَفُ الظلمة والضوء، وأنشد في الضوء:

قد أسدف الصبحُ وصاحَ الحِنزابُ

والحنزاب: يعني الديك[٣].

وقد ذهب الرافعي إلى أنّ أكثر ما يعدّونه من الأضداد معظمه حادث في الإسلام، اقتضاه تصرّفهم في اللغة على ضروب من

---

(١) بحار الأنوار ٤١: ٣٠٤ ح ٣٦، وقيل لهذه الخطبة المونقة، أوّلها: (حمدتُ من عظمت منّته، وسبغت نعمته، وسبقت رحمته، وتمّت كلمته، ونفذت مشيئته، وبلغت قضيته ...)، وله عليه السلام خطبة بدون نقط أوّلها: الحمد لله أهل الحمد ومأواه، وله أوكد الحمد وأحلاه، وأسرع الحمد وأسراه، وأظهر الحمد وأسماه، وأكرم الحمد وأولاه ...). ينظر البحار ٤٠: ١٦٣.

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية لزيدان ١: ٤٩.

(٣) الأضداد لأبي حاتم السجستاني ٨٦ رقم ١١٤ (ضمن ثلاثة كتب في الأضداد) ط بيروت دار المشرق.

الإشارة والإيجاد، فهو تفنن محض لا يرجع إلى الوضع الواحد ولا المتعدّد، بل يكاد يُعدّ نوعاً من البديع أو الصناعات اللفظية(١).

وقد ذهب آخرون: أنه إذا وقع الحرف على معنيين متضادّين الأصل لمعنى واحد، ثمّ تداخل الاثنان على جهة الاتساع، فمن ذلك الصريم، يقال للّيل صريم وللنهار صريم، لأن الليل ينصرم من النهار والنهار ينصرم من الليل، فأصل المعنيين من باب واحد هو القطع، وكذلك الصارخ: المُغِيث، والصارخ: المُستغيث، سُميّا بذلك لأن المغيث يصرخ بالإغاثة، والمستغيث يصرخ بالاستغاثة فأصلهما من باب واحد، وكذلك السُّدفة: الظلمة، والسُّدفة: الضوء، سُميّا بذلك لأن أصل السُّدفة الستر، فكأنّ النهار إذا أقبل ستر ضوءه ظلمة الليل، وكأن الليل إذا أقبل سترت ظلمته ضوء النهار.

وقال آخرون: إذا وقع الحرف على معنيين متضادين فمحال أن يكون العربي أوقعه عليهما بمساواة منه بينهما، ولكنّ أحد المعنيين لحيّ من العرب، والمعنى الآخر لحيٍّ غيره، ثم سمع بعضهم لغة بعض فأخذ هؤلاء عن هؤلاء، وهؤلاء عن هؤلاء، فالجون الأبيض في لغة حيّ من العرب، والجَون الأسود في لغة حيّ آخر، ثمّ أخذ الفريقين من الآخر(٢).

ومن ذلك حديث أنس: جئت إلى النبي ﷺ وعليه بُردة جونية(٣). فالجون في الخبر يقع على الأحمر والأسود والأسود المشرب حمرةً، والأبيض.

---

(١) ينظر تاريخ آداب العرب ١: ١٩٨.
(٢) المزهر في علوم اللغة ١: ٤٠١.
(٣) ينظر النهاية لابن الأثير (جون).

المجاز في اللغة العربية

ومن خصائصها المجاز والكناية والاستعارة وغيرها من فنون البديع التي يتمكن بها الخطيب والكاتب من أن يبلغ مراده، وأن يتمكّن من إيصال الحقائق بلغة فنية جميلة.

والمجاز والكناية تتصف بها كلّ اللغات العالمية الشرقية والغربية، إلاّ أنها في اللغة العربية أرقى وأجمل استعمالاً في كشف الحقائق وإيصالها ووصفها.

والمجاز هو الوضع الأخير في اللغة، ولذا تجد مراعاة المناسبة فيه على أضعف وجوهها، فكأنهم في الوضع الأول راعوا المناسبة الثابتة التي لا زيادة فيها، ثمّ توسّعوا في هذه المناسبة بنوع من التصرّف في الوضع الثاني وهو الاشتقاق، ثمّ بلغوا آخر حدودها المناسبة في المجاز، وهذا ممّا يؤكد أن اللغة كلها حكاية للطبيعة، فإنْ كان ثَمَّ توقيف أو وحي فيكون في هداية العقول إلى أسرار هذه الحكاية، ولابدّ في استكناه منطق الطبيعة من الذهن الشفّاف والبصيرة النفّاذة والإلهام الخفي الذي يشبه أن يكون قبساً من النور الإلهي يضيء بين العقل والقلب، فلا يقع شعاعه على جهة من الطبيعة إلاّ كشف منها عن معاني الأسرار الإلهية، والمراد من المجاز التوسّع في الحقيقة، لأنّ الألفاظ الحقيقية تمضي لسننها المعروفة فلا يبقى ثَمَّة وجه لتقوية الحقيقة المرادة منها بالاتساع أو التوكيد أو التشبيه.

وليس يخفى أنَّ الحقيقة الواحدة تتنوع في ذاتها إلى أجزاء متشابهة، وتتنوع في معناها أيضاً على درجات من الضعف والقوّة، فإذا كان معنى الكوكب في الوضع اللغوي الدلالة على هذا الجرم السماوي الذي يشبه نكتة بيضاء في رأي العين، ثمّ رأيت في عين الإنسان نكتة بيضاء تخدش سوادها، فقد تجزأت الحقيقة النظرية هنا في ذاتها فتُطلق على بياض العين النكتة اسم الكوكب مجازاً للمناسبة بين الاثنين في الشكل، وكذلك تقول في التوكيد: فلان أسد، تريد إثبات شجاعته في النفوس بدرجة متناهية مؤكّدة، ثمّ تقول في التشبيه: فلان على جناح السفر، أي لا يلبث أن يسافر(١).

وقد أبدع ﷺ في مجازه في الحديث المروي عنه ﷺ وهو يتجهّز لغزوة تبوك: «**إنّي على جناح سفر**» حيث استعار له طيران الطائر، فقد شبَّه السفر بالطائر الذي قد هَمَّ بالمطار، وجعل الآخذ أهبة المسافر كالكائن على جناح ذلك الطائر، يُنتهض نهوضه ويُرْقَب تحليقه(٢)، فليس له إلاّ أن يطير، وإنمّا مدار ذلك كلّه على التوسع في المثال الحسّي إذا وقعت به الحقيقة المألوفة في التعبير.

ولا تضيق الحقيقة عليه ﷺ وإنمّا هو عناية منه ﷺ بالعبارة الأدبية الحافلة بعنصري الإيقاع والتصوير، فإذا كان الأدب تعبيراً جميلاً عن الحقائق، اختار ﷺ أن تكون لغة رسالته هي لغة الأدب والفن بعناصره التي تكسبه جمالية وتأثيراً. وتُعدّ الصورة، وهي إحداث علاقة بين شيئين لا علاقة بينهما في عالم الواقع، من أبرز عناصر الجمال في النصّ الأدبي نظراً لكونها تساهم في تعميق الدلالة، من خلال تقديم نماذج حسيّة أو معنوية يخبرها الإنسان في تجاربه اليومية.

---

(١) تاريخ آداب العرب للرافعي ١ : ١٧٩.

(٢) المجازات النبوية للشريف الرضي ١٠١ رقم ١٠٠ بتحقيق عبد الرؤوف سعد ط مصر.

يقول البستاني: لذلك تُعدّ الصور ناجحة حينما ترصد من حياة الإنسان ما هو مألوف من التجارب لديه، سواء أكانت هذه التجارب ذات طابع حسّي، مثل تشبيه الحور باللؤلؤ، أو كانت ذات طابع نفسي مثل صورتي النور والظلمات حيث يرمزان إلى الإيمان والكفر وهما نفسيان، أو كانت ذات طابع غيبي مثل تشبيه شجرة الزقّوم بأنّها كرؤوس الشياطين(١).

والتصوير في الحديث النبوي يرتكز إلى الواقع النفسي والحسّي والغيبي أيضاً كما يرتكز القرآن الكريم في تصويره في كثير من النصوص.

وإذا كان الحديث النبوي الشريف يتقصّد في مجازاته الخبرات اليومية والمشاهدة للعقل البشري، في التشبيه والكناية والاستعارة وغيرها من فنون البيان والمعاني والبديع، فإنّه لم يهمل الواقع النفسي والاجتماعي الذي يضرب ظلاله على عقل الإنسان وأحاسيسه العاطفية فيشحن العقل البشري بالصور الفنية البديعة التي تحقّق المتعة الفنيّة والفائدة التربوية والاجتماعية في نفس الاتجاه، فقوله ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص، وقد ذكر قيام الليل وصيام النهار «**إنك إذا فعلت ذلك هجمت عيناك وتَهِمَت**(٢) **نفسك**» قوله ﷺ هجمت عيناك استعارة، لأن المراد به غور العينين لطول القيام، ولبعد العهد للطعام، وذلك مأخوذ من قولهم: هَجَم فلان على فلان، إذا دخل عليه دخولاً فيه سرعة وله روعة، ويقال: هجم عليهم البيت، إذا سقط عليهم البيت، فشبّه ﷺ إفراط دخول العينين في حِجاج الرأس بهجوم الرجل

---

(١) تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي للدكتور البستاني ص ١١٠.

(٢) ضبط السيد الداية والعطية في ص١٠٠ من طبعتهما المجازات النبوية بـ «نفهت»، وكلاهما يفيد معنى العجز وسوء الحال. ينظر اللسان (تهم) و(نفه).

الهاجم، أو وجوب البيت الواقع، وقوله ﷺ: تهمت نفسك، أي أصابها الملال وجدّها الإعياء والكلال[١].

وكلّ تعبير فنّي لابدّ أن يتعامل ذهنياً مع الأدوات التالية: العقل، العاطفة، التخيّل.

أمّا العنصر العقلي فلابدّ من توفره في الحالات جميعاً مادامت العمليات الذهنية التي نصدر عنها في تعاملنا مع ظواهر الحياة، تقوم أساساً على التعامل مع الواقع.

وإذا أخذنا بنظر الاعتبار أنَّ الإسلام وهو يقوم أساساً على تحقيق مهمّة الخلافة في الأرض، إنمّا يعتمد الواقع والجدّية في كل تحركات الإنسان، وليس الأوهام أو العواطف، حينئذٍ ندرك أهمية التعامل العقلي أو المنطقي مع حقائق الحياة.

ومن هنا جاء الفن أو الأدب ليسمح بالعنصر العاطفي بالتحرك في نطاق محدود، أي أنّ العاطفة تحتلّ نسبة ضئيلة من العمل الفنّي مقابل العقل الذي ينبغي أن يحتلّ المساحة الكبيرة منه.

ومن هذا الأساس وجّه الرسول ﷺ الأدب توجيهاً اجتماعياً وسياسياً، أي أن يكون الأدب ملتزماً، وبلغة الأديب الفرنسي سارتر: أن يكون الأدب أدب المواقف. ولم يفرض ﷺ أدب المواقف بالإكراه.

ويرى داود سلّوم أنّ الرسول ﷺ يقف على النقيض من أفلاطون الذي عادى الأدب في الجمهورية[٢].

---

(١) المجازات النبوية ٨٦ رقم ٧٧.

(٢) ينظر الشعر الإسلامي تحت سلطة الخلفاء لداود سلوم ص٢٠ ط عالم الكتب بيروت.

وبعض المعنيين في شؤون الأدب والفن يزعمون بأنّ العواطف أو الذاتية هي التي تميز التعبير الفني عن التعبير العلمي باعتبار أن الفنّ تجربة بشرية ذاتية تُعبّر عن حقائق الحياة وأسرارها بعدسة يراها أهل الموهبة والمبدعون، إنّها وسيلة كشف خاصة بهم وحدهم، لادخل للآخرين في هذا الكشف كما لادخل لحساب العقل والمنطق فيها، وأن عنصر العقل أو المنطق هو بمثابة ضوء ينير المواقف العاطفية أو بمثابة لجام يضبط العاطفة من الاسترسال أو الهيجان، وهذا المعيار في التصوّر الإسلامي غير صائب، لأنّ المفروض ليس هو أن نتحرّك عاطفياً ثم نضبطه بنور العقل، بل المفروض أن نتحرك عقلياً ـ وفق معايير وموازين راجحة ـ ثم نسمح للعواطف بأن تتحرّك نسبياً في نطاق لا يخرج الشخص عن خطّ الاستواء النفسي.

ويرى البستاني: أنّ الغضب مثلاً، أو الفرح الشديد، أو القهقهة مثلاً، أو شقّ القميص، أو ضرب اليد على الأرجل عند المصيبة مثلاً، تُعدّ تعبيرات عاطفية يضؤل فيها عنصر العقل ويتضخّم فيها العنصر العاطفي، كذلك فإنّ التضخّم العاطفي في بعض نصوص الأدب ينبغي أن يضلّ محكوماً بنفس المعيار.

من هنا فإنّ القاعدة البلاغية في هذا الميدان تتحدّد بأن يظلّ العنصر العقلي هو الغالب، ويظلّ العنصر العاطفي بمثابة محطّة توقّف أو استراحة أو تلطيف الموقف، عدا حالات خاصة تتطلّب التصعيد العاطفي، مثل حمل الناس على التوجّه إلى ساحات القتال، أو تشويقهم إلى الجنّة أو تخويفهم من المعاصي.

وأمّا عنصر التخيّل فهو بدوره ينبغي أن يحتلّ نسبة محدّدة من النصّ الأدبي للسبب ذاته، فإذا كان الأصل في سلوك الإنسان أن يتعامل مع الواقع فإن الخروج منه إلى ما هو وهم أو متخيل يظلّ محظوراً دون أدنى شك.

كلّ ما في الأمر أنّ إدراك الواقع من خلال المهارات الذهنية التي يسهم التخيل فيها يتطلب حيناً أن يعتمد عنصر التخيل في تحقيق ذلك.

ومن المعلوم أنّ التجريد وهو من عمل الخيال يظلّ واحداً من أهم عناصر الإدراك حيث يقوم في بعض وظائفه على ربط الأشياء بعضها مع الآخر من خلال علاقات التشابه والتباين بينها، كما أنّ من مهمّته إحداث علاقة جديدة بين الأشياء التي لا علاقة بينها في عالم الواقع، بيد أن التخيّل ينبغي إسلامياً أن يستند إلى ما هو مرتبط بواقع حسّي أو نفسيّ أو غيبيّ، وليس إلى واقع وهمي لا سند له في التجربة البشرية؛ ولذلك فإنّ ما يميّز مادة التخيل في النصوص الأدبية الإسلامية هو ارتكانها إلى الحقائق الثلاث: الواقع الحسّي أو النفسيّ أو الغيبي (١).

فلابدّ للفنان والأديب من أن يجلو عواطفه وأحاسيسه حين يعرضها على الجمهور، فالأدب لحظة وحالة عمل يمارسها الفنان مع عقله ونفسه، فإذا انفصل عن هذه اللحظة كان نتاج الفن والأدب، فإمّا لحظة وهم سجلها الفنان في معجم فنّه، أو لحظة يقظة ووعي مسجّلة أيضاً. وهذا الانفصام الذي يعيشه الفنان إمّا أن يكون متناغماً مع الوجود أو متنافراً؛ يقول ناصف:

وإذا كانت الأشياء تتمايز، لكن هذا التمايز لا يلغي الحاجة إلى التناغم، ولا يزال التمايز على كل حال هو الوظيفة الأولى للعقل، وإذا جئنا إلى لغة الشعر وجدناها تعبث بهذا التمييز، ولكن في ظلّ البلاغة والمنطق العقلي أو علم النفس التقليدي لم يكن أحد يتصور

---

(١) القواعد البلاغية في ضوء المنهج الإسلامي ص ٢٤.

مشروعية هذا العبث، لذلك كان جوهر البلاغة العربية هو التشبيه الذي يظهرنا على مجمع العلاقة بين التميز والتناغم.

الشاعر يجعلك تأخذ موقف الدهشة لأنه يستطيع أن يجمع بين عناصر غير مرتبطة في أذهان الناس العاديين، لكن الشاعر ليس باحثاً عن الحقيقة، فهذا البحث من عمل الفيلسوف، وإن كان الشاعر يروعك حين يأخذ أمثلة تبدو متقنة، ويثير الإحساس بأن الكون صناعة منظمة متناسقة(١).

ولكن لغة النثر كلغة فنية جميلة تعتمد اعتماداً أكثر على عنصري العقل والمنطق إضافة إلى عنصري التخيل والانفعال.

فكانت لغة النبيﷺ هي أحياناً لغة النثر الفني المصوّر، الذي يتميز عن التعبير العلمي أو العادي في إيجاد وترتيب علاقات بين الأشياء من استعارة وتمثيل وفقاً للمعايير الفنية والواقعية، فالنبيﷺ حين يمارس فن النثر في الكلام، فالكلمات ليست بغاية لديهﷺ فلا تعني له أشياء، بل هي دلالات على الأشياء، فمرة تدخل الكلمات لديه عالم التقرير، ومرّة عالم التصوير.

ومن التصوير الفني في الحديث النبوي ما استند إلى واقع غيبي في قولهﷺ لرجل قد جاءه فقال: يا رسول الله هلكْتُ.

فقال له ﷺ: **أتاك الخبيث فقال لك: مَن خلقَك؟ فقلتَ: الله، فقال لك: الله مَن خلقَه.**

فقال: إي والذي بعثك بالحقّ لكان كذا.

فقال رسول الله ﷺ: **ذاك والله محض الإيمان**(٢).

---

(١) اللغة والتفسير والتواصل ١٣٩.

(٢) أصول الكافي للكليني ٢: ٤٢٥ ح ٣ باب الوسوسة وحديث النفس ط دار الكتب الإسلامية طهران.

فإذا عرفنا أنّ المعنى الحقيقي للفظ الخبيث بأنّه نعتُ كلّ شيء فاسد خبيث الطعم، وخبيث اللون[١]. ووضع أيضاً لما يتناول الباطل في الاعتقاد والكذب في المقال والقبيح في الفعال[٢] استُعير لإبليس ولما يتداعى إلى ذهن المتلقي من اشتقاقات لفظ الخبيث وما يترك في نفس السامع من ثقل ووخامة هذا المخلوق العاصي الجاحد، والذي يوسوس بالشرك ونبذ التوحيد، وهذا ما تأباه شريعته ورسالته ﷺ.

ومن تصويره الفني البارع قوله ﷺ: **«مثل الذي يفرّ من الموت كمثل الثعلب تطلبه الأرض بدَين فجعل يسعى حتى إذا أعيا وانتُهر[٣] دخل جُحْره فقالت له الأرض: يا ثعلب دَيني، فخرج وله حُصاص فلم يزل كذلك حتى تقطّعت عنقه فمات»**[٤].

وقوله ﷺ: **«السخاء شجرة من أشجار الجنّة أغصانها متدليات في الدنيا، فمن أخذ بغصن منها قاده ذلك الغصن إلى الجنّة، والبخل شجرة من أشجار النار أغصانها متدليات في الدنيا، فمن أخذ بغصن من أغصانها قاده ذلك الغصن إلى النار»**[٥].

والتصوير في نثره ﷺ يرتبط بعمله ورسالته، وقد أدرك بعض هذا جون بول سارتر بقوله: فالناثر إذن، هو الذي سلك للعمل طريقاً من الطرق غير المباشرة، يصحّ أن نسميه العمل عن طريق الكشف. وإذن

---

(١) ينظر العين للخليل ٤: ٢٤٩ باب الخاء والثاء والباء معهما نشر دار الهجرة قم.

(٢) ينظر مفردات الراغب الأصفهاني ١٤١ (خبث) نشر المكتبة الرضوية.

(٣) كذا ضبط في معجم الطبراني بالنون، والظاهر أنّه بالباء، وهو من البُهر: تتابع النفس من الإعياء. ينظر اللسان ٤: ٨٢ (بهر).

(٤) المعجم الكبير للطبراني ٧: ٢٢٢ ح ٦٩٢٢، مجمع الزوائد ٢: ٣٢٠، والحصاص: شدّة العدو في سرعة. اللسان ٧: ١٣ (حصص).

(٥) كنز العمال ٦: ٣٣٧ ح ١٥٩٢٧ .انظر قرب الإسناد :١١٧، الأمالي للطوسي :٤٧٥، بحار الأنوار ٨: ١٧١و٦٨ : ٣٥٢و٧ : ٣٠٣.

فلنا أن نسأله ثانياً هذا السؤال: أيّ مظهر من مظاهر العالم تريد أن تكشف عنه ؟ وأيّ تغيير تريد تحقيقه عن طريق هذا الكشف ؟[١].

ولقد تميزت اللغة العربية بغزارة مادتها بفضل مرونة أصواتها وطواعية مفرداتها، وتعدّد طرائق نموّها وتوسعها وعراقة الشعر والأدب فيها، فأصبحت طوائف كثيرة من ألفاظها ذات معانٍ ودلالات وافرة تستعمل للتعبير عن المواقف الشعورية بشكل دقيق، وعن النزعات والحركات الحسيّة والأغراض والأفعال الماديّة الحقيقية بكلّ أشكالها، كما تُستعمل للتعبير عن أغراض تجارية مختلفة ومتعدّدة[٢].

فاللغة العربية من أوسع لغات العالم ثروةً إن لم تكن أوسعها كلها [٣]، ولذا لم يكن لأحد من أبنائها مهما اتسع علمه وآفاقه أن يستوعب حدودها ودقائقها، وأن يُلمّ بأوضاعها وغرائبها، وكان ذلك اتفاقاً من أئمّة العرب وعلمائهم باللغة، لم يستثنوا منه أحداً إلاّ أن يكون نبياً من عند الله مرسلاً، علّمه اللغة وحياً وإلهاماً حتى كاشفته اللغة بأسرارها، فأحاط بها من أركانها، كالذي يتجلّى في لغة النبي ﷺ[٤].

وقد أبان العلماء عن عجزهم وعدم قدرتهم على إمساك ناصية اللغة، قال بعض الفقهاء: كلام العرب لا يُحيط به إلاّ نبي[٥].

---

(١) ينظر ما الأدب؟ ١٨، بترجمة محمد غنيمي هلال، ط دار العودة بيروت.

(٢) ينظر الحصيلة اللغوية ١٣١.

(٣) قال ابن فارس: لو احتجنا إلى أن نعبر عن السيف وأوصافه باللغة الفارسية لما أمكننا ذلك إلاّ بإسم واحد ونحن نذكر للسيف بالعربية صفات كثيرة. الصاحبي في فقه اللغة ٤٠.

(٤) الحديث النبوي الشريف وأثره في الدراسات اللغوية والنحوية للدكتور محمد ضاري حمادي ص٥٢ ط بغداد.

(٥) المزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي ١ : ٦٤.

تعريب الدخيل في اللغة

ومع هذه السعة التي اتسمت بها العربية كانت تقترض من لغات مجاورة لها أو بعيدة عنها، وقدرة لغة ما على تمثل الكلام الأجنبي تُعدّ مزية وخصيصة لها إذا هي صاغته على أوزانها، وأنزلته على أحكامها، وجعلته جزءاً لايتجزّأ من عناصر التعبير فيها.

إنّ تبادل التأثير والتأثر بين اللغات قانون اجتماعي إنساني، وإنّ اقتراض بعض اللغات من بعض ظاهرة إنسانية أقام عليها فقهاء اللغة المحدثون أدلّة لا تُحصى، وما يصدق على العربية من تبادل التأثير بين لهجاتها، لابدّ أن يصدق عليها فيما إذا اضطُرّت إلى إدخاله في ثروتها من لغات الأمم المجاورة لها أو التي كان لها معها ضربٌ من الاتصال، ولم يكن ما أدخلته من هذه الألفاظ الأجنبية قليلاً، لأنها عرّبت منه الكثير قبل الإسلام حتى رأيناه في لغة الشعر الجاهلي وقرأناه في سور القرآن واستخرجناه من بعض الحديث النبوي الشريف، ثم عُرّبت منه الكثير بعد الإسلام فوجدناه أعجمياً في زي عربي.

ففي الجاهلية عُرّب عن الفارسية مثل الدولاب والدسكرة والكعك والسميد والجُلّنار، وعن الهندية أو السنسكريتية مثل الفلفل والجاموس والشطرنج والصندل، وعن اليونانية مثل القبّان والقنطار والترياق[١].

---

(١) ينظر دراسات في فقه اللغة للصالح الفصل الثامن تعريب الدخيل.

وقد عدّوا الأسماء الأعجمية في اللغة العربية على ثلاثة أقسام:

١ ـ قسم غيّرته العرب وألحقته بكلامها، فحكم أبنيته في اعتبار الأصلي والزائد والوزن حكم أبنية الأسماء العربية الوضع، نحو: دِرْهم وبَهْرَج.

٢ ـ وقسم غيّرته ولم تلحقه بأبنية كلامها، فلا يعتبر فيه ما يعتبر في القسم الذي قبله، نحو: آجرّ وسِفْسير.

٣ ـ وقسم تركوه غير مغيّر، فما لم يُلحقوه بأبنية كلامهم لم يعدّ منها، وما ألحقوه بها عُدّ منها، مثال الأول خُراسان لا يثبت به فُعالان، ومثال الثاني خُرَّم أُلحق بسُلَّم، وكُرْكُم ألحق بقُمْقُم[١].

والعربية على اتساع مدرجها الصوتي، ازدادت سعةً على سعةٍ يوم أدخلت بين حروفها الهجائية أصواتاً تقاربها مخرجاً أو صفة، إذ عرَّبت هذه الأصوات الدخيلة، وحددت لها مواقعها من جهاز النطق، فلم تستعص على ألسنة العامة فضلاً على الخاصّة، فقطع بذلك الشوط الأول من التعريب، ألا وهو تعريب المادة الصوتية، وتطويعها لأصوات العربية.

ولاريب في أنّ هذا الشوط الأول من تعريب الأصوات هو أهم الأشواط، فمن بعده لن يكون عسيراً أن تُعرّب الكلمات الدالّة على مفهوم حضاري معين، ولاسيّما إنْ كانت غير مألوفة للعرب أو غير شائعة بينهم، فحينئذٍ تتابع اللغة عملها في ضمّ ما تحتاجه من تلك الكلمات إلى ثروتها بعد أن تصنعه على قوالبها، أو تنسجه على منوالها.

---

(١) المزهر ١: ٢٦٩.

ومن المعلوم أنّ أكثر الألفاظ التي احتاج العرب إلى تعريبها هي ألفاظ الحضارة والعلوم والفنون[١].

وقد امتازت اللغة العربية بضمّها الألفاظ والمصطلحات العلمية والأجنبية، الموضوعة لمعانٍ غير موجودة فيها، ووضعها ضمن النظام اللغوي.

وقد وجد الباحثون بعد الاستقصاء أن أكثر ما دخل العربية من أسماء المعبودات والمصطلحات الدينية فهو من الهيروغليفية والحبشية والعبرانية، كلفظ النبي فإنّه هيروغليفي، ومعناه في الأصل عميد أو رب المنزل[٢].

ولفظ الشعر، من شير العبرية بمعنى الترتيلة أو التسبيحة، وكلفظة منبر، فإنه مُعَرَّب، ومنبر بالحبشية، وكألفاظ الحجّ، والكاهن، وعاشوراء، وغيرها من العبرانية.

أما أسماء العقاقير والأطياب والجواهر فأكثرها هندي، كالمسك، فإنه في اللغة السنسكريتية (مشكا)، والزنجبيل وهو فيها (زنجابير)، والفلفل وهو (بيالا أو فيفالا).

وأكثر ما يكون من أسماء الأطعمة والثياب والفرس والأسلحة والأدوات فهو من الفارسية: كالسكباج، والديباج، والخزّ، والخوذة، والإبريق، والطست، وغيرها.

---

(١) دراسات في فقه اللغة للصالح ٣١٩.

(٢) قال ابن دريد: النبوّة، الارتفاع عن الشيء، ومن ذلك قولهم: نبا السهم عن الهدف، لأنه تنحّى عنه، ومن لم يهمز النبي فاشتقاقه من هذا، لأنه نبا أي ارتفع، فكأن النبي فعيل من هذا، ومن همز فهو من النبأ، من قولهم: أنبأتك بكذا وكذا، أي أخبرتك، وقال رجل للنبي ﷺ: يا نبيء الله، فهمز. فقال ﷺ: لستُ بنبيء الله ولكني نبي الله. الاشتقاق ٤٦٢.

وقد حَليت نصوصه ﷺ بهذه الألفاظ المُعرّبة، ومن ذلك قوله ﷺ رواه عنه عليّ عليه السلام: «ملعون من لعب بالاستريق - يعني الشطرنج - والناظر إليه كآكل لحم الخنزير»[١].

وقوله ﷺ: «من لعب بالنردشير فكأنما غمس يده في لحم خنزير ودمه»[٢].

وقوله ﷺ: «من لعب بالنرد فقد عصى الله»[٣].

وظهور هذه الألفاظ في تاريخ اللغة العربية له أصل قديم لما عرف بين لغات الإنسان من اقتراض وتبادل في الألفاظ، فاللغات السامية وجاراتها كانت قد تبادلت ألفاظاً في عصور متطاولة قبل الإسلام[٤].

وقد عاون الحديث النبوي النص القرآني في عملية الاقتراض اللغوي وتعريب الألفاظ الواردة في اللغة العربية من لغات مجاورة أو متباعدة تمكنت من النفوذ في جسم اللغة العربية وكيانها [٥]، مما

---

(١) روض الجنان وروح الجنان في تفسير القرآن لأبي الفتوح الرازي ٣: ٢١٤ ط البحوث الإسلامية مشهد، ونقله عنه الميرزا النوري في مستدرك الوسائل ١٣: ٢٢٣، عوالي اللآلىء ١: ٢٦٠.

(٢) النهاية ٥: ٣٩ (نرد)، عوالي اللآلىء ١: ٢٤٣، جامع الأخبار: ٤٣٢، بحار الأنوار ٧٦: ٢٣٨.

(٣) مستدرك الوسائل ٢: ٤٥٩ باب ٨٣ ح ١، عوالي اللآلىء ١: ٢٤٣، بحار الأنوار ٧٦: ٢٣٦.

(٤) ينظر مقدمة الدكتور عبد الوهاب عزام لكتاب المعرب للجواليقي ص٤. ط دار الكتب القاهرة ١٩٦٩.

(٥) نظراً لكثرة الألفاظ المعربة أن ألّف أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر الجواليقي المتوفّى سنة ٥٤٠ هـ كتاباً بعنوان المعرّب، قال في مقدمته: هذا كتاب نذكر فيه ما تكلمت به العرب من الكلام الأعجمي ونطق به القرآن =

أعطى المسوّغ العلمي والذوقي لهذا التطور الذي تفرضه قوانين الحياة وقوانين اللغات، وإن لم يقتصر دور الحديث على هذا الجانب في إثراء اللغة العربية وإعدادها كلغة تساير حضارة الإنسان وتطوره.

قال الدكتور محمد ضاري حمادي: وعلى الرغم من الصعوبة البالغة التي تجابه الدارس، إن هو أراد التاريخ للفظة العربية وأطوارها الاستعمالية، فقد يسّر لي الوقوف على آثار الحديث في نقل الألفاظ من معانيها الأصلية إلى معانيها الإسلامية الجديدة، وتلك آثار تشهد على إغناء الحديث العربية ألوفاً من الألفاظ المنقولة إلى مدلولات لم يكن للناس بها من علم قديم، والألفاظ المبتكرة التي لم يسبق النبيﷺ أحد النطق بها، والألفاظ المعرّبة، حملها الحديث النبوي وحمل معها آية شرعيتها ودليل أن يتخذ العرب من التعريب سبيلاً حقاً من سبل الإثراء اللغوي، ومسلكاً لا نكير عليه، شريطة أن يحسن استخدامه لئلاّ يعود النفع ضرّاً، والإثراء ثلماً وإهداراً"[1].

ويظهر للدارس والمتتبع للألفاظ النبوية أنّ ظاهرة مراعاة سنن العرب في كلامها كانت واضحة في ثنايا كلامه ﷺ، ليكون كلامه حجة عليهم، ولكي لا يقولوا كان كلامه من غير لهجتنا ولغتنا، ولكي يروا فضيلتهﷺ على سائر البشر، فإذا كان لا يعرف أسرار كلامهم ولهجاتهم، فأنّى يحوز لقب النبوة، فالنبي أرفع خلق الله وأعلمهم، فتجد في كلامه القلب والإبدال اللغوي والإتباع . . . وغيرها من ظواهر اللغة وقوانينها، وكلّ عربي يتكلم على مقتضى سجيته التي فُطر عليها، فإجابته بلغة وكلام غير ما فُطر عليه وطُبعت عليه سجيته،

= المجيد وورد في أخبار الرسول ﷺ والصحابة والتابعين (رضوان الله عليهم) وذكرته العرب في أشعارها وأخبارها. المقدمة ٥٢.

(١) الحديث النبوي وأثره في الدراسات اللغوية و النحوية ٤٥٦.

تجعل حاجز التبليغ والتوصيل الرسالي كبيراً، فالمهمة الرسالية العظيمة التي حملها المصطفى ﷺ، لابدّ لها من أداة توصيلية، وهذه الأداة تختلف فيها طبائع البشر في التعبير عن أفكارهم وأحاسيسهم، بما يُعرف بظاهرة اللهجات وتعددها.

الإتباع والمزاوجة في اللغة العربية

ومن خصائص العربية الإتباع والمزاوجة في اللفظ، وهو أن تتبع الكلمة الكلمة على وزنها أو رويّها إشباعاً وتأكيداً، قال ثعلب في أماليه: قال ابن الأعرابي: سألتُ العرب أيّ شيء معنى شيطان لَيْطَان؟ فقالوا شيء نَتِد به كلامنا، نشدّه.

وإنّما سُمّي الثاني إتباعاً لأنّ الكلمة الثانية إنّما هي تابعة للأولى على وجه التأكيد لها، وليس يُتكلّم بالثانية منفردة، فلهذا قيل: إتباع[1].

قال ابن قتيبة: وربّما جاءت الصفة فأرادوا توكيدها، واستوحشوا من إعادتها ثانيةً لأنها كلمة واحدة، فغيّروا منها حرفاً ثم أتبعوها الأولى كقولهم: عطشان نطشان، كرهوا أن يقولوا: عطشان عطشان، فأبدلوا من العين نوناً، وكذلك قولهم: حَسَن بَسَن، كرهوا أن يقولوا: حَسَن حَسَن، فأبدلوا من الحاء باء[2].

وزعم قوم أنّ التأكيد غير الإتباع، واختُلف في الفرق فقال قوم: الإتباع منها ما لم يحسن فيه واو، نحو حَسَن بَسَن وقبيح شقيح، والتأكيد يحسُن فيه الواو نحو حِلّ وبِلّ[3] قال الهروي: وأمّا حديث

(١) المزهر ١: ٤١٤.

(٢) تأويل مشكل القرآن ٢٣٦.

(٣) المزهر ١: ٤٢٥.

آدمﷺ حين قتل ابنه فمكث مائة سنة لا يضحك ثم قيل له: حيّاك الله وبيّاك! فقال: وما بيّاك، قيل: أضحكك.

قال بعض الناس في «بيّاك» إنّما هو إتباع. وقال أبو عبيد: هو عندي ما جاء تفسيره في الحديث أنّه ليس بإتباع، وذلك أنّ الإتباع لا يكاد يكون بالواو، وهذا بالواو، ومن ذلك قول العبّاس بن عبد المطلب في زمزم: إنّي لا أُحلّها لمغتسل وهي لشارب حِلّ وبِلّ. ويقال أيضاً: إنّه إتباع. وليس هو عندي كذلك لمكان الواو.

قال: وأخبرني الأصمعي عن المعتمر بن سليمان أنّه قال: بل: هو مباح بلغة حمير، قال أبو عبيد: ويقال: بلّ، شفاء، من قولهم: قد بلَّ الرجل من مرضه، إذا برأ وأبل[١].

وقد توشَّحت ألفاظهﷺ بهذا النمط من الكلام، ففي حديث الشبرم الذي رآهﷺ عند أسماء بنت عميس وهي تريد أن تشربه قالﷺ: «إنّه حار جار» وأمرها بالسنا. وبعض الناس يرويه «**حارّ يار**» بالياء، قال الكسائي وغيره: حار من الحرارة ويار إتباع[٢].

---

(١) غريب الحديث للهروي ١: ٣٦٠.

(٢) غريب الحديث للهروي ١: ٣٦٠. والشبرم: هو ضرب من النبت ،وهو نبات من دق الشجر. ينظر العين ٦: ٣٠٣ باب الشين والراء. والسنا: قيل شجيرة من الأغلات تُخلط بالحنّاء تكون شِباباً له وتقوّي لونه. ينظر اللسان (سنا).

الإبدال في اللغة العربية

وإذا كان اختلاف اللهجات بين القبائل هو العامل في بروز ظاهرة الإبدال اللغوي فإنّ الحديث النبوي الشريف والقرآن الكريم قد نقل لنا هذا الإبدال في ثنايا نصوصه، وقد فسّر ابن عبّاس قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾[1] انطلاقاً من هذا النظر بأنه الثوم[2].

قال اليزيدي: إنّ العرب تبدل الفاء مكان الثاء كما قالوا جدف وجدث[3].

واختلاف القرّاء في قوله عز وجل: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[4] بين السين والصاد من مظاهر هذا الإبدال[5].

ومن ذلك قوله ﷺ: «ليس منا من صَلَق أو حلق أو خرَق»[6]،

---

(١) البقرة: ٦١.

(٢) تنوير المقباس في تفسير ابن عباس ١٠.

(٣) غريب القرآن وتفسيره ٧١ ط عالم الكتب بيروت.

(٤) الفاتحة: ٦.

(٥) ينظر حجّة القراءات لابن زنجلة ٨٠.

(٦) مسند أبي يعلي الموصلي ٤: ١٠٠ رقم ٢١٣٣، والمراد في الحديث هو رفع الصوت عند المصيبة، والحلق المراد به حلق الشعر عند المصيبة، والخرق شقّ الثياب عند المصيبة. ينظر النهاية (سلق) و(حلق) و(خرق) بحار الأنوار ٧٩: ٩٣.

فقد روي قوله ﷺ: سلق بالسين والصاد، يعني رفع الصوت[١].

وكذلك قوله ﷺ: «لعن الله السالقة» وقد روي بالصاد أيضاً[٢].

وقوله ﷺ: «إنّ الشيطان عرض لي يقطع صلاتي فأمكنني الله منه فدعتّه» أي خنقته[٣].

وروي بالذال «فذعته»، والذَّعت والدَّعت، بالدال والذال: الدفع العنيف[٤].

وكان من سنن العرب في اللغة العربية إبدال الحروف وإقامة بعضها مقام بعض: مَدَحه ومَدَهه، وفرس رِفَلّ ورِفَنّ، وهو كثير مشهور، وقد ألف فيه بعض العلماء، وممّن ألّف في هذا النوع ابن السكّيت وأبو الطيّب اللغوي.

قال أبو الطيّب: ليس المراد بالإبدال أن العرب تتعمّد تعويض حرف من حرف، وإنّما هي لغات مختلفة لمعانٍ متفقة، تتقارب اللفظتان في لغتين لمعنى واحد، حتى لا يختلفا إلاّ في حرف واحد. والدليل على ذلك أنَّ قبيلة واحدة لا تتكلم بكلمة طوراً مهموزةً وطوراً غير مهموزة، ولا بالصاد مرّة وبالسين أخرى، وكذلك إبدال لام التعريف ميماً، والهمزة المصدّرة عيناً كقولهم في نحو أنْ: عن، لا تشترك العرب في شيء من ذلك، إنّما يقول هذا قوم وذاك آخرون[٥].

كقولهم: لا آتيك بل والله ولا آتيك بنْ والله، يجعلون اللام فيها

---

(١) ينظر غريب الحديث للهروي ٢: ٤١، والفائق للزمخشري ٢: ٣٢ (سلق).

(٢) النهاية (سلق) بحار الأنوار ٧٩: ٩٣.

(٣) النهاية ٢: ١٦٠ (ذعت) وفي البحار ١٤: ٨٨، فودعته أي تركته، وانظر الغدير ٨: ٩٥.

(٤) اللسان ٢: ٣٣ (ذعت).

(٥) المزهر ١: ٤٦٠.

نوناً، وهي لغة بني سعد ولغة بني كلب[١].

ويقولون: طهره وطحره، إذا أبعده، كما يقولون مدحه ومدهه، وأشباه هذا كثير في قلب الهاء حاء، والحاء هاءً، وذكروا أنّ النبي ﷺ قال لعمّار: «**ويهك يا ابن سمّية**». فإن كان الحديث محفوظاً فالحاء إذا قلبت هاء من أفصح اللغات.

وليس يلزم هذا في كلّ موضع، إنّما يجب أن يؤخذ بالمسموع عن العرب[٢].

(١) لسان العرب (بلل).

(٢) جمهرة اللغة ٢: ٣٧٧ ط حيدر آباد.

القلب في اللغة العربية

ومن سنن العرب في كلامها القلب، وذلك يكون في الكلمة، ويكون في القصة، فأمّا الكلمة فقولهم: جبذ وجذب، وبَكَلَ ولَبكَ، وهو كثير[(١)].

وقد ورد في الحديث عن أبي هريرة أنه قال: كنّا نقعد مع رسول الله ﷺ في المسجد فإذا قام قمنا، فقام يوماً وقمنا معه حتى لما بلغ وسط المسجد، أدركه رجل فجبذ بردائه من ورائه، وكان رداؤه خشناً فحمّر رقبته، فقال: يا محمد أحمل لي على بعيريّ هذين فإنك لا تحمل من مالك ولا من مال أبيك.

فقال رسول الله ﷺ: لا، وأستغفر الله، **لا أحمل لك حتى تقيدني مما جبذت برقبتي**.

فقال الأعرابي: لا والله، ولا أقيدك[(٢)].

قال ابن دريد في باب الحروف التي قُلبت وزعم قوم من النحويين أنها لغات: وهذا القول خلاف على أهل اللغة والمعرفة، يقال: جبذ وجذب، وما أطيبه وأيطبه، وربض ورضب الشاة، وأنبض

---

(١) المزهر ١: ٤٧٦.

(٢) سنن النسائي ٨: ٤٣ كتاب القسامة القود من الجبذة. قال ابن الأثير: الجبذ لغة في الجذب النهاية ١: ٢٣٥ (جبذ).

في القوس وأنضب[١].

وذكر بقية الكلمات التي أوردها في هذا الباب، وقال: الطبّيخ والبطّيخ لغتان. وفي الحديث «كان النبي ﷺ يعجبه الطبّيخ بالرطب»[٢] قال الصغاني: الطبّيخ بلغة أهل الحجاز البطّيخ[٣].

العرب والعربية البائدة والعربية الباقية

لعلماء اللغة كلام مسهب في وجه تسمية العرب بهذا الاسم، واللفظة قديمة يراد بها في اللغات السامية معنى البدو والبادية، وتلك خصّيصة العرب في التاريخ القديم.

وقال بعض الباحثين: أنهم سُمّوا بذلك حين نزحوا عن أرضهم الأولى، جهة العراق، إلى الجزيرة، لأن نزوحهم كان إلى الغرب، واللغة السامية الأصلية ليس من حروفها العين، فأصل اللفظة على ذلك (غرب)، ثم حدثت من هذه اللفظة لفظة الأعراب، وذلك حين تحضرت القبائل، فخصّوا الكلمة بأهل البادية.

والأعراب يومئذٍ هم أهل الفصاحة، يلتمسهم الرواة ويحملون عنهم، ويرون فيهم بقية اللغة ومادة العرب.

وقد صار لفظ الأعرابي بعد الإسلام مما يُراد به الجفاء وغلظ الطبع، وبذلك خرجت الكلمة عن مطلق معنى البادية إلى معنى خاصّ يلازمها[٤]، قال عز وجل: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾[٥]

---

(١) جمهرة اللغة ٣: ٤٣١ط حيدر آباد أنبض القوس مثل أنضبها: جذب وتَرَها لتُصوّت.

(٢) جمهرة اللغة ١: ٢٩٢ ط بيروت.

(٣) التكملة والذيل للصغاني ٢: ١٥٩ (طبخ).

(٤) تاريخ آداب العرب للرافعي ١: ٥٣.

(٥) التوبة ٩٠.

و﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾[١] و﴿يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾[٢].

وعرّفوا الأعرابي بأنه: إذا كان بدوياً صاحب نجعة وانتواء وارتياد للكلأ وتتبّع لمساقط الغيث، وسواء كان من العرب أو من مواليهم، فمن نزل البادية أو جاور البادين وظعن بظعنهم، وانتوى بانتوائهم، فهم أعراب، ومن نزل بلاد الريف واستوطن المدن والقرى العربية وغيرها مما ينتمي إلى العرب فهم عرب وإن لم يكونوا فصحاء[٣].

والعرب كأمة من الأمم قد اصطلح المؤرخون على تقسيمها إلى ثلاث طبقات:

١) بائدة: وهم الذين دُرست أخبارهم وطُمست آثارهم، فلم يسجل لهم التاريخ إلاّ صفحات مشوهات لا تنفي ظناً ولا تثبت حقيقة، وأشهر قبائلهم: عاد وثمود وطسم وجديس.

٢) عاربة: وهم اليمنيون المنتمون إلى يعرب بن قحطان المذكور في التوراة بإسم بارح بن يقطان، ويزعم العرب أنه أصل لسانهم، ومصدر بيانهم.

ومن اليمنيين بطون حِمْيَر، وأشهرهم زيد الجمهور، وقضاعة والسكاسك، وبطون كهلان، وأشهرهم همدان وطيئ ومذحج وكِنْدة ولَخْم.

ومن لَخْم بنو المنذر في الحيرة والأزد، ومن الأزد الأوس

(١) الحجرات ١٤.
(٢) الأحزاب ٢٠.
(٣) تهذيب اللغة ٢: ٣٦٠ (عرب).

والخزرج في المدينة والغساسنة في الشام، وكانت لحِمْيَر السيادة على اليمن فمنهم الملوك والأقيال.

٣) مستعربة: وهم ولد إسماعيل عليه السلام، نزل بالحجاز حوالي القرن التاسع عشر قبل الميلاد، ثم صاهر ملوك جُرْهُم، فكان له بنون وأعقاب ضلّوا في مجاهيل الزمن، فلم يعرف التاريخ منهم على التحقيق إلاّ عدنان وإليه ينتهي عمود النسب العربي الصحيح، وأشهر قبائل هذه الطبقة ربيعة ومُضَر وأنمار وإياد(١).

قال الأزهري: العرب المستعربة هم الذين دخلوا فيهم فاستعربوا، دخلوا في العرب فتكلّموا بلسانهم وحكوا هيئاتهم وليسوا بصرحاء فيهم(٢).

والمستعربة يقال لهم العرب المتعرّبة سُمّوا بذلك لأنّ إسماعيل عليه السلام كان يتكلم بالعبرانية أو السريانية، فلما نزلت جُرْهُم من القحطانية بمكة وسكنوا مع إسماعيل وأمّه تزوّج منهم وتعلّم هو وأبناؤه العربية، فسُمّوا بذلك العرب المستعربة، وهم جمهور العرب من البدو والحضر والذين يسكنون أواسط الجزيرة وبلاد الحجاز إلى بادية الشام حين خالطهم في مساكنهم عرب اليمن بعد انكسار سد العرم(٣).

والمراد من العربية البائدة: عربية النقوش التي بادت لهجاتها قبل الإسلام، وهي التي ظهر على آثارها الطابع الآرامي، لبعدها عن المراكز العربية الأصلية بنجد والحجاز، على حين يُقصد بالعربية

---

(١) تاريخ الأدب العربي للزيات ٩.

(٢) تهذيب اللغة ٢: ٣٦٢ (عرب).

(٣) تاريخ الإسلام السياسي والثقافي للدكتور حسن إبراهيم حسن ص٨ ط بيروت دار إحياء التراث العربي الطبعة السابعة.

الباقية، هذه اللغة التي ما نزال نستخدمها في الكتابة والتأليف والأدب، وهي التي وصلت إلينا عن طريق القرآن الكريم والسنّة النبوية والشعر الجاهلي.

وأهم اللهجات العربية البائدة ثلاث: الثمودية، والصفوية، واللحيانية.

فالثمودية: هي اللهجة المنسوبة إلى قبائل ثمود التي جاء ذكرها في القرآن الكريم وذكر مساكنها في مواضع كثيرة، وتاريخ معظم النقوش المدونة بهذه اللهجة يعود إلى القرنين الثالث والرابع بعد الميلاد، ويبلغ تعداد هذه النقوش ما يزيد على ألف وسبعمائة عُثر عليها في الحجاز ونجد في شبه جزيرة سيناء وبالقرب من دمشق، وقد دونت بخط جميل أنيق مشتق من المسند، يتّجه من أعلى إلى أسفل، ولا يثبت على حال واحدة.

والصفوية: هي اللهجة المنسوبة إلى منطقة الصفا، وإن كانت نقوشها قد عُثر عليها في مواطن مختلفة في الحرّة الواقعة بين تلول الصفا وجبل الدروز.

ولعل تاريخ تدوينها يرجع إلى ما بين القرنين الثالث والسادس الميلاديين، وقد حُلّ معظم رموزها.

واللحيانية: هي اللهجة المنسوبة إلى قبائل لحيان التي يُرَجّح أنها كانت تسكن شمال الحجاز قبل الميلاد.

وامتازت اللهجات الثلاثة بأمرين، أحدهما أنها أقرب لهجات العربية البائدة إلى الفصحى، والآخر أن الخط الذي دوّنت به ينبغي أن يعتبر المرحلة الأولى في تطوّر الخط العربي وانتشاره[١].

---

(١) دراسات في فقه اللغة للصالح ٥٥.

والوحدة اللغوية التي صادفها الإسلام حين ظهوره، وقوّاها قرآنه بعد نزوله، لا تنفي ظاهرة تعدّد اللهجات، عملياً قبل الإسلام وبقاءها بعده، بل من المؤكد أن عامّة العرب لم يكونوا إذا عادوا إلى أقاليمهم يتحدّثون بتلك اللغة المثالية الموحدة، وإنما كانوا يعبرون بلهجاتهم الخاصة، وتظهر على تعابيرهم صفات لهجاتهم وخصائص ألحانهم(١).

ويمكن القول بأن الإسلام صادف ـ حين ظهوره ـ لغة مثالية مصطفاة موحّدة، وهي اللغة القرشيّة، جديرة أن تكون أداة التعبير عند خاصة العرب، وهم الأدباء والشعراء، لا عامتهم، فزاد من شمول تلك الوحدة وقوّى من أثرها نزول القرآن بلسان عربي مبين هو ذلك اللسان المثالي المُصْطَفى، وكان تحدّيه لخاصّة العرب وبلغائهم أن يأتوا بمثله أو بآية من مثله أدعى إلى تثبيت تلك الوحدة اللغوية، على حين دعا العامة إلى تدبر آياته وفقهها وفهمها، وأعانهم على ذلك بالتوسعة في القراءات، ومراعاة اللهجات، في أحرفه السبعة المشهورة(٢).

والعربية الباقية: هي لغة القرآن الكريم والسنة النبوية، لذلك تنصرف إليها العربية عند إطلاقها.

اللغة العربية إلهام رباني

يكاد يتفق أكثر أئمة العربية أنَّ اللغة إلهام وتوقيف، ولا يكادون يختلفون في تصوّرهم عن نشأة اللغة الإنسانية عمّا ظلّ سائداً في

(١) دراسات في فقه اللغة للصالح ٩.

(٢) جاء في الحديث أن القرآن أنزل على سبعة أحرف. ينظر كنز العمال ٢: ٥٦ ح ٣٠٩١، بحار الأنوار ٣١: ٢٠٨و٢١٠، تفسير الصافي ١: ٣٠.

الغرب حتى أواخر القرن السابع عشر في الأوساط الكنيسية إلاّ في فرق ضئيل لا يُؤبه به، إنَّ لغة الوحي في نظر الإسلام كانت لغة القرآن، على حين كانت في نظر آباء الكنيسة لغة الكتاب المقدس[١].

وقد كانت اللغة العربية موضوعة وضعاً ربّانياً يتخاطب الناطقون بها من العرب وغيرهم، فالنصوص التاريخية تذكر بأنّ إبراهيمعليه السلام رحل بولده إسماعيل وأمه فاختلط مع جُرهُم من أولاد قحطان فنشأ معهم وكانت لغتهم العربية فتعلّمها منهم[٢].

وقد أشار القرآن الكريم لهذه الرحلة بقوله حاكياً عن إبراهيمعليه السلام: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾[٣].

وتفيد نصوص الحديث بأن اللغة العربية لغة سماوية ألهمها اللهﷻ نبيّه إسماعيل (عليه وعلى نبينا وآله السلام) فقد روي عنه ﷺ: **«أُلهم إسماعيل هذا اللسان العربي إلهاماً»**[٤]، وقال ﷺ: **«أوّل من فُتِق لسانه بالعربية المبيّنة إسماعيل وهو ابن أربع عشرة سنة»**[٥].

فلم تكن هذه اللغة تخضع لقوانين اللغات، وإن كانت في بعض لهجاتها تخضع لهذه القواعد من منشأ اللغة وتطورها وأدوارها

---

(١) دراسات في فقه اللغة للصالح ٣٤.

(٢) ينظر تاريخ الإسلام السياسي والثقافي للدكتور حسن إبراهيم حسن ص٨.

(٣) إبراهيم: ٣٧.

(٤) كنز العمال ١١: ٤٩٠ ح ٣٢٣١١.

(٥) كنز العمال ١١: ٤٩٠ ح ٣٢٣٠٩. وروى نحوه الحاكم النيسابوري قال: أول من نطق بالعربية إسماعيل. المستدرك على الصحيحين ٢: ٥٥٣. والمراد عربية قريش التي نزل بها القرآن وأما عربية قحطان وحِمْيَر فكانت قبل إسماعيل. ينظر المزهر ١: ٢٧، العمدة لابن بطريق :٢٣، بحار الأنوار ٣٥: ١٤١.

وضعفها وقوتها ومدى حاجة الإنسان لتوليد ألفاظها واشتقاقها، فهي لغة كاملة معدّة مُنحت لأنبياء الله ورسله ثم اقتبسها عامة البشر وتعلّموها منهم، وإن كان أصل اللغات كلها هو تعليم وإلهام من الله فقوله عز وجل: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[1]، ينفي النظرية القائلة بأن اللغة مصنوعة أوجدَها الإنسان إما تقليداً ومحاكاة لأصوات الطبيعة، أو نَشَأت من حاجة الإنسان للتفاهم.

نعم، إن هذا الكلام صحيح ووارد في تنمية اللغات وتكملة مسيرها، لا أصل إيجادها، وإنّ نمو اللغات واتساعها وتشعبها وتعدد لهجاتها خاضع لجهد الإنسان ومدى حاجته وقدرته في توجيه مسارها لا أصل وجودها، فالأصوات اللغوية إذا جُردت من معانيها تبقى أصوات مجردة لا دلالة لها، كالأجساد المجردة من الأرواح، فالأرواح للأجساد مثل المعاني للألفاظ تجعل ديمومة اللغة وحيويتها ودلالاتها مرتبطة بمؤدّى هذه الألفاظ، وهذا المعنى الموضوع للألفاظ من عطاء الله للإنسان جعله أولاً في عقل آدم ثم جاءت العقول البشرية تتابع في اكتساب العلم بهذه الدلالات، وقد فَسَّروا قوله عز وجل: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ بأن الله تعالى علّمه أسماء كل ما خلق من أجناس المحدثات من جميع اللغات المختلفة التي يتكلّم بها ولده اليوم[2].

وروي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**عُلّم آدم الأرضين والجبال والشعاب والأودية**، ثمّ نظر إلى بساط تحته فقال عليه السلام: **وهذا البساط مما عُلّمه**»[3].

---

(١) البقرة ٣١.

(٢) ينظر غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيشابوري ١ : ٢٣٨.

(٣) تفسير العيّاشي ١ : ٣٢.

وقيل: إنّ الله سبحانه علّم آدم أسماء جميع المخلوقات بجميع اللغات: العربية والفارسية والسريانية والعِبرانية والرومية وغير ذلك من سائر اللغات، فكان آدم وولده يتكلمون بها، ثم إنّ ولده تفرقوا في الدنيا، وعَلِق كل منهم بلغة من تلك اللغات، فغُلبت عليه واضمحلت عنه ما سواها، لبعد عهدهم بها(١).

وقد حُظيت نظرية أصل اللغة ومنشأها باهتمام العلماء لفترة زمنية غير قليلة، إلاّ أنها لم تصل إلى نتائج قطعية، قال الدكتور صبحي الصالح: وقد سلّم بعض علماء اللغة إلى القول بأنّ أصل اللغة غامض مجهول، وليس علينا أن نعلل كلّ صوت لغوي أو رمز دلالي أنّه على وجه الحكمة كيف وقع، وبأيّ لغة يُنطق، بل يُعنينا أن نتابع التطوّر اللغوي، كيف حدث بعد استقرائه وملاحظته ومقارنة بعض مظاهره ببعض، وعلينا أن نبدأ بجمع ما يمكننا من المعلومات عن اللغات الإنسانية المختلفة لنخرج أخيراً بالسنن العامة والقوانين الثابتة في علم اللغة العام (٢)، ويمكن أنّ نقول هذا الغامض المجهول نجده مفسّراً بنصوص إسلامية سندها عالٍ.

ومن هذه النصوص ما رواه الشيخ الصدوق عن الصادق عليه السلام عن أبيه عليه السلام: بأنّه ما أنزل الله كتاباً ولا وحياً إلاّ بالعربية، فكان يقع في مسامع الأنبياء بألسنة قومهم(٣).

وروي عن الصادق عليه السلام قال: «**تعلّموا العربية، فإنها كلام الله الذي يُكلم به خَلْقه**»(٤).

---

(١) الخصائص لابن جنّي ١ : ٤١.
(٢) دراسات في فقه اللغة للصالح ص٣٥.
(٣) علل الشرائع ١٢٦ ح٨. ط النجف.
(٤) الخصال ٢٥٨ ح١٣٤ ط جماعة المدرسين قم.

وروى السيوطي، رفعه إلى ابن عساكر، عن النبي ﷺ قال: **«كانت لغة إسماعيل قد دَرَسَت فجاء بها جبريل ﷺ فحفَّظَنيها فحفظتها»**[(١)].

فهذا يدلّك أنّ اللغة العربية قد وضعها الله ﷻ كما وضع الكتب المقدسة التي أُنزلت على الأنبياء، إنها لغة كانت مراد الله سبحانه، ومن خلقه وصنعته، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وقد ذهب الرافعي إلى أنّ المراد بانطلاق لسان إسماعيل بالعربية، وضع أصلها بما أضاف من لغة جُرهم إلى لغة قومه، وبذلك انطلق لسانه من الكلام في مذهب أوسع منحى وأوضح دلالة، وهذا معنى ما ورد في الحديث من أنه، **«أول من فُتِقَ لسانه بالعربية المبينة»**[(٢)].

وقد ذهب العلماء إلى أن الأصل في لغة الإنسان واحدة، وهي تقترب من نظرية الإلهام والتوقيف الربّاني، فقالوا: إنّ الإنسان الأوّل نشأ على ضفاف الفرات ودجلة بين العراق وأرمينيا، فتناسل هناك وكانت ذرّيته بعضها من بعض، ثم انساحت الجماعات وتفرقت بما يلجئها من الأسباب الطبيعية، كضيق الوطن، وبغي بعضهم على بعض، فضربوا في الأرض، وبهذا تنوّعت الجماعات أو دخلت في أسباب التنوع الذي هو الأصل في تفرّع اللغات.

ومن ذلك ما أشارت إليه التوراة أقدم كتاب تاريخي مما يُعرف بحكاية تبلبل الألسنة (سِفر التكوين، الإصحاح الحادي عشر)، وذكر تفرق الأمم التي انشعبت من نسل نوح ﷺ بعد الطوفان، فكانت لغة

---

(١) المزهر في علوم اللغة وأنواعها ١: ٣٥.

(٢) تاريخ آداب العرب ١: ٨٩ وبحار الأنوار ٣٥: ١٤١.

كلّ فئة تنفصل عن أُمها ثم تنمو وتتغيّر بالاستعمال فتصير أُمّاً لفروع أخرى وهلمَّ جراً.

وقد استدلوا على تحقق هذا التسلسل بتشابه الأسماء الخالدة في الإنسانية، وهي التي لا يمكن أن تتغير، لثبوت مدلولها على حالة واحدة في تاريخ النوع كله، كاسم الأم فقد وجدوا أنّ هذه الميم أصلية في كل ما عرف من بين لغات العالم، وكذلك وجدوا أن الباء أصلية في لفظة الأب[١].

(١) تاريخ آداب العرب للرافعي ١ : ٦٦ ط دار الكتاب العربي بيروت.

معنى الفصاحة

الفصاحة في أصل اللغة هي: البيان، يقال: فَصُح الرجلُ فصاحةً فهو فصيح من قوم فُصحاء وفِصاح وفُصُح.

وتقول: رجل فصيح وكلام فصيح، أي بليغ، ولسان فصيح، أي طَلْق. وفَصُح الأعجمي، بالضم، فصاحةً: تكلم بالعربية وفُهِم عنه.

وقيل: جادت لغته حتى لا يَلْحَن، وأفصح كلامه إفصاحاً. وأفصح: تكلّم بالفصاحة، وكذلك الصبيّ، يقال: أفصح الصبيّ في منطقه إفصاحاً، إذا فهمت ما يقول في أوّل ما يتكلم.

وأفصحت الشاةُ والناقة: خَلَص لبنها، وأفصح الصبح: بدا ضوؤه واستبان، وكلّ ما وَضَحَ. فقد أفْصَحَ، وكل واضح مُفْصِح[1].

ومن ذلك رواية خالد بن نجيح عن الصادق عليه السلام: أنه قال: **«التكبير جزم في الأذان مع الإفصاح بالهاء والألف»**[2].

قال ابن فارس: الفاء والصاد والحاء، أصل يدل على خلوص في شيء ونقائه من الشوب، من ذلك اللسان الفصيح: الطليق،

---

(١) لسان العرب ٢: ٥٤٤ (فصح).

(٢) من لا يحضره الفقيه ١: ١٨٤ ح١(٨٧١) ط دار الكتب الإسلامية طهران.

والكلام الفصيح: العربي، وأفصح الرجل: تكلّم بالعربية[١]. وضدّه الأعجم: الذي لا يُفصح ولا يُبيِّن كلامه[٢].

وقال أبو عبيد: كلّ ما لا يقدر على الكلام فهو أعجم ومستعجم، ومن هذا الحديث «**إذا كان أحدكم يصلّي واستعجمت عليه قراءته فليُتم**»، يعني إذا انقطعت فلم يقدر على القراءة من النعاس [٣]، ومن هذا الاعتبار قيل: كتاب فلان أعجم، إذا لم يفهم ما كتب [٤].

ويرى ابن الأثير بأنّ اللفظ الفصيح هو الظاهر البيّن من غير تفصيل، وأن تكون ألفاظه مفهومة لا يحتاج في فهمها إلى استخراج من كتاب لغة. ويقول: وإنّما كانت بهذه الصفة لأنها تكون مألوفة الاستعمال بين أرباب النظم والنثر، دائرة في كلامهم، وإنّما كانت مألوفة الاستعمال دائرة في الكلام دون غيرها من الألفاظ لمكان حسنها، وذلك أنّ أرباب النظم والنثر غربلوا اللغة باعتبار ألفاظها، وسبروها وقسموها فاختاروا الحَسَن من الألفاظ فاستعملوه، ونفوا القبيح منها فلم يستعملوه، فحسن الألفاظ سبب استعمالها دون غيرها، و استعمالها دون غيرها سبب ظهورها وبيانها، فالفصيح من الألفاظ إذن هو الحَسَن[٥].

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٤: ٥٠٦ (فصح).

(٢) لسان العرب ١٢: ٣٨٦ (عجم).

(٣) غريب الحديث للهروي ١: ١٧٠ ط دار الكتب العلمية بيروت.

(٤) مفردات الراغب الأصفهاني ٣٢٤ (عجم). وقد فسّروا قول علي (ع): اليوم أنطق لكم العجماء. بأنّ العجماء صفة لمحذوف تقديره الكلمات العجماء. ينظر شرح ابن ميثم للنهج ١: ٢٧٤ ونهج البلاغة ضمن خطبة رقم ٤ ص٥١ من طبعة صبحي الصالح.

(٥) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ١: ٩٠.

وهو عندهم ما كَثُرَ استعماله في ألسنة العرب ودار في أكثر لغاتهم، لأنَّ تكراره على الألسنة المستقلّة بطبيعتها في سياسة المنطق دليلٌ على تحقّق المناسبة الفطرية فيه.

وليس يخفى أنَّ فصاحة العربي إنّما هي عمل من أعمال الطبيعة المحيطة به، فإنْ كانت خالصة وإلاّ كثر في لسانه الابتذال والتنافر[١].

ومناخ الصحراء بطبيعته يساعد على صنع منطق لطيف بخلاف مناخ المدينة والحواضر فإنها تفسد المنطق. وقد قالوا: أفصح العرب أَبرُّهم، معناه أبعدهم في البرِّ والبَدو داراً، وهذا أصله من قولهم: خرج فلان برّاً، إذا خرج إلى البرّ والصحراء[٢].

وقد استمدَّ البلاغيون من معنى الوضوح والكشف، الفصاحة المطلوبة في الأدب، إلاّ إنهم اختلفوا في وضع حد في الفصاحة فمنهم من جعلها قصراً على المعنى ومنهم من ذهب بها إلى اللفظ دون المعنى.

وقد اعتبر بعضهم البلاغة ترادف الفصاحة، وآثر آخرون التمييز بينهما، فالفصاحة لديهم تخصّ المفردات وميّزوها بخلوّها من الغرابة وتنافر الحروف، قال القزويني في ذلك: إنّ الفصاحة يوصف بها المفرد والكلام والمتكلم، والبلاغة يوصف بها الكلام والمتكلم. وقال: الفصاحة في المفرد: خلوصه من تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس.

وفي الكلام خلوصه من ضعف التأليف، وتنافر الكلمات والتعقيد.

---

(١) تاريخ آداب العرب للرافعي ١ :١٣١.

(٢) ينظر لسان العرب ٤ : ٥٤ (برر).

وفي المتكلّم: مَلَكة يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح.

والبلاغة في الكلام: مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته[١].

وقد فَهِم إمام البلاغة عبد القاهر الجرجاني بأنّ سرّ الفصاحة هو في التأليف والنظم ولم يفتهُ إشراك المعنى والمضمون في هذا التأليف، فقال:

أمّا رجوع الاستحسان إلى اللفظ من غير شرك من المعنى فيه، وكونه من أسبابه ودواعيه، فلا يكادُ يعدُ نمطاً واحداً، وهو أن تكون اللفظة ممّا يتعارفه الناس في استعمالهم، ويتداولونه في زمانهم، ولا يكون وحشياً غريباً، أو عاميّاً سخيفاً، سُخفه بإزالته عن موضوع اللغة، وإخراجه عمّا فرضته من الحكم والصفة، كقول العامة: أشغلت وانفسد، وإنّما شرطت هذا الشرط فإنّه ربّما استسخف اللفظ، بأمرٍ يرجع إلى المعنى، دون مجرد اللفظ.

كما يُحكى من قول عُبيد الله بن زياد [٢]لما دُهش: (افتحوا لي سيفي)، وذلك أنَّ الفتح خلاف الإغلاق، فحقّه أن يتناول شيئاً هو في حكم المغلق والمسدود، وليس السيف بمسدود[٣].

وقد فصل بعضهم بين البلاغة والفصاحة فقالوا: البلاغة في المعاني والفصاحة في الألفاظ، يُقال: معنىً بليغ ولفظٌ فصيح[٤].

---

(١) ينظر التلخيص في علوم البلاغة ٢٤ ـ٣٣.

(٢) قيل كان عُبيد الله بن زياد يرتضخ لُكْنَة فارسية من قِبَل زوج أمّه. ينظر العقد الفريد ٧: ٣٠٧.

(٣) أسرار البلاغة ٣ ط بيروت دار المعرفة ١٤٠٢ﻫ.

(٤) ينظر حسن التوسّل إلى صناعة الترسّل ١٠٢.

ولعل قولهم: فالفصاحة للفظ خُلوصه من تنافر الحروف، وأما فصاحة الكلام فهي خلوصه من ضعف التأليف[١] أفضل تعريف وأنسبه للفصاحة.

وقد مال بعضهم إلى أنّ البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة وكلّ ما شاكل ذلك، مما يعبر به عن فضل بعض القائلين عن بعض، من حيث راموا أن يعلموا السامعين ما في نفوسهم، ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم، إنّما هي ألفاظ مترادفة لا معنى لها، غير وصف الكلام بحسن الدلالة وتمامها فيما لو كانت دلالة، ثم تبرحها في صورة هي أبهى وأزين، وآنق وأعجب، وأحقّ بأن تستولي على هوى النفس، وتنال الحظ الأوفر من ميل القلوب، وأولى بأن تطلق لسان الحامد، وتطيل رغم الحاسد، ولا جهة لاستعمال هذه الخِصال غير أن يؤتى المعنى من الجهة التي هي أصحّ لتأديته، ويختار له اللفظ الذي هو أخصّ به، وأكشف عنه وأتمّ له، وأحرى بأن يكسبه فضلاً ويكسبه نبلاً، وإذن مخرجها النظم والكلام، دون الألفاظ المجردة والكلمات المفردة[٢].

---

(١) وقد وصف الدكتور مصطفى ناصف هذه الكلمات بقوله: لدينا أسرة من كلمات متساوقة، كلمات البيان والفصاحة والبلاغة والنظم، كلمات يتشبّث بعضها ببعض، كما يتشبث الفرد بسائر القبيلة ابتغاء الشعور بالقوّة والاحتماء. اللغة والتفسير والتواصل ١٠٣.

(٢) مقدمة التلخيص في علوم البلاغة للقزويني ١٣ ط مصر، التي كتبها الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي.

بين الإعراب والفصاحة والبلاغة

تميّزت اللغة العربية بغزارة مادتها، بفضل مرونة أصواتها وطواعية مفرداتها، وتجد لها تعدداً لفظياً كثيراً يمكن الناطقين بها من التعبير عن المواقف والاحساسات بألفاظ كثيرة يتخيّر منها الناطق حسب سليقته، وما يتطلّب التعبير عن المواقف والاحساسات من ألفاظ، ونال مفهوم الفصاحة حظاً من هذا الترادف اللفظي، فتجد لمفهوم الفصاحة ألفاظاً أخرى تحوم حول معناها منها قولهم: رجلٌ عربيّ اللسان، إذا كان فصيحاً، وقال الليث: يجوز أن يقال: رجل عَرَبانيّ اللسان.

والإعراب والتعريب معناهما واحد، وهو الإبانة، يقال: أعرب عن لسانه وعرَّب، أي أبان وأفصح. ومن هذا يقال للرجل الذي أفصح بالكلام أعرب.

وعرّب منطقه، أي هذّبه من اللحن، والإعراب الذي هو في النحو إنّما هو الإبانة عن المعاني بالألفاظ، قال ابن الأعرابي: التعريب، التبيين والإيضاح [1].

ومن هذا جاء حديثه ﷺ: «**والذي نفسي بيده ما من نسمة تولد**

---

(١) ينظر لسان العرب (عرب).

إلاّ على الفطرة حتى يُعرب عنها لسانها»[١].

ويقال رجلٌ مُعرب: إذا كان فصيحاً وإن كان أعجمي النسب[٢] ومن هذا قال الكُميت:

وجدنا لكم من آل حاميم آيةً   تدبّرها منّا تقيّ ومُعْرب

يعني الفصيح الذي يعرف اللغة [٣]، وقال ﷺ: **«أعربوا الكلام كي تعربوا القرآن»**[٤].

ومن هذا المعنى جاء حديث الصادق عليه السلام: **«أعربوا كلامنا فإنّا قوم فصحاء»**[٥] أراد إبانة الحديث وجلاءه، وعدم وضع حاجز من الغموض بينهم وبين متلقي علومهم (عليهم السلام).

ومن مترادفات الفصاحة ؛ البلاغة، وكثيراً ما يستعاض بها عن معنى الفصاحة، وقد عرّفوا البلاغة بأنها: حسن البيان وقوة التأثير، وهي عند علماء البلاغة: مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته[٦].

قال القزويني الخطيب: وهو مختلف، فإن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام كلٍّ من التنكير والإطلاق، والتقديم والذكر، يباين مقام خلافه، ومقام الفصل يباين مقام الوصل، ومقام الإيجاز يباين مقام خلافه، وكذا خطاب الذكي مع خطاب الغبيّ، ولكلٍّ كلمةٍ مع

(١) المعجم الكبير للطبراني ١: ٢٨٥ ح ٨٣٣، كنز العمال ٤: ٣٩٥ ح١١٠٩٥، ١١٧٣، مسند أحمد ٣: ٤٣٥، وينظر بحار الأنوار ٣: ٢٨١.

(٢) تهذيب اللغة ٢: ٣٦٠ (عرب).

(٣) جمهرة اللغة ٣: ٤٦٠ ط حيدر آباد الدكن.

(٤) الجامع الصغير للسيوطي ١: ٤٦.

(٥) بحار الأنوار ٢: ١٥١، الكافي ١: ٥٢، الفصول المختارة : ٩١.

(٦) المعجم الوسيط ١: ٦٩ (بلغ).

صاحبتها مقام، وارتفاع شأن الكلام في الحسن والقبول بمطابقته للاعتبار المناسب، وانحطاطه بعدمِها، فمقتضى الحال هو الاعتبار المناسب، فالبلاغة راجعة إلى اللفظ باعتبار إفادته المعنى بالتركيب، وكثيراً ما يُسمّى ذلك فصاحةً أيضاً، ولها طرفان: أعلى وهو حدّ الإعجاز وما يقرب منه، وأسفل وهو ما إذا غيّر الكلام عنه إلى ما دونه التَحَقَ عند البُلغاء بأصوات الحيوانات، وبينهما مراتبٌ كثيرة، وتتبعها وجوهٌ أُخَر تُورث الكلام حُسناً، وفي المتكلّم مَلَكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ، فعُلم أن كل بليغ فصيح، ولا عكس.

وأن البلاغة مرجعها إلى الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد، وإلى تمييز الفصيح من غيره، والثاني منه ما يُبيَّن في علم متن اللغة، أو التصريف، أو النحو، أو يُدرك بالحسّ، وهو ما عدا التعقيد المعنوي، وما يحترز به عن الأول علم المعاني، وما يُحترز به عن التعقيد المعنوي علم البيان، وما يُعرف به من وجوه التحسين علم البديع، وكثير يسمّى الجميع علم البيان، وبعضهم يُسمي الأول علم المعاني والأخيرين علم البيان، والثلاثة علم البديع(١).

---

(١) التلخيص في علوم البلاغة ٣٣.

الموازين العامة للفصاحة

وممّا تقدّم يظهر أن الفصاحة وضعت لها موازين ومعايير يمكن لنا أن نضعها في هذه النقاط:

١) أن تكون الألفاظ غير مهجورة ومألوفة في ذهن المتلقّي قد طرقت أذن السامع من قبل، ولاكتها أفواه الشعراء وأقلام الكتّاب، يألفها الذوق السليم والطبع الفهيم.

٢) أن تكون ألفاظ العبارة متناسبة مع السياق العام للموضوع، فألفاظ الحرب والدفاع العسكري تجد حضورها في مواقف الحرب والجهاد، وألفاظ الوداعة والسكينة تأخذ حظها في خطاب السلام والمهادنة.

٣) الإضاءة والإشراق في اللفظ الفصيح، فالوجه العام لهذه الألفاظ أن تكون غير مظلمة ولا مُنطفئة، أسدلت دياجير الظلام عليها سواد الغرابة.

٤) أن لا تكون هذه الألفاظ مخالفة للقياس النحوي والصرفي وقواعد اللغة، فالفصيح يضع علامة الإعراب الدالّة على المعنى المراد بدون تكلّف وترقيع.

٥) أن تأخذ الألفاظ دلالتها وبعدها المعجمي الذي سجّل تاريخ اللغة تطور هذا اللفظ وسيره التاريخي، فاللفظ الفصيح يوجد له

موضع مكين ومؤيّد في المعجم اللغوي، فالفصيح يختار هذه الألفاظ اختياراً عفوياً، ولا يعني أنه يضع أبواب المعجم اللغوي بين يديه في الخطابة والكتابة، فمَلَكته تترشّح بهذه الألفاظ الفصيحة.

٦) خلوّ هذه الألفاظ من التكلّف والتعقيد والتعسّف في النظم والسبك.

الفصاحة في القرآن وضرورتها للنبي والقائد

أخذت الفصاحة موقعها بين ألفاظ القرآن الكريم كمفردة قرآنية، عُنيَ المفسرون بتأويلها وتفسيرها، في قوله ﷻ حاكياً عن لسان موسى ـ عليه وعلى نبينا وآله أفضل الصلاة والسلام ـ: ﴿وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾[1]، رغبةً من موسى عليه السلام بالحجة والمبالغة في وضوح الدلالة، لتكون الأعناق إليه أميل والعقول عنه أفهم، والنفوس إليه أسرع، ولقد كان موسى عليه السلام لا يكاد يُفصح بكلامه وحججه للعقدة التي كانت في لسانه[2] فأدرك بفطرته أنّ هذه الرسالة العظيمة التي حُمّلها لا يمكن أداؤها بدون رجل فصيح، بليغ منطيق، يجعل أذن العباد صاغية لبياناته.

وقد عدّ الله ﷻ البيان والفصاحة من النعم العظيمة على الإنسان، قال عز وجل: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[3]،

---

(١) القصص ٣٤. وقال الشافعي: الفصاحة إذا استعملتها في الطاعة أشفى وأكفى في البيان. أحكام القرآن ٢: ١٧٩.

(٢) البيان والتبيين للجاحظ ١:٨ ط بيروت. وينظر بحار الأنوار ١٣: ١٠٣.

(٣) الرحمن ١ ـ ٤. قال الدكتور مصطفى ناصف: كلمة الفصاحة واضحة في الخروج من الظلمات إلى النور التي حدّثنا عنها القرآن الكريم، لأمر ما ارتبط هذا التواصل بالنور والإفصاح. اللغة والتفسير والتواصل ١٠٤

ويدرك اللبيب أنّ علم الإنسان يظل هامداً ميتاً إذا لم يجد لساناً فصيحاً يعرب عن هذا العلم وقوانينه.

قال عليّ بن الحسين (ع): **«ما بعث الله الأنبياء والأوصياء بالسكوت، ولا توقّيت النار بالسكوت، إنما ذلك كله بالكلام»**[(١)].

وقال الفخر الرازي: إعلم أنَّ النطق فضيلة عظيمة، ويدلّ عليه وجوه، أحدها قوله عز وجل: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ ولم يقل (وعلّمه البيان)، لأنه لو عطفه عليه لكان مغايراً له، أمّا إذا ترك حرف العطف صار قوله عز وجل: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ كالتفسير لقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾، كأنه إنّما يكون خالقاً للإنسان إذا علّمه البيان، وذلك يرجع إلى الكلام المشهور من أنّ ماهيّة الإنسان هي الحيوان الناطق.

وثانيها: اتفاق العقلاء على تعظيم أمر اللسان، وقال عليّ عليه السلام: **«ما الإنسان لولا اللسان إلاّ بهيمة مهملة أو صورة ممثلة..»**[(٢)] والمعنى أنّا لو أزلنا الإدراك الذهني والنطق اللساني لم يبقَ من الإنسان إلاّ القدر الحاصل في البهائم.

وقال: وطلب موسى عليه السلام حلّ تلك العقدة على وجوه، أحدها: لَئلاّ يقع في أداء الرسالة خلل البتة، وثانيها: لإزالة التنفير، لأنّ العقدة في اللسان قد تفضي إلى الاستخفاف بقائلها وعدم الالتفات إليه، وثالثها: إظهاراً للمعجزة، فكما أنَّ حبس لسان زكريا عليه السلام عن الكلام كان معجزاً في حقله، فكذا إطلاق لسان موسى عليه السلام معجزةٌ في حقلها، ورابعها: طلب السهولة، فسأل ربّه تخفيفاً وتسهيلاً[(٣)].

---

(١) ينظر الاحتجاج للطبرسي ٣١٥.

(٢) عيون الحكم والمواعظ :٤٨٣، نهج السعادة ٧: ٣٨٤.

(٣) التفسير الكبير٢٢: ٤٦ و٤٨.

وحجّة لزعامة الناس وإقناعهم، فقال على وجه المقارنة والقياس بينه وبين كليم الله موسى عليه السلام:

﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [(١)]، أي ليس له بيان ولسان، ولا يأتي ببيان ولا حجة [(٢)].

لأنّ من يريد الاحتجاج على أهل الملل والنحل لابدّ له من خُطَبٍ طوال، وهذا لا يمكن بدون بيان، والبيان يحتاج إلى تمييز وفصاحة، وترتيب للكلام وبلاغة، ومنها جهارة المنطق، والنطق الصحيح للحروف، قال جل جلاله: ﴿وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [(٣)].

وقد لَمّح القرآن الكريم بضرورة الفصاحة لصاحب الرسالة قائلاً: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾، وقال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [(٤)].

والأعجمي المراد في الآية هو الذي لا يُفصح وإن كان عربياً [(٥)]، واللسان في الآية جاء بمعنى اللغة والكلام [(٦)].

---

(١) الزخرف: ٥٢.

(٢) ينظر التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٢: ٤٧و٢٧ : ٢١٧. ويقال أنه كان في لسان موسى (ع) رتّة، وهي التي لا يفصح معها بالحروف شبه التمتمة وغيرها. ينظر التبيان للشيخ الطوسي ٧: ١٥٠.

(٣) النساء: ٦٣.

(٤) النحل: ١٠٣ والشعراء: ١٩٨و١٩٩.

(٥) مجمع البيان للطبرسي ٣: ٣٨٦.

(٦) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ٢: ٢٩٦ ط القاهرة، منشورات أم القرى. وقال الشوكاني: الأعجمين الذين لا يقدرون على التكلم بالعربية. فتح القدير ٤: ١١٨.

وقد فهم المسلمون أنّ الدور القيادي يتطلّب لساناً فصيحاً، وقد استغربوا من أن يكون أحد صحابته ﷺ ذا لُكْنَة، فقد عاب أحدهم على صهيب لكنَته بقوله: تُنسب عربياً ولسانك أعجمي! فقال: إنّ الروم سبتني وأنا صغير[١].

وقد فسّر ابن عباس قوله عز وجل: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾[٢] بأنّه بيان الكلام[٣]. ونُسِب إلى عليّ ﷺ قوله: «**فهل فصل الخطاب إلاّ معرفة اللغات؟**»[٤].

وقد كان خطاب النبي ﷺ وكلامه مزدوج الوظيفة والغاية، فهو يؤدّي ما يؤدّيه الكلام عادةً، وهو إبلاغ الرسالة، ويسلّط مع ذلك على المتلقّي تأثيراً فنياً ينفعل به مع الرسالة انفعالاً ما، بلغته الثريّة المكثفة، فينعكس على وجدانه، ومن هنا نجد أن المأثور من كلامه ﷺ يجمع بين ما هو عام من اللغة التوصيلية، وبين ما هو خاص من اللغة الفنيّة الموشّحة بعناصر صورية أو إيقاعية، علماً أن العنصر اللفظي يُراعى من خلال إحكام العبارة وانتخابها وإخضاعها لمتطلبات التقديم والحذف والاختزال، وتوفر أدوات الوصل والاعتراض، والتعقيب والتأكيد ... إلخ.

يقول البستاني: هذه المستويات اللفظية والتركيبية تلعب دوراً كبيراً في جعل العبارة فنّية الطابع، دون أن ينحصر الفنّ أو الفصاحة أو البلاغة في قيمها الصورية والإيقاعية، وحتى العنصر الإيقاعي فإنّ انتخاب العبارة من حيث جرسها وموقعها من مجموع النصّ، ومن

(١) المعجم الكبير للطبراني ٨: ٣٣ ح ٧٢٩٧.
(٢) ص: ٢٠.
(٣) تفسير القرطبي ١٥: ١٦٢.
(٤) مجمع البحرين ٢: ٥١ (خطب)، عيون أخبار الرضا ١: ٢٥١.

حيث طولها أو قصرها، أولئك جميعاً تشكل عنصراً له أهميته، دون أن ينحصر الإيقاع في الوحدات الصوتية المنتظمة من قافية أو سجع أو وزن أو توازن بين الجمل[١].

ومن هذا الفهم فإن الكلام الفني الفصيح الجميل يوقع تأثيراً كبيراً في نفوس المتلقين، ممّا يؤثر على بنائهم الفكري وتوجيههم الديني والاجتماعي والسياسي، وقد أدرك النبي ﷺ بفطرته السليمة وعقله الجبّار هذه الحقائق فقال: «**إن من البيان لسحراً**»[٢].

قال الشريف الرضي: والمراد به: أنّ البيان قد يَخدَع بتزويقه وزخارفه وحسن معارضه ومطالعه، حتى يستنزلَ الإنسانَ من حال الغضب والمخاشنة إلى حال الرضا والملاينة، وينزع حُمات السخائم، ويَفْسَخ عقود العزائم، ويَكْبَح الجامح حتى يرجع، ويسفّ بالمحلّق حتى يقع، ويعود بالخصم الضّالِع موافقاً، وبالضدّ الأبعد مقارباً.

والسِحرُ في الأصل: هو التمويه والخديعة والتلبيس والتغطية، وقال بعضهم: السّحر ما نقلك من حالٍ إلى حال، وكانت العرب تعتقد أن السّحر يصرف الوجوه، ويقلّب القلوب، ويمرّض الأجسام، ويسفّه الأحلام، ويفرّق بين المتَحابَّين، ويجمع بين المتباغضين.

وهذا في الحقيقة نقل من حالٍ إلى حال، وهو عندنا باطلٌ، إلاّ أن يُراد به ما قدمنا القول فيه من خديعة الإنسان بليّن القول، وحُسن اللفظ، حتى يرضى بعد اشتطاطه، وينثني بعد جماحه.

وهذا الوجه هو الذي ذهب إليه النبي ﷺ دون ما يقوله أهل

---

(١) تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي ١٣٣.

(٢) الأمالي للصدوق :٧١٨، تحف العقول :٥٧، عوالي اللآلىء ١ : ١٥٠، بحار الأنوار ٦٨ : ٤١٥.

الجَهالة وطغام الجاهلية[١].

والكلام المطلوب والمندوب هو الكلام الواضح القادر على التأثير في النفوس وحملها نحو الصلاح والهداية، وهذا ما بيّنه عليّ بن الحسين (ع) حين سُئِل عن الكلام والسكوت أيّهما أفضل ؟ فقال: **لكلّ واحد منهما آفات، فإذا سلِما من الآفات فالكلام أفضل من السكوت**[٢].

وقد كان الصادقعليه السلام يقول لعبد الرحمن بن الحجاج - و هو من أصحابه -: **«يا عبد الرحمن، كلّمْ أهل المدينة فإنّي أحب أن يُرى في رجال الشيعة مثلك»**[٣]، فلابدّ للمبلّغ وأصحاب الفكر والعقائد من كلام وبيان لكشف الحقائق وإيصالها، وقد وصف ابن عبد ربّه الممدوح من الكلام بقوله: وكلُّ شيء كشف لك قناع المعنى الخفيّ حتى يتأدّى إلى الفهم ويتقبّله العقل، فذلك البيان الذي ذكره اللهﷻ في كتابه، ومنَّ به على عباده، فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۞ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۞ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۞ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[٤]، فالبيان إذن هو الأدلّة الموصلة إلى العلم، وبه يتشبث صاحب الرسالة والفكر[٥].

والقائد العسكري، والزعيم السياسي، والمرشد الديني، والموجّه التربوي، والمصلح الاجتماعي، والمعلّم، وكل من يتولى قيادة أو إدارة، كلهم بلا شك محتاجون إلى البراعة في فن الإلقاء

(١) المجازات النبوية ١٠٧ رقم ٩٤.
(٢) الاحتجاج ٣١٥.
(٣) ينظر بحار الأنوار ٧٣: ٤٠٤.
(٤) العقد الفريد ٢: ٤ ط دار الكتب العلمية بيروت بتحقيق مفيد قميحة.
(٥) قال الشيخ في معنى الآية: أي خلق به التمييز الذي بان به من سائر الحيوان. ينظر التبيان ٩: ٤٦١.

والتعبير، ليتمكّنوا من إيضاح وجهات نظرهم، وإبداء آرائهم، وشرح الأهداف المراد تحقيقها، والأفكار المراد إيصالها، بلغة بيّنة وأساليب مقنعة، وعبارات سلسة دقيقة نفّاذة، من أجل كسب الإقناع وتحقيق التفاعل بينهم وبين جمهورهم، وبذلك يتمكّنون من أداء مسؤولياتهم والقيام بالمهام التي يتطلعون إليها على أحسن وجه.

فلابدّ له من أن يختار لكل معنى أو فكرة أو خاطرة أو انفعال أو موقف ما يلائمه من ألفاظ وأصوات، وتراكيب وصيغ لفظية.

وكلما كانت الحصيلة اللغوية ثرّة، وافية، طافحة في الذاكرة، جليّة، بارزة العناصر في الذهن، سالت العبارات على لسانه أو قلمه بيسرٍ ولطف.

والبلاغة في الكتابة و القول، لا تتطلّب إغناء الحصيلة اللغوية الفخمة أو الجزلة المنتقاة فحسب، وإنّما تتطلب معرفة ألفاظ اللغة بمستوياتها المختلفة، ليمكن استخدام ما يتطلبه كل ظرف، أو يقتضيه كلّ موقف منها[1].

وقد وجدنا أنَّ النبي محمدﷺ يجد الأفكار والمعاني حاضرة في ذهنه، وهو البليغ الذي لا ينازع، وقد لمس ذلك (جان جاك روسو) ـ وهو من مفكري القرن الثامن عشر ـ حيث رأى بمنظار المفكر الأديب، أثر الفصاحة وملازمتها لقائد مسيرة الخلاص نبينا محمدﷺ فقال:

من الناس من يتعلم قليلاً من العربية، ثم يقرأ القرآن ويضحك منه، ولو أنه سمع محمداً يُمليه على الناس بتلك النغمة الفصحى الرقيقة، وذاك الصوت المُقنع المُطْرِب المؤثّر في شغاف القلوب،

---

(١) الحصيلة اللغوية ٦٣و٦٤.

ورآه يؤيّد أحكامه بقوّة البيان، لخرَّ ساجداً على الأرض وناداه: أيها النبي، رسول الله، خُذْ بأيدينا إلى مواقف الشرف والفخار، أو مواقع التهلكة والأخطار، فنحن من أجلك نودّ الموت أو الانتصار[١].

فحسبُك من شهادة شاهدٍ مفكّرٍ غير مسلم عبر الأزمنة والعصور، وأطلّ على مشهد من مشاهد فصاحته وبلاغته ﷺ.

(١) تاريخ الإسلام السياسي لحسن إبراهيم حسن ١٩٣.

العوامل المؤثرة في فصاحته ﷺ

ومَلَكة الفصاحة والبيان التي عُرِف بها خاتم الأنبياء ﷺ وسيّدهم، منشؤها الأول هو التأديب والإلهام الربّاني، والذي أُطلق عليه العلم اللدني، فالله ﷻ خصَّ بعض الأنبياء والأولياء بعلم لا يتأتّى لبقية عباده، وهذه معجزة له ومكرمة، فليس كل إنسان يمتلك موهبة البيان والفصاحة التي رُزقها ﷺ، فتصفيف الكلام وترتيبه وفق معايير فنية، يعرفها أهل البلاغة والنقد الأدبي، تُنبئ عن قدرة عجيبة ومقدرة هائلة قال عنها ﷺ: **«أدّبني ربّي فأحسن تأديبي»**[1] وهذا التأديب كامل، وصورة من صوره وشعبة من شعبه هي هذه الفصاحة والبلاغة التي نلمسها في سداد بيانه ورشاقة ألفاظه، فقوله ﷺ: **«أُعطيتُ فواتح الكلم وجوامعه وخواتمه»**[2] لم يستطع أن يقولها فصحاء العرب وبلغائهم، لأنهم يتعثرون في تصفيف كلامهم أحياناً، ولا يكادون يترشّفوا من مناهل اللغة وصفائها، إلاّ النزر اليسير، فقد يبدءوا الخطبة بفاتحة بيان إلاّ أنهم لا يتمكنون من امتطاء كلّ متنها، بالقوة والجزالة التي عُرفت خُطبه ﷺ وأحاديثه ورسائله، ويمكن أن نسمي الثروة اللغوية التي امتلكها ﷺ: بالعلم اللدني الربّاني الذي أمدته به

---

(١) كنز العمال ١١: ٤٠٦ ح ٣١٨٩٥، بحار الأنوار ١٦: ٢١٠و٦٨ : ٣٨٣، مجمع البيان ١: ٨٦.

(٢) كنز العمال ١١: ٤١٢ ح ٣١٩٢٩.

السماء، وإذا كانت الاتصالات الاجتماعية، سواء كان على صعيد الأسرة أو القبيلة أو المدينة، تُعدّ مصدراً من مصادر الثروة اللغوية المهمة للفرد في إمداده بمفردات اللغة، فهي تظلّ عاجزة عن إحاطة الفرد بكل هذه المفردات الواسعة و الهائلة التي عُرفت بها اللغة العربية من بين اللغات العالمية، وإذا كان للأسد خمسمائة[(١)] اسم أو صفة كما أحصاها ابن خالويه، وزاد عليه عليّ ابن قاسم اللغوي مائة وثلاثين اسماً، فإنَّ هذا الحشد الكبير من المفردات لحيوانٍ واحد، وقد وضع الله ﷻ مفردات اللغة بمجموعها طي لسان خاتم أنبيائه ورسله فقال ﷺ: «**إنما بُعِثتُ فاتحاً وخاتماً وأُعطيت جوامع الكلم، واختُصر لي الحديث اختصاراً فلا يهلكنكم المتهوّكون**»[(٢)].

وقد نشأ النبي ﷺ بين طبيعتين ونشأتين عظيمتين كان لهما الأثر الكبير في بناء الكيان اللغوي الذي بهر به العقول ومازال، أولهما نشأته بين الأنوار الإلهية والفيوضات القدسية، وثانيهما نشأته بين أحضان قبيلتي قريش وبني سعد، ولاشكّ أنّ موطن النشأة له المقام الأول والكلمة الأخيرة في لغة الفرد، وهو الأساس الذي ينبغي أن يُنظَر إليه في لغة الفرد.

فأمّا الأنوار الإلهية فقد بلغ نبيّنا المصطفى ﷺ منتهاها، فقد روى الصدوق مُسنِداً إلى ابن عباس أنّه ﷺ لما أُسريَ به إلى السماء انتهى به جبرائيل إلى نهر يقال له: النور، وهو قول الله جل جلاله: ﴿خَلَقَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾[(٣)]، فلما انتهى به إلى ذلك النهر قال له

---

(١) ينظر بحار الأنوار ٦٥: ٨٠.

(٢) كنز العمال ١١: ٤٢٥ ح ٣١٩٩٤، ينظر مناقب أهل البيت (ع) للشيرواني: ٣٣٥، والتهوّك: التحيّر. والمتهوّك: الذي يقع في كلّ أمر. اللسان (هوك).

(٣) الأنعام: ١.

جبرائيل: اعبر يا محمد على بركة الله، فقد نوَّر الله بصرك ومدّ لك أمامك[١].

فحاز النبي ﷺ من العرفان والعلم أكمله وغايته، وقال ﷺ: **«إنّ ربّي مثّل لي أمتي في الطين، وعلّمني أسماء أُمّتي كما علم آدم الأسماء كلها»**[٢].

فصاحة النبي ﷺ بين قريش وبني سعد

كان تقدير الله أن ينشأ النبي ﷺ بين قريش وقبيلة بني سعد ردحاً من الزمن، ولابدّ للبيئة أن تترك أثرها على وضع الإنسان ككل، وبما في ذلك الوضع اللساني واللغوي له المتمثل بالفصاحة والنطق السليم.

وقد عُرف لقريش فضلها الديني والاقتصادي واللغوي، بما شرفها الله في مجاورة البيت العتيق، فلم تزل العرب تعرف لقريش فضلها عليهم وتسميها أهل الله[٣].

وقد أكد الله ﷻ ذلك في كتابه بقوله: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾[٤].

وقد أُتيح للغة قريش أن تتبوأ المكانة الأولى بين اللهجات العربية الشمالية فأصبحت هي الفصحى المقصودة عند الإطلاق[٥].

---

(١) أمالي الصدوق ٢٩٠ ح١٠ ط بيروت.
(٢) ينظر بحار الأنوار ١٧: ١٥٤ و٢٦: ١٢١ و٢٧: ١٣٥ و٦٨: ٢٧ في ذلك، بصائر الدرجات: ١٠٥و١٠٦.
(٣) ينظر الصاحبي في فقه اللغة لابن فارس ٢٣.
(٤) سورة قريش.
(٥) دراسات في فقه اللغة لصبحي الصالح ٧٢.

وقد قال ﷺ مفتخراً بذلك: «**أنا أعربكم، أنا من قريش ،ولساني لسان بني سعد بن بكر**» (١)، وقال ﷺ: «**أنا قرشي واسترضعت في بني سعد بن بكر**»(٢).

وكان من عادة أشراف العرب أن يدفعوا بأطفالهم إلى مراضع بشرفن على تربيته في البادية بضع سنين، وكان من القبائل التي لها شهرة في المراضع قبيلة بني سعد(٣).

وللبيئة أثر كبير في خلق مَلَكة البيان، فبها تنشأ وتترعرع، فالغرس الذي يعلو ويزهر تمتد جذوره إلى التربة والأرض التي تحمله، وقد عُرفت قبائل من بين القبائل العربية في أرض الجزيرة المترامية حملت لواء الفصاحة ودانت لها بقيّة القبائل، وقد نال نبينا ﷺ حظاً من البيان من بني سعد وقريش، وهما أفصح العرب، وقد سجّل العلماء شهادة العرب لقريش بفصاحتها، قال أبو العباس أحمد بن يحيى بن ثعلب: ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم، وكشكشة ربيعة، وكسكسة هوازن(٤).

وقد أكدّ ﷺ أثر هاتين القبيلتين في الوضع الأصيل للسانه الفصيح بقوله: «**أنا أعرب العرب، ولدتني قريش، ونشأت في بني سعد بن بكر، فأنّى يأتيني اللحن** (٥)»، وقال ﷺ: «**أنا من قريش،**

---

(١) الجامع الصغير للسيوطي ١: ١٢٧.

(٢) سيرة ابن كثير ١: ٢٣٢، سيرة ابن هشام ١: ١٠٨، سبيل الهدى والرشاد ١: ٧ نور البراهين ١: ١٢٠.

(٣) وقد نالت حليمة من بني سعد شرف رضاعته. ينظر سيرة ابن هشام في تفصيله ١: ١٧٢ ـ ١٧٦ ط دار إحياء التراث العربي.

(٤) الخصائص لابن جني ٢: ١١.

(٥) كنز العمال ١١: ٤٠٢ ح ٣١٨٧٣، سبل الهدى والرشاد ٢: ٩٩.

ولساني لسان بني سعد بن بكر»[١].

وقد نشأ النبي ﷺ وتقلّب في أفصح القبائل وأخلصها منطقاً، وأعذبها بياناً، فكان مولده في بني هاشم، وأخواله في بني زُهرة، ورضاعه في سعد بن بكر، ومنشؤه في قريش، ومتزوَّجُهُ في بني أسد، ومهاجرته إلى بني عمرو، وهم الأوس والخزرج من الأنصار، لم يخرج عن هؤلاء في النشأة واللغة، ولقد كان في قريش وبني سعد وحدهم ما يقوم بالعرب جملة[٢].

وقد كانت قريش أجود العرب انتقاداً للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعاً، وأبينها إبانة عمّا في النفس، وعنهم نُقِلَت اللغة العربية وبهم اقتُدِي، وعنهم أُخِذ اللسان العربي من بين قبائل العرب [٣]، وقد اتسمت لغة قريش بسمات ميزتها عن لهجات ولغات قبائل العرب الأخرى، فهي قبيلة ذات تراث حضاري، لِما تتمتّع به من موقع جغرافي وديني، مكّنها من الاتصال بالأمم والقبائل الأخرى، وجعلها تنتقي للغتها الألفاظ المهذبة والفصيحة التي كانت تحملها القوافل التجارية المارّة بمكة، وبما تحمله وفود حجّاج البيت العتيق، من ألفاظ ارتضتها قريش لغة، وقد فضّل الفرّاء لغة قريش على سائر اللغات، وزعم أنهم يسمعون كلام العرب فيختارون من كلّ لغة أحسنها، فصفا كلامهم[٤].

وإنّما صارت لغة أهل الحجاز هي لغة الأصل، لأنّ العربية أصلها إسماعيل عليه السلام.

---

(١) كنز العمال ١١: ٤٠٤ ح ٣١٨٨٤، الطبقات الكبرى ١: ١١٣ نور البراهين ١: ١٢٠.

(٢) تاريخ آداب العرب للرافعي ٢: ٢٨٥.

(٣) ينظر المزهر في علوم اللغة وأنواعها ١: ٢١١.

(٤) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١: ٢٨٤.

وكان مسكنه ﷺ مكة [١]، ومن هذا يُفسّر قوله ﷺ: **«جاءني جبرائيل فلقنني لغة أبي إسماعيل»**[٢].

وكانت قريش مع فصاحتها، وحسن لغاتها، ورقّة ألسنتها، إذا أتتهم الوفود من العرب تخيّروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم، فاجتمع ما تخيّروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التي طُبعوا عليها، فصاروا بذلك أفصح العرب[٣].

ولهذا تجد أنَّ العرب جعلوا مقاييسهم وأخضعوها لِما سمعوه من ألفاظها وتراكيبها، وقد زادها فضلاً وشرفاً أنّ القرآن نزل أكثره بلغة قريش ولهجتها، وكان له تأثير في حصر اللغات وتغليب بعضها.

وقد عيّن الله ﷻ كتاباً واحداً للعبادات، لذا لم يجز التعبد والصلوات بلغة غير اللغة التي نطق بها الرسول الكريم محمد ﷺ، وباللهجة التي اختارها. ولاشكّ أنَّ لهجة القرآن كانت لغة الأدب ولهجة المحافل الراقية، وهي في حدّ ذاتها لم تكن لغة قريش خالصة، وإنما كانت أمشاجاً من اللهجات المختلفة، التي استخدمها الشعراء والخطباء وأهل الفكر، لمخاطبة جميع قبائل العرب، فهي لهجة مختلطة، بدليل الألفاظ المختلفة، التي تعود لمختلف القبائل في القرآن، فالقرآن ارتضى لهجة منتخبة[٤].

وكانت تلك القبائل بطبائعها متباينة اللهجات، مختلفة الأقيسة المنطقية المودعة في غرائزها، فكان القرشيون يسمعون لغاتهم،

---

(١) كما أشار تعالى بقوله حاكياً عن إبراهيم ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ إبراهيم / ٣٧.

(٢) كنز العمال ٧: ٢١٩ ح١٨٧٠٣ و١١: ٤٩٠ ح ٣٢٣١٤.

(٣) الصاحبي لابن فارس ٢٣.

(٤) دراسة اللهجات العربية القديمة للدكتور داود سلوم ١٣.

ويأخذون ما استحسنوه منها فيديرون به ألسنتهم ويجرون على قياسه، ولو كانوا بادين كسائر القبائل ما فعلوه، ولكن نوع الحضارة الذي اكتسبوه من تاريخهم ألان من طباعهم وكسر من صلابتهم، فاتفقت في ذلك حياتهم اللغوية وحياتهم الاجتماعية القائمة بالتجارة وتبادل العروض مع أصناف الناس.

فلما اجتمع لهم هذا الأمر ارتفعت لغتهم عن كثير من مستبشع اللغات ومستقبحها، وبذلك مَرَنوا على الانتقاد، حتى رقّت أذواقهم، وسَمَت طبائعهم وقويت سلائقهم، وحتى صاروا في آخر أمرهم أجود العرب انتقاءاً للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعاً، وأبينها إبانةً عمّا في النفس[١] وهي لغته ﷺ التي كان يخاطب بها جماهير العرب.

أمّا اكتسابه الفصاحة من بني سعد فهذا مشهود له، وما بين يدينا من نصوص ووثائق يساعد على ذلك، فقد روى أبو عبيد من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، قال: نزل القرآن على سبع لغات منها خمس بلغة العَجُز من هوازن، وهم الذين يقال لهم عُليا هوازن، وهم خمس قبائل أو أربع، منها سعد بن بكر، وجُشَم بن بكر، ونَصْر بن معاوية، وثقيف.

قال أبو عبيد: وأحسب أفصح هؤلاء بني سعد بن بكر، وذلك لقول رسول الله ﷺ: **«أنا أفصح العرب بَيْد[٢] أنّي من قريش، وانّي**

---

(١) تاريخ آداب العرب للرافعي ١ : ٩٣.

(٢) ورووه: مَيْدَ أنّي أيضاً. قال الجوهري فسّره بعضهم من أجل أنّي. الصحاح ٢ : ٥٤١(ميد).

قالوا: بيد بمعنى على، وأنشد لرجل يخاطب امرأة:

عمداً فعلتُ ذاك بيدَ أني ... إخال أن هَلَكْتُ لم تَرِنِّي

نشأت في بني سعد بن بكر»[1]، وكان مُستَرضِعاً فيهم، وهم الذين قال فيهم أبو عمرو بن العلاء: أفصح العرب عُليا هوازن، وسُفلى تميم[2].

وهذه الفصاحة والثراء الذي توشّح به كلامه ﷺ، كان مُنشأ له من روح القدس إضافة إلى أثر بيئته ونشأته في قريش وبني سعد، فقد شاء الله أن يكمل المصطفى ﷺ كمالاً ربّانياً، ويظهر هذا الكمال في جارحة من جوارحه، وهي اللسان الذي ينطق به ﷺ الممثل بلغته العربية، وقد سأله أبو بكر فقال: يا رسول الله، لقد طفتُ في العرب وسمعتُ فصحاءهم فما سمعتُ أفصح منك، فمن أدبّك ؟

قال ﷺ: **أدبني ربّي ونشأت في بني سعد**[3].

وقال ﷺ: **«إنّ العربية اندرست فجاءني بها جبرائيل غضّة طريّة كما شقّ على لسان إسماعيل عليه السلام»**[4].

وقال له أصحابه: يا رسول الله مالك أفصحنا لساناً، وأبيننا بياناً.

قال ﷺ: **إن العربية اندرست فجاءني بها جبرائيل غضّة طريّة..**

وقال ﷺ: **«جاءني جبرائيل فلقنني لغة أبي إسماعيل»**[5].

- يقول: على أني أخاف ذلك. اللسان٣: ٩٩ (بيد). قال أبو عبيد: وأخبرني بعض الشاميين أن رسول الله ﷺ قال: أنا أفصح العرب مَيْدَ أني من قريش ونشأت في بني سعد بن بكر. وفسّره: من أجل. ينظر غريب الحديث للهروي ١: ٨٩.

(١) الاختصاص للشيخ المفيد :١٨٧، وعنه في بحار الأنوار ١٧ : ١٥٨.

(٢) المزهر للسيوطي ١ : ٢١٠.

(٣) كنز العمال ١١ : ٤٣١ ح ٣٢٠٢٤، سبل الهدى والرشاد ٢ : ٩٣ و ٩٩، ميزان الحكمة ٣: ١٨٦٤.

(٤) كنز العمال ١١ : ٤٩٠ ح ٣٢٣١٣.

(٥) كنز العمال ٧: ٢١٩ ح ١٨٧٠٣ و ١١ : ٤٩٠ ح ٣٢٣١٤، ميزان الحكمة ٣: ١٨٦٤.

وإذا كان اللسان الفصيح رزقاً من الله منّ به على نبيه ﷺ، وكرامةً[١] له به، فإن يحيى بن يعمر النحويّ المتوفى سنة ١٢٩هـ، كان ينطق بالعربية المحضة واللغة الفصحى طبيعة فيه غير متكلفٍ، وحين سُئِل عن هذه العربية أنّى هي لك ؟ قال: رزق[٢].

فإقراره هذا يفيد أن العلم والتعلم والجهد والكسب الذي يكتسبه الإنسان من البيئة والدرس غير كافٍ في صناعة اللسان الفصيح.

وقد اختلفوا في السليقة اللغوية، هل هي طبعٌ أم اكتساب ؟ واستقرّ الأمر على أنّ السليقة اللغوية كسبٌ ثقافي يستمده الفرد من مصدر تعليمي، سواء أكان البيئة أم المدرسة، بعد أن أنكر علم النفس أن يكون لغير البيئة أثر في لغة الطفل.

ولكن ما تقرر هو أنّ البيئة هي التي لها الأثر الحاسم في تكوين السليقة اللغوية، وأن عادة العرب الشهيرة في إرسال أبنائهم صغاراً إلى البادية لأجل الاكتساب اللساني السليم لمصداق لهذا أكيد[٣].

وكان قوله ﷺ: **«أنا أعرب العرب، ولدتني قريش، ونشأت في بني سعد بن بكر»**[٤] تأكيداً لأثر البيئة في السليقة اللغوية.

واللغة كقدرة مكتسبة، لا يولد الإنسان بها، وإنّما يولد ولديه الاستعداد الفطري لاكتسابها، ويدفعه لهذا الاكتساب في العادة شعوره

---

(١) قال ﷺ: «أعطينا أهل البيت سبعة لم يُعطهنّ أحد كان قبلنا، ولا يُعطاهنّ أحد بعدنا: الصباحة والفصاحة والسماحة والشجاعة والعلم والحلم والمحبّة في النساء» نوادر الراوندي: ١٥.

(٢) ينظر وفيات الأعيان ٦: ١٧٤ رقم ٧٩٧.

(٣) ينظر الحديث النبوي وأثره في الدراسات اللغوية و النحوية ٤٠٦.

(٤) المعجم الكبير للطبراني ٦: ٣٦ ح ٥٤٣٧. وقد عرف الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان أثر البيئة البدوية في فصاحة المتكلم فقال: أضرّ بنا في الوليد حبّنا له فلم نلزمه البادية. العقد الفريد ٢: ٣٠٩.

بالانتماء إلى مجموعته البشرية نفسياً وحضارياً واجتماعياً، ورغبته في التعايش وتبادل المنافع والمصالح بينه وبين أفراد هذه المجموعة[١].

الفصاحة بين المَلَكة والاكتساب

وقد عرف القدامى مصطلح الطبع لما يسمى المَلَكة، أو الاستعداد الفطري، وهو الذي يُطلق عليه الآن في الدراسات الحديثة لعلم النفس.

والملكة صفة راسخة في النفس، وهي استعداد عقلي لتناول أعمال أو أداء وظائف معيّنة بحذق ومهارة، ومن ذلك نظم الشعر، فقد سجّل تاريخ الآداب لكثير من الشعراء كانوا يقولون الشعر عفواً من دون اكتساب وتعلّم منذ نشوئهم وإلى مراحل متقدّمة من أعمارهم، والخطابة والإلقاء، وخلق الفنون الجميلة.

ومن ذلك المَلَكة اللغوية، وهي الاستعداد الفطري لتلقي وتلقّن أو تعلم الإعراب واللفظ الصحيح والأداء الصوتي الجميل، وهذا الاستعداد يشمل التكوين الجسدي المتمثل في سلامة جهاز النطق والسمع الذي يضبط الأصوات، كما يشمل الاستعداد الذهني الذي يتمكن به الدماغ من القيام بوظائفه في ضبط حركة الفم والحلق وتمييز الأصوات وفرزها وتصنيفها، والإفادة من المسموعات وتذكّرها وتخزين المعلومات وتنظيم الاحساسات والمشاعر وترتيبها، ويشمل كذلك المقدرة في تقليد أصوات الآخرين ومحاكاتهم والتأثر بأسلوبهم والاستفادة من تجاربهم ومواهبهم.

وإذا كنّا نأخذ بهذا الاعتبار في دراسة فصاحته ﷺ ونطقه وتلفظه

---

(١) ينظر الحصيلة اللغوية ٣٣.

بمفردات اللغة علمه بها وجدناه بين طبع ربّاني وكسب بشري بيئي ساهم في خلق فصاحة وبلاغة كاملة مازالت معايير دراسات علم النفس اللغوي عنها بعيدة، ولعلّ شعر أبي نؤاس:

والله لـمّـا بـرا خـلـقـاً فـأتـقـنـه   صفاكم واصطفاكم أيّها البشر

جوابٌ لهذا السرّ، ومنه سر الإعجاز اللغوي.

الفصاحة مندوبة

كان النبيّ ﷺ بصفته كقائد ومعلّم ومرشد تربوي، يتتبّع أحوال المسلمين ومناحي حياتهم حتى لغتهم، سواء كانت لغة التخاطب اليومي، أم لغة العبادات والتشريع، فهو دليل الإنسان الأكمل والآخذ بهم نحو الكمال والجمال.

فقد روي أنه ﷺ سمع رجلاً يلحن في كلامه فقال ﷺ: **«أرشدوا أخاكم فقد ضلّ»**(١).

وقال ﷺ: **«إن الله تعالى لم يجعلني لحّاناً، اختار لي خير الكلام كتابه القرآن »**(٢).

وكان ﷺ يرى أنّ اللحن في هذه اللغة الجميلة ضلالاً وتيهاً، وكان ﷺ يرى في اللحن قُبحاً يشوّه جمال الإنسان فقال ﷺ: **«جمال الرجل فصاحة لسانه»**(٣).

---

(١) ينظر المستدرك ٢: ٤٣٩، كنز العمال ١: ٦١١ ح ٢٨٠٩.

(٢) كنز العمال ١: ٤٢٤ ح ٣١٩٩٠، الجامع الصغير ١: ٢٧٣ ح ١٧٧١.

(٣) مسند الشهاب ١: ١٦٥ ح ٢٣٣، الجامع الصغير ١: ٥٥٧ ح ٣٥٩٩، كنز العمال ١: ١٥٢ ح ٢٨٧٧٥.

وقال ﷺ: «**الجمال في الرجال اللسان**»(١).

وورد في خبر آخر عنه ﷺ أنه قال: «**الجمال في اللسان**»(٢).

وقد جعل وصيّه ووارث علمه عليّ عليه السلام تقويم اللسان وحفظه من اللحن هو الركن الثالث للعلوم بقوله: «العلوم أربعة، الفقه للأديان، والطبّ للأبدان، والنحو للّسان، والنجوم لمعرفة الأزمان»(٣). وقد كان علم النحو الذي وضعه أبو الأسود الدؤلي(٤) هو من إشاراته عليه السلام.

ولا يقتصر اللحن على الخطأ في حركات الإعراب، بل يشتمل على الخطأ في أبنية الألفاظ ودلالاتها وأصواتها وتراكيب كلماتها.

---

(١) الجامع الصغير للسيوطي ١: ٥٦١ ح ٣٦٢٥، كنز العمال ٢: ٨ ح ٥١٦٤.

(٢) تحف العقول: ٣٧، ونقله عنه في بحار الأنوار ٧٤: ١٤١.

(٣) معدن الجواهر للكراجكي ٤٠ منشورات مكتبة آية الله المرعشي، بتحقيق السيد أحمد الحسيني.

(٤) يروي المؤرخون أن أبا الأسود الدؤلي المتوفى سنة ٦٩هـ هو واضع مبادئ النحو، وأن السبب الذي حداه إلى التفكير فيه هو نشوء اللحن وهجوم العجمة. تاريخ الأدب العربي للزيات ١٤٨واختلفوا في سبب وضع النحو وذلك أن قريشاً كانوا يزوّجون بالأنباط، فوقع بينهم أولاد ففسد لسانهم، حتى أن بنتاً لخويلد الأسدي كانت متزوجة في الأنباط، فقالت: إن أبوي مات وترك عليّ مال كثير، فلمّا رأوا فساد لسانها أسس النحو، وقيل أن أبا الأسود كان يمشي خلف جنازة فقال له رجل: من المتوفي، فقال: الله، ثم أنه أخبر علياً عليه السلام بذلك فأسس النحو، وقيل غير ذلك. ينظر بحار الأنوار ٤٠: ١٦١.

وفي خبر آخر أنه دخل على ابنةٍ له بالبصرة فقالت له: يا أبتِ ما أشدُّ الحرّ! متعجبة، ورفعت أشدّ، فظنها مستفهمة، فقال: شهر ناجر. فقالت: يا أبتِ إنما أخبرتك، ولم أسألك، فأتى عليّ بن أبي طالب عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين، ذهبت لغة العرب، ويوشك أن تطاول عليها زمان أن تضمحل، فقال له: وما ذاك؟ فأخبره خبر ابنته، فقال: هَلُمّ صحيفة، ثم أملى عليه:

الكلام لا يخرج عن اسم وفعل وحرف جاء لمعنى، ثم رسم لهم رسوماً ،فنقلها الكوفيون في كتبهم. (المثل السائر ١: ٤٢).

وقد استحوذ اهتمام علماء المسلمين على مرّ العصور موضوع اللحن في اللغة، قال ابن جنّي في باب (فيما يؤمنه علم العربية من الاعتقادات الدينية): إعلم أنّ هذا الباب من أشرف أبواب هذا الكتاب، وأن الانتفاع به ليس إلى غاية، ولا وراءه من نهاية. وذلك أنّ أكثر من ضلّ من أهل الشريعة عن القصد فيها، وحاد عن الطريقة المثلى إليها، فإنّما استهواه واستخفّ حلمه ضعفه في هذه اللغة الكريمة الشريفة، التي خوطب الكافّة بها، وعُرضت عليها الجنة والنار من حواشيها وأنحائها، وأصل اعتقاد التشبيه لله ﷻ بخلقه منها، وجاز عليهم بها وعنها، وذلك أنهم لما سمعوا قول الله سبحانه وعلا عمّا يقول الجاهلون علوّاً كبيراً ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾[١]. وقوله عز وجل: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[٢]. وقوله عز وجل: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾[٣]. وقوله ﷻ: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾[٤]. وقوله عز وجل: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾[٥]. وقوله عز وجل: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾[٦]. وقوله عز وجل: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾[٧]. ونحو ذلك من الآيات الجارية هذا المجرى، وقوله في الحديث «خلق الله آدم على صورته»[٨] حتى ذهب بعض هؤلاء الجهال في قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾[٩]، أنها ساق ربهم ـ ونعوذ بالله من

---

(١) الزمر ٥٦.
(٢) البقرة ١١٥.
(٣) ص ٧٥.
(٤) يس ٧١.
(٥) الرحمن ٢٧.
(٦) طه ٣٩.
(٧) الزمر ٦٧.
(٨) ينظر الحديث في التوحيد ١٥٣ح١١.
(٩) القلم ٤٢.

ضَعفَة النظر، وفساد المعتبر ـ ولم يشكّوا أن هذه أعضاء له، وإذا كانت أعضاء كان هو لا محالة جسماً مُعضّى، على ما يشاهدون من خلَقه، عزّ وجهه وعلا قدره، وانحطّت سوامي الأقدار والأفكار دونه.

ولو كان لهم أُنس بهذه اللغة الشريفة أو تصرّف بها، أو مزاولة لها، لَحَمتْهُم السعادة بها، ما أصارتهم الشّقوة إليه بالبعد عنها، ولذلك ما قال رسول الله ﷺ لرجل لحن: «**أرشدوا أخاكم فقد ضلّ**»، فسمّى اللحن ضلالاً، وقال ﷺ: «**رحِم الله امرأً أصلح من لسانه**»، وذلك لما علمه ﷺ مما يعقب الجهل لذلك ضدّ السداد، وزيغ الاعتقاد(١).

وقد كان استنباط الفقهاء من خلال ممارسة وظيفتهم الشرعية، بأن اللحن في القراءة ـ وهي من واجبات الصلاة اليومية ـ يُعدّ مبطلاً لها. قال العلاّمة الحلّي:

وتبطل الصلاة لو أخلّ بحرف واحد من الحمد أو من السورة، إن قلنا بوجوبها أجمع عمداً بلا خلاف في الحمد، لأن الإتيان بها واجب، لقوله ﷺ: «لا صلاة إلاّ بفاتحة الكتاب».

فوجودها أجمع يتوقّف على وجود أجزائها، فمع الإخلال بحرفٍ منها يقع الإخلال بها، وكذا الإعراب لو أخلّ به عامداً بطلت صلاته، سواء أتى بحركات مضادّة لحركات الإعراب وسكّن الحرف، وسواء اختلّ المعنى باللحن، كما لو كسر كاف ﴿إِيَّاكَ﴾، أو ضمّ تاء

---

(١) الخصائص ٣: ٢٤٥. وبلغ من حرص عالم كبير كالأصمعي أن يسمع الكلام الفصيح بأن يتقصّد لذلك وهو عالم بأسرار الفصاحة، قال: بلغني عن بعض العرب فصاحة فأتيته فوجدته يخضب، فقال: يا ابن أخي، ما الذي أقصدك إليّ، قلتُ: الاستئناس بك، والاستماع من حديثك. العقد الفريد ٢: ٣٦٤.

﴿أَنۡعَمۡتَ﴾، أو لم يُغيّر، كما لو ضمّ هاء ﴿ٱللَّهِ﴾ خلافاً لبعض الجمهور(١).

وقال ابن قدامة من الجمهور: يلزمه أن يأتي بقراءة الفاتحة مرتّبة مشدّدة غير ملحون فيها لحناً يُحيل المعنى، فإن ترك ترتيبها أو شدّة منها، أو لحن لحناً يحيل المعنى مثل أن يكسر كاف ﴿إِيَّاكَ﴾، أو يضمّ تاء ﴿أَنۡعَمۡتَ﴾، أو يفتح ألف الوصل في ﴿ٱهۡدِنَا﴾ لم يُعتدّ بقراءته إلاّ أن يكون عاجزاً عن غير هذا(٢).

وكذلك قال المحقق الكركي في تكبيرة الإحرام، باعتبار أنها ركن، ومنها: الإخلال بحرف من إحدى الكلمتين ولو بوصل إحدى الهمزتين، أمّا همزة أكبر فظاهر لأنها همزة قطع، وأما همزة الله فلأنها وإن كان همزة وصل في الأصل، إلاّ أن سقوط همزة الوصل إنّما هو في الدرج في كلام متّصل، ولا كلام قبل التكبير أصلاً، فإن النيّة إرادة قلبية لا دخل للسان فيها، والآتي بها نطقاً آت بما لم يُعتدّ به، فلو وصل حينئذٍ خالف المنقول من صاحب الشرع، فلم يخرج من العهدة، ويحكى عن بعض متأخري الأصحاب الوصل حينئذٍ والأصحّ خلافه.

ومنها: إبدال حرف بغيره.

ومنها: زيادته، كما لو زاد همزة في أول اسمه تعالى بحيث يصير استفهاماً، أو مدّ الهمزة كذلك،أو زاد ألفاً بين الباء والراء من أكبر بحيث صار جمع كبر(٣). وهو الطبل ـ لم يصحّ ما أتى به، سواء

---

(١) منتهى المطلب في تحقيق المذهب ٢: ٦٥ في القراءة ط البحوث الإسلامية مشهد.

(٢) المغني لابن قدامة المقدسي ١: ٥٥٩ ط دار الفكر بيروت ١٩٨٣م.

(٣) الكَبَر: طبل له وجه واحد، وقيل هو الطبل ذو الرأسين، وفي حديث عبد الله بن زيد صاحب الأذان: أنه أخذ عوداً في منامه ليتخذ منه كَبراً، وجمعه كبار. اللسان (كبر).

قصد المعنى الذي صار إليه اللفظ أم لا، على الأصحّ في الثاني لأن دلالة اللفظ على المعنى بالوضع لا بالقصد [(١)].

ولم ينس أصحابه ﷺ عنايته بالفصاحة وتقويم اللسان، فقد كان جلّ اهتمامهم في دفع اللحن عن اللسان العربي، فقد رووا عن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب أنه كان يطوف بالكعبة إذ سمع رجلين خلفه يرطنان فالتفت إليهما فقال لهما: ابتغيا إلى العربية سبيلاً [(٢)]، وقال رجل للحسن ـ وهو من التابعين ـ: إنّ لنا إماماً يلحن. قال: أميطوه [(٣)].

وكانت اللغة الفصحى على مدى قرون هي لغة الدول والحكومات الإسلامية، واللغة الرسمية للدواوين ولكتّاب الدول، على اختلاف نحلهم السياسية والمذهبية، وحتى الدول التي نشأت خارج حدود الدول العربية الإقليمية، كانت الفصحى هي لغة الدولة والعلم والثقافة فيها.

الفصيح والغريب

لا يعني بالضرورة أن يكون اللفظ الفصيح غريباً على ذهن السامع، وإن كانت بعض الألفاظ العالية في فصاحتها تتسم بغرابتها وبعدها عن ذهن المتلقي، ومن ذلك ألفاظ رويت عنه ﷺ في خبر رواه الراوي عن موسى بن إبراهيم التيمي عن جدّه:

---

(١) جامع المقاصد في شرح القواعد ٢: ٢٣٦ ط مؤسسة أهل البيت قم، وبهذا أفتى ابن قدامة من الجمهور، ينظر المغني ١: ٥٤٢.

(٢) المصنّف لعبد الرزاق الصنعاني ٥: ٤٩٦ ح ٩٧٩٣.

(٣) ونُسب إلى عبد الملك بن مروان قوله: اللحن في الكلام أقبح من التفتيق في الثوب، والجدريّ في الوجه، وقيل له: لقد عجّل إليك الشيب يا أمير المؤمنين. قال: شيّبتني ارتقاء المنابر وتوقّع اللحن. العقد الفريد ٢: ٣٠٨.

قال: بينا رسول الله ﷺ ذات يوم جالساً مع أصحابه إذ نشأت سحابة، فقالوا: يا رسول الله، هذه سحابة.

فقال ﷺ: **كيف ترون قواعدها ؟**

قالوا: ما أحسنها وأشدّ تمكّنها !

قال ﷺ: **وكيف ترون رَحاها ؟**

قالوا: ما أحسنها وأشدّ استدارتها !

قال ﷺ: **فكيف ترون بواسقها ؟**

قالوا: ما أحسنها وأشدّ استقامتها !

قال ﷺ: **كيف ترون برقها، أوَميضاً أم خفواً، أم يُشقّ شقاً ؟**

قالوا: بل يُشقّ شقاً.

فقال ﷺ: **فكيف ترون جَونها ؟**

قالوا: ما أحسنه وأشدّ سواده !

قال ﷺ: **الحَيا.**

فقالوا: يا رسول الله، ما رأينا الذي هو أفصح منك.

فقال ﷺ: **وما يمنعني، وإنما أُنزل القرآن بلساني، لسانٌ عربيّ مُبين.**

قال أبو بكر: قوله ﷺ «**قواعدها**» أسافلها، و «**رحاها**» وسطها ومعظمها، و «**بواسقها**» أعاليها، وإذا استطار البرق من أعاليها إلى أسافلها، فهو الذي لا يشكّ في مطره.

و«**الخَفو**» أضعف ما يكون من البرق، و «**الوميض**» نحو التبسم الخفيّ، يقال: وَمضَ وأومض [١].

(١) وصف المطر والسحاب لابن دريد ص٣ بتحقيق عز الدين التنوخي ط دار صادر بيروت.

فمفردات الرواية تبدو غريبة الألفاظ في زماننا هذا، لأننا ابتعدنا عن عصر الفصاحة، أما أصحابه ﷺ فكانوا يجدون هذه الألفاظ مألوفة غير بعيدة ولا غريبة، بل هذا التأليف لهذه الألفاظ نوع من الفصاحة يبهر السامع، وكأنهم رأوا من العسير عليهم الإتيان بوصف السحاب بهذا البيان والإتقان، ويدلّك على ذلك قولهم: ما رأينا الذي هو أفصح منك ! فقد شهدوا له بالسبق وهم أهل الفصاحة. وغريب اللغة لديه ﷺ ليس من المنكر أو المتروك أو الممات، فإنهم عدّوا من اللغات: منكراً، ومتروكاً، ومماتاً.

فالمنكر: ما لا يعرفه بعض أئمة اللغة لكونه مهمل الاستعمال في العرب إلاّ قليلاً، وهو دون الضعيف الذي ينحطّ عن درجة الفصيح، كقول بعض أهل الحجاز: ذأى يذأى[1]، وهي في لغة أهل نجد ذوى يذوي، وعليها الاستعمال.

والمتروك: ما كان قديماً من اللغات ثم تُرِكَ واستُعمِل غيره، كالغزّين في بعض تلك اللغات المتروكة، أي الشدقين، واحدهما غزّ، والبعقوط والبلوط، أي القصير ونحو ذلك.

والممات: ما أُميت استعماله، كأسماء الأيام والشهور في اللغة الأولى على ما زعموا[2].

---

(١) يقولون: ذأى العودُ والبقلُ يَذْأى ذَأواً وذَأيا: ذوى وذبل. اللسان (ذأى).

(٢) ذكر ابن دريد أن أسماء الأيام في الجاهلية: السبت شيار، والأحد أوّل، والإثنين أهون وأوهد، والثلاثاء جُبار، والأربعاء دُبار، والخميس مؤنس، والجمعة العَروبة. وأسماء الشهور في الجاهلية: المؤتمر: المحرّم، صفر: ناجر، ربيع الأول: خوّان، ربيع الآخر: وُبْصان وَوبصان، جُمادى الآخرة: رُنّى، رجب: الأصمّ، شعبان: عاذل، رمضان: ناتق، وشوّال: وَعِل، ذو القعدة: وَرْنة، وذو الحجة: بُرَك. الجمهرة ٣: ١٣١١ ط بيروت.

ومما عدّوه متروكاً من أسماء العادة العربية لزوال معانيه في الإسلام: المرباع وهو ربع الغنيمة، وكان خاصّاً بالرئيس، ثم صار في الإسلام: الخمس. والنشيطة: وهي أن ينشط[١] الرئيس، عند قسمة المتاع، الشيء النفيس يراه إذا استحلاه. والفضول: وهي فضول المقاسم كالشيء إذا قسم وفضلت منه فضلة. كاللؤلؤة والسيف والدرع والبيضة والجارية، فكان ذلك من قسم الرئيس، وقد جمع هذه العادات كلها ابن عنمة الضَبّي في مرثيته لبسطام بن قيس إذ يقول:

لك المرباع منها والصفايا   وحكمك والنشيطة والفضول[٢]

وليس المراد بالغريب الوحشي من الكلام، الذي نفر عن السمع، أو نفر السمع عنه، فإنّ أكثر وحشي الكلام هو من الكلام الذي لا يصار به إلى البلاغة المنشودة.

ويرى ابن الأثير ـ كأديب وناقد مارس العمل الأدبي ـ أن الألفاظ داخلة في حيّز الأصوات، فالذي يستلذّه السمع منها ويميل إليه هو الحَسَن، والذي يكرهه وينفر عنه هو القبيح.

ألا ترى أنّ السمع يستلذّ صوت البلبل من الطير وصوت الشحرور ويميل إليهما، ويكره صوت الغراب وينفر عنه، وكذلك يكره نهيق الحمار ولايجد ذلك في صهيل الفرس.

والألفاظ جارية هذا المجرى، فلا خلاف في أنّ لفظة المزنة والديمة حسنة يستلذها السمع، وأنّ لفظة البعاق قبيحة يكرهها السمع،

---

(١) يقال: نشطت وانتشطت، أي انتزعت. اللسان (نشط)، وباعتبار القبض والإمساك جاء لقوله ﷻ في وصف الملائكة عند قبض روح الإنسان ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطًا﴾ النازعات / ٢.

(٢) تاريخ آداب العرب للرافعي ١ : ١٦٨.

وهذه الألفاظ الثلاثة من صفة المطر، وهي تدلّ على معنى واحد، مع هذا فإنّك ترى لفظة المزنة والديمة، وما جرى مجراها، مألوفة الاستعمال، وترى لفظ البُعاق وما جرى مجراه، متروكاً لا يستعمل، وإن استُعمِل فإنما يستعمله جاهل بحقيقة الفصاحة، أو من ذوق غير سليم [(١)].

وما ذهب إليه ابن الأثير ينسحب على مفردات صغار الأدباء والشعراء، أما أمراء البلاغة والكلام وسادتهم، كعليّ ﷺ فإنّه حين وضع اللفظة في دعائه للاستسقاء: «وانشر علينا رحمتك بالسحاب المُنبعق والربيع المُغدِق» [(٢)]، يجعل الأذن البشرية تتشوّق وتطرب لهذه المفردة التي توحي بانصباب المطر، واندفاع الماء بشدّة لأرضٍ عطشى، وأكبادٍ حرّى، تودّ لو أن قصيف الرعد والرياح تصمّها.

وفي بحث الألفاظ مجرّدة عن سياقاتها لا يمكن لنا على العموم أن ندخل عنصر الجمال في صفتها أو نجردها من هذا العنصر لأنّ الألفاظ بصيغتها الانفرادية تنقل الصورة الذهنية للشيء من الخارج، وبضمّها إلى غيرها تشكل النصّ الأدبي [(٣)].

فالألفاظ المفردة لا تحمل في ذاتها جمالاً أو قبحاً إلاّ من خلال صياغتها في سياق خاص، عدا بعض الألفاظ المعتمة أو المهجورة والعامية، مما تتنافى مع المبادئ الصوتية المرتبطة بمخارج الحروف، أو المرتبطة بما هو شائع في بيئة خاصة. وعلاقة المفردة بما تقدّمها وتأخّر عنها من الألفاظ، هي التي تحدّد جمالية العبارة

---

(١) المثل السائر ١: ٩٠.
(٢) نهج البلاغة ١٧٢ ضمن خطبة ١١٥.
(٣) ينظر المستشرقون والدراسات القرآنية للدكتور محمد حسين الصغير ١٢٧ ط بيروت دار المؤرخ.

المفردة، حيث نجد أنَّ عبارة بعينها تبدو جميلة ومتناسقة في موقع، وتبدو قبيحة في موقع آخر [١].

فمفردة الفحمة لوحدها قاتمة ليست فيها شفافية وجمال، أمّا في سياق حديثه ﷺ: «**لا ترسلوا فواشيكم وصبيانكم، إذا غابت الشمس حتى تذهب فحمة العشاء**»[٢]، نجد للمفردة بعداً جمالياً وفق المعايير الفنية، فالمراد بفحمة العشاء: شدّة سواد الليل وظلمته، وإنّما يكون ذلك في أوله حتى إذا سكن فَوْرُه قلّت ظلمته، وقيل: فحمته ما بين غروب الشمس إلى نوم الناس، سُمّيت بذلك لحرّها لأنّ أول الليل أحرّ من آخره، ولا تكون الفحمة في الشتاء [٣].

قال الشريف الرضي: شبّه ـ عليه الصلاة والسلام ـ الظلمة في هذا الوقت بالفَحْمة، وهي الهَنة السوداء التي أحرقت النار أجزاءها وأحالتها عن هيئتها، والجمع فَحَمٌ، كسَعفَة وسَعَف، فكأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أقام شمس النهار مقام النار المتوقدة، فإذا انطفأ جاحمها وخَمَد متضرمها أعقب منها الحُمَم وخَلَفها الفَحم[٤].

قال أبو عبيد: والمحدثون يقولون: قَحمة [٥]، وقال ابن برّي: حكى حمزة بن الحسن الأصفهاني أنّ أبا المفضل قال: أخبرنا أبو معمر عبد الوارث قال: كنا بباب بكر بن حبيب، فقال عيس بن عمر في عرض كلام له: قَحمة العشاء، فقلنا: لعلّها فحمة العشاء، فقال: قحمة بالقاف، من قولهم: أسود قاحِم: شديد السواد كفاحِم. والقُحَم

---

(١) ينظر القواعد البلاغية في ضوء المنهج الإسلامي ٢٢٩.

(٢) مسند أحمد بن حنبل ٣: ٣١٢ علل الشرائع ٢: ٥٨٢، المجازات النبوية: ٣٨١.

(٣) لسان العرب ١٢: ٤٤٨ (فحم) وسائل الشيعة ٥: ٣٢٤.

(٤) المجازات النبوية ٣٤٧ رقم ٣٠٩.

(٥) غريب الحديث للهروي١: ١٤٦.

ثلاث ليالٍ من آخر الشهر لأنّ القمر قَحَم في دنوّه إلى الشمس[١].

وسواء كانت المفردة بالفاء أو بالقاف فإنّ النفس لا تتفاعل مع هذه المفردة لخلوّها من العنصر الجمالي، إلاّ أن وضعها في سياق كلام فني محكم كحديثه ﷺ جرّدها من سواد إيحاءاتها، وجعل لها وميضاً وإشراقاً في لوحة لغوية موجزة.

ومن ذلك حديثه ﷺ: «**ضمّوا فواشبكم في الليل حتى تذهب فحمة العشاء**»[٢].

والفواشي: كل شيء منتشر من المال، كالغنم السائمة والإبل وغيرها، لأنها تفشو، أي تنتشر في الأرض، واحدتها فاشية[٣].

ولو أخذنا مفردة أخرى هي (المعك)، والمعك في أصلها اللغوي الدلك، ومعكتُ الأديم أمعَكه معكاً، إذا دلكته دَلْكاً شديداً، ومعكه بالحرب والقتال والخصومة: لَواه[٤]، قد تبدو المفردة مجردة من سياقها خالية من الرشاقة، ولكن تجد لها خِفّة وجمالاً في حديث الرسول ﷺ حين وضعها في لوحة قصيرة: «**المَعْك طرفٌ من الظلم**»[٥].

وكذلك لو نظرنا إلى مفردة أخرى هي (الغِبّ)، وأصلها اللغوي بمعنى العاقبة، والإتيان في اليومين و الأكثر، والغبّ من ورد

---

(١) لسان العرب ١٢: ٤٦٤ (قحم) و٤٤٨ (فحم).

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٣: ١١٧، الفايق في غريب الحديث ٣: ٣٢، المجازات النبوية: ٣٨١.

(٣) لسان العرب ١٥: ١٥٦ (فشا).

(٤) ينظر لسان العرب ١٠: ٤٩٠ (معك).

(٥) المعجم الكبير للطبراني ٤: ١٧ ح ٣٥١٦، الجامع الصغير ٢: ٧٦١ ح ٩٢٢٥.

الإبل، وهو أن تشرب يوماً، ويوماً لا[١]. فهي كمفردة مفردة عن سياقها ليس فيها إيحاء جمالي، وكأنها لفظة منطفئة متلفعة بكساء من الهجران، إلاّ أن في سياق كلامه ﷺ: **«زر غِبّاً تزدد حبّاً»**[٢]، اكتسبت تألقاً وضياءً فلا تجد عتمة وغباراً فيها.

والعتر والعتيرة تبدو ثقيلة في نفسها، إلاّ أنّ الاستخدام النبوي لها سلب ما فيها من ثقل، وكأنها قد اكتسبت خفّة في سياق كلامه ﷺ، ومن ذلك ما جاء في الخبر: خطب رسول الله ﷺ بعرفة فقال: **«على كلِّ أهل بيت من المسلمين أضحى وعتيرة، تدرون ما العتيرة؟ التي تقولون الرجبيّة. أو التي يسميها الناس الرجبيّة»**[٣].

وسأله رجلٌ عن العتيرة فقال ﷺ: **«من شاء عتّر ومن شاء لم يعتّر»**[٤].

وقال أبو عبيد: في حديثه ﷺ: **«لا فرعة ولا عتيرة»**[٥].

قال أبو عمرو: هي الفرعة والفرَع، بنصب الراء، قال: وهو أول ولد تلده الناقة، وكانوا يذبحون ذلك لآلهتهم في الجاهلية فنُهوا عنه.

قال أبو عبيد: وأما العتيرة فإنها الرجبية، وهي ذبيحة كانت تذبح في رجب يتقرب بها أهل الجاهلية، ثم جاء الإسلام فكان على

---

(١) لسان العرب ١: ٦٣٥ (غبب).

(٢) المعجم الكبير للطبراني ٤: ٢١ ح ٣٥٣٥، بحار الأنوار ٧١: ٣٥٥، مجمع الزوائد للهيثمي ٨: ١٧٥.

(٣) المعجم الكبير للطبراني ٣: ٢٦٢ ح ١٢٣٥١، الآحاد والمثاني ٢: ٤٥٧ ح ١٢٥٧ الغارات ٢: ٤٣٦.

(٤) المعجم الكبير للطبراني ٢٠: ٣١٠ ح ٧٣٨، شواهد التنزيل ٢: ٥٠٣ ح١٤.

(٥) كمال الدين وتمام النعمة ٢٤٥، بحار الأنوار ٢٢: ١٤٩.

ذلك حتى نُسخ [١] بعد.

قال أبو عبيد: ومنه الحديث عن النبي ﷺ: **«إنّ على كلّ مسلم في كلّ عام أضحاةً وعتيرةً»**، قال: والحديث الأول فيما نرى ناسخ لهذا، يقال منه: عَتَرْتُ أعْتِر عتراً [٢]، وعتر الشاة والظبية ونحوهما يعتِرها عتراً، وهي عتيرة: ذبحها، والعِتر والعتيرة مثل ذبح وذبيحة [٣].

ومن ذلك قوله ﷺ: **«لا تزال أمّتي على شريعة حسنة، ما لم يظهر فيهم ثلاث: ما لم يُقبض منهم العلم، ويكثر فيهم ولد الحِنْث [٤]، ويظهر فيهم الصقّارون.**

قيل يا نبي الله: وما الصقّارون؟

قال ﷺ: نشء يكون في آخر الزمان تحيتهم بينهم التلاعن» [٥].

---

(١) قال ابن الأثير: كانت العرب تنذر النذور، فتقول: إنْ كان كذا وكذا أو بلغ شاؤه كذا وكذا فعليه أن يذبح منها من كلّ عشرة كذا في رجب، وكانت تُسمّى العتائر واحدتها عتيرة، والعتيرة منسوخة، وإنّما كان ذلك في صدر الإسلام، وأمّا العتيرة التي كانت تعتبر في الجاهلية فهي الذبيحة تُذبح للأصنام فيصبّ دمها على رأسها. جامع الأصول ٣: ٣٨٩.

(٢) غريب الحديث للهروي ١: ١٢١.

(٣) ينظر لسان العرب ٤: ٥٣٧ (عتر).

(٤) الحِنْث: الإثم، ومعنى أولاد الحنث، أي أولاد الزنا، من الحنث: المعصية، ومن ذلك جاء قوله عز وجل: ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾. الواقعة ٤٦.
ويروى الحديث بالخاء المعجمة والباء الموحّدة. اللسان ٢: ١٣٨ (حنث)، وتحنّث: تعبّد واعتزل الأصنام، مثل تحنّف، وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ كان قبل أن يوحى إليه يأتي حِراءً وهو جبل بمكة فيه غار، وكان يتحنّث فيه الليالي، أي يتعبّد. اللسان (حنث)، والتحنّث التبرر. قال ابن هشام: تقول العرب التحنّث والتحنّف، يريدون الحنفية، فيبدلون الفاء من الثاء، كما قالوا جدف وجدث، يريدون القبر، وقال: حدثني أبو عبيدة أن العرب تقول: فمّ في موضع ثمّ. سيرة ابن هشام ١: ٢٥١، وتحنّف فلان، أي تحرّى طريق الاستقامة. مفردات الراغب ١٣٣ (حنف).

(٥) مسند أحمد ٣: ٤٩٣، مجمع الزوائد ١: ٢٠٢، المعجم الكبير للطبراني ٢٠: ١٩٥ رقم ٤٣٩.

ومن ذلك قوله ﷺ: «**إيّاكم والعَضْه، أتدرون ما العَضه؟ قال: النميمة بين الناس**»[(١)]، قال الأصمعي: العَضْه القالة القبيحة[(٢)].

وإيراد الوحشي من الكلام في مخاطباتهم ومكاتباتهم يعدّ أمراً قبيحاً، نقلوا عن إبراهيم بن المهدي أنه قال لكاتبه عبد الله بن صاعد: إيّاك وتتبّع الوحشي من الكلام طمعاً في نيل البلاغة، فأنّ ذلك هو العيّ الأكبر، وعليك بما سَهُل مع تجنّبك ألفاظ السّفل[(٣)].

وقيل لأعرابي: مَن أبلغ الناس؟ قال: أسهلهم لفظاً وأحسنهم بديهة[(٤)].

وإذا كانت شوارد الألفاظ العربية لدى بعض الأعراب محفوظة فإنّ النبيﷺ ـ كمبلغ لرسالات السماء ـ يرى نفسه ناطقاً بها كأداة توصيل لابدّ منها، فالأعرابي الذي أتى النبيﷺ وقال له: طمش طاح فغادر شبلاً لمن النشب؟ أجابهﷺ بأن: **للشبل ممیطاً**[(٥)]، أعطاه حكم الشريعة في الميراث، فاللهﷻ حين أقدره على مخاطبة كلّ قبيلة بلهجتها، وعلّمه أسرارها، لأنّه سفيره وحجّته على عباده، ولَئلا تكون الأرض خالية من حجّة.

ونعلم من غير شكّ أنّ رسول اللهﷺ كان أفصح العرب فلم

(١) الفايق في غريب الحديث ٢: ٣٧٣، مسند أحمد بن حنبل ١: ٤٣٧، ميزان الحكمة ٤: ٣٣٦٩.

(٢) ينظر لسان العرب ١٣: ٥١٥ (عضه).

(٣) ينظر المزهر ١: ٢٣٤.

(٤) العقد الفريد ٢: ١٢١.

(٥) ينظر مجمع البحرين ٢: ١٠ باب ما أوله الباء (بوب). والنشب هو المال، والطمش هو الناس أو أحد الناس، وطاح أي هلك، وكان عليّ ؏ عارفاً لأسرار هذه اللغات فأجاب الأعرابي بمثل ما أجاب النبي ﷺ فقال ﷺ: «أنا مدينة العلم وعليّ بابها». الصراط المستقيم ٢: ٢٠.

يكن يتكلّم إلاّ بأفصح اللغات وأحسن التراكيب وأشهرها وأجزلها، وإذا تكلّم بلغة غير لغته فإنّما يتكلّم مع أهل اللغة على طريق الإعجاز وتعليم الله ﷻ ذلك له من غير معلم[١].

وإنّ الغرابة التي نلحظها في نصوص الحديث كانت ملحوظة لدى جيل القرن الثاني للهجرة، ولعلّنا لا نُغالي إذا قلنا بأن الصحابة كانوا ينوءون تحت هذا الإحساس بالعجز عن اللحاق بصفت الفصحاء، روى السيوطي أنَّ أحد الصحابة سُئل عن قوله عز وجل: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾[٢] فقال: أيّ سماء تظلّني وأيّ أرض تقلّني إن أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم.

وإذا كان ابن عبّاس الذي هو كالشمس شهرة في الفصاحة والبلاغة والعلم بالشعر والتفسير ولغات العرب، يقول: ما كنتُ أدري ما قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾[٣]، حتى سمعت قول بنت ذي يزن: تعال أفاتحك، تريد أخاصمك[٤]. فكان لابدّ من نشوء وظهور علم جديد، هو علم غريب القرآن وعلم غريب الحديث من بعد، ضرورة شرعية وعقلية، اقتضتها سياقات الزمن والبعد التدريجي عن عصر الفصاحة.

وكان ﷺ بين أظهر صحابته يفسّر ويُجلي الغرابة التي يرونها في ألفاظ الكلام، روى الصدوق عن زيد بن ثابت عنه ﷺ:

قال: يا زيد تزوّجت ؟

---

(١) خزانة الأدب للبغدادي ١ : ١٢ ط مصر.

(٢) عبس ٣١.

(٣) الأعراف ٨٩.

(٤) الإتقان في علوم القرآن ١ : ١٤٩ ط الحلبي مصر.

قلتُ: لا.

قال ﷺ: **تزوج تستعفف مع عفّتك، ولا تزوجن خمساً.**

قال زيد: من هنّ يا رسول الله ؟

قال ﷺ: **لا تزوجنّ شهبرة ولا لهبرة ولا نهبرة ولا هيدرة ولا لفوتاً.**

قال: يا رسول الله، ما عرفت مما قلتَ شيئاً وإنّي بأمرهنّ لجاهل.

قال رسول الله ﷺ: ألستم عرباً ؟!

فقال ﷺ: **فأمّا الشهبرة فالزرقاء البذية، وأمّا اللهبرة فالطويلة المهزولة، وأمّا النهبرة فالقصيرة الدميمة، وأما الهيدرة فالعجوز المدبرة، فأما اللفوت فذات الولد من غيرك** [١].

ومثل هذا البيان لهذه المفردات لا يتأتى لصحابته ﷺ، ومن هذا قوله ﷺ: **«ما ضرّ صاحب هذه لو تصدّق بأطيب من هذه، إن صاحب هذه لَيأكل الحشف يوم القيامة،** ثم أقبل علينا فقال: **أما والله يا أهل المدينة لتدعنها مذللة أربعين عاماً للعوافي.** ثم قال ﷺ: **أتدرون ما العوافي؟**

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال ﷺ: **الطير والسباع»** [٢].

وقال ﷺ: **«اللّهمّ إني أعوذ بك من شرّ الأعميين.**

---

(١) الخصال ٣١٦ ح ٩٨ ومعاني الأخبار ٣١٨ ط جماعة المدرسين قم.

(٢) كنز العمال ٦: ٤٠٩ ح ١٦٣٠١، المستدرك ٢: ٢٨٥. وفي رواية: العافية والواحد من العافية عافٍ، وهو كلّ من جاءك يطلب فضلاً أو رزقاً فهو عافٍ ومعتفٍ، من الإنس والدوابّ والطّير. اللسان (عفا).

قيل: يا رسول الله وما الأعميان؟

قال ﷺ: **السيل والبعير الصوول»**[١].

وقال ﷺ: **«الولد للفراش وللعاهر الأثلب.**

قيل: يا رسول الله ما الأثلب؟

قال ﷺ: **الحجر»**[٢].

وقد أبان ﷺ معنى الغراب الأعصم بقوله: **«مثل المرأة الصالحة في النساء كمثل الغراب الأعصم.**

قيل: يا رسول الله وما الغراب الأعصم؟

قال ﷺ: **الذي إحدى رجليه بيضاء »**[٣].

وقد وصف ﷺ الدّيوث بأنه صقور بقوله: **إن الله لا يقبل من الصَّقور صِرفاً ولا عِدلاً**

قيل: يا رسول الله ما الصقور؟

قال ﷺ: **الذي يدخل الرجل على أهله»**[٤].

وهكذا كان دأبه ﷺ يشرح لهم غريب اللغة، إلى أن حان له الالتحاق بالرفيق الأعلى، عندها تنامت الحاجة لعلم غريب الحديث

---

(١) المعجم الكبير للطبراني ٢٤: ٣٤٤ ح ٨٥٨، مجمع الزوائد ١: ١٤٤، كنز العمال ٢: ١٨٣ ح٣٦٤٩، وينظر المجازات النبوية: ٢٨٥. قال أبو زيد: صَؤُل البعير يَصْؤُل، بالهمز، صآلة، إذا صار يشلّ الناس ويعدو عليهم فهو صؤول. اللسان (صول).

(٢) مسند أحمد بن حنبل ٢: ٢٠٧، المجازات النبوية: ١٤٠.

(٣) المعجم الكبير للطبراني ٨: ٢٠١ ح ٧٨١٧، الكافي ٥: ٥١٥ ح ٢و٣و٤، دعائم الإسلام ٢: ١٩٥ ح ٧٠٧، تهذيب الأحكام ٧: ٤٠١ ح ٩.

(٤) المعجم الكبير للطبراني ١٩: ٢٩٤ ح ٦٥٤، مستدرك سفينة البحار ٦: ٢٨٠ نقلاً عن الجعفريات: ٩٧، مستدرك الوسائل ١٤: ٢٣٥ ح٣.

وغريب القرآن وغريب اللغة، وقد كان ﷺ واضع لبنات هذه العلوم ومؤسسها فانبرت جهابذة العلماء من بعده في إكمال تأسيس هذه العلوم.

وكثيراً ما كان ﷺ يسأل أصحابه عن مثل هذا فيوضحه لهم، ويسددهم إلى موقعه، واستمر عصره على ذلك، وهو العصر الذي جُمعت فيه اللغة واستفاضت، وامتنع العرب عن الزيادة فيها بعد أن سمعوا القرآن الكريم، وراعتهم أسرار تركيبه، فلم يكن يومئذٍ من يتجوّز ويقتضب ويشتق ويضع غيره ﷺ.

يقول الرافعي: مع أنه كان لا يتأتّى ذلك بالروية، ولا يستعين عليه بالفكر، ولا يجمع بالنظر، إنّما هو أن يعرض المعنى فإذا لفظه قد لبسه واحتواه وخرج به على استواء، لا فاضلاً ولا مقصّراً، كأنما كان يُلهم الوضع إلهاماً، وليس ذلك بأعجب من مخاطبته وفود العرب بما كان لهم من اللغات والأوضاع الغريبة التي لا تعرفها قريش من لغتها، ولا تهتدي إلى معانيها، ولا يعرفها بعض العرب عن بعض، ثم فهمه عنهم مثل ذلك على اختلاف شعوبهم وقبائلهم [(١)].

يقول البستاني: وما يلحظ من اللغة المعتمة التي تشيع في أدب ما قبل الإسلام، عائد إلى عدم ألفتنا ـ نحن المعاصرين ـ إليها وليس إلى عيوب فنيّة، فهناك من الألفاظ في مستوى المفردة ما يرتبط بأسماء أماكن أو أشياء أو أعلام بشرية وحيوانية أو مجرد تقليد، قد اختفى أثرها نهائياً من قاموس اللغة الحديثة، ولذلك تبدو مهجورة أو غريبة بالنسبة إلينا.

أما بالنسبة إلى بيئة ما قبل الإسلام فتبدو مألوفة إلى حدّ ما، ما

---

(١) تاريخ آداب العرب للرافعي ٢ : ٣١٧.

دامت تخصّ أماكن أو أشخاصاً أو أوصافاً لحيوان لم نشاهده البتّة، أو شاهدناه ولكننا لا نَخْبُر شيئاً من سماته الحركية والجسمية، فمثلاً حين نواجه هذا البيت:

بـزفَـوفٍ كـأنـهـا هِـقْـلَـةٌ أمُّ رئـالٍ دوّ يّـةٌ سَـقْـفـاء [١]

نجد أنَّ البيت بأكمله لا توجد فيه مفردة واحدة مألوفة، إذا استثنينا حرف الجر وأداة التشبيه والكُنية ؛ الباء، كأنها، أم، فـ: زفوف وهقلة ورئال ودوّية وسقفاء تتصل بوصف النعامة، فهقلة: نعامة، ورئال: ولدها، وسقفاء: الطويلة المنحنية، والدوّ: المفازة التي تقطعها، وزفوف: سرعة سيرها.

لذلك عندما نقرأ البيت المتقدّم لا نفقه منه شيئاً، إذا اعتمدنا على لغتنا المعاصرة، نظراً لتضمّنه أوصافاً لحيوان لم نَخْبُر حياته، والأمر نفسه إذا وقفنا على هذا البيت، من حيث عدم خبرتنا للبيئة:

يـجـتـاف أصـلاً قـالـصـاً مُـتـنـبّـذاً بِعُجُوبِ أنقاء يَميل هَيامها [٢]

حيث يرتبط الوصف بوحش اقتحم أصول بعض الشجر داخل كثبان من الرمل مما لا نخبر مثل هذه البيئة الجغرافية، فتبدو العبارة غريبة على أسماعنا.

لكن حتى في نطاق العبارة المطلقة التي لا تخص اسماً أو شيئاً

---

(١) الزفيف سرعة المشي، وقيل: هو أوّل عَدْو النعام. والنعامة يقال لها زَفوف. اللسان (زفف).

والهِقل: الفتيّ من النعام والأنثى هِقْلَة. اللسان (هقل). والدوّ: الصحراء التي لا نبات بها، والدَّوِّية منسوبة إليها. اللسان (دوا). ونعامة سقفاء: طويلة العنق. اللسان (سقف).

(٢) يجتاف بمعنى يدخل، يصف مطراً. والقالص: المرتفع. والمُتَنَبِّذ: المتنحّي ناحية. وعَجْبُ الكثيب: آخره المستدقّ منه والجمع عُجوب. والهَيام: الرمل الذي ينهار. اللسان (جوف) و (عجب).

لم نألفه بيئياً، نجد أن العبارة غريبة علينا أيضاً، وذلك بسبب كونها مهجورة حالياً، إلاّ أنها مألوفة الاستخدام عصرئذٍ[١].

فلا يعني أن يكون اللفظ الغريب مخلاً بفصاحة قائله أو بالعكس، قال الخطّابي: والغريب من الكلام يقال على وجهين: أحدهما أن يراد به بعيد المعنى غامضه، لا يتناوله الفهم إلاّ عن بعد ومعاناة فكر. والوجه الآخر أن يراد به كلام من بعدت به الدار ونأى به المحل من شواذ قبائل العرب، فإذا وقعت إلينا الكلمة من لغاتهم استغربناها، وإنما هي كلام القوم وبيانهم[٢].

ويقول الدكتور بسيوني عبد الفتاح: ولا يجوز أن نطلق على ما خفي علينا معناه من النظم الكريم، وأحاديث الرسول ﷺ، وأشعار الفحول من الشعراء، بأنّه غريب ومنافٍ للفصاحة، لأنّ الذي يُعتدّ به ويُعوّل عليه في ذلك إنما هم العرب الخُلّص الذين سلمت سليقتهم ولم تفسد طباعهم[٣].

الفصاحة والأدب

عرّف الأدب بأنه: تعبير جميل عن الحقائق، وهذا ما يميزه عن العلم الذي يُعرّف بأنه: التعبير المنظّم عن الحقائق، ويميزه عن الكلام العادي الذي يمكن أن يُعرّف بأنه: التعبير الذي يفتقد عنصر الجمال أو التنظيم، كما هو طابع الحديث اليومي[٤].

---

(١) تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي ٢٨.

(٢) مقدمة غريب الحديث لأبي سليمان الخطّابي البستي ١: ٧٠ بتحقيق العزباوي، نشر جامعة أم القرى مكة.

(٣) علم المعاني لبسيوني عبد الفتاح ١: ١٧ ط مؤسسة المختار القاهرة.

(٤) ينظر القواعد البلاغية في ضوء المنهج الإسلامي للدكتور محمود البستاني ١٩.

والفصاحة مفهومها أوسع وأكثر دلالةً من الأنماط الثلاثة فهي قد تكون في الحديث الأدبي، ومرّة في الحديث العلمي، ومرّة في طابع الحديث اليومي، ومن هذا المنطلق حكمنا بأن الأدب الجاهلي قبل ظهور دعوة الرسول المصطفى ﷺ كان منه فصيحاً وكان منه غير فصيح وفقاً للمعايير الموضوعة، فإذا دققنا النظر في اللغة الأدبية لنتاج ما قبل الإسلام أمكننا بسهولة ملاحظة أن قسماً منها يتميز بما هو بدوي وملتوٍ وغريب ومعتم في اللغة.

يقول البستاني: وإذا كان جفاف الصحراء، وجفاف القيم، والتقليد الفنّي الصرف الذي يحاول المحافظة على اللغة المعتمة، تقف وراء هذا القسم من الأدب، فإن القسم الآخر منه يتميز بلغة مشرقة دون أدنى شكّ، والسرّ في ذلك أنّ هناك بيئات زراعية من جانب، وبيئات خبرت شيئاً من الثقافة المجاورة من جانب آخر، وتنامي الأذواق من خلال ممارسة التجربة الأدبية من جانب ثالث، مضافاً إلى الحسّ الفطري من جانب رابع، وهو الحسّ الجمالي الذي يرثه الإنسان من حيث النزوع إلى الرقّة والنعومة والرشاقة والرهافة.

كلّ هذه الأسباب تقف وراء شيوع لغة مشرقة، حيث يتضمن مصطلح مشرقة خصائص الرقّة والنعومة والرشاقة والرهافة، اختصاراً لها[١]. والأدب والفن ينفث الحياة والنسيم في الكلمات فيخرجها من مقابر الهجران إلى دنيا الكشف والوجود، فالنص القرآني وأحاديث السنة وهبا الحياة والديمومة لمفردات الأدب العربي بتوظيفها في منظومة الاستعمال القرآني والحديثي.

وعندما ندرج القرآن الكريم والسنّة النبوية ضمن الأدب أو

---

(١) تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي للدكتور محمود البستاني ٢٧.

الفن، فلأن مفهوم الأدب أو الفن هو: التعبير الجميل عن الحقائق، بغض النظر عن الشكل الخارجي لهذا التعبير، وبغض النظر عن حجم العناصر الجمالية فيه، فالجمال يتأتّى من عنصر إيقاعي وصوري وبنائي ولفظي . . .، حيث يتفاوت تركيز هذه العناصر من شكل لآخر أو نص لآخر [١].

وما دام توفر أحد العناصر أو بعضها أو جميعها متحققاً في النص، فحينئذٍ يكتسب صفة الفن، حتى لو كانت نسبة الاستخدام ضئيلة، وحتى لو كانت الحقائق المُستَهدَف توصيلها حقائق علمية تستند إلى لغة الأرقام والمنطق، إلاّ أنها وشّحت بشيء من عناصر الفن.

وتصريح القرآن الكريم بأنه: لغة فنية [٢]معجزة، وتصريح النبي ﷺ بأنه: أفصح العرب وأبلغهم، يدلّنا على أنَّ الفن لا ينحصر في قيمه الإيقاعية والصورية بدليل أنّ القرآن والسنّة لا يعتمدان ذينك العنصرين دائماً، بل يسلكان منحىً غير ذلك[٣].

وعلى الرغم من أنّ كلّ فني وأدبي يحقّق بعض الإدراك التقليدي الذي يشعر به متلقي النص، إلاّ أنّ نصوص القرآن والحديث النبوي تتجاوز حدود الإدراك الذي يستطيع المرء أن يكوّنه عن الفن والأدب، وينبغي أن نضع في الاعتبار أنّ اصطناع الفارق بين لغة الفن وبين

---

(١) يرى سارتر أنّ مقوّمات الفن الجميل تتجلى في النثر دون الشعر، حيث يقول: من البديهي أن في كل شعر بعض مظاهر خاصة بالنثر، أي بعض مظاهر نجاح، والعكس صحيح فأكثر أنواع النثر جفافاً يحتوي على شيء من الشاعرية، أي أنواع إخفاق. ينظر ما الأدب؟ :٤٢.

(٢) قال ﷻ مؤكداً عجزهم عن صناعة نظم مثل النظم القرآني: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾. البقرة / ٢٣.

(٣) تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي ٥٩ و ٦٠.

اللغة العلمية أو العادية أو المباشرة، ينبغي ألاّ يصرفنا عن إدراك الحقيقة التي تذهب إلى أنّ المهم هو توصيل الحقائق بلغة ملائمة، بحيث أن السياق هو الذي يحدد ما إذا كان الأفضل مثلاً أن يُصاغ النص وفق نسبة كبيرة أو ضئيلة من عناصر الإيقاع والصورة وغيرهما من عناصر الجمال، بل أنّ السياق يحدد أيضاً ما إذا كان الأفضل أن يُعتمد لغة الفن أم لغة العلم في توصيل هذه الحقيقة أو تلك؟ وهو أمر يفسّر لنا كيف أنّ نصوص التشريع الإسلامي تعتمد تارة ـ في طرح مفهوم كالجهاد مثلاً ـ لغة الفنّ الصرف، وأخرى لغة العلم الصرف، وثالثة اللغة المزاوجة بينهما[١].

وإذا تناولنا النصوص التي صدرت عنه ﷺ في لغتها العلمية أو الأدبية، وأخضعناها لمعايير وموازين الفصاحة التي تحددت لمسنا ألفاظه ﷺ بصورها الثلاث، من حديث فنّي أو علمي أو يومي راجحة في فصاحتها.

وقد وجد بعضهم صعوبة في حفظ ألفاظه ﷺ ونقلها ؛ لفصاحتها وبلاغتها لذلك قال بعضهم: أتينا رسول الله ﷺ فقلنا له: بآبائنا أنت وأمهاتنا يا رسول الله، نسمع منك الحديث فلا نقدر أن نؤدّيه كما سمعناه.

فقال ﷺ: **إذا لم تحلّوا حراماً ولم تحرموا حلالاً وأصبتم المعنى فلا بأس**[٢].

---

(١) ينظر نفس المصدر ٦١.

(٢) المعجم الكبير للطبراني ٧: ١٠٠ ح ٦٤٩١، كنز العمال ١٠: ٢٣٠ ح٢٩٢١٥ ونحوه روى الكليني عن محمد بن مسلم قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أسمع الحديث منك فأزيد وأنقص؟

قال إن كنت تريد معانيه فلا بأس. أصول الكافي ١: ٥١ ح٢.

وتأسيساً على ذلك رأى الأستاذ أحمد حسن الزيات أنّ الأحاديث التي صحّت عن رسول الله ﷺ قليلة، ولكنها موسومة بطابع البيان والإلهام والعبقرية، لنشأته في قريش واسترضاعه في بني سعد، وهي أفصح القبائل العربية، وتضلعه من لغة القرآن، واطلاعه على لغة العرب، وقدرته الفطرية على ابتكار الأساليب العالية، ووضع الألفاظ الجديدة لما استحدث من المعاني الدينية والفقهية.

وقال: إن الحديث لم يدوّن إلاّ حوالي منتصف القرن الثاني للهجرة، وكان قبل ذلك إنّما يروى من الذاكرة، والذاكرة كثيراً ما تخون، فناله من تغيير الكلمات واختلاف الروايات أكثر مما نال الشعر الجاهلي، وزاد في ذلك أن العلماء أجازوا رواية الحديث بالمعنى لاستحالة المحافظة على اللفظ في نقله مشافهة طوال هذه السنين.

وقال: أمّا أكثر الأحاديث فإن عليها رواء الطبع وجلال النبوة ورونق الفصاحة، وللرسول ﷺ قدرة عجيبة على التشبيه والتمثيل وإرسال الحكمة وإجادة الحوار، وتلك ميزة الرسل من قبل ولا سيّما المسيح عليه السلام، لأن المرسلين في مقام المعلّمين، وأنجح ما يكون في التعليم، طريقة التمثيل والمحاورة. كقوله عليه السلام:

«إن المنبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى.

المؤمن هيّن ليّن كالجمل الأنف إن قيد انقاد، وإن أُنيخ على صخرة استناخ.

لو توكّلتم على الله حقّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خمصاً وتروح بِطاناً.

مثل المؤمن كالنحلة لا يأكل إلاّ طيباً ولا يطعم إلاّ طيباً.

إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم.

المؤمن إلف مألوف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يُؤلف.

إنّ أحبّكم إليّ وأقربكم مني مجالس يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقاً، الموطّأون أكنافاً الذين يَألَفون ويُؤلَفون. وإنّ أبغضكم إليّ وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة، الثرثارون، المتشدّقون المُتَفَيْهِقُون[١].

إيّاكم وخضراء الدّمن، المرأة الحسناء في المنبت السوء.

المرأة كالضلع إن رُمْتَ قوامَها كسرتها.

الناس كلهم سواسية كأسنان المشط.

جنّة الرجل داره.

إن قوماً ركبوا سفينة فاقتسموا، فصار لكلّ رجل منهم موضع، فنقر رجلٌ منهم موقعه بفأس فقالوا له: ما تصنع؟ قال: هو مكاني أصنع فيه ما أشاء، فإن أخذوا على يده نجا ونجوا، وإن تركوه هلك وهلكوا »[٢].

والأشكال الأدبية خضعت وما زالت لمعايير وضعها البلاغيون ونقاد الأدب في تمييز جودتها، ودرجة هذه الجودة وتفصيلاتها، ومن هذه المعايير التي وضعوها، هي: عنصر الإيقاع الذي عُرف في الشعر بالوزن والقافية، وفي النثر بالسجع أو الجناس وغيرهما، ولابدّ للفن من توفر عنصر الإيقاع فيه.

---

(١) قال الأصمعي: أصل الفهق الامتلاء، فمعنى المتفيهق الذي يتوسّع في كلامه ويفهق به فمه. غريب الحديث للهروي ١ : ٧١.

(٢) تاريخ الأدب العربي للزيات ٧٣ ـ ٧٥.

والإيقاع يمكن لنا تحديده وتعريفه بأنه: مجموعة من الأصوات، أي الحروف التي تنتظم في وحدات خاصة ذات نسق متجانس فيما بينها، بحيث يتحقق هذا النسق من خلال التكرار لتلكم الأصوات حرفاً واحداً متكرراً، أو وحدة صوتية ذات نبر أو مقطع يتألف من صوتين مثلاً، أو وحدة صوتية تتألف من مجموعة مقاطع تكون عبارة منظمة، أو وحدات صوتية من العبارات المتوازنة فيما بينها [(١)].

وقد نالت النصوص النبوية حظّاً كبيراً من الإيقاع الصوتي الجميل الذي زاد فصاحته ﷺ إشراقاً وجمالاً وبهاءً نسجته سليقة أصيلة، نجدها في الروضة من نصوصه ﷺ، وإذا كانت عنايته ﷺ بهذا العنصر الجمالي مقصودة، فإن ذلك منه ﷺ بمثابة غرض توصيلي تعليمي.

قال ابن جنّي: إنّ العرب كما تُعنى بألفاظها فتصلحها، وتهذّبها وتراعيها، وتلاحظ أحكامها، بالشعر تارةً، وبالخطب أخرى، وبالأسجاع التي تلتزمها وتتكلف استمرارها، فإنَّ المعاني أقوى عندها، وأكرم عليها، وأفخم قدراً في نفوسها، فأول ذلك عنايتها بألفاظها، فإنها لما كانت عنوان معانيها، وطريقها إلى إظهار أغراضها ومراميها، أصلحوها ورتّبوها، وبالغوا في تحبيرها وتحسينها، ليكون ذلك أوقع لها في السمع، وأذهب بها في الدلالة على القصد.

ألا ترى أنَّ المثل إذا كان مسجوعاً لذّ لسامعه فحفظه، فإذا حفظه كان جديراً باستعماله، ولو لم يكن مسجوعاً لم تأنس به النفس، ولا أنقت لمستمعه، وإذا كان كذلك لم تحفظه، وإذا لم تحفظه لم تُطالب أنفسها باستعمال ما وضع له، وجيء به من أجله [(٢)].

---

(١) ينظر القواعد البلاغية في ضوء المنهج الإسلامي للدكتور البستاني ٢٧١.
(٢) الخصائص ١: ٢١٥.

ومن هذا الاعتبار يمكن لنا تفسير توفر عنصر الإيقاع في رياض نصوصه ﷺ الزاهرة، ومن ذلك قوله ﷺ: «**من حفظ ما بين فُقْميه وفخذيه دخل الجنّة**»[(١)] والفقمان: اللّحيان. والمراد من حفظ لسانه وفرجه دخل الجنّة[(٢)].

وقال ﷺ: «**من تفاقر افتقر**»[(٣)].

ومنها قوله ﷺ: «**من قلَّ طَعمه صَحَّ بدنه وصفا قلبه، ومن كثُر طعمه سَقمَ بدَنه وقَسا قلبه**»[(٤)].

و قوله ﷺ: «**من كانت الدنيا همّه كثُر في الدنيا والآخرة غمّه**»[(٥)].

و قوله ﷺ: «**من لا يَرحَم لا يُرحَم ومن لا يَغفِر لا يُغفَر له**»[(٦)].

و قوله ﷺ: «**المؤمن غِرٌّ كريم والفاجر خِبٌّ لئيم**»[(٧)].

و قوله ﷺ: «**اللّهمّ اجعلني شكوراً، واجعلني صبوراً، واجعلني في عَينيّ صغيراً، وفي أعين الناس كبيراً**»[(٨)].

«**اللّهمّ اجعلني من الذين إذا أحسنوا استبشروا، وإذا أساءوا**

---

(١) المعجم الكبير للطبراني ١: ٣١١ ح ٩١٩، مجمع الزوائد ١٠: ١٠٠.
(٢) لسان العرب ١٢: ٤٥٧ (فقم).
(٣) تحف العقول :٤٢، بحار الأنوار ٧٣: ٣١٦ ح٦ و ٧٤: ١٤٥ ح٤٧.
(٤) بحار الأنوار ٦٣: ٣٣٨ ح٣٥.
(٥) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٣: ٣٤٣.
(٦) مسند أحمد ٤: ٣٦٥، المعجم الكبير ٢: ٣٥١، من لا يحضره الفقيه ٤: ٣٨٠ ح٥٨١٠، الاستبصار ١: ٢٦٧.
(٧) أمالي الطوسي :٤٦٢ح٦٣، بحار الأنوار ٦٤: ٢٩٨ ح٢٣، مسند أحمد ٢: ٣٩٤.
(٨) مجمع الزوائد ١: ١٨١، الجامع الصغير ١: ٢٢٠ ح ١٤٧٩.

استغفروا»[(١)].

«اللّهمّ احفظني بالإسلام قائماً، و احفظني بالإسلام قاعداً، و احفظني بالإسلام راقداً، ولا تشمت بي عدوّاً ولا حاسداً»[(٢)].

«اللّهمّ إني أسألك من كل خير خزائنه بيدك، وأعوذ بك من كلّ شر خزائنه بيدك»[(٣)].

ومن دعاءٍ له في بعض أيّامه التي لقي فيها العدو: «اللّهمّ مُنزِل الكتاب، ومُجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم»[(٤)].

ومن ذلك قوله ﷺ: «اللّهمّ لا عيش إلاّ عيش الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة»[(٥)].

وقال ﷺ: «اللّهمّ استر عوراتي، وآمن رَوعاتي»[(٦)].

وقال ﷺ: «يسّروا ولا تعسّروا، وبشّروا ولا تنفّروا»[(٧)].

وقال ﷺ: «التمسوا الجار قبل الدار، والرفيق قبل الطريق»[(٨)].

---

(١) الكافي ٢: ٢٤٠ ح٣١، من لا يحضره الفقيه ٢: ١٤١ ح١٩٧٨، مسند أحمد ٦: ١٢٩.

(٢) مستدرك الحاكم ١: ٥٢٥، الجامع الصغير ١: ٢٢٢ ح ١٤٨٦.

(٣) مستدرك الحاكم ١: ٥٢٥ وانظر الدروس للشهيد الأول ٢: ٣٢، وكشف الغطاء ٢: ٤٠٩.

(٤) جامع الأصول لابن الأثير ٣: ١٨٤ ح ١٠٤٦، بحار الأنوار ٢٠: ٢٠٩.

(٥) المعجم الكبير للطبراني ٦: ١٨٧ ح ٥٩٤٩، ينظر الخرائج والجرائح ٣: ١٠٤٨، مناقب آل أبي طالب ١: ١٦١، بحار الأنوار ١٩: ١٢٤.

(٦) جامع الأصول ٥: ٦٥ ح ٢٢٣٠ عوالي اللآلىء ١: ٣٨١.

(٧) المعجم الكبير للطبراني ١١: ٢٨ ح ١٠٩٥١، عوالي اللآلىء ١: ٣٨١ ح٥.

(٨) المعجم الكبير للطبراني ٤: ٢٦٩ ح ٤٣٧٩، مجمع الزوائد ٨: ١٦٤، الكافي ٨: ٢٤.

وإذا كان السجع في البلاغة نمطاً من التعبير الجميل عن الحقائق، للتأثير في عقل وقلب المتلقي، لتحقيق الاستجابة المطلوبة، فإنّ الدكتور البستاني يرى خطأ المعايير البلاغية الموروثة في ميدان ما يسمّى بعلم البيان والمعاني والبديع، فيقول:

فلو وقفنا ـ على سبيل المثال ـ عند معايير السجع لَلحظنا أنّ البلاغيين يزعمون بأنّ أحسن السجع ما تساوت عبارته، ثم ما طالت عبارته الثانية، ثم ما طالت عبارته الثالثة، ولا يحسن عكس ذلك، ويعللون ذلك بتعليل يفتقر إلى معرفة أبسط المبادئ النفسية، حيث يدّعون أنَّ السامع إذا واجه عبارة أقصر من الأولى، يكون في استجابته للنّص متعثراً.

ثم يقول: ترى هل أنّ قوانين الإدراك البشري وما يواكبها من قوانين الاستجابة تؤيّد مثل هذه المزاعم التي ينشرها البلاغيون، دون أن يلمّوا بمبادئ الإدراك البشري وطرائقه؟!

ثم يقول: أصحيح أن استجابة الإنسان لجمال العبارة ينحصر في مواجهته لعبارة صغيرة، ثم لعبارة تكبر عن الأولى، ثم لعبارة تكبر عنهما . . . إلخ.

إنّ أمثلة هذه المبادئ، فضلاً عن كونها لا تتسق مع قوانين الإدراك البشري، حيث إنّ هذه القوانين تخضع كلّ شيء للسياق، بحيث تصحّ القاعدة التي ذكرها البلاغيون في سياق خاص، ولا تصحّ في سياق آخر، حيث يكون العكس هو الصحيح.

أقول: إنَّ معايير البلاغيين المشار إليها، فضلاً عن كونها منافية لأبسط مبادئ التذوق الفني، فإنها مخالفة لبلاغة القرآن الكريم ذاته، فكم من عبارات مسجوعة، تبدأ طويلة ثم تقصر، أو تبدأ قصيرة ثم

تطول، ثم تقصر من جديد، أو تتوازن حيناً، وتتأرجح بين الطول والقصر حيناً ثالثاً.

إنّ أمثلة هذه المعايير تظل منافية لمبادئ المعرفة، ولبلاغة القرآن ذاته، حينئذٍ هل يصحّ أن نعتمد على هذه المعايير المنحرفة عن القرآن وبلاغته في حقل البلاغة القديمة؟.

إن هذه العيوب ونظائرها تحملنا على إعادة النظر في البلاغة الموروثة، ومحاولة صياغتها من جديد في ضوء النصوص الشرعية ـ الكتاب والسنة ـ حيث نحاول أن ننتزع قواعدها من نصوص القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ وأهل البيت (عليهم السلام)، وهي نصوص إعجازية تخطّت حدود الزمن، بحيث صيغت بنحو تتوافق مع سائر التطورات التي شهدتها العصور الأدبية، ومنها المعايير البلاغية الحديثة[1].

وبخصوص السجع والجناس وغيرهما باعتباره العنصر الثاني بعد الصورة في توفره في الحديث الفني، قال أيضاً:

أما عنصر الصوت أو الإيقاع، حيث يجيء في المرتبة الثانوية فلأنه ينطوي على بعد جمالي يجتذب المتلقي فيساهم في تشويقه على تلقي الحديث، وحمله على النظر فيه، ومن ثم الإفادة منه من خلال اقترانه بما هو جميل، حيث إنّ اقتران الشيء بما هو محبّب إلى النفس يجعل الإفادة من مضمونه أسرع وأعمق[2].

ومهما كان نوع الأدب شعراً كان أو نثراً فإنّ قارئ النصوص الراقية منه تجذبه الألفاظ والعبارات بإيقاعاتها الجميلة وجرسها

---

(١) القواعد البلاغية في ضوء المنهج الإسلامي ١٦.

(٢) تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي ١٤٢.

المؤثر، وتلمس الكلمات أحاسيسه بأصواتها الموحية وصياغاتها المصوّرة، فتعلق في ذهنه مع ما تحمل من معانٍ وإيحاءات وما تعكسه من انفعالات، وتلقى صدىً في نفسه وتجاوباً في شعوره[١].

ومن هذا المنطلق والفهم للبلاغة نفسّر عدم تفاعل النبيّ ﷺ مع السجع الذي تضمّنته الرواية المروية عن عكرمة، قال:

كانت امرأتان ضرّتان فكان بينهما صخب، فرمت إحداهما الأخرى بحجرٍ فأسقطت غلاماً ميتاً، وماتت المرأة، فقضى على العاقلة الدية، فقال عمّها: إنها قد أسقطت يا رسول الله غلاماً قد نبت شعره، فقال أبو القاتلة: إنّه كاذب، إنّه والله ما استهلّ ولا عقل ولا شرب ولا أكل فمثله يُطلّ، فقال النبي ﷺ: **«أ سَجْعُ الجاهلية وكهانتها؟ أرى في الصبيّ غرّة»** [٢]، والغرّة عشر الدية.

وقيل الغرّة: العبد نفسه أو الأمَة، وأصل الغرّة البياض الذي يكون في وجه الفرس، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول: الغرّة عبد أبيض أو أمَة بيضاء، وسُمّي غرّة لبياضه[٣].

قال الشريف الرضيّ: إنّما جعل العبد أو الأمَة غُرّة لأنّهما أفضل ما يملكهما المالك، وأفخره، وأظهره، وأشهره، ولذلك سمّي أيضاً في لسانهم الفَرس غُرّةً، لأنه من أنفس ما يمْلك، ولمثل هذا المعنى أيضاً ما سمّوا الخيل جَبهةً.

وفي الحديث المشهور: **«ليس في الجبهة ولا في النخّة ولا في الكُسعة صدقة»**.

---

(١) ينظر الحصيلة اللغوية ١٣٦.

(٢) المعجم الكبير للطبراني ١١: ٢٣٠ ح ١١٧٦٧، سنن أبي داود ٢: ٣٨٤ ح٤٥٧٤.

(٣) النهاية ٣: ٣٥٣ (غرر). واستهلال الصبيّ: تصويته عند ولادته، وقوله (يطل) أي هدر. ينظر النهاية ٥: ٢٧١ (هلل) و ٣: ١٣٦ (طلل).

والنَّخَّة: الرقيق، ومن قال النُّخَّة بالضم، قال: هي البقر العوامل، والكُسعَة: الحمير، وهذا أشهر الأقوال في الحديث.

قال ابن أحمر:

إن نحن إلاّ أناسٌ أهل سائمةٍ
وما لهم دونها حَرثٌ ولا غُرَرُ

أي ليس لهم زرع يُعتمد، ولا خيل تُقتعد.

وقال الآخر:

كلّ قتيلٍ في كليب غُرّة
حتى ينال القتل آل مُرّة

يقول: كل قتيل نقتلهُ بكُليب من غير آل مُرّة عبدٌ لا نقتلهُ بَواءً، ولا نرضى به كِفاء.

وكأنّ فحوى الكلام أنّ العبد، والأمَة، والفرس، من أظهر الأسماء المملوكة، وأدلّها على وفارة الثروة، وفخامة النعمة، لأنّ غيرها من الأعراض في الأكثر لا يشتهر اشتهارها، ولا ينتشر انتشارها[١].

والكهانة التي أشار لها ﷺ نمط أدبي عرف في العصر الجاهلي بنحو ملحوظ، وترك تأثيره في مجتمع الجاهليين، بحيث أشار القرآن الكريم إليه في غمرة ردّه على المشركين الذي اتهمّوا محمداً ﷺ بأنه شاعر وكاهن . . .، وهذا يعني أنّ الكهانة لها فاعليتها في هذا العصر. والكاهن: هو الذي يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان، ويدّعي معرفة الأسرار، وقد كان في العرب كهنة كشِقّ

(١) المجازات النبوية ١٤ رقم ٧.

وسطيح وغيرهما، فمنهم من كان يزعم أنّ له تابعاً من الجنّ ورَئِيّاً يُلقي إليه الأخبار، ومنهم من كان يزعم أنّه يعرف الأمور بمقدِّمات أسباب يستدلّ بها على مواقعها من كلام من يسأله أو فعله أو حاله[١].

وتتميّز الكهانة باعتمادها على ظاهرة القَسم غالباً، بصفته تقليداً فنياً، كما أنها من حيث أدوات الفن تتميز بظاهرة السجع والتوازن ووحدة الفواصل في الغالب، حتى أن السجع يكاد يرتبط بها ويلازمها بنحو ملازمة القافية للشعر، ولذلك اشتهر الاستشهاد بسجع الكهّان بصفته سِمة لا تنفصل عن نتاجهم[٢].

ونوع الوظيفة التي يمارسها الفرد قد ينعكس على مجازاته واستعاراته وكناياته، وهذا ما نلحظه في أدب الكهّان، فالكاهن يريد أن يحرّف الحقائق لا أن يكشفها، فتجد الألفاظ غامضة مبهمة، حتى وإن خلت من معنى.

وقد فسّروا قوله عز وجل: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾[٣] بالكاهن.

علم ومعرفة النبيﷺ باللهجات العربية

كان النبيﷺ يكلّم كلّ قوم من العرب بلغتهم، ثم لا يكون إلاّ أفصحهم لساناً، وأعلمهم بتلك اللغات، وقد لمس عمر بن الخطاب منهﷺ ذلك، فقال: يا رسول الله، إنك تأتينا بكلام من كلام العرب

---

(١) ينظر اللسان (كهن).

(٢) ينظر تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي ٥٠.

(٣) النساء ٥١. ينظر تفسير مجاهد ١: ١٦١ ط مجمع البحوث الإسلامية باكستان بتصحيح عبد الرحمن السورتي.

وما نعرفه، ولنحن العرب حقاً[١].

ولهذا يُعد الحديث النبوي مصدراً غنياً من مصادر اللهجات العربية القديمة، وقد أسهم إسهاماً كبيراً في حفظ هذه اللهجات الفصيحة، وقد حفلت مصادر العربية الكبيرة بالأحاديث الواردة بهذا الشأن، بل دفعت كثرة هذه الأحاديث وأهميتها بعض علماء العربية إلى إفرادها بالتأليف، مثل أبي البقاء العُكبري المتوفى سنة ٦١٦ هـ في كتابه (إعراب الحديث النبوي)، وجمال الدين بن مالك المتوفى سنة ٦٧٢ هـ في كتابه (شواهد التصحيح لمشكلات الجامع الصحيح)، وما يمكن منه الإفادة في هذا الباب أمران رئيسان:

الأول: عدم جواز الطعن في فصاحة هذه اللهجات، ولو كانت خارجة عن القواعد النحوية العامة، لأن تلك اللهجات تسبق وضع القواعد، ممّا يهدم ما قيل كثيراً عن وقوع اللحن في بعض القراءات القرآنية، أو الأحاديث النبوية، أو منظوم العرب ومنثورهم.

الثاني: الإفادة من هذه اللهجات في تصحيح بعض مواقف العلماء الأوائل الذين ضعّفوا هذا اللفظ أو لحنوا ذلك القول، أو أنكروا وجوههما في كلام العرب، بسبب من نقص الاستقراء أو قصور الاطلاع[٢].

وكانت اللغات كثيرة، لأن العرب قبائل، وتحت كل قبيلة بطون متعددة، ثم الأفخاذ، ثم العشائر، ثم الفصائل، ولابدّ أن يكون قاموس الاختلاف قد عمّ هذه الأقسام كلها.

ولم يدوّن العلماء والرواة اللهجات على مناطق العرب قبل تهذيب قريش اللغة، ولكنهم تناقلوا من ذلك أشياء كانت لعهد

---

(١) ينظر البرهان في علوم القرآن للزركشي ١ : ٢٨٤.

(٢) ينظر الحديث النبوي وأثره في الدراسات اللغوية ٦١.

الإسلام، وأشياء أصابوها في أشعار العرب، مما صحّت روايته قبيل ذلك، أما سواد ما كتبوه، فقد شافهوا به العرب في بواديها وسمعوه منهم، وهو لا ريب من بقايا اللهجات الأولى التي كانت لعهد الجاهلية[١].

وإذا كان لكل قبيلة لهجتها أو لغتها الخاصّة بها، فإنّه كان إلى جانب هذه اللهجات جميعاً، لغة مشتركة جامعة استمدت خصائصها من لهجات شبه الجزيرة العربية وشرقيها، وكان التواصل بين العربي وأفراد قبيلته يتم بلغة هذه القبيلة، حتى إذا خطب أو نظم الشعر أو خاطب أحد أفراد القبائل الأخرى عمد إلى اللغة المشتركة[٢].

وكانت العرب يأخذ بعضها عن بعضٍ بالمخالطة والمجاورة، فربّما انتقل لسان العربي عن لغته إلى لغة قبيلة أخرى، وربما تداخلت اللغات فنشأت من اللغتين لغة ثالثة، على أنهم في ذلك لا يخرج كلّ منهم عن قياس نفسه ووزن طبعه، حتى كأن ألسنتهم تختلف مثل الاختلاف ما بين أجسامهم وأذواقهم.

فكلّ منهم يفصّل من الكلام ويتصرف في وجوه القول على حسب هذا القياس الذي خُلق فيه ورُكّب في طبعه، وكان مظهر قريحته، ومن هذه الجهة نشأ بينهم التنافس في إحكام اللغة والمفاخرة بالبيان وانحراف اللسان عن الشذوذ الذي يعتبرونه خِلْقياً في الألسنة الشاذة، وساعدتهم على ذلك مواقعهم وأيامهم وأسواقهم التي يقصدونها للتسوّق والبياعات والمنافرة والحكومة وغيرها مما هو من طبيعة المخالطة[٣].

---

(١) تاريخ آداب العرب للرافعي ١ : ١٢٨.
(٢) ينظر فقه اللغة العربية للدكتور أميل يعقوب ١٤٦.
(٣) تاريخ آداب العرب للرافعي ١ : ٩٢.

وإن الاختلاط بين القبائل العربية كسر قيود العزلة أمام اللهجات، فكانت تصطدم بعضها ببعض، فتُضطرّ اللهجتان المتصادمتان إلى الأخذ والعطاء، وهذا معناه التقارب بين لهجة وأخرى، وتُعتبر الجزيرة العربية ذات وحدة جغرافية من حيث المناخ، فلا توجد موانع جغرافية كالجبال الشاهقة والأنهار الكبيرة التي تمنع الهجرة، وينطبق هذا على كلّ الجزيرة العربية، ما عدا بعض مناطق اليمن حيث تمكّنت بعض القبائل من العزلة الاجتماعية، فاحتفظت بلهجتها نقية، وساعدت على نموها وتطورها بعيداً عن اللهجات الأخرى(١).

ولم يكن امتزاج اللغات ولا اتحاد اللهجات تامّاً من كلّ وجهٍ عند انبثاق نور الإسلام، وإنّما بقي على نواحي الألسنة كالفتح والإمالة، والإظهار والإدغام، والمدّ والقصر، وتحقيق الهمز وتخفيفه، وترقيق الحرف وتفخيمه، وضم الهاء والميم في نحو (عليهُم وإليهُم)، فلما نزل القرآن بلغة قريش ولهجتهم ؛لم يستطع من عداهم من العرب أن يتغلبوا في الزمن اليسير على الفطرة اللغوية، واللهجة الأمّية، فقرأوه بلحونهم وأقرّهم الرسول ﷺ على ذلك تيسيراً للقراءة وتسهيلاً على الناس (٢).

وبلغت رأفته ﷺ بالأمّة أن قال ﷺ: **«أقرأني جبرئيل عليه السلام على حرفٍ فراجعته، فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف»**(٣) وفي القرآن الكريم أكثر من خمسمائة جذر يعود إلى قبائل

---

(١) ينظر دراسة اللهجات العربية القديمة للدكتور داود سلوم ص١٢.

(٢) ينظر تاريخ الأدب العربي للزيات ٧٠.

(٣) مسند أحمد بن حنبل ١ : ٢٩٩، بحار الأنوار ٣١ : ٢٠٧ ح٨ نقلاً عن البخاري، جامع البيان للطبري ١ : ٢٨ ح١٧. وكان من أثر ذلك أن نشأ علم القراءات وبرز فيه علماء كثيرون، إلاّ أن فتوى الفقهاء في هذه القراءات هو الأخذ بسبعة منها، وما عدا ذلك غير جائز.

مختلفة ومتناثرة، ممّا يؤكد بأن القرآن لم يكن بلهجة قريش خالصاً، وإنما كُتِب بلهجة أدبية راقية، ربّما ساعدت قريش على احتضانها.

ولذلك فقد أصبحت لهجات القبائل التي حملتها كتب اللهجات والمعجمات من المفردات المتحجرة، حملتها القبائل معها إلى الأمصار، وسُجّلت في كتب الأدب، وحلّت محل الشاذ، على ما أجمعت عليه اللهجة الكبرى، أو اللغة الفُصحى والتي اعتُبِرَت اللغة الرسمية لكتابة القرآن فيها[١].

وقال الرافعي: وكان سبب اختلاف اللغات عند العرب كونهم أميين لا يكتبون فبقيت اللغة متعلّقة على الألسنة، تتغير ما دام يُتكلَّم بها، وما دامت ألسنتهم متصرّفة بالسليقة، أو ما هو في حكمها، كالتقليد الطبيعي الذي يأخذ به العربي للخفّة وانحراف لسانه إليه، طبيعةً لأنه يركّب منه قياس نفسه، كأنّه من منطقه الموروث[٢].

واللغات التي كانت قبل الإسلام لغات عِدّة تعرف بلغات القبائل، وبينها اختلاف في اللفظ والتركيب، كلغات تميم وربيعة ومضر وقيس وهذيل وقضاعة وغيرها، كما هو مشهور، وأقرب هذه اللغات شبهاً باللغة الساميّة الأصلية أبعدها عن الاختلاط، وبعكس ذلك القبائل التي كانت تختلط بالأمم الأخرى، كأهل الحجاز ممّا يلي الشام، وخصوصاً أهل مكّة من قريش، فقد كانوا أهل تجارة وسفر، شمالاً إلى الشام والعراق ومصر، وجنوباً إلى بلاد اليمن، وشرقاً إلى خليج فارس وما وراءه، وغرباً إلى بلاد الحبشة.

فضلاً عمّن كان يجتمع حول الكعبة من الأمم المختلفة، وفيهم

---

(١) ينظر دراسة اللهجات العربية القديمة للدكتور داود سلوم ص١٥.

(٢) تاريخ آداب العرب للرافعي ١ : ١٢٨.

الفرس والأحباش، والأنباط واليمنية والمصريون، غير الذين كانوا ينزحون إليها من جالية اليهود والنصارى، فدعا ذلك كله إلى ارتقاء اللغة، مما تولّد فيها أو دخلها من الاشتقاقات والتراكيب ممّا لا مثيل له في اللغات الأخرى[١].

ونظراً لاقتران اللغة العربية الفصيحة بلهجات عربية متعددة، أسميَت في العصور المتأخرة باللهجات العامية، كان لابدّ للمستشرقين وغيرهم ممن يُعنى بدول المسلمين وشعوبهم من الناطقين بالعربية وغيرها، من دراستها وتأسيس المدارس والمعاهد العلمية بهذا الخصوص لتحقيق أغراض سياسية واقتصادية، ففي إيطاليا دُرّست العامية في مدرسة نابولي للدروس الشرقية التي أنشئت سنة ١٧٢٧م، وفي النمسا أنشئت مدرسة القناصل في فينا سنة ١٧٥٤م، لأنها كانت تعلم القناصل لغات الشرق، ومنها العربية، مهتمة بلهجاتها العامية، ثم أسست سنة ١٨٥١م مدرسة للهجات الشرقية.

وفي فرنسا دُرست اللهجات العربية العامية في مدرسة باريس للغات الشرقية الحيّة التي أنشئت سنة ١٧٥٩م.

وفي روسيا أنشئت مدرسة لازارف للغات الشرقية في مدينة موسكو سنة ١٨١٤، وكانت تدرّس العربية ولغات شرقية أخرى، وفي عام ١٩٠٩م خَصصّت فرعاً لها لتدريس العربية ولهجتها العامية.

وفي ألمانيا أنشئ مكتب كبير في برلين لتدريس اللغات الشرقية ومنها العربية ولهجاتها المحليّة.

وفي المجر أُنشئت سنة ١٨٩١م الكليّة الملكية لعلوم الاقتصاد الشرقية وتدريس اللهجات، ومنها العربية.

---

(١) ينظر تاريخ آداب اللغة العربية لزيدان ١ : ٣٨.

وفي بريطانيا أنشأت جامعة لندن في أوائل القرن التاسع عشر فرعاً فيها لتدريس العربية الفصحى والعامية.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فقد كثُرت عندهم المؤلّفات الخاصّة باللهجات العامية نتيجة اهتمامهم بإدخال تدريس اللهجات العربية العامية في مدارسهم وجامعاتهم، ومن هذه المؤلفات:

١ ـ لهجة بغداد العامية، لـ ماسنيون.

٢ ـ لغة بيروت العاميّة، لـ أمانويل ماتسون.

٣ ـ لغة مراكش العاميّة وقواعدها، لـ ابن سميل.

٤ ـ قواعد العاميّة الشرقية والمغربية، لـ كوسان دوبر سفال.

٥ ـ عاميّة دمشق، لـ برغستراسر.

٦ ـ قواعد العربية العاميّة في مصر، لـ ولهم سبيتا.

٧ ـ اللهجة العربية الحديثة في مصر، لـ كارل فولرس.

٨ ـ العربية المحكيّة في مصر، لـ سلون ولموز.

٩ ـ المقتضب في عربية مصر، فيلوت وباول[(١)].

ولم تخلُ العربية ـ كسائر اللغات ـ من مستبشع اللغات ومستقبح الألفاظ على حسب تعبيرهم[(٢)]، من ذلك:

---

(١) ينظر مقدمة الدكتور حاتم الضامن لأربعة كتب في التصحيح اللغوي ص٨ ط مكتبة النهضة العربية بيروت ١٩٨٧م.

(٢) قال ابن جنيّ: فإذا كان الأمر في اللغة المعوّل عليها هكذا، وعلى هذا فيجب أن يقل استعمالها، وأن يتخير ما هو أقوى وأشيع منها، إلاّ أنّ إنساناً لو استعملها لم يكن مخطئاً لكلام العرب، لكنه يكون مخطئاً لأجود اللغتين، فأما إن احتاج إلى ذلك في شعر أو سجع فإنه مقبول منه، غير منعيّ عنه، وكذلك إن قال: يقول على من قياس من لغته كذا وكذا، ويقول على مذهب من قال كذا وكذا. الخصائص ٢: ١٢.

الكشكشة: وهي في ربيعة ومضر، يجعلون بعد كاف الخطاب في المؤنث شيناً، فيقولون: رأيتكش، وبكش، وعليكش، فنمهم من يثبتها حال الوقف فقط، وهو الأشهر، ومنهم من يثبتها في الوصل أيضاً، ومنهم من يجعلها مكان الكاف ويكسرها في الوصل، ويسكّنها في الوقف، فيقول: مِنْشِ، وعَلَيْش.

ومن ذلك الكَسْكَسة: وهي في ربيعة ومضر، يجعلون بعد الكاف أو مكانها في المذكر سيناً على ما تقدّم، وقصدوا بذلك الفرق بينهما.

ومن ذلك العَنعَنة: وهي في كثير من العرب في لغة قيس وتميم، تجعل بعد الهمزة المبدوءَ بها عيناً، فيقولون في أنّك عنّك، وفي أسلم عَسْلَم، وفي أُذُن عُذُن.

ومن ذلك الفَحْفَحة: في لغة هذيل، يجعلون الحاء عيناً.

ومن ذلك: الوكْم في لغة ربيعة، وهم قوم من كَلب، يقولون: عليكِم وبِكم، حيث كان قبل الكاف ياءٌ أو كسرة.

ومن ذلك الوهم: في لغة كلب، يقولون منهِم وعنهِم وبينهِم، وإنْ لم يكن قبل الهاء ياء ولا كسرة.

ومن ذلك العَجْعَجة: في لغة قضاعة، يجعلون الياء المشدّدة جيماً، يقولون في تميميّ تميمجّ.

ومن ذلك الاستنطاء: في لغة سعد بن بكر، وهذيل، والأزد، وقيس والأنصار، تجعل العين الساكنة نوناً إذا جاورت الطاء كأنطى في أعطى، وعلى لغتهم قرأ الحسن وطلحة بن مصرف قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾[١] بالنون، وروته أم سلمة عن النبي ﷺ[٢].

---

(١) الكوثر ١.

(٢) ينظر تفسير القرطبي ١٠: ٧٥٦٠ ط دار الغد العربي القاهرة.

ومن هذه اللغة أورد ابن الأثير له ﷺ: **«لامانع لما أنطيت، ولا منطي لما منعت»** و **«اليد المنطية خير من اليد السفلى»**[١] وروي عنه ﷺ أيضاً: **«ما أنطاك الله فخذه، ولا تسأل الناس شيئاً، فإن اليد العليا هي المنطية، واليد السفلى هي المنطاة، وأن مال الله مسؤول ومُنطى»** [٢].

ومن ذلك الوتم في لغة اليمن، تجعل السين تاءً كالنات في الناس.

ومن ذلك الشّنشنة: في لغة اليمن تجعل الكاف شيناً مطلقاً كلبَّيش اللّهم لبّيش، أي لبّيك.

ومن العرب من يجعل الكاف جيماً كالجعبة يريد الكعبة[٣].

قال ابن دريد: اعلم أنّ الحروف التي استعملتها العرب في كلامها في الأسماء والأفعال والحركات والأصوات تسعة وعشرون حرفاً، مرجعهن إلى ثمانية وعشرين حرفاً، منها حرفان مختصٌّ بهما العرب دون الخلق، وهما الظاء والحاء، وزعم آخرون أن الحاء في السريانية والعِبرانية والحبشية كثيرة، وأن الظاء وحدها مقصورة على العرب.

ومنها ستّة أحرف للعرب ولقليل من العجم، وهنّ العين والصاد والضاد والقاف والطاء والثاء، والباقي فللخلق كلّهم من العرب والعجم إلاّ الهمزة فإنها ليست من كلام العجم إلاّ في الابتداء.

---

(١) النهاية ٥: ٧٦ (نطا)، المصنف لعبد الرزاق ١١: ١٠٨ ح٢٠٠٥٥، مكاتب الرسول ٣: ٣٥٢.

(٢) كنز العمال ٦: ٤٦٤ ح ١٦٥٦٥، الفائق في غريب الحديث ٣: ٣٠٦.

(٣) ينظر المزهر ١: ٢٢١ معرفة الرديء المذموم من اللغات.

وهذه الحروف تزيد على هذا العدد إذا استعملت فيها حروف لا تتكلّم بها العرب إلاّ ضرورةً، فإذا اضطرّوا إليها حوّلوها عند التكلّم بها إلى أقرب الحروف من مخارجها.

فمن تلك الحروف الحرف بين الباء والفاء، مثل پور إذا اضطروا إليه قالوا: فور، ومثل الحرف الذي بين القاف والكاف، والجيم والكاف، وهي لغة سائرة في اليمن مثل: جمل إذا اضطروا قالوا: كمل، بين الجيم والكاف، ومثل الحرف الذي بين الياء والجيم، وبين الياء والشين مثل: غلامي، فإذا اضطروا قالوا: غلامج، فإذا اضطرّ المتكلّم قال: غلامِش، وكذلك ما أشبه هذا من الحروف المرغوب عنها.

فأمّا بنو تميم فإنهم يلحقون القاف باللهاة فتغلظ جداً، فيقولون للقوم: الكَوم، فتكون القاف بين الكاف والقاف، وهذه لغة معروفة في بني تميم، قال الشاعر:

ولا أگول لـگِـدْر الـگـوم گـد نـضـجـت
ولا أگـول لـبـاب الـدار مـگـفـول

وكذلك الحرف الذي بين الياء والجيم إذا اضطرّوا قالوا: غلامج أي غلامي، وكذلك الياء المشدّدة تُحوَّل جيماً فيقولون: بصرجَ وكوفجّ كما قال الراجز:

خـالـي عُـوَيـفٌ وأبـو عَـلِـجٌ المُـطـعِـمان الّلـحـم بـالـعَـشِـجّ
وبـالـغـداة فِـلَـقَ الـبـرْنِـجّ

وكذلك ياء النسبة يجعلونها جيماً فيقولون: غلامجّ، فإذا اضطروا قالوا: غلامش، فيجعلونها بين الشين والجيم، وكذلك ما يُشبه هذا من الحروف المرغوب عنها، وهذه اللغة تُعرف في كاف مخاطبة المؤنث، يقولون: غلامش، غلامك يا امرأة، إذا خاطبوا المرأة، قال راجزهم:

تــضــحــكُ مــنــي أنْ رأتــنــي أحْــتَــرِش
ولــو حَــرَشْــتِ لــكــشــفــتِ عــن جِــرِشْ
عــن واســعٍ يــغــرق فــيــه الــقَــنْــفَــرِشْ

فجعل كاف الخطاب شيناً.

وأنشد لمجنون ليلى:

فــعــيــنــاشِ عــيــنــاهــا وجــيــدُشِ جــيــدُهــا
ســوى عــنَّ عــظــم الــســاق مــنــشِ دقــيــق

أراد عيناكِ وجيدكِ وأنّ ومنكِ، وإذا اضطر هذا الذي هذه لغته قال: جيدش وغلامش، بين الجيم والشين لم يتهيأ له أن يفرده، وكذلك ما أشبه هذا من الحروف المرغوب عنها[(١)].

ولئن لم ينطق الرسول ﷺ ببعض الأصوات القبلية كالعنعنة والكشكشة والكسكسة والشنشنة ... مما وصفه علماء اللغة العرب بالمذموم الرديء من اللغات، لما ألغى ذلك تأثير الحديث النبوي وترابطه مع هذه الأصوات عن طريق النقلة والرواة الذين كانوا أقواماً من العرب لا من قريش فحسب، وكانوا يتناقلون حديث النبي ﷺ ويحملونه بلغاتهم، لا بلغة قريش تيسيراً عليهم بالتحمل والأداء، ومن ذلك رواية أبي هريرة حديثه ﷺ: «**إذا قلت لصاحبك والإمام يخطب يوم الجمعة: أنصت، فقد لغيتَ**»[(٢)] قالوا: هي لغة أبي هريرة وأصل الحديث لغوت.

ولا غرو في ذلك، فإن ما كان له في القرآن وجه، وهو التيسير على الأمّة من قراءته على الأحرف السبعة، فإنّه يكون له في الحديث وجهٌ من باب الأولى، وهكذا كان يردّد البعض من أهل اليمن الدعاء

---

(١) مقدمة جمهرة اللغة ١: ٤١ ط بيروت، دار العلم للملايين.

(٢) مسند أحمد ٢: ٢٤٤ و ٥٣٢ و ٢٧٢.

النبوي المشهور في مراسيم الحجّ «لبّيك اللّهمّ لبّيك» وفقاً لشنشنتهم قائلين: لبيش اللّهمّ لبيش، مثلما كان يردد أعراب الشّحر وعُمان القول الإسلامي (ما شاء الله كان) فينطقونه: مشا الله كان [(١)].

ووجود اللغة المحلية بجانب اللغة الفصيحة ظاهرة طبيعية في كل اللغات، وليس وجودها في اللغة العربية بالأمر الشاذ.

ولكن اتساع اللهجات المحلية على حساب اللغة المشتركة الأدبية والتحرك عليها لمسحها واجتثاثها يُعدّ أمراً خطيراً، لذلك نشأت حركة لغوية دائبة اهتمت بجمع ما شاع على ألسنة الناس من كلام يخالف سنن الكلام العربي الفصيح خشية امتداد خطره إلى اللغة الأدبية المشتركة، فانبرى العلماء للذبّ عن هذه اللغة الشريفة فألّفوا كتباً كثيرة، كان لها الأثر الكبير في صيانة اللغة وتنقيتها من اللحن والعاميّ والدخيل، فذكرت الخطأ المستعمل والصواب الذي يجب أن يجري به الاستعمال.

وكانت هذه الكتب تهدف إلى خدمة اللغة الفصيحة عن طريق تقويم ألسنة العامة وتصحيح أخطائهم، وأُطلق على هذا اللون من التأليف اسم (لحن العامّة)، وسمّيت كتب أخرى من هذا اللون من التأليف بأسماء تلائم الغرض منها، فمن هذه الأسماء: إصلاح المنطق، تثقيف اللسان، تقويم اللسان، تصحيح التصحيف، وتحرير التحريف، الجمانة في إزالة الرِّطانة، التنبيه على غلط الجاهل والنبيه ... وما من شك أنّ تشدّد اللغويين في رقابتهم كان ضرورياً لكبح جماح الخارجين على اللغة الفصيحة[(٢)].

---

(١) الحديث وأثره في الدراسات اللغوية ٦٢.

(٢) ينظر مقدمة الدكتور حاتم الضامن لأربعة كتب في التصحيح اللغوي ط مكتبة النهضة العربية بيروت.

خصائص الألفاظ النبوية
وسرّ الإعجاز والفصاحة فيها

يظهر للدارس من أوّل وهلة أن اللفظ النبوي اتّسم بخصائص ميّزته من بين النصوص بسمات واضحة نلقي عليها أضواءاً، ومن هذه السِمات:

١ ـ **الاقتصاد والإيجاز في لغة الحديث**: لو تتبعنا الألفاظ التي صدرت عنه ﷺ، سواء كانت في لغته الأدبية، أو العلمية التشريعية، أو في لغة الحديث والخطاب اليومي الدارج، كإنسان يتعايش ويتحاور مع الآخرين، لَلاحظنا أنّ الاقتصاد والإيجاز في هذه الألفاظ أمرٌ واضحٌ وبيّن، فلم تجد في كلامه وخطبه ﷺ فضلاً ولا زيادة لا يقتضيها السياق أو الموقف، فكلّ شيء له تقدير وحساب، فالنبيّ ﷺ يفهم أن الله ﷻ وضع لكلّ شيء ميزاناً وتقديراً وفق نظام دقيق، قال الله عز وجل: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[١]، وقد فسّروا القدر المقدور هو ما كان على مقدار من غير زيادة ولا نقص[٢].

وهذا التقدير الذي قيس به العالم رُسمَت به أبعاده طال الكلام النبوي، فالنبي ﷺ أداة ربّانية وضعت بمقدار، وصُنعت بصناعة كاملة

---

(١) الأحزاب: ٣٨.

(٢) ينظر التبيان للشيخ الطوسي ٨: ٣٤٥.

لا فضل فيها ولا زيادة، صناعة خالق كامل، لا داعي للزيادة والنقصان فيما يقول، وقد قالﷺ واصفاً وضعه النبوي: «**وما أنا من المتكلّفين**»(١)، أي لا أتكلّف ولا أتخرّص ما لم أؤمر به.

وقال ﷺ: «**المتكلّف له ثلاث علامات: ينازع من فوقه، ويتعاطى ما لا يُنال، ويقول ما لا يعلم**»(٢).

وقد وصفهﷺ هند ابن أبي هند فقال: لا يتكلّم في غير حاجة، يفتتح الكلام ويختتمه بأشداقه، ويتكلم بجوامع الكلم، فصل لافضول ولا تقصير(٣).

وقال الرافعي: الكلام النبوي جامع مجتمع، لا يذهب في الأعم الأغلب إلى الإطالة، بل كالتمثال، يأتي مقدّراً في مادته ومعانيه(٤).

وكانت العرب تستحسن الإيجاز في الكلام وتعدّه من الفصاحة، فذُكِر عن ذي الرمّة قال: قاتل الله جارية بني فلان ما أفصحها؛ فقلت لها يوماً: كيف كان المطر عندكم؟ فقالت: غِثنا ما شئنا(٥)، فجاءت بألفاظ قليلة معاني كثيرة أغنت عن الإسهاب والتطويل، والعرب إلى الإيجاز أميل وعن الإكثار أبعد(٦).

وكانوا يمتدحون الإيجاز ويعدّونه من محاسن الكلام، ويرون كثرة الكلام من العيوب، قال الشنفرى يصف امرأةً:

---

(١) ص: ٨٦.
(٢) تفسير القرطبي ١٥: ٢٣٠، الخصال: ١٢١، معدن الجواهر: ٣٣.
(٣) المعجم الكبير للطبراني ٢٢: ١٥٦ ح ٤١٤.
(٤) تاريخ آداب العرب ٢: ٣٩٢.
(٥) الفاضل في صفة الأدب الكامل ٢٣١ ط بيروت دار الغرب الإسلامي.
(٦) ينظر الخصائص لابن جنيّ ١: ٣٨.

كأنّ لها في الأرض نِسْياً تقُصّه   على أمّها وإنْ تخاطبك تَبْلتِ

أي تقطّع كلامها، فلا تطيق الكلام ولا تكثره، إذا تحدثت وتكلّمت، ولكنّها جاءت بالمعنى في كلمة واحدة(١).

وقال ذو الرمّة:

لها بشر مثل الحرير ومنطقٌ   رخيم الحواشي لا هُراء ولا نَزْر

قوله: رخيم الحواشي، أي مختصر الأطراف،وهذا ضدّ الهَذْر والإكثار، وذاهب في التخفيف والاختصار(٢).

وكانﷺ يندب للإيجاز والاقتصاد في الكلام، وفي حديث جرير أنّه قالﷺ له: «إذا قُلْتَ فأوجِزْ». أي أسرع واقْتَصِر(٣).

والإيجاز في كلامهﷺ هو إيجاز مفيد ومستقل بنفسه، ومهما بلغ الاقتصاد اللغوي في استهلاك الألفاظ، فهو يعطيك تمام المعنى وفائدته، وهذا ما لا يستطيعه أُدباء الدنيّا، وليس أدباء العرب وبلغاؤهم، فقوله ﷺ: «الحربُ خدعة»(٤) بما يحمله من دلالات في فنون الحرب والقيادة، من هذه الدلالات توفّر عنصر المباغتة والمفاجئة في إدارة المعركة، وكتمان الخطّة العسكرية وتحرّك الجيش، لأنّ المدلول اللغوي يقول: كل شيء كتمته فقد خدعته(٥) وهو كامل المعنى وتامّه بأقل المفردات وأكثفها.

---

(١) ينظر جمهرة اللغة ١: ١٩٧ ط حيدر آباد. وتبلت مقلوب من البتل، والبتل: القطع. وعلى أمّها: أي على قصدها وطريقها، أي تقطّع كلامها رويداً رويداً، أي ينقطع كلامها من خفرها، أو تقطع وتفصِل ولا تُطوّل، وينظر اللسان (بلت).

(٢) الخصائص لابن جنيّ ١: ٢٨.

(٣) لسان العرب ٥: ٤٢٧ (وجز).

(٤) المعجم الكبير للطبراني ٣: ٨٢ رقم ٢٧٢٨، من لا يحضره الفقيه ٤: ٣٧٨ ح ٥٧٩٤، تهذيب الأحكام ٦: ١٦٢ ح١.

(٥) ينظر جمهرة اللغة ١: ٥٧٩ ط بيروت.

واختلافهم في الحديث بين فتح الخاء وضمّها من أسرار فصاحته ﷺ، وقد اختار[١] ثعلب الفتحة وقال: ذُكر لي أنها لغة النبي ﷺ وهي فَعْلَة من الخَدْع، يعني أن المحارب إذا خَدَع من يحاربه مرّة واحدة وانخدع له ظَفِرَ به وهَزَمه.

والخُدْعة بالضم، معناها أنه يخدع فيها القِرْنَ، وروى الكسائي: خُدَعة - بضم الخاء وفتح الدال - جعله نعتاً للحرب، أي أنها تخدع الرجال، ومثله هُمَزَة و لُمَزَة ولُعَنَة، للذي يَهْمز ويَلْمِز ويَلْعَن، وهذا قياس[٢].

ومجمل المعنى أنّ المحارب إذا خَدَع مِن يحاربه مرّة واحدة وانخدع له ظَفِرَ به وهَزَمه.

وإيصال المتلقّي إلى معنى الظفر ونهاية الحرب وتمامها تمّ بكلمتين تامتين، موزّع بينهما زخم الحرب وإيقاعها المهول، وثقل الحرب وشدّتها في حرف الحاء الذي ينبض بالحدّة والحماسة، وكذلك قعقعة الحِراب والرماح قد سكنت في هذا الحرف الذي نبس به ﷺ بأوجز الكلام وأقلّه، وكأن حرف الخاء الذي وضع فيه ﷺ كيد الحرب ودهاء وفكر القائد العسكري وحنكته في إدارة المعركة، قد انصبّ في إيحاءات ومعطيات هذا الحرف الذي تلمس فيه سير الخبب والخِب والخبرة التي تتلاحق في ذهن المتلقي، حقّاً إنها عمارة الألفاظ وبناءها الفني، ولا يمكن لأي معمار كلام مهما بلغت قدرته أن يضع معنىً تاماً كاملاً في مفردتين من الكلام.

---

(١) وبالفتح ضبطه ابن دريد أيضاً وقال: هكذا لغة النبي ﷺ، ويقال: إنه ﷺ أوّل من تكلم بهذه الكلمة، وقال الخطّابي: اللغة العالية مفتوحة الخاء. إصلاح أغلاط المحدّثين ٦٨ رقم ١٢٢.

(٢) مجمع الأمثال ١: ١٩٧ رقم ١٠٤٣.

ولو تأملنا قوله ﷺ: «**العجماء جبار**»[١] نجد اختصاراً غير مخلّ بالمعنى المراد، ودلالة تشريعية يستهدي بها القاضي في إصدار حكم يتعلّق بدابّة منفلتة ليس لها قائد ولا سائق ولا راكب، فقد جعل جنايتها وجرحها هدراً، فإذا كان معها واحد من هؤلاء الثلاثة فهو ضامن للقود والدية، لأنّ الجناية حينئذٍ ليست للدابّة، وإنما هي جناية صاحبها الذي أوطأها الناس[٢].

وأمّا لو وضع مشرّع في القانون الجنائي هذا الحكم في تقنين لاستغرق واستهلك منه مفردات لا حصر لها، فجاءت البلاغة والفصاحة النبوية لتشرع حكماً بلفظتين مركّزتين، هما العجماء والجبار.

واختيار المصطفى ﷺ لفظ العجماء مظهر من مظاهر الفصاحة العالية، لأنّ أصل الوضع اللغوي للأعجم هو الأخرس، والعجماء والمستعجم يقال لكل بهيمة، وإنّما سميّت عجماء لأنها لا تتكلم، ومنه الحديث: «**من ذكر الله تبارك وتعالى في السوق كان له من الأجر بعدد كل فصيح فيها وأعجم**»، فالفصيح الإنسان والأعجم البهيمة[٣]. وهذا الاختيار ينبئ ويوحي بأنّ الدابّة غير ناطقة فلا تُنذر ولاتحذّر فلا حجّة للشاكي فيها.

وأما لفظ الجبار فهو الهَدَر، قال أهل اللغة: الجُبار من الدم: الهَدَر، وفي الحديث «السائمة جُبار» أي الدابّة المرسلة في رعيها[٤] وكلّ ما أهلك وأفسد فهو جُبار، والجبر خلاف الكسر، ومنه جبر

(١) الكافي ٧: ٣٧٧ ح٢١، معاني الأخبار :٣٠٣.
(٢) ينظر معاني الأخبار للصدوق ٣٠٣.
(٣) ينظر غريب الحديث للهروي ١: ١٧٠، الفايق في غريب الحديث ٢: ٣٣٤.
(٤) ينظر لسان العرب (جبر).

العظم والفقير واليتيم، فهو بين الإبطال والترميم، وإصابة البهيمة ممّا لا يُعتدّ به وكأنه مرمم ومجبور، فدعواه باطلة.

وإذا كان اللفظ المحذوف في الحديث هو **«جرحها»**[(١)] فإنه واضح من مفهوم الحديث، يقول ابن جنّي: إنّ المحذوف من اللفظ إذا دلّت عليه الدلالة كان بمنزلة الملفوظ به[(٢)].

ولو تأملنا وفرة المعاني في قوله ﷺ: **«الولد للفراش وللعاهر الحجر»**[(٣)] وما فيها من أحكام شرعية وقضائية، لرأينا وجهاً بليغاً أفاده ﷺ بهذه الألفاظ القليلة الجامعة، فالولد تابع للفراش الذي اختلف الفقهاء في معناه، فقال أبو حنيفة وأصحابه: هو الوطئ، وقال الشافعي: الفراش هو العقد مع التمكّن من الوطئ، وهو مذهب الشيعة الإمامية.

والعاهر: هي الزانية التي تأتي بولدٍ من غير عقد، ووضع لفظ العهر لأنّ العاهر الذي يتّبع الشر، زانياً كان أو فاسقاً فهو أعمّ من الزنا، فقد قالوا: هو الفجور أيّ وقت كان، في الأَمَة والحرّة[(٤)].

ومعنى الحجر: أن تُرجم بالحجارة ويُقام عليها حدّ الزنا، فكنّى عن إقامة الحد بما يقام الحدّ به من الحجر، وهذه بلاغة عظيمة[(٥)].

وقال الشريف الرضي: هذا مجاز على أحد التأويلين، وهو أن يكون المراد أنّ العاهر لا شيء له في الولد، فعبّر عن ذلك بالحجر، أي له من ذلك ما لا حظّ فيه، ولا انتفاع به، كما لا يُنتفع بالحجر

(١) وقد وردت رواية فيها اللفظ مذكور.
(٢) ينظر الخصائص ١: ٢٩٣.
(٣) مسند أحمد بن حنبل ١: ١٢٩، الكافي ٥: ٤٩١ ح٢و٣، دعائم الإسلام ١: ١٣٠.
(٤) ينظر لسان العرب ٤: ٦١١ (عهر).
(٥) ينظر رسائل السيّد المرتضى المجموعة ٣: ١٢٤ منشورات دار القرآن الكريم قم.

في أكثر الأحوال، كأنّه يريد: أنّ له من دعواه الخيبة والحرمان، كما يقول القائل لغيره، إذا أراد هذا المعنى: ليس لك من هذا الأمر إلاّ الحجر، والجلمد والتراب والكِثْكِث، أي ليس لك منه إلاّ ما لا محصول له ولا منفعة فيه.

وممّا يؤكد هذا التأويل ما رواه عَمرو بن شُعيب، عن أبيه، عن جدّه، عن النبيﷺ قال: «**الولد للفراش وللعاهر الأثلب**»، والأثلب: التراب المختلط بالحجارة.

وهذا الخبر يحقق أن المراد بالحجر هاهنا ما لا يُنتفع به كما قلنا أولاً، وممّا يصدق ذلك قول الشاعر:

كِلانا يا مُعاذ يُحِبُّ لَيْلى
بِفِيّ وفيكَ من ليلى التُّرابُ
شَرِكْتُكَ في هَوى من كان حظّي
وحَظُّك من تذكّرها العذابُ

أراد ليس لنا منها إلاّ ما لانفع به ولا حَظّ فيه كالتراب الذي هذه صفته.

وأمّا التأويل الآخر الذي يخرج الكلام عن حَيْز المجاز إلى حَيْز الحقيقة فهو أن يكون المراد أنّه ليس للعاهر إلاّ إقامة الحدّ عليه، وهو الرّجم بالأحجار، فيكون الحجر ها هنا اسماً للجنس لا للمعهود، وهذا إذا كان العاهر مُحصناً، فإن كان غير محصن فالمراد بالحجر هاهنا ـ على قول بعضهم ـ الإعناف به والغِلظة عليه بتوفية الحدّ الذي يستحقّه من الجَلد له، وفي هذا القول تعسّف واستكراه، وإن كان داخلاً في باب المجاز، لأنّ الغلظة على من يقام الحدّ عليه إذا كان الحدّ جلداً لا رجماً لا يُعبّر عنها بالحجر، لأنّ ذلك بُعدٌ عن سنن

الفصاحة ودخول في باب الفهاهة، فالأولى إذاً الاعتماد على التأويل الأوّل لأنه الأشبه بطريقهم والأليق بمقاصدهم[١].

وتجد إيجاز واختصار المعاني التي يوحيها قوله ﷺ: «**الدنيا سجن المؤمن**»[٢] فالله ﷻ يتعاهد المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالهدية والتحفة، ويحميه الدنيا كما يحمي الطبيب المريض، وكأنّ لله ﷻ نصيباً في بدن المؤمن وماله، وهكذا تتداعى المعاني بثلاث مفردات وضعتها فصاحته وبلاغته ﷺ لتقول للعبد المؤمن: أنْ ليس لك من هذه الحياة الفانية إلاّ الضنى والشقاء، فعليك بالصبر والصمود، إنْ هي إلاّ ساعات زمنية يعدّها السجين لكي يسافر إلى ضفّة الخلاص والحريّة، إنّه قضاء الله ﷻ وإرادته لعبده الصالح.

قال الشريف الرضي: شبّه الدنيا بالسجن للمؤمن من حيث قصر فيها خَطوه عن اللذات، وكبح لجامَه عن الشهوات، وحَصَر نفسه عن التسرّع إلى ما تدعو إليه الدواعي المخزية، والأهواء المردية، وكان زمام نفسه وخِطامها، وهاديها وإمامها، خائفاً خوف الجاني المرعوب، والطريد المطلوب، في عصبة عملوا للمعاد وفطنوا للزاد، تحسبهم من طول سجودهم أمواتاً، ومن طول قيامهم نَباتاً[٣].

ولعلّ ازدحام الأفكار والمعاني في قوله ﷺ: «**أطعموا الطعام وأطيبوا الكلام**»[٤] واحد من شواهد الاقتصاد اللغوي في حديثه ﷺ، فالدعوة النبوية الكريمة للضيافة والسخاء، وفتح باب المعونة للفقراء

---

(١) المجازات النبوية ١٣١ رقم ١١٨.
(٢) غوالي اللآلىء ١: ٢٩٢ رقم ١٦٦، دعائم الإسلام ١: ٤٧، من لايحضره الفقيه ٤: ٣٦٣.
(٣) المجازات النبوية ٥٢ رقم ٣٩ بتحقيق مروان العطية ومحمد رضوان الداية.
(٤) المعجم الكبير للطبراني ٣: ٩٤ ح ٢٧٦٣ المحاسن، ٣٨٧١ ح ٣.

والجياع، وما يدخل في مجمل الإطعام من كفّارات ونذورات، ودعوات العطاء التي ينبض بها حرف الطاء تُشيع أجواء الجود والسخاء، والطهي والطبخ، وقد أردف ﷺ هذا السخاء والعطاء بطيب النفس واللسان، فتظلّ اليد السفلى، وهي اليد السائلة، تنتظر رحمة مهداة بين الطعام والكلام، فيدٌ تُعطي ولسانٌ يغلّف هذا العطاء بنفحات من الرقّة والودّ، وضع ﷺ هذه الصورة الرائعة الإنسانية في لوحة من كلماتٍ أربع.

ومن المأثور عنه ﷺ أنه أقبل رجل وعليه شارة حسنة فكان النبي ﷺ لا يتكلم بكلام إلاّ كلّفته نفسه يأتي بكلام يعلو كلام النبي ﷺ، فلمّا انصرف قال ﷺ: **«إنّ الله لا يُحبّ هذا وصوته، يلوون ألسنتهم للناس ليّ البقرة لسانها بالمرعى، وكذلك يلوي الله ألسنتهم ووجوههم في النار»**[١].

وروي عنه ﷺ أنه لعن الذين يشققون الخطب تشقيق الشَّعر، قال الرضي: المراد الذين يتصرفون في الكلام فيدققون فيه، ويتعمقون في معانيه، وشبّه (عليه الصلاة والسلام) فعلهم ذلك بتشقيق الشَّعر، لأنّ طاقات الشعر مستدقة في نفوسها، وإذا تعاطى الإنسان تشقيقها انتهت من الدقة إلى غاية لا زيادة وراءها، وهذا اللعن إنما يتناول مَن بلغ في تدقيق الكلام إلى ذلك الحد ليشتبه الباطل بالحق[٢].

وقال ﷺ: **«إن الله كره لكم البيان كل البيان، وإنّ المتشدّقين في النار»**[٣].

---

(١) المعجم الكبير للطبراني ٢٢: ٧٠ ح ١٧٠.

(٢) المعجم الكبير للطبراني ١٩: ٢٦١ ح ٨٤٨، وفي رواية الكلام بدل الخطب كما في المجازات النبوية ٣٧٨ ح ٣٥٠.

(٣) المعجم الكبير للطبراني ٨: ١٦٦ ح ٧٦٩٥و٧٦٩٦.

وقال ﷺ: «**إنّا معاشر النبيّين بِكاء**»، أي قليلو الكلام، وهو جمع بكيء [١].

وكان ﷺ في أفعاله وسننه يوحي بالإيجاز والاختصار، وكان إذا بعث أميراً قال: «**أقصِر الخطبة، وأقلّ الكلام، فإن من الكلام سِحراً**» [٢].

وقال ﷺ: «**سيكون رجال من أمتي يأكلون ألوان الطعام، ويشربون ألوان الشراب، ويلبسون ألوان اللباس، ويتشدّقون في الكلام، فأولئك شِرار أمّتي**» [٣].

وقال ﷺ: «**إنّما تشقيق الكلام من الشيطان**» [٤].

وقال ﷺ: «**أبغضكم إليّ الثرثارون المتفيهقون**» [٥]، وتفسير هذا الحديث: هم الذين يتّسعون في الكلام ويفتحون به أفواههم، مأخوذٌ من الفَهْق وهو الامتلاء والاتساع [٦].

ومن ذلك ما روى الشيخ الصدوق عن أبي عبد الله عليه السلام: (أتى أعرابي النبي فقال: ألستَ خيرنا أباً وأمّاً وأكرمنا عقباً ورئيسنا في الجاهلية والإسلام؟ فغضب النبي ﷺ وقال: **يا أعرابي كم دون لسانك من حجاب؟** قال: اثنان شفتان وأسنان، فقال النبي ﷺ: **فما كان في أحد هذين ما يردّ عنّا غَرْب لسانك هذا؟ أمَا إنّه لم يُعط أحدٌ في دنياه**

---

(١) العقد الفريد ٢: ١٢١.

(٢) المعجم الكبير للطبراني ٨: ١٤٤و١٥٤ ح ٧٦٤٠و٧٦٦٢، مجمع الزوائد ٢/ ١٩٠.

(٣) المعجم الكبير للطبراني ٨: ١٠٧ ح ١٥١٢.

(٤) مسند أحمد ٢: ٩٤ وتشقيق الكلام هو التطلّب فيه ليخرج أحسن مخرج، والأخذ فيه يميناً وشمالاً اللسان (شقق).

(٥) مسند أحمد ٤: ١٩٣و١٩٤، بحار الأنوار ١: ١٢٧.

(٦) لسان العرب ١٠: ٣١٤ (فهق).

شيئاً هو أضرّ له في آخرته من طلاقة لسانه، يا عليّ ! قم فاقطع لسانه) [١].

وإذا كان الاقتصاد اللغوي راجحاً لديه ﷺ ومندوباً، فإنّ الاقتصاد في الأمور ـ وحتى العبادات ـ منظور له في سننه وآدابه ﷺ[٢].

والإيجاز في الحديث معلم واضح في كلامه ﷺ فكان الله ﷻ قد أوحى له وأراد ذلك، قال ﷺ: **«لقد رأيتُ أو أُمِرت أن أتجوّز في القول، فإن الجواز هو الخير»**[٣].

ويُحمل هذا الحديث على معنى التخفيف في الكلام، وهو مراده ﷺ، ويُؤيّد هذا المعنى قوله ﷺ: **«تجوّزوا في الصلاة فإنّ خلفكم الضعيف والكبير وذا الحاجة»**[٤].

ومن ذلك قوله ﷺ: **«أسمعُ بكاء الصبيّ فأتجوّز في صلاتي»**[٥].

والتبقّر والتوسع في مطلق الكلام، من غير ضرورة لذلك لم تكن مرغوبة لديه ﷺ، وقد صحّ عنه ﷺ: **«إنّ الله ﷻ يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه تخلّل الباقرة بلسانها»** [٦]، ومراده ﷺ

---

(١) معاني الأخبار للصدوق١٧١.

(٢) قال ﷺ في حديث لعليّ ؏: «يا علي ! إنّ هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، ولا تبغّض إلى نفسك عبادة ربّك، فإنّ المنبتّ ـ يعني المفرط ـ لا ظهراً أبقى ولا أرضاً قطع». أصول الكافي ٢ : ٨٧ ح٦ باب الاقتصاد في العبادة.

(٣) سنن أبي داود ٤ : ٣٠٢ ح ٥٠٠٨ كتاب الأدب.

(٤) المعجم الكبير للطبراني ١٢ : ١٤ ح ١٢٣٣٨.

(٥) النهاية ١ : ٣١٥ (جوز).

(٦) سنن أبي داود ٤ : ٣٠٢ ح ٥٠٠٥ باب ما جاء من التشدّق في الكلام. والباقرة في لغة البقرة.

الذي يتكلّف الكلام ويتصنعه، ويتشدّق في الكلام ويفخّم به لسانه ويلفّه كما تَلُفّ البقرة الكلأ بلسانها لفّاً(١).

قال السيوطي: ومن فصاحته ﷺ أنه تكلم بألفاظ اقتضبها لم تُسمع من العرب قبله، ولم توجد في متقدّم كلامها كقوله ﷺ: **(مات حتف أنفه، وحَمِيَ الوطيس، ولا يلدغ المؤمن من جُحرٍ مرّتين)**(٢).

ومن ملامح الإيجاز لديه ﷺ قوله حين سُئل: أيّ الحجّ أفضل؟ قال ﷺ: **العجّ والثجّ** (٣)، اختصر لهم ببلاغة رائعة وبأقل الألفاظ بأن صوت المؤمن إذا رفعه ملبياً وداعياً وسيلان دماء الهَدي والأضاحي التي تقترن مع الحجّ من أفضل الحجّ وأتمّه.

وهذا الكلام من جوامع الكلم، وكلمة جامعة: كثيرة المعاني على إيجازها، وقولهم كلام جامع: قلّت ألفاظه وكثرت معانيه(٤).

قال ضياء الدين ابن الأثير: في بيان قوله ﷺ: **«أوتيتُ جوامع الكَلِم»**.

المراد بذلك أنه ﷺ أوتي الكَلِم الجوامع للمعاني. وهو عندي ينقسم قسمين:

القسم الأوّل منهما: هو ما استخرجته ونبّهت عليه، ولم يكن لأحدٍ فيه قولٌ سابقٌ، وهو أنَّ ألفاظاً تتضمّن من المعنى ما لا تتضمّنه أخواتُها، ممّا يجوز أن يُستعمل في مكانها، فمن ذلك ما يأتي على حكم المجاز فقوله ﷺ يوم حُنين «الآن حَمِيَ الوطيسُ» وهذا لم يُسمع من أحدٍ قبل رسول الله ﷺ.

---

(١) ينظر لسان العرب ١١: ٢٢١ (خلل).

(٢) المزهر في علوم اللغة وأنواعها ١: ٢٠٩.

(٣) سنن الترمذي ٣: ١٨٩ ح ٨٢٧.

(٤) ينظر المعجم الوسيط ١: ١٣٥ (جمع) ط القاهرة مجمع اللغة العربية.

ولو أتينا بمجازٍ غير ذلك في معناه، فقلنا «استعرت الحربُ» لما كان مؤدياً من المعنى ما يؤديّه «حمي الوطيس»، والفرق بينهما أنَّ الوطيس هو التنّور، وهو مَوْطن الوقود ومجتمع النار وذلك يُخيّل إلى السامع أنَّ هناك صورة شبيهة بصورته في حَميها وتوقّدها، وهذا لا يوجد في قولنا «استعرت الحرب» أو ما جرى مجراه. وكذلك قال ﷺ: **«بُعثِتُ في نفس الساعة»** فقوله «نفس الساعة» من العبارة العجيبة، التي لا يقوم غيرها مقامها، لأنَّ المراد بذلك أنّه بُعث والساعة قريبة منه، لكن قربها منه لا يدلّ على ما دلّ عليه النفس.

وذاك أنَّ النفس يدلّ على أنَّ الساعة منه بحيث يُحسُّ بها، كما يُحسّ الإنسان بنفس مَنْ هو إلى جانبه.

وقد قال ﷺ في موضع آخر **«بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين»** وجمع بين أصبعيه السبَّابَة والوُسْطى، ولو قال: بُعثت على قُرب من الساعة، أو والساعة قريبة منّي، لما دَلَّ ذلك على ما دلَّ عليه نفس الساعة، وهذا لا يحتاج إلى الإطالة في بيانه ؛ لأنّه بيّن واضح.

وقد ورد شيء من ذلك في أقوال الشعراء المُفْلقِين. ولقد تَصفَّحتُ الأشعار، قديمها وحديثها، وحَفظتُ ما حفظت منها، وكنتُ إذا مررت بنظري في ديوانٍ من الدواوين، ويلوح لي فيه مثل هذه الألفاظ أجد لها نشوة كنشوة الخمر، وطرباً كطرب الألحان، وكثير من الناظمين والناثرين يمرّ على ذلك. ولا يتفطَّن له سوى أنّه يَسْتحسنه، من غيرِنظرٍ فما نظرتُ أنا فيه، ويظنّه كغيره من الألفاظ المُستحسنة فمما جاء من ذلك قول أبي تمّام:

كم صارِمٍ عَضْبٍ أنافَ على قفاً   منهم لأعباء الوغى حمّال
سبق المشيب إليه حتّى ابتزّه   وطنُ النُّهى من مَفرِقٍ وقَذالِ

فقوله «وطن النُّهى» من الكلمات الجامعة، وهي عبارة عن الرأس

ولايُجاء بمثلها في معناها ممّا يسدّ مَسَدَّها. . .

وأمّا القسم الثاني من جوامع الكلم، فالمراد به الإيجاز، الذي يُدَلُّ به بالألفاظ القليلة على المعاني الكثيرة، أي أنَّ ألفاظه صلوات الله عليه وعلى آله جامعة للمعاني المقصودة على إيجازها واختصارها. وجلُّ كلامه جارٍ هذا المجرى فلا يحتاج إلى ضرب الأمثلة به.

فإن قيل: فما الفرق بين هذين القِسمين اللذين ذكرتهما فإنّهما في النظر سواء؟

قلت في الجواب: إنَّ الإيجاز هو أن يُؤتى بألفاظ دالةٍ على معنى، من غير أن تزيد على ذلك المعنى، ولا يُشترط في تلك الألفاظ أنّها لا نظير لها، فإنّها تكون قد اتصفت بوصفٍ آخر خارج عن وصف الإيجاز، وحينئذٍ يكون إيجازاً وزيادةً.

وأمّا هذا القسم الآخر، فإنّه ألفاظٌ أفرادٌ في حسنها لا نظير لها، فتارة تكون موجزة، وتارة لا تكون موجزة، وليس الغرض منها الإيجاز، وإنّما الغرض مكانُها من الحُسْن الذي لا نظير لها فيه. ألا ترى إلى قول أبي تمّام «وطن النُهى» فإنّ ذلك عبارة عن الرأس، ولا شكَّ أنَّ الرأس أوجز ؛ لأنّ الرأس لفظة واحدة، ووطن النهى لفظتان، إلاّ أنّ وطن النهى أحسن في التعبير عن الرأس من الرأس فبان بهذا أنّ أحد هذين القسمين غير الآخر[١].

ومن ذلك قوله ﷺ لصفية بنت حُييّ بن أخطب حين حاضت في حجّها: **«عَقْرى حَلْقَى إنّك لحابستنا»**[٢]، ومعناه عقر الله ﷻ جسدها

(١) المثل السائر ١/٧٩.

(٢) صحيح البخاري ٢: ٢٢١ باب (إذا حاضت المرأة بعد ما طافت) ط السلطانية.

وحلقها، أي أصابها بوجعٍ في حَلقها، كما يُقال: رأسه وعضده وصدره، إذا أصاب رأسه وعضده وصدره، ويقال للمرأة إذا كانت مشؤومة مؤذية، وأصله أن المرأة كانت إذا أصيب لها كريم حلقت رأسها وأخذت نعلين تضرب بهما رأسها وتعقره[١].

٢ ـ **ومن خصائص الألفاظ النبوية**: خفّتها وسهولتها فهي خفيفة بوقعها في أذن المتلقي، يتحسس خفتها في سبك جميل يقرع الأذن قرعاً جميلاً خفيفاً يلج إلى قلب المتلقي، من غير أن يأخذ هذا الضرب الشدّة والثقل التي قد يألفها المتتبع لبعض الألفاظ، وحتى ألفاظ الصحراء والبادية كأنها طوعت في لسانهﷺ وصيغت بجمل جميلة فيها انسياب، وكأنها تهمس في أذنك، من غير أن تحسّ بها شدّة ووعورة، فلو تأمّلت عباراتهﷺ فيما روي عنه في بعض أيامه التي لقي فيها العدو، وقد انتظر حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال: «**أيّها الناس! لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف**. ثم قالﷺ: **اللّهمّ مُنزِل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، أهزمهم وانصرنا عليهم**»[٢]، وجدت ألفاظاً سهلة تهوّن خطب الحرب، وتبعث الهدوء والطمأنينة في نفس المقاتل، لا ترويع فيها ولا تهويل، فهي مفردات هادئة ساكنة ساجية هامسة يلذّ سماعها القلب المروع، ويسلّ فزعه من هذا المشهد المهيب.

وإذا كانت الألفاظ أوعية المعاني، فإنها لامحالة تتبع المعاني المرادة من منشئها، وإذا كانت المعاني لا تتزايد وإنما تتزايد الألفاظ فيها، فالرحمة لها معنى واسع شامل يتزايد بتزايد ألفاظهﷺ ويتسع

---

(١) لسان العرب ١٠: ٦٠ (حلق).

(٢) جامع الأصول لابن الأثير ٣: ١٨٤ ح ١٠٤٦.

باتساع ما يقول، فقوله ﷺ: **«افعلوا الخير دهركم، وتعرّضوا لنفحات رحمة الله، فإن لله نفحاتٍ من رحمته يُصيب بها من يشاء من عباده، وسلوا الله أن يستر عوراتكم، وأن يؤمّن روعاتكم»**[(١)].

وقال ﷺ: **«إنّ لربّكم في أيام دهركم نفحات فتعرضوا له، لعلّه يصيبكم نفحة منها فلا تشقون بعدها أبداً»**[(٢)].

تأخذ الألفاظ مساحة كبيرة في قلب وأحاسيس الإنسان لما فيها من خفة وسهولة، فأصل الرحمة عند الإنسان رقّة القلب وعطفه، وهي من الله ﷻ عطفه وإحسانه ورزقه، ونفحات الرحمة جانب من هذه الرحمة التي تتسع باتساع ألفاظها، فأن يكون الإنسان آمناً هو فيض من رحمته، وكذلك أن يكون مستور العيب والذنب.

ولو تأملنا الأصل اللغوي للنفحة، لوجدنا أن معنى النفحة دفعة الريح، قال ابن فارس: النون والفاء والحاء أصل يدل على اندفاع الشيء أو دفعه، ونفحت رائحة الطيب: انتشرت واندفعت[(٣)]، ويقال: نفحت الريح: هبّت، ثم استعير للعطاء فقيل: نفحه بشيء، أي أعطاه، ونفحه بالمال نفحاً: أعطاه[(٤)]، وقال ابن فارس: نفح بالمال نفحاً ،كأنه أرسله من يده إرسالاً[(٥)] ويقال: نفحت الدابة تنفح نفحاً وهي نفوح، رمحت برجلها ورمت بحدّ حافرها ودفعت، وريح نفوح: هبوب شديد الدفع، ومنه الحديث: المكثرون هم المقلّون إلاّ من نفح في يمينه وشماله، أي ضرب يديه فيه بالعطاء.

---

(١) المعجم الكبير للطبراني ١ : ٢٥٠ ح ٧٢٠.
(٢) معجم الكبير للطبراني ١٩ : ٢٣٤ ح ٥١٩.
(٣) معجم مقاييس اللغة ٥ : ٤٥٨ (نفح).
(٤) ينظر لسان العرب ٢ : ٦٢٢ (نفح).
(٥) معجم مقاييس اللغة ٥ : ٤٥٨ (نفح).

ومنه حديث أسماء: قال لي رسول الله ﷺ: **«أنفقي وانْضَحي وانْفَحي ولا تُحصي فيُحصي الله عليك»**[١].

ومنه قولهم: لا يزال لفلان من المعروف نفحات، أي دفعات، قال الشاعر:

لمّا أتيتُك أرجو فَضل نائِلِكم   نَفَحْتَني نفحَةً طابت لها العرب

أي طابت لها النفس[٢].

فالأصل المعنوي للنفحة الدفع والشدّة، ولكن الشدة والقوة في النفحة لا تتبين في معناها الأصلي في الألفاظ النبوية إلاّ بوقعٍ سهل خفيف لا تحسّ الأذن البشرية منها إلاّ الغنيمة السهلة والرحمة المندفعة كاندفاع الريح اللَيّنة السهلة.

فالمستور بذنبه مرحوم نالته رحمة الله عز وجل، ولم يمسّه غضبه، ولو ناله شواظ من غضبه تعالى، لصار الإنسان متهتكاً مهتوك الستر، ولرأيت عيون الناس وألسنتهم وآذانهم مفتوحة تلقف ما تسمع وتضع ذلك في أفواه من هبّ ودبّ، فيظل متحرقاً بعذاب سيئاته بما تفوح منه من رائحة الذنوب النتنة التي تملأ أنوف وعيون بني آدم التي لا تغلقها إلاّ رأفته ورحمته عز وجل.

ولو نأت رحمته عنّا، لَنالَنا هلع وخوف شديد بما يحوط بنا من أهوال وشدائد نراها كل يوم تتخطّف أبصارنا من مشاهد الحروب والكوارث والآفات والجفاف والقحط الذي يأكل خضرة النبات، ويشرب ما تبقى من ألبان النعم والشياه، ولكن الرحمة الربانية التي يراها خاتم أنبيائه منشورة على آفاق معموراته، سكبها في مسبوك

(١) مسند أحمد ٦: ٣٤٦.

(٢) لسان العرب ٢: ٦٢٢.

عباراته، فلا تحسّ إلاّ طمأنينة وثقة تسلب من قلبك ثقل وطخم هذه الهموم والغموم التي تعصف بعبدٍ لا حول له ولا قوّة له إلاّ بنسمات ونفحات تنزل برحمته، ومن رحمته خفّ الخطب وهان.

وإذا كانت الرياح تتداعى إلى ذهن المتلقي، لأنها تفرّج الكروب، وتنشئ السحاب الذي ينزل الغيث، والذي به يكون الخصب والنماء، وكأنَّ حرف الحاء في نفحات الرحمة يذكرك ويستدعي إلى ذهنك هبوب الرياح المحملات بالماء الدافق برحمته ورأفته ﷻ لعباده.

٣ ـ ومن خصائص الألفاظ النبوية الفن في التعبير فيها: وهو أن يجعل الجمادات والأشياء والمعاني تتجسد وتتجسم بشكل كائنٍ بشريٍ حيّ يتحرك ويأكل وينفعل ويتفاعل مع الأشياء ،كقوله ﷺ: «**أُمرت بقريةٍ تأكل القرى تنفي الخبث كما ينفي الكير خبث الحديد**»(١)، جعل المدينة على هيئة كائنٍ حيّ يأكل الطعام كما تأكل الكائنات الحيّة.

وفسّر الرضي الحديث بأنّ المراد هو أهلها يقهرون أهل القرى

---

(١) المجازات النبوية ٣٠٥ رقم ٢٦٩ ،ومن التعبير الفني الجميل قول عليّ ؏ في الخطبة القاصعة: «الحمد لله الذي لبس العز والكبرياء، واختارهما لنفسه دون خلقه، وجعلهما حِمىً وحرماً على غيره» ... نهج البلاغة ٢٨٥ خطبة ١٩٢ ط الصالح. حيث جعل كبرياء الله عز وجل وعظمته ثوباً فريداً منسوجاً بلغة الفن الجميل، وكأن هذا الثوب الجليل أرض مقطوعة محوطة يمتنع على أحد من عباده مهما كان أن يدخلها أو يرد حياضها ؛ لأنها موقوفةٌ لسلطان الكون. وإذا كان هدف الفنان هو خلق وإيجاد الشعور باللذة الفنية ـ يسميها سارتر الطرب الفنيّ ـ، فإن هذه اللذة الفنيّة المتحققة بهذه الصورة التي رسمتها ريشة الفنان الإلهي العظيم عليّ ؏ لعظمة الله عز وجل وجبروته، تتهذب وتنصهر في الرسالة الكبيرة التي جاء بها الأنبياء والأوصياء، وهي رسالة التوحيد والعبودية لله والتصاغر والتلاشي في معدن الطاعة الإلهية.

فيملكون بلادهم ويغنمون أموالهم، وكأنهم لهذه الأحوال يأكلونهم.

وكقوله ﷺ في جبل أُحُدٍ: «**هذا جبلٌ يحبّنا ونحبّه**»[١]، جعل أحجار الجبل مليئة بالأحاسيس والعواطف والانفعالات فهي تحمل مشاعر مودة ومحبّة تبادل بها مع نبيّ الله وأتباعه مشاعر الحب.

وإذا كان للكلمة قيمة فنية فإنها متأتية مما يبثّها منشؤها فيها من حرارة ونبض، فهو ينقلها من عالم السكون إلى عالم الحركة، ولا تكون فيها حركة وحياة إلاّ إذا اقترنت وأنست بما يجاورها من غيرها، وتركّبت في صيغ تعبيرية تأنس لها القلوب، وتلتمع ببريقها العيون وتطرب لجرسها الأسماع، فينشرح لها صدر المتلقّي ويهتزّ وجدانه، وهذا ما تلمسه في كلامه ﷺ في صياغة وتركيب المفردات.

وإذا كانت البراعة لا تعتمد فقط على صف الكلمات وتأليف الألفاظ وصياغة العبارات، وإنما في شحن هذه التراكيب بالأحاسيس والانفعالات والمعارف التي ينفعل لها ذهن المتلقي وتستجيب أفكاره ونفسه لهذا الكلام، وهذا النظم وهذا التركيب الفني الذي انفرد به ﷺ أشبه بالإعجاز اللفظي.

وقد تتوجت بحوث البلاغيين المسلمين عن نظرية النظم التي كشفها عبد القاهر الجرجاني المتوفّى ٤٧٤ هـ، والتي تفيد أن: لا فصاحة في اللفظة المفردة المجردة، وإنما تظهر قيمتها عند النظم والتركيب، وتطوّر هذا البحث البلاغي إلى البحث النقدي الذي بحث به بعض النقاد القدامى والمحدثين واتّخذ مسميات شتى منها: أسلوب الأديب المبدع، وما قيل وما ظهر من نظريات في النقد الأدبي تفيد بأنَّ الأسلوب هو الطريقة التعبيرية للألفاظ المفردة والمركبة، فيكون

---

(١) صحيح مسلم ٢: ٩٩٣ ح ٤٦٢.

الأسلوب داخل ضمن نظرية النّظم أو المعاني.

والتركيب اللفظي أو السياق للكلام يتخذ مسارين: أحدهما المسار التقريري، والمسار الأدبي والبياني، وقد يتداخل التركيبان في كلامه ﷺ وقد أسماه الدكتور محمود البستاني (أدب التشريع) لما يحمل كلامه ﷺ من صحة التأليف وعلميته إضافة إلى بيانيته وجماله الأدبي بما في تأليفه من مجاز وكناية واستعارة، تجد طريقها إلى قلب المتلقي ومشاعره مما لا يمكن لأحدٍ من البشر تركيب مثل هذا الكلام.

٤ ـ ومن خصائص الألفاظ النبوية وسر الإعجاز والفصاحة فيها، النظم والتركيب في الحديث: والذي نعني به هو الأسلوب، وهو طريقة عمل ووسيلة تعبير عن الفكر بواسطة الكلمات والتراكيب البلاغية، ويمكن لنا أن نصفه بأنه قالب يُفرغ فيه أفكار المبدع والأديب.

وعرّفوا الأسلوب بأنه فن من الكلام يكون قصصاً أو حواراً، تشبيهاً أو مجازاً أو كناية، تقريراً أو حكماً وأمثالاً، فهو يشمل الفن الأدبي الذي يتخذه الأديب وسيلة للإقناع والتأثير[١].

قال الرافعي: أفصح الكلام وأبلغه وأسراه وأجمعه لحزّ اللفظ ونادر المعنى، وأخلقه أن يكون منه الأسلوب الذي يحسم مادة الطبع في معارضته، وهو ذلك الذي تريده كلاماً فتراه نفساً حيّة، كأنها تلقي عليك ما تقرؤه ممزوجاً بنبرات مختلفة وأصوات تدخل إلى نفسك ـ إنْ كنتَ بصيراً بالصناعة متقدّماً فيها ـ كلّ مدخل، ولا تدع فيها

---

(١) نقد الحديث في علم الرواية وعلم الدراية ٢: ١٨٦ للدكتور حسين الحاج حسن ط مؤسسة الوفاء بيروت.

إحساساً إلاّ أثارته، ولا إعجاباً إلاّ استخرجته، فلا يعد الكلام أن يكون وجهاً من الخطاب بين نفسك ونفس كاتبه وتقرؤه وكأنك تسمعه، ثم لا يلج إلى فؤادك حتى تصير كأنك أنت المتكلم به، وكأنه معنى في نفسك ما يبرح مختلجاً ولا ينفكّ ماثلاً من قديم، مع إنك لم تعرفه إلاّ ساعتك، ولم تجهد فيه، ولا اعتملت له، وذلك بما جوّده صاحبه، وبما نفث فيه من روحه، وما بالغ في تصفيته وتهذيبه، وما اتسع في تأليفه وتركيبه، حتى خرج مطبوعاً من أثر مزاجه وأثر نفسه جميعاً فكأنه مادة روحية منه(١).

فالأسلوب إذن نفس الفنان والأديب والمبدع ولو تتبعنا أساليبه ﷺ لوجدناها مخالفة لأساليب العرب، بما تترشح ألفاظه فيها من جدّة وطرافة وماسك في بنائها، قال سفيان بن أبي زهير: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«تُفتّح اليمن فيأتي قوم يبسّون فيتحملون بأهلهم ومن أطاعهم، والمدينة خيرٌ لهم لو كانوا يعلمون، وتُفتح الشام فيأتي قوم يبسّون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم، والمدينة خيرٌ لهم لو كانوا يعلمون، وتُفتح العراق فيأتي قوم يبسّون فيتحملون بأهلهم ومن أطاعهم، والمدينة خيرٌ لهم لو كانوا يعلمون»**(٢).

قوله ﷺ: **«يبسّون»** هو أن يُقال في زجر الدابّة، بَسْ بَسْ، أو بِسْ بِسْ، وأكثر ما يقال بالفتح، وهو صوت الزجر للسوق إذا سقت حماراً أو غيره ،وهو كلام أهل اليمن، وفيه لغتان يقال: بسست وأبسست، فيكون على هذا القياس يَبُسّون ويُبِسّون (٣).

قال أبو سعيد: يُبسّون أي يسيحون في الأرض.

---

(١) تاريخ آداب العرب ٢: ٢٠٤.
(٢) صحيح البخاري ٣: ٢٧.
(٣) غريب الحديث للهروي ١: ٤١٨.

وقال اللحياني: انبسَّ في الأرض، ذهب[١].

وقال ابن السكّيت: أبسست بالغنم إبساساً، وهو إشلاؤكها إلى الماء، وأبسست بالإبل عند الحلَب، وهو صويت للراعي يُسكّن به الناقة عند الحلَب[٢].

وقد وضع ﷺ المعاني المجرّدة في لوحة واقعية تحمل المتلقّي على إدراك هذه المعاني في المجاز بالتصوير الفني الذي يوجد علاقة بين البيئة والثقافة المعرفية طبقاً للمستوى الإدراكي للمخاطبين فقال ﷺ: **«رؤيا المؤمن جزء من أربعين جزءاً من النبوّة، وهي على رِجْل طائر مالم يحدّث، فإذا حدّث بها وقعت»**[٣].

أراد: على رِجْل قدرٍ جارٍ، وقضاء ماضٍ، من خيرٍ أو شرٍ، وهي لأوّل عابر يعبّرها، أي أنها إذا احتملت تأويلين أو أكثر فعبّرها من يعرف عباراتها، وقعت على أوّلها وانتفى عنها غيره من التأويل.

وفي رواية أخرى: **«الرؤيا على رجلٍ طائرٍ مالم تعبّر»**[٤]، أي لا يستقر تأويلها حتى تعبّر، يريد أنها سريعة السقوط، إذا عُبّرت، كما أن الطير لا يستقر في أكثر أحواله، فكيف ما يكون على رجله[٥].

وللشريف الرضي للحديث رواية أخرى بفهم آخر فقد رواه: **«الرؤيا على الرّجل طائرٌ ما لم تُعبّر، فإذا عُبّرت وقعت، فلا تُحدّثَنّ بها إلاّ حبيباً أو لبيباً»** قال: والمراد بالطائر ها هنا الأمر الذي يُتطيّر

(١) لسان العرب ٦: ٢٨ (بسس).
(٢) تهذيب إصلاح المنطق ٣٥٠ ط مكتبة لبنان بتحقيق فخر الدين قباوة.
(٣) المعجم الكبير للطبراني ١٩: ٢٠٥ ح ٤٦٢.
(٤) بحار الأنوار ٥٨: ١٧٥.
(٥) لسان العرب ٤: ٥٠٩ (طير).

به، ومنه قوله عز وجل﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾(١).

يريد ما يتطيّر منه، ويخاف وقوعه من جزاء أعماله السيئة وأوزاره المثقلة، وذلك مأخوذ من زجر الطير، على مذاهب العرب، وكانوا يتيّمنون بأيامنها ويتشائمون بأشائمها، وعلى ذلك قول الشاعر:

ولــقــد غــدوتُ وكــنــتُ لا أغــدو عــلــى واقٍ وحــاتِــم
فــإذا الأشــائــم كــالأيــا مــن والأيــامــن كــالأشــائــم

والواقِ بكسر القاف الصّرَد، كأنهم سمّوه بحكاية صوته.

قال الشاعر:

ولـستُ بـهـيّاب إذا شـدّ رَحـلَـه يـقـول عَـدَانـي الـيوم واقٍ وحـاتِـم

والحاتِم: الغراب، فكأنهﷺ جعل رؤيا الإنسان التي يتروّع لها، ويخاف ضررها، بمنزلة الشيء الذي يتطيّر به، وقد يجوز أن يكون، ويجوز ألاّ يكون، فإذا عبّرها فعبّرت له على ما يكره وقعت موقعها، وخلص للشرّ مجوّزها، ويشبه ذلك ما حُكي عن بعض المتقدمين، أنّه قال: علم النجوم فأل فلكي، كأنه يشير إلى أن يتفاءل بالسعود تعرّضاً لها، ويتطيّر بالنحوس تباعداً منها وجميع ذلك ما يجوز أن يقع، أو يجوز ألاّ يقع، ولما جعلﷺ الرؤيا بمنزلة الطائر المتطيّر به جعل تعبيرها على الأمر المكروه بمنزلة وقوع الطائر موافقة بين أنحاء الكلام حتّى يقع مواقعها وتطبق مفاصلها.

وقولهﷺ من بعد: **فلا تُحدّثَنّ بها إلاّ حبيباً أو لبيباً**، يريد به النهي عن قصّتها إلاّ على محب ناصح أو لبيب راجح، لأن المحبّ للإنسان يتعمّد حمل أموره على أجملها ويتوخّى مسرّته بتحسين ما

---

(١) الإسراء ١٣.

يحسن منها، وبخلاف ذلك يكون المبغض المباعد، والكاشح الموارب.

وأمّا اللبيب وهو العاقل فهو يعبّرها على الوجه الصحيح الذي لا يوطئ فيه عشوة، ولا يطلب مضرّة، وبخلاف ذلك يكون الأخرق الجاهل والغبي الغافل(١).

والأسلوب: هو طريقة عمل، ووسيلة تعبير عن الفكر بواسطة الكلمات والتركيبات، ويمكن أن يُقال بأنه الطريق أو الوجه أو المذهب في الكلام والكتابة، ويفرغ ويصب في قالب منسوج بألفاظ وتراكيب لغوية، وهذا النسيج أو الأسلوب له بُعد وخصيصة مميزة في الحديث النبوي، فلمن تأمل هذا الأسلوب يملأ عينه وأذنه هذا النسيج اللفظي البديع، فقوله ﷺ: **«افعلوا الخير دهركم، وتعرّضوا لنفحات رحمة الله، فإن لله نفحاتٍ من رحمته يُصيب بها من يشاء من عباده، وسلوا الله أن يستر عوراتكم، وأن يؤمّن روعاتكم»** (٢)، الأفكار هنا قد حيكت في بساط منسوج من فلسفة حياة الإنسان ووجوده بتركيب من ألفاظ، اختيرت لها ألفاظ الخير ونفحات الرحمة، التي بدونها لا يمكن للكيان البشري أن يحيا ويستمد وجوده يقول ﷺ فما دامت رحمة الله ﷻ مبسوطة للإنسان عاش الإنسان في بسطة من العمر.

فالنبي بكلمات محدودة يعبرّ عن قانون اجتماعي ديني، هو الأمن الاجتماعي، وهذا يرتبط بالإنسان نفسه. وتنظيم وتآلف المفردات يخضع إلى قدرة الفنان والأديب، فلو فككنا هذه المفردات من تنظيمها البلاغي وأعدنا صياغتها وتركيبها بتأليف آخر لاختلّ لدينا

---

(١) المجازات النبوية ٣١٥ رقم ٢٧٩.

(٢) المعجم الكبير للطبراني ١: ٢٥٠ ح ٧٢٠.

هذا التوازن، لأنّ نظمها وتأليفها يخضع إلى نفس ربّانية سلسلت الأفكار ورتّبتها ترتيباً منطقياً، والنبي ﷺ له الحس البلاغي والعقل الواعي الكبير لصف الألفاظ صفاً منطقياً جميلاً متسلسلاً.

فاللغة في البلاغة تحسين، واللغة في العقل النقدي الحديث تكوين، لأن ذهن الإنسان لا يُشبه بأيّة حال آلة مصوّرة، فالذهن هو الذي كون فكرة الرجل، وإذن فنحن نسمّي الأشياء على التدقيق، وإنّما نفكر فيها، وكلمة نفكر تعني أننا نضيف ونحذف، ونكوّن ونركّب، والإنسان بطبيعته مفكّر، أي أنه صاحب لغة تتعامل مع الأشياء (١).

ومن ذلك حديث الدعاء: «**اللّهمّ إني أعوذ بك من سَخَطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لاأُحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**».

وفي رواية: بدأ بالمعافاة ثم الرضا، إنما ابتدأ بالمعافاة من العقوبة، لأنها من صفات الأفعال كالإماتة والإحياء، والرضا والسخط من صفات الذات، وصفات الأفعال أدنى رتبةً من صفات الذات، فبدأ بالأدنى مُترقيّاً إلى الأعلى.

ثم لما ازداد يقيناً وارتقاءً ترك الصفات، وقصر نظره على الذات، فقال ﷺ: **أعوذ بك منك**، ثم لما ازداد قرباً استحيا معه من الاستعاذة على بساط القُرب، فالتجأ إلى الثناء فقال ﷺ: **لا أُحصي ثناءً عليك**، ثم علم أن ذلك قصور فقال ﷺ: **أنت كما أثنيت على نفسك**.

وأما على الرواية الأولى، فإنما قدّم الاستعاذة بالرضا على

---

(١) ينظر اللغة والتفسير والتواصل ١٣٤.

السّخط، لأنّ دلالة الأولى عليها دلالة تضمين، فأراد أن يدلّ عليها دلالة مطابقة، فكنى عنها أولاً، ثم صرّح بها ثانياً، ولأنّ الراضي قد يُعاقب للمصلحة أو لاستيفاء حقّ الغير [١].

ومن التركيب البديع هذه الأقصوصة التي جاءت في الحديث:

«يخرج الرجل في غنيمته إلى حاشية القرية فيشهد الصلوات ويؤوب إلى أهله حتى إذا أكل ما حوله وتعذّرت عليه الأرض، قال: لو ارتفعت إلى رَدْهَة[٢] هي أعفا كلأً من هذه فيرتفع حتى لا يشهد من الصلوات إلاّ الجمعة حتى إذا أكل ما حوله وتعذّرت عليه الأرض، قال: لو ارتفعت إلى رَدْهَة هي أعفا كلأً من هذه فيرتفع حتى لا يشهد جمعة ولا يدري ما يوم الجمعة، حتى يُطبَع على قلبه» [٣].

٥ ـ **ومن خصائص الألفاظ النبوية لمعانها ونصاعتها**: وإشراق الألفاظ النبوية وإضاءتها معلم من معالم فصاحته ﷺ، فتجد لمفرداته ﷺ الإنارة والإضاءة التي يبصرها الناظر، ويجسّد هذه الأنوار ذو الأذن المرهفة الحسّ، فيجد هذا الإشراق واللمعان، كأنه قد طرد ظلام النفس وطخاء القلب، ولا أدلّ من هذه العبارات المشرقة بمفرداتها وحروفها:

إغدوا في طلب العِلم، فإنّ الغُدوَّ بركةٌ ونجاح[٤].

اغتنموا الدّعاء عند الرقّة فإنها رحمة[٥].

---

(١) النهاية ٢: ٢٣٢ (رضى).

(٢) الردهة: النقرة في الجبل أو في صخرة يستنقع فيها الماء. اللسان (رده).

(٣) المعجم الكبير للطبراني ٣: ٢٢٩ ح ٣٢٢٩.

(٤) الجامع الصغير للسيوطي ١: ١٨٣ ح ١٢١٥.

(٥) الجامع الصغير ١: ١٨٣ ح ١٢١١، بحار الأنوار ٦٠: ٣١٣ ح ١٧.

أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصِلوا الأرحام، وصلّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنّة بسلام[١].

وآفة الشجاعة البغي، وآفة الحسب الافتخار، وآفة السماحة المنّ، وآفة الجمال الخُيلاء، وآفة الحديث الكَذِب، وآفة العِلم النسيان، وآفة الحِلم السَّفه، وآفة الجود السَّرف، وآفة الدين الهَوى[٢].

لو جاء العُسْر فدخل هذا الجُحْر لَجاء اليُسر فدخل عليه فأخرجه[٣].

إنّ الله جميل يُحِبّ الجمال[٤].

إنّ الله لا يُحبّ الذواقين والذواقات[٥].

وقال ﷺ: **البَذاذة من الإيمان[٦].**

أراد بالبذاذة: رثاثة الهيئة، قال الكسائي: هو أن يكون الرجل متقهّلاً رثّ الهيئة، يقال منه: رجلٌ باذّ الهيئة، وفي هيئته بذاذة، وقال ابن الأعرابي: البذّ الرجل المتقهّل الفقير، وقال: والبذاذة أن يكون يوماً متزيناً ويوماً شعثاً، ويقال: هو ترك مداومة الزينة[٧].

ووقفة قصيرة حول النص تُظهر لنا كم في هذا النص من كثافة وجمال، إضافة إلى إيحاءات البذاذة فإنها بنفسها غير مستساغة، إلاّ

---

(١) مسند أحمد ٥: ٤١٥، دعائم الإسلام ١: ٢١١.
(٢) كنز العمال ١٦: ١١٧ ح ٢١٢٤١، الخصال ٤١٦ ح ٧.
(٣) مستدرك الحاكم ٢: ٢٥٥، الجامع الصغير ٢: ٤٣٢ ح ٧٤٤٦.
(٤) بحار الأنوار ٧٠: ١٩٢، عوالي اللآلىء ١: ٤٣٧ ح ١٥٠.
(٥) الجامع الصغير للسيوطي ١: ٦٩ و ٧٣.
(٦) المعجم الكبير للطبراني ١: ٢٧٢ رقم ٧٩٨.
(٧) لسان العرب ٣: ٤٧٧ (بذذ).

أن بلاغته وبراعته ﷺ بقرنها بالإيمان جعل لها بُعداً مشرقاً جذاباً، وكأنه ﷺ يقول لك: كل ما في المؤمن جميل حتى في رثاثة هيئته.

ولو تأمّلت قوله ﷺ: **إنّ الله تعالى يبغض الوسخ والشعث**[١]، لوجدت أنّ اللفظ مجرّداً من مدلوله قد اكتسى جمالاً ورقّة في تركيبه البليغ، على الرغم أن النفس تشمئز ممن اتصف بذلك.

والأديب المبدع هو الذي يضع الكلمات والجمل في إطار شعوري جمالي خاص ويشحنها بطاقات هائلة من المعاني ويلبسها حللاً جديدة من الدلالات، عن طريق المجاز، أو عن طريق نقلها من المعاني الحسيّة إلى دلالات معنوية أرفع، أو ينقل دلالاتها المعنوية إلى محسوسات قابلة للتشخيص والمثول، ويبثّ في هذه الكلمات من روحه المتألقة الصافية روحاً أخرى جديدة، فتصبح لها نكهتها المتميزة من خلال أنماطها التعبيرية الجميلة، فتصبح الكلمات في نتاجه الإبداعي أكثر جلاءً ووضوحاً وإشعاعاً في دلالاتها وإيحاءتها، وهذا ما لمسناه في نصوص الحديث النبوي.

أمّا الكلمات الباهتة الخالية من التأثير والوميض والإشراق، فيكاد يخلو كلامه ﷺ منها مطلقاً، ولعل النصوص التي اختيرت شاهداً حاضراً لِما نقول.

وإذا وجدنا في حديثه ﷺ رشاقة العبارة ووضوح اللفظ وفصاحة في تركيب العبارة وإبانةً للمعنى، وتكراراً وتوكيداً وتحقيقاً لِما يُراد تكراره وتوكيده، فإننا نجد نفس المعلم القائد الذي يطوع البيان لأغراض تعليمية تربوية تجعل اللغة وسيلة لا غاية، للأخذ بيد الإنسان نحو العلوّ والكمال.

---

(١) الجامع الصغير للسيوطي ١ : ٧٥.

وقد تصوّر ابن جنّي أن العرب إنما تحلي ألفاظها وتدبجها وتوشيها وتزخرفها، عنايةً بالمعاني التي وراءها، وتوصّلاً بها إلى إدراك مطالبها، ثم قال: وقد قال رسول الله ﷺ: «**إنّ من الشعر لحكماً، وإنّ من البيان لَسِحراً**»[١] فإذا كان رسول الله ﷺ يعتقد هذا في ألفاظ هؤلاء القوم، التي جُعلت مصايد وأشراكاً للقلوب، وسبباً وسُلّماً إلى تحصيل المطلوب، عُرف بذلك أن الألفاظ خَدَم للمعاني، والمخدوم لا شكّ أشرف من الخادم[٢].

وتشهد لذلك هذه الألفاظ المروية عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال:

لما صدر رسول الله ﷺ من حجّة الوداع نهى أصحابه عن شجرات بالبطحاء أن ينزلوا تحتهنّ، ثم بعث إليهن فقُمّم ما تحتهنّ من الشوك، وشُذّبت عن رؤوس القوم، ثم عمَد إليهنّ فصلّى تحتهنّ ثم قام فقال: **أيّها الناس إنّه قد نبّأني اللطيف الخبير أنه لم يُعمّر نبي إلاّ مثل نصف عمر النبي الذي من قبله، وإني لأظنّ أني موشِك أن أُدعى فأُجيب، وأني مسؤول وأنكم مسؤولون فماذا أنتم قائلون؟** قالوا: نشهد أنك قد بلغّت ونصحت فجزاك الله خيراً، قال ﷺ: **ألستُم تشهدون أن لا إله إلاّ الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن جنته حق، وناره حق، وأن الموت حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأنّ الله يبعث من في القبور؟** قالوا: نشهد بذلك. قال ﷺ: **اللّهمّ اشهد.** ثم قال: **أيّها الناس، إنّ الله مولاي وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمَن كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه، اللّهمّ والِ مَن والاه وعادِ مَن عاداه.** ثم قال ﷺ: **أيّها الناس، إني وأنتم واردون عليّ الحوض، حوضٌ عُرضه ما بين بُصرى وصنعاء، فيه عدد النجوم**

---

(١) أمالي الصدوق ٧١٨ ح ٦.

(٢) الخصائص ١: ٢٢٠.

قِدحان من فضة، وإني سائلكم حين تردون عليَّ[١].

٦ ـ تآلف الألفاظ النبوية مع لغة العصر الذي ولدت فيه ومع العصور التي تلته.

اكتست الألفاظ النبوية ثوب الزمان الذي ولدت فيه، فلم يكن ﷺ يتكلّم بلغة عصور عصف بها الدهر وطما الزمن على آثار ناطقيها، فلغته حيّة ذات حركات متناسبة مع زمن ولادتها وبيئة ذلك الزمن الذي حفظ لنا هذه الألفاظ ؛ لقوّتها وسحرها في أذن وقلب المتلقّي.

وقد سجّل تاريخ الأدب لنا ألفاظاً ولدت في أزمنتها لم تكن متناسبة مع لغة عصرها فمجّتها آذان المتلقين ولم تجد لها مسوغاً فنياً، كاستخدام الغريب بسبب الحرص على ما هو نادر، أو بسبب فني، كما في قيود الوزن والقافية، فتكلّف اللفظ الغريب يُعدَّ عَيباً لا سبيل إلى تسويغه، ما دمنا نؤمن بأن اللغة مجرّد وسيلة لتعميق الهدف، أمّا أن نتخذ منها غاية في حدّ ذاتها فأمر ينتسب إلى العبث، واللهو ممّا لا يتّسق مع مهمّة الحياة إسلامياً وإنسانياً[٢].

واللغة الفنية الخالدة هي التي يمكنها أن تمتد على أزمنة سبقتها، وأزمنة لاحقة لها، فأُلفتها وعدم تنافرها مع الزمن والماضي واللاحق لها يكسبها قوّة ويضعها في سلّم الكلام الفصيح، فقوله ﷺ: **الدنيا مزرعة الآخرة**[٣]، مألوفة في زمنه ﷺ وموضع اهتمام واحتفاء المتلقّين لها، وما زالت تُلقي ظلالها في لغتنا المعاصرة،

---

(١) كنز العمال ٥: ٢٨٩ ح ١٢٩١١.
(٢) تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي ٣٠.
(٣) غوالي اللآلىء ١: ٢٦٧ ح٦٦.

وهي قادرة أن تمتد وتعبر أزمتنا هذه إلى أزمنة لاحقة تدركها أجيال أُخر بهذه القوة والألفة.

ولعل قوله ﷺ: **كلّ معروف صدقة** [١]، شاهد على ألفة ألفاظه ﷺ مع عنصر الزمن وانصهارها فيه، فلو دفعتها إلى أزمنة مضت قبله ﷺ لوجدت لها موضعاً هناك، ولو تراميت بها إلى قيام الساعة لوجدتها حاضرة ومألوفة في ذهن الإنسان.

ومن ذلك ما روي عنه ﷺ أنه كان إذا صعد أكمة أو نشزاً قال: **اللهم لك الشرف على كل شرف، ولك الحمد على كل حمد** [٢].

وقوله ﷺ: **من أراد الحديث فعليه بلا حول ولا قوّة إلاّ بالله** [٣].

وقوله ﷺ: **الميزان بيد الرحمن يرفع أقواماً ويضع آخرين** [٤].

ومن حديث له ﷺ قاله لعليّ عليه السلام: **من أحبّك في حياةٍ مني فقد قُضي له بالجنة، ومن أحبّك في حياةٍ منك بعدي خُتم له بالأمن والإيمان، ومن أحبّك بعدك ولم يَرك ختم الله له بالأمن والإيمان وآمنه يوم الفزع الأكبر** [٥].

وقال ﷺ: **العبد مع من أحبّ** [٦].

وقال ﷺ: **مَن لا يَرحم لا يُرحم** [٧].

---

(١) معجم الطبراني ١ : ٣٦٦ ح١١٢٦.

(٢) مسند أحمد بن حنبل ٣: ١٢٧.

(٣) المعجم الكبير للطبراني ١٨ : ٣٠١ ح ٧٧٣.

(٤) كنز العمال ١٤ : ٣٨١ ح ٣٩٠١٨.

(٥) علل الشرائع للصدوق ١٥٧ ضمن ح ٤.

(٦) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٥: ٣٠٥.

(٧) صحيح البخاري ٨: ١٢ ط دار إحياء التراث العربي.

وبين يدي الزمن قوله ﷺ في ماء زمزم: **ماء زمزم لما شُرب له، إنْ شربته تستشفي به شفاك الله، وإنْ شربته لشبعك أشبعك الله به، وإنْ شربته ليقطع ظمأك قطعه الله، وهي هزمة جبرئيل وسقيا الله إسماعيل**(١).

فهو مألوف في زمان ولادته، ونقلته عصور الزمن إلى أزمنة لاحقة بعده، وما زالت في ثوبها الذي صاغها ﷺ تأتلف مع ذهن المتلقي الذي لا يحمل من اللغة والثقافة حدّاً ضئيلاً ليدرك المعاني التي حملتها الألفاظ النبوية، اللّهم إلاّ أن يقال في كلمة (هَزْمَة) التي أراد بها معنى: ضرب برجله فانخفض المكان فنبع الماء، وقيل معناه: أنه هزم الأرض، أي كسر وجهها عن عينها حتى فاضت بالماء الرواد، وقولهم: هزم البئر حفرها، والهزيمة: الرَّكية، وقيل: الركية التي خُسفت وقُطع حجرها ففاض ماؤها (٢).

٧ ـ **التناسب بين الألفاظ ومعانيها**: تجد استعمال الألفاظ في الحديث استعمالاً محكماً، يظهر براعة مُنشئ هذه الألفاظ وقدرته في اختيار الألفاظ للمعنى المناسب، فالدغر لفظ يدل على الشدّة والدفع، أخذه ﷺ فوضعه في حالة تعرفها الأمهات العربيات بأنه يوحي بالإيجاع والإيلام، فتراه قال ﷺ لهنّ: **«علامَ تعذبن أولادكنّ بالدَّغر»**(٣)، أراد غمزهنّ لحلوق أبنائهنّ، فهو طبيب وأديب يختار المفردة المناسبة بدقة وهندسة لا توازيها قدرة أديب مثله ﷺ.

ولو عرفنا أن حرف الدال يوحي بالوهن والضعف، ومن ذلك قالوا: (الدالف للشيخ الضعيف) وقالوا: الدَفَر للنتن وقالوا للدنيا: أمّ

---

(١) سنن الدارقطني ٢: ٢٨٩ ح٢٣٨ باب المواقف.

(٢) ينظر لسان العرب ١٢: ٦٠٨ (هزم).

قال ابن فارس: الهاء والزاي والميم، أصل صحيح يدلّ على غمز وكسر، فالهزم: أن تغمز الشيء بيدك فينهزم إلى داخل، كالقثاءة والبطّيخة. معجم مقاييس اللغة ٦: ٥١ (هزم).

(٣) غريب الحديث للهروي ١: ٢٧.

دَفْرٍ، سبٌّ لها وتوضيعٌ منها، وينبغي أن تكون الدّفْلَى من ذلك لضعفه عن صلابة النبع والسّراء والتّنْضُب والشوحَط [١]، نفهم إيراد حرف الدال في حديثه ﷺ.

وقال ابن فارس: الدال والغين والراء أصلٌ واحد، وهو الدّفع والتقحم في الشيء، قال رسول الله ﷺ: «**علامَ تعذبن أولادكنّ بالدّغر**»، فالدّغر: غَمْز الحَلْق من العُذرة، و العُذرة: داء يهيج في الحَلق من الدم، ويقال هو معذور.

قال جرير:

غَمَزَ ابنُ مُرّة يا فَرزْدَقُ كَيْنَها   غَمْزَ الطبيب نغانغ المعذور

ودغرت القوم، إذا أدخلت عليهم. والدغرة: الخلسة، لأنّ المختلس يدفع نفسه على الشيء، وفي الحديث: «**لا قَطْعَ في الدَّغْرَة**»[٢].

ومن روائع خطبه ﷺ قال: «**إنّ الله أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا، إنّ كل مال نحلته عبدي حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وانتابتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرّمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أُنزل به سلطاناً**»[٣].

فأوّل ما افتتح به خطبته ﷺ هو ذكر العِلم، والعلم الذي به قَوام الوجود، دعا ﷺ ربّه بأن يكون هادفاً وموجهاً ونافعاً للوجود البشري، فقال في دعائه ﷺ: «**اللّهمّ إنّي أعوذ بك من عِلمٍ لا ينفع، وقلبٍ لا**

---

(١) ينظر الخصائص ٢ : ١٦٦، والتنضب: شجر ضخام، ليس له ورق، وإنما ورقه قضبان. اللسان (نضب).

(٢) معجم مقاييس اللغة ٢ : ٢٨٥ (دغر).

(٣) المعجم الكبير للطبراني ١٧ : ٣٦٠ رقم ٩٩٢.

يخشع، ودعاءٍ لا يُسمع، ونفسٍ لا تشبع»(١).

واختيار العلم في كلامه ﷺ جاء بعناية لأنّه يدرك ﷺ بأن الكلام وتشكيله وترتيب هذا التشكيل بسجع فني يؤثر في نفوس المتلقين، فجاء به مصدّراً دعاءه.

قال ابن فارس: العين واللام والميم أصل صحيح واحد، يدل على أثر بالشي يتميز به عن غيره، من ذلك العلامة، وهي معروفة.

ويقال: أعلم الفارس إذا كانت له علامة في الحرب وخرج فلانٌ معلماً بكذا. والعَلَم: الراية، والجمع أعلام، وكل شيء يكون مَعلَماً خلاف المجهل، والعلم: نقيض الجهل، وقياسه قياس العَلَم والعلامة (٢).

وباعتبار أن العلم الربّاني لديه ﷺ والدليل والهادي لهذا العلم عليّ عليه السلام قال: **«أنا مدينة العلم وعليّ بابها، ولن تُدخل المدينة إلاّ من بابها»**(٣).

قال الشريف الرضي: وهذا القول مجاز، لأنّه ﷺ شبّه علمه بالمدينة المحصّنة التي لا يطمع طامعٌ في دخولها، ولا الوصول إليها إلاّ من بابها، وأقام عليّاً أمير المؤمنين عليه السلام لتلك المدينة مقام الباب الذي يفتح من جهته، ويوصل إليه من ناحيته(٤).

والنُّحل ـ بالضم ـ: العطية والهبة ابتداءً من غير عوض ولا استحقاق، وعمّ به بعضهم جميع أنواع العطاء، وقيل: هو الشيء

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٣: ٢٨٣.

(٢) معجم مقاييس اللغة ٤: ١٠٩ (علم) باب العين واللام وما يليهما.

(٣) ينظر تفاصيل هذا الخبر في بحار الأنوار ٤٠: ٢٠٠.

(٤) المجازات النبوية ١٩٦ رقم ١٨٠.

المعطى، وقد أنحله مالاً ونَحله إيّاه، ونُحل المرأة: مَهْرُها، والاسم نحلة، تقول: أعطيتها مهرها نِحلة بالكسر، إذا لم تُرد منها عوضاً[(١)].

فالنحلة المرادة من حديثه ﷺ: **«أنّ كل ما أنعمت به على عبدي كان عن طيب ورضى بلا توقع عوض»** ومن ذلك نحلت المرأة مهرها نحلة، أي أعطيتها عن طيب نفس من غير مطالبة، قال تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾[(٢)].

وقوله ﷺ: **«حنفاء»** المراد أنهم طاهرو الأعضاء من المعاصي، وقيل: أراد أنه خلقهم حُنفاء مؤمنين لما أخذ عليهم الميثاق﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، فلا يوجد أحد إلاّ وهو مقرّ به بأنّ له ربّاً وإن أشرك به[(٣)].

قال ابن فارس: الحاء والنون والفاء أصل مستقيم، وهو الميل، والحنيف: المائل إلى الدين المستقيم، قال الله عز وجل: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾[(٤)].

والأصل هذا، ثم يتسع في تفسيره فيقال: الحنيف الناسك، ويقال: هو المختون، ويقال: هو المستقيم الطريقة، ويقال: هو يتحنّف، أي يتحرّى أقوم الطريق[(٥)].

وسُمّي إبراهيم عليه السلام حنيفاً؛ لأنه كان أحنف عمّا يعبد قومه من الآلهة إلى عبادة الله ﷻ[(٦)].

---

(١) لسان العرب ١١: ٦٥٠ (نحل).
(٢) النساء: ٤.
(٣) ينظر لسان العرب ٩: ٥٨ (حنف).
(٤) آل عمران: ٦٧.
(٥) معجم مقاييس اللغة ٢: ١١٠ (حنف).
(٦) نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن للسجستاني ١: ٢٠٩ ط عالم الكتب بيروت.

ومعنى قوله ﷺ: **فاجتالتهم الشاطين**، أي استخفتهم فجالوا معهم في الضلال، وجال واجتال، إذا ذهب وجاء، ومنه الجولان في الحرب[١].

قال ابن فارس: الجيم والواو واللام أصل واحد، وهو الدوران، يقال: جال يجول جَولاً وجَولاناً، وأجلته أنا، هذا هو الأصل، ثم يُشتق منه، فالجول: ناحية البئر، والبئر لها جوانب يُدار فيها.

وقال الفرّاء: ما لفلان جُول، أي ما له رأي، وهذا مشتقّ، من الذي ذكرناه، لأن صاحب الرأي يدير رأيه ويعمله[٢].

وحرف الجيم فيه شدّة يناسب ما في الجولان من اضطراب واهتزاز.

فلو وقفنا على قوله ﷺ: **«إنما المسائل كدوح يكدح بها الرجل وجهه، فمن شاء أبقى على وجهه، ومن شاء ترك، إلاّ أن يسأل ذا سلطان، أو في أمرٍ لا يجد منه بدّاً»**[٣].

فالكدوح: الخدوش، وكل أثر من خدشٍ أو عضٍّ فهو كدح، وكدح فلان وجه فلان، إذا عمل به ما يشينه، وكدح وجه أمره إذا أفسده. وقيل الكدح أكبر من الخدش[٤].

قال أبو عبيد: وكل أثر من خدش أو عضّ أو نحوه فهو كدح، ومنه قيل لحمار الوحش: مكدّح؛ لأن الحُمر يعضضنه، وقال أبو عبيد في حديث النبي ﷺ أنه قال: **من سأل وهو غني جاءت مسألته يوم**

---

(١) لسان العرب ١١: ١٣١ (جول).
(٢) معجم مقاييس اللغة ١: ٤٩٦ (جول).
(٣) المعجم الكبير للطبراني ٧: ١٨٢ ح ٦٧٦٧، كنز العمال ٦: ٤٩٦ ح ١٦٦٩٧.
(٤) لسان العرب ٢: ٥٧٠ (كدح).

القيامة خدوشاً أو خموشاً أو كدوحاً في وجهه، قيل وما غناه؟ قال: خمسون درهماً أو عدلها من الذهب(١).

ومن ذلك قوله ﷺ: **«إنّ هذه المسائل كدّ يكدّ بها الرجل وجهه»**.

قال الرضي: وفي هذا الكلام استعارة على تأويل الكد في العربية، وأحد التأويلين أن يكون الكدّ بمعنى الإتعاب والإنصاب، كما يقول القائل: كدت فرسي، إذا أراد أنه أتعبه واستنفد طاقته، فعلى هذا التأويل يكون معنى كد الرجل وجهه بالمسائل، أنه لكثرة بذله في السؤال وطلب ما في أيدي الرجال قد أجراه مجرى المطيّة التي يحضرها بكثرة الحل والترحال، وقطع المسافات الطوال.

والتأويل الآخر أن يكون الكد مأخوذاً من استقصاء النَّزْح ماء الرّكيّة حتى يبلغ حمأتها ويستنفذ غمراتها. يقال: كدّ الركيّة، واكتدها: إذا فعل بها ذلك.

قال الشاعر:

أمصُّ ثِمادي والمياه كثيرةٌ ... أعالج منها حَفرها واكتِدَادَها

ويكون قول القائل على هذا التأويل كَدَدْت فرسي، أي اعتصرت مادّته واستَقصيتُ ما عنده، فيكون كد الوجه على هذا القول يراد اعتصار مائه، واستقطار حيائه.

ومن المتعارف بيننا أن يقول القائل إذا أراد هذا المعنى قد هرقتُ ماء وجهي بكثرة الطلب إلى فلان والرغبة فيما عند فلان(٢).

---

(١) غريب الحديث للهروي ١: ١١٨، سنن ابن ماجة ١: ٥٨٩ ح ١٨٤٠.

(٢) المجازات النبوية ١١٧ رقم ١٠٥.

وقال أبو عبيد: الخدوش في المعنى مثل الخموش، أو نحومنها، يقال: خمشت المرأة وجهها تخمشه خَمشاً وخُموشاً، قال لبيد يذكر نساء في مأتم عمّه أبي براء:

يَخْمُشنَ حُرَّ أوجُهٍ صِحاحِ في السُّلُب السود وفي الأمساح

قوله: وفي السُّلُب، واحدها سلاب، يريد الثياب السود التي تلبسها النساء في المآتم [(١)].

وتجد اختيار حرف الخاء في الخدوش لما فيه من رخاوة، وإيحاءات حرف الخاء توحي بالذلّة والخساسة.

ومن ذلك قوله ﷺ: **«لَيجيئنّ أقوام يوم القيامة ليست في وجوههم مُزعة من لحم قد أخلقوها»**[(٢)].

كنّى ﷺ بذلك عن المسألة، والمزعة: قطعة لحم، يقال: ما عليه مزعة لحم، ومافي الإناء مُزعَة من الماء، أي جرعة.

والمزعة بالكسر: القطعة من الريش والقطن[(٣)].

ومن هذا جاء قوله ﷺ: **«ما تزال المسألة بالعبد حتى يلقى الله وما في وجهه مُزعة لحم»** [(٤)].

ويلاحظ في الحديث النبوي تناسب العبارة مع سياق الكلام بشكل واضح، فقد يتطلب الموقف العسكري عبارات تدل على حماس الحرب وشدّتها، ويتطلب الموقف العاطفي عبارات تحرّك عواطف الإنسان وانفعالاته، وقد يتطلب موقف الوعظ والتذكير

---

(١) غريب الحديث للهروي ١: ١١٧

(٢) كنز العمال ٦: ٥٠٢ ح ١٦٧٢٤.

(٣) ينظر الصحاح ٣: ١١٨٤ (مزع).

(٤) النهاية ٤: ٣٢٥ (مزع).

بالآخرة، عبارات تتسم بالاتزان والتروي والتعقل، وتتطلب عبارات الحثّ على الصدقة والإحسان للآخرين السرعة والانطلاق، كأنها وميض خاطف. . وهكذا تجد أنهﷺ يراعي مناخ كل موضوع فيضع قالب الأفكار بما يناسبها من مفردات، ولعل هذه النصوص تبيّن لك ذلك، ومنها:

أنه قال لعبد الرحمن بن عوف: **إنك من الأغنياء، ولن تدخل الجنّة إلاّ زحفاً، فأقرض الله يطلق قدميك**، وقوله ﷺ: **إنّ الله ليضحك إلى الرجل إذا مدّ يده في الصدقة**[١].

وقال ﷺ: **إن حلقة باب الجنة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب، فإذا دقت الحلقة على الصفحة طنّت وقالت: يا عليّ**[٢].

وقال ﷺ: **الحمّى من فيح جهنم فاطفؤوها بالماء**[٣].

ومن ذلك قوله ﷺ لحادي مطيّه:

«**يا أنْجَشَة ! رفقاً بالقوارير**»، قال الشريف الرضي: شبّه النساء في ضعف النحائز ووهن الغرائز بالقوارير الرقيقة التي يوهنها الخفيف، ويصدعها اللطيف، فنهى أن يسمعهنّ ذلك الحادي ما يُحرك مواضع الصّبوة، وينقض معاقد العِفّة.

وقد حمل بعض العلماء قوله تعالى: ﴿قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾[٤]، على أنّ المراد به غير الزجاج ها هنا، والقارور: فاعول من استقرار الشيء فيه فكأنه قرار للشراب وغيره من المائعات فيصلح

---

(١) كنز العمال ٦: ٣٧٨ ح ١٦١٤١ وص٣٨٣ ح ١٦١٦٦.

(٢) أمالي الصدوق ٤٧١ح ١٣.

(٣) صحيح البخاري ٧: ١٦٧.

(٤) الدهر ١٦.

أن يكون للزجاج، ويكون لغير الزجاج.

وأما عامة المفسّرين فيذهبون إلى أن تلك الآنية الموصوفة من فضّة، ولكنها تشفّ شفيف القوارير من الزجاج، فهو أعجز لتصويرها وأعجب لتقديرها، إذا كانت جامعة للرقة اللطيفة والقوة الحصيفة[١].

أنواع الحديث النبوي وأقسامه

أخذ الحديث النبوي السهم الأوفر من النصوص المروية عن النبي ﷺ، فالمأثور عنه ﷺ والذي رووه أشكالاً وفنوناً أخرى، كالخطابة والرسالة والوصيّة والمثل، إلاّ أنّ الحديث النبوي تصدّر هذه الأشكال وفاقها، لِما يحمل من أهداف رسالية اقتضتها السيرة النبوية في أعصر بعثته ﷺ، ولكثرة المناسبات المقتضية لصدوره، كأن يكون سؤال أو بيان لموضوع ما، وغير ذلك.

والأصل اللغوي للحديث هو الجديد من الأشياء، قال ابن فارس: الحاء والدال والثاء أصلٌ واحد، وهو كون الشيء لم يكن.. يقال: حدث أمرٌ بعد أن لم يكن[٢].

والحديث: الخبر يأتي على القليل والكثير.

والحديث: ما يُحَدِّث به المحدِّث تحديثاً، وقد حدّثه الحديث وحدّثه به[٣].

وقد يُراد من لفظ الحديث الدعوة والمقالة والرسالة كما في قــولــه ﷻ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ

(١) المجازات النبوية ٢٣ رقم ١٣.
(٢) معجم مقاييس اللغة ٢: ٣٦ (حدث).
(٣) ينظر لسان العرب ٢: ٢٣٣ (حدث).

أَسَفًا﴾(١)، وقد يُراد به النظم والتأليف كما في قوله ﷻ: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾(٢).

والمعنى الاصطلاحي للحديث هو: قول الرسول ﷺ أو حكاية أفعاله ﷺ، قال المجلسي: الحديث في اللغة يُرادف الكلام، سمّي به لأنه يحدث شيئاً فشيئاً، وفي اصطلاح عامة المحدّثين: كلام خاصّ منقول عن النبي ﷺ أو الإمام عليه السلام، أو الصحابي أو التابعي، أو من يحذو حذوه، يحكي قولهم أو فعلهم أو تقريرهم، وعند أكثر محدّثي الإمامية لا يطلق اسم الحديث إلاّ على ما كان محكياً عن المعصوم عليه السلام(٣).

ويُعدّ الحديث النبوي من مصادر التشريع الإسلامي، ويتسم الحديث على الأغلب بقصر الجملة وكثافتها، إلاّ أنه قد يطول أحياناً وفقاً لما يقتضيه الموضوع من إفاضة وتوسّع يراها ﷺ لازمة لإشباع الحديث بالمعاني أو لتشعب موضوعه.

ويمكن لنا تقسيم الحديث النبوي إلى أقسام طبقاً للموضوعات التي تناولها وحدّث عنها ﷺ، أو للشكلّ الذي صيغت فيه، ومن ذلك:

١ ـ **الحديث العلمي**: وهذا الحديث جزء من الحديث النبوي

---

(١) الكهف ٦.

(٢) الطور ٣٤.

(٣) بحار الأنوار ٢: ١٥٧. قال الدكتور الخطيب: إذا أطلق لفظ الحديث، أريد به ما أضيف إلى النبي ﷺ، وقد يراد به ما أضيف إلى صحابي أو تابعي، ولكنه غالباً يقيّد في مثل هذه الحال (أصول الحديث علومه ومصطلحاته ٢٨).

وقال الدكتور عتر: وفي اصطلاح علماء الإسلام ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو وصف خِلقي أو خُلقي. (منهج النقد في علوم الحديث للدكتور نور الدين عتر ص٢٦ ط دار الفكر دمشق).

الواصل إلينا، قيل ووجد في ظروف لا نعلمها، كأن يكون ذلك جواب سؤال، أو مبادرة منه ﷺ لكشف حقيقة ووصفها، وهو حديث يتصف بلغة تقريرية علمية، تخلو من عنصري الإيقاع والتصوير، فلا تجد كبقية الأحاديث بعد الموسيقى الصوتية، واللغة الفنية على الأغلب، ومن ذلك قوله ﷺ:

«كلّ ابن آدم تأكلّه الأرض إلاّ عجب الذنب،فإنه منه خُلق ومنه يركّب»[(١)] وتدخل عموم أخبار الطبّ في هذا الحديث[(٢)].

من ذلك قوله ﷺ: **«تجنّب الدواء ما احتمل بدنك الداء، فإذا لم يحتمل الداء فالدواء»** [(٣)].

وقوله ﷺ: **«ترك العشاء مهرمة»**[(٤)].

وقوله ﷺ: **«إيّاكم والبطنة، فإنها مفسدة للبدن، ومورثة للسقم، ومَكْسَلة عن العبادة»**[(٥)].

ومن الحديث العلمي قوله ﷺ: **«سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافث أبو الروم»**[(٦)].

ومن الحديث العلمي أيضاً الحديث الذي يطرح حقائق علمية أثبتتها الدراسات العلمية وأكدتها البحوث الميدانية، من ذلك قوله ﷺ:

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٢: ٣٢٢، صحيح مسلم ٨: ٢١٠.

(٢) وألّف الشيخ عباس تبريزيان بحثاً علمياً وافياً مستنبطاً من هذه الأحاديث علوم الطب لديه ﷺ.

(٣) مكارم الأخلاق: ٣٦٢، بحار الأنوار ٥٩: ٦٦ ح١٤.

(٤) بحار الأنوار ٥٩: ٣٦٦ ح٣٧، دعائم الإسلام ٢: ١٤٤ ح٥٠٥، الجامع الصغير ١: ٥٠٩ ح٣٣١٨.

(٥) دعوات الراوندي ٧٤و٧٥ ط مؤسسة المهدي قم، بحار الأنوار ٥٦: ٢٦٦ ح٤١.

(٦) المعجم الكبير للطبراني ٧: ٢١٠ ح ٦٨٧١، مسند أحمد ٥: ٩.

«اختاروا لنطفكم، فإن الخال أحد الضجيعين»[١].

وتجد بعض الحقائق العلمية في قوله ﷺ: **«ما من معمّر يُعمَّر في الإسلام أربعين سنة إلاّ صرف الله عنه ثلاثة أنواع من البلاء: الجنون والجذام والبرص، فإذا بلغ خمسين سنة ليّن الله عليه الحساب، فإذا بلغ ستّين سنة رزقه الله الإنابة إليه بما يُحبّ، فإذا بلغ سبعين سنة أحبّه الله وأحبّه أهل السماء، فإذا بلغ الثمانين قبل الله حسناته وتجاوز عن سيئاته، فإذا بلغ تسعين سنة غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، وسُمّيَ أسير الله في أرضه وشفع لأهل بيته»**[٢].

فالإنسان في عقود عمره المختلفة يتسم بخصائص فسلجية ونفسية مختلفة رصدهاﷺ رصداً دقيقاً، ولعل أروع وصف هو قولهﷺ في وصف الشيخ الطاعن بالسن الذي ينوء بثقل السنين وهمومها **«أسير الله في أرضه»** فهو في عظام هشّة متثاقلة وعيون منطفأة من ضوء الحياة وبهجتها، يلهث وراء منقذ من كاهل قيود الحياة التي أثقلته وسلبته هجوع النفس وطمأنينتها.

٢ ـ الحديث العسكري والحربي: وهذا القسم من أقسام الحديث يمتزج فيه أحياناً الحديث السياسي والحديث العلمي، فتقريرهﷺ بملاك السرية ضمن التنظيم العسكري، بقوله ﷺ: **«خير الصحابة أربعة، وخير السرايا أربعمائة، وخير الجيوش أربعة آلاف، ولن يُغلب إثنا عشر ألف من قلّة»**[٣].

---

(١) بحار الأنوار ١٠٣: ٢٣٧، الكافي ٥: ٣٣٢ ح٢، تهذيب الأحكام ٧: ٤٠٢ ح١٢.

(٢) مسند أحمد بن حنبل ٣: ١٦٧، الخصال :٥٤٧ح٢٧، روضة الواعظين :٤١٣.

(٣) مسند أبي داود ٣: ٣٦ رقم ٢٦١١، الخصال :٢٠١ ح١٥، عوالي اللآلي ١: ١٧١ ح١٩٦.

بيان عسكري وسياسي في آن واحد، فالجيوش الحديثة تعتبر هذا الرقم أو ما يدانيه هو الملاك الصحيح لتكوين وحدة قتالية أُسميت بالفوج أو الكتيبة الحربية[١] التي تدخل ضمن تشكيلة اللواء المقاتل.

وتدخل الأحاديث الآتية ضمن هذا القسم من الحديث:

«لا هجرة ولكن جهاد ونيّة، وإذا استنفرتم فانفروا»[٢].

«عجب ربّنا من رجل غَزا في سبيل الله فانهزم»[٣].

وقال ﷺ يوم بدر: **«إذا أكثبوكم فارموهم بالنبل، ولاتسلّوا السيوف حتّى يغشوكم»**[٤].

وروى عن أحد أصحابه أنه ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا إذا فزعنا بالجماعة والصبر والسكينة[٥].

وقال ﷺ: **«إنّما الإمام جنّة يُقاتل به»**[٦].

٣ ـ الحديث المشرّع والمقنن أو حديث الأحكام[٧]: وهذا

---

(١) تتكون الكتيبة الحربية أو الفوج من سرايا، وهذه السرايا تتكون من فصائل، وهذه الفصائل من حضائر، وهي أصغر وحدة قتالية، وتدخل الكتيبة ضمن تشكيلة اللواء، واللواء ضمن تشكيلة الفرقة العسكرية، والفرقة تنضوي تحت قوّة الفيلق أو الجيش.

(٢) سنن أبي داود ٣: ٣ ح ٢٤٨٠، العمدة لابن بطريق: ٣١٣.

(٣) سنن أبي داود ٣: ١٩ ح ٢٥٣٦، مستدرك الحاكم ٢: ١١٢، السنن الكبرى للبيهقي ٩: ٤٦.

(٤) سنن أبي داود ٣: ٥٢ ح ٢٦٦٤ السنن الكبرى للبيهقي ٩: ١٥٥.

(٥) سنن أبي داود ٣: ٢٦ ح ٢٥٦٠ المعجم الكبير للطبراني ٧: ٢٦٩.

(٦) سنن أبي داود ٢:٣ ح ٢٧٥٧ السنن الكبرى للبيهقي ٩: ٢٢٣.

وقد أعدّ الشيخ عبد الستّار الزهيري بحثاً جيداً تتجلى فيه براعته ﷺ الحربية، كأسلوب دفاعي لتقرير السلام والأمن العالمي، يطبع في هذه الموسوعة.

(٧) وللشيخ باسم الحلي بحث حول مصادر التشريع.

الحديث يتناول مسألة قضائية أو عبادية، يجد النبيﷺ ضرورة وضع الحكم التشريعي التكليفي لها لتكون مستنداً للأمّة ودليلاً لها لتبني أحكامها فيما بعد، كأن يكون الحكم متعلّقاً بأحكام الكفّارات، أو قضاء الصوم الفائت، أو النذر، أو الطلاق، أو الظهار، وغيرها، وقد اعتنى علماء الفقه وأصوله بهذا الحديث بصفته مصدراً من مصادر التشريع الإسلامي، ولهذا يقال في أدلّة الشرع الكتاب والسُنّة، وإطلاق السنّة في الدليل الشرعي المراد هو الحديث المشرّع أو المقنن الذي يضع القوانين العامّة والقواعد في طريق الاستنباط الشرعي، ويتّسم الحديث المقنّن بصفة التقرير، ويكاد يخلو من الإيقاع والتصوير إلاّ ما ندر ؛ لأن الأحكام الشرعية تمثل ظواهر موضوعية لا تتطلب ألفاظها توشية بديعية لها وموسيقى صوتية.

من ذلك قوله ﷺ: «**إنّا أهل بيت لا تحلّ لنا الصدقة**»(١).

وقوله ﷺ: «**لا تحلّ الصدقة لي ولا لأهل بيتي، إنّ الصدقة أوساخ الناس**»(٢).

ومن الحديث المشرّع ما روي عن سلمة بن صخر البياضي قال: كنت امرءاً أصيب من النساء ما لا يصيب غيري، فلمّا دخل شهر رمضان خفت أن أصيب في ليلي شيئاً فيتتابع بي ذلك إلى أن أُصبح، قال: فتظاهرت إلى أن ينسلخ، فبينا هي في ليلة تخدمني إذ يكشف لي منها شيء فما لبثت أن نزوت عليها.

فلمّا أصبحت خرجتُ إلى قومي فأخبرتهم، وقلت: امشوا معي إلى رسول الله ﷺ. فقالوا: لا والله لا نمشي معك، ما نأمن أن ينزل

---

(١) دعائم الإسلام ١ : ٢٤٦.

(٢) بحار الأنوار ٩٦ : ٧٦.

فيك القرآن أو أن يكون فيك من رسول الله ﷺ مقالة يلزمنا عارها، ولنسلمنك بجريرتك.

فانطلقتُ إلى رسول الله ﷺ فقصصت عليه خبري، فقال: **يا سلمة أنت بذلك؟**.

قلتُ: أنا بذلك.

قال: **يا سلمة أنت بذلك؟**.

قلتُ: أنا بذلك.

قال: **يا سلمة أنت بذلك؟**.

قلتُ: أنا بذلك، وها أنا صابرٌ نفسي فاحكم فيّ ما أراك الله.

قال ﷺ: **فاعتق رقبة.**

قال: فضربت صفحة رقبتي.

فقلت: والذي بعثك بالحق نبيّاً، ما أصبحت أملك رقبة غيرها.

قال ﷺ: **فصُم شهرين متتابعين.**

قلت: وهل أصابني إلاّ الذي أصابني في الصيام !.

قال: **فأطعم وسقاً من تمر ستين مسكيناً.**

فقلت: والذي بعثك بالحق، لقد بتنا ليلتنا ما لنا من الطعام.

قال: **فانطلق إلى صاحب صدقة بني زريق فليدفعها إليك، واطعم ستّين مسكيناً وسقاً من تمر وكل بقيته أنت وعيالك.**

قال: فأتيت قومي فقلت: وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي، ووجدت عند رسول الله ﷺ السعة وحُسن الرأي وقد أمرني بصدقتكم[(١)].

---

(١) سنن الدارمي ٢: ١٦٣ باب في الظهار، ونحوه في المبسوط للشيخ الطوسي ٥: ١٤٤.

ومن أحاديث التشريع والتقنين قوله ﷺ:

«من أراد الحجّ فليتعجّل، فإنه قد يمرض المريض، وتضلّ الراحلة وتعرض الحاجة»[١].

وقوله ﷺ: **«الماء لا ينجّسه شيء إلاّ ما غلب على ريحه وطعمه ولونه»** [٢].

وقوله ﷺ: **«كلّ ما قُطع من الحيّ فهو ميت»**[٣].

وقوله ﷺ: **«أدنى ما يُقطع فيه السارق ثمن المِجَنّ»**[٤].

وقوله ﷺ: **«لا تُنكح المرأة على عمّتها أو خالتها»**[٥].

وقوله ﷺ: **«مَن أحاط حائطاً على أرضٍ فهي له»**[٦].

ولعل من حديث السنن والتأديب، والذي يدخل ضمن حديث التشريع والأحكام، الحديث المروي: جاء رجل إلى النبيﷺ فسأله عن خبر السماء، فقال ﷺ: **تسألني عن خبر السماء وتدع أظفارك كأظفار الطير تجتمع فيها الخباثة والتَّفَث؟!**[٧]. ندبﷺ إلى النظافة وتقليم الأظافر.

وقوله ﷺ: **«أيّها الناس كونوا أبناء الآخرة ولا تكونوا أبناء دنيا، فإنّ كلّ أمّ يتبعها ولدها»**[٨]. ندب إلى الزهد والقناعة.

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ١: ٣٥٥، عوالي اللآلي ١: ٨٦ ح١٨.
(٢) المعجم الكبير للطبراني ٨: ١٠٤ ح ٧٥٠٣، سنن ابن ماجة ١: ١٧٤ ح٥٢١.
(٣) المعجم الكبير للطبراني ٢: ٥٧ ح ١٢٧٦.
(٤) المعجم الكبير للطبراني ١: ٢٨٩ رقم ٨٤٩.
(٥) المعجم الكبير للطبراني ٧: ٢١٨ ح ٦٩٠٨، صحيح البخاري ٦: ١٢٨.
(٦) المعجم الكبير للطبراني ٧: ٢٠٨ ح ٦٨٦٤، عوالي اللآلي ٣: ٤٨٠.
(٧) المعجم الكبير للطبراني ٤: ١٨٤ ح ٤٠٨٦، ينظر السنن الكبرى ١: ١٧٥.
(٨) المعجم الكبير للطبراني ٧: ٢٨٨ ح ٧١٥٨، مجمع الزوائد ٢: ١٨٩.

وقوله ﷺ: «**ليس الخبر كالمعاينة**»[١]. في بيان أحكام الشهود والقضاء.

وقوله ﷺ: «**العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه**» [٢]، و «**العائد في هبته كالعائد في قيئه**» [٣]فيما يتعلق بحكم الهبات.

وقوله ﷺ: «**عليكم بهذا البياض، ليلبسه أحياؤكم، وكفّنوا فيها موتاكم، فإنها من خيار ثيابكم**» [٤]، فيما يتعلّق بآداب اللباس والكفن.

ومن حديث السنن والآداب ما روي أنّه كانﷺ يأتي دار قوم من الأنصار ودونهم دار، فقالوا: يارسول الله، سبحان الله تأتي دار فلانٍ ولا تأتي دارنا؟! فقال ﷺ: **لأنّ في داركم كلباً**، قالوا: فإنّ في دارهم سِنّوراً، فقال النبي ﷺ: **إنّ السنَّور سبع**[٥].

ومن سنّتهﷺ ما روي عن جابر قال: رأيت ماعِز بن مالك حين جيء به إلى النبيﷺ حاسراً ما عليه رداء، فشهد على نفسه أربع مرّات أنه قد زنا، فقال رسول الله ﷺ: **فلعلك**؟ قال: لا، والله إنه قد زنا الأخِر[٦]. قال: فرجمه ثم خطب فقال ﷺ: **ألا كلّما نفروا في سبيل الله خَلَف أحدهم له نبيب**[٧] **كنبيب التيس يمنح إحداهنّ**

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ١: ٢١٩ من لا يحضره الفقيه ٤: ٣٧٨ ح٥٧٨٨.

(٢) مسند أحمد بن حنبل ١ :٢١٧، من لا يحضره الفقيه ٤: ٣٨٠ ح٥٨٠٨، بحار الأنوار ١٠٠: ١٨٩ ح٦.

(٣) من لا يحضرة الفقيه ٤: ٣٧٨ ح ٥٧٨٨.

(٤) المعجم الكبير للطبراني ٧: ٢٣٠ ح ٦٩٥٩، مستدرك الحاكم ٤: ١٨٥، المصنف لعبد الرزاق الصنعاني ٢: ٤٢٩ ح٦١٩٨.

(٥) مسند أحمد بن حنبل ٢: ٣٢٧، بحار الأنوار ٦٢: ٦٧ح ٢٦.

(٦) الأخِر بوزن الكَبِد: هو الأبعد المتأخِّر عن الخير. اللسان ٤: ١٥ (أخر).

(٧) النبيب: يقال نبَّ التيس نبيباً، صوّت عند السفاد. مقاييس اللغة ٥: ٣٥٣ (نب).

الكُثْبَة[(١)]**، أما إن أمكنني الله ﷺ من أحدٍ منهم لأنكلنّه عنهن**[(٢)].

فقوله ﷺ في الحديث: «**لعلك**»، أراد بها شبهة ليدرأ الحد بها عنه، وقد سنّ ﷺ للقاضي آداب القضاء بقوله: «**ادرءوا الحدود بالشبهات**»[(٣)].

٤ ـ **الحديث التمثيلي والقصصي**: إنّ وظيفة المشرع سواء كان مرسلاً أو لم يكن مرسلاً، وضع قواعد ودساتير للأفكار والنظريات التي يدعو لها ويبشر بها، وإنّما يستعين صاحب الشريعة والداعي للشريعة، بأساليب فنيّة لتوظيفها لأغراض فكرية وعقائدية، ولا نجد غرابة في استعانة القرآن الكريم بالنمط القصصي في نقل الأحداث وسردها وتسجيل الحوار بين أبطال هذه القصص وعرضها على المتلقي، فالأسلوب القصصي أسلوب ناجح ومؤثر في العقل البشري، وقد أخذت المدارس الفكرية الحديثة تتوكأ على آداب وروايات مريديها ومبشريها لنشر هذه المبادئ والنظريات، ولعلّ الأدب الاشتراكي الذي اتخذ الفلسفة الماركسية مذهبه الفكري خير شاهد لما نقول.

والقارئ للقصة أو الرواية[(٤)] حين ينتهي من قراءتها يحسّ بأنها

---

(١) الكثبة: القطعة من اللبن ومن التمر. مقاييس اللغة ٥: ١٦٢ (كثب).

(٢) مسند أبي يعلى الموصلي ١٣: ٤٤٣ ح ٧٤٤٦، صحيح مسلم ٥: ١١٧.

(٣) من لا يحضره الفقيه ٤: ٧٤ ح ٥١٤٦، دعائم الإسلام ٢: ٤٦٥ ح١٦٤٩.

(٤) والرواية: تسرد أحداثاً تسعى لأن تمثل الحقيقة، وتعكس مواقف الإنسان، وتجسد ما في العالم، أو تجسد شيء مما فيه على الأقل. (ينظر في نظرية الرواية ١١ د. عبد الملك مرتاض ط الكويت) والأدب القصصي بشكل عام: هو انتقاء أو انتخاب خاص لواحد أو لمجموعة من الشخصيات والأحداث والبيئات والأفكار، يُكتب بلغة الحوار أو السرد، أو كليهما، ويخضع لبناء هندسي خاص. (القواعد البلاغية للبستاني ٢٩٧).

قد تركت في عقله ومشاعره أثراً خاصّاً، يعمل هذا الأثر على توجيه القارئ توجيهاً فكرياً معيّناً، قد يعجز عن ترك هذا الأثر صاحب النظرية الفلسفية أو عالم الاجتماع أو المفكّر، ولا يعني هذا تقليل دور المفكّر أو العالِم، فالمفكر والعالم قد يترك أثراً كبيراً على جمهور أهل العلم والثقافة، إلاّ أنّ هذا الأثر قد يظلّ محدوداً بالقياس إلى ما يتركه صاحب الأثر الروائي والقصصي.

وقد أدرك ﷺ بعقله الرسالي أنّ هذا الأسلوب، أي الأسلوب القصقي، أو أسلوب الحكاية أو الأقصوصة ينبغي أن يأخذ مأخذه في لغة التوصيل والتبليغ، فنقلت لنا المجاميع الحديثية نصوصاً من هذا النمط، ومن ذلك ما رواه الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال رسول الله ﷺ: **«مرّ عيسى بن مريم بقبر يعذّب صاحبه، ثم مر به من قابل فإذا هو ليس يعذّب، فقال: يا رب مررت به العام فإذا هو ليس يعذب فأوحى الله جل جلاله إليه: يا روح الله إنه أدرك له ولد صالح فأصلح طريقاً وآوى يتيماً فغفرت له بما عمل ابنه»**(١).

وكذا ما روى أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **بينما امرأتان معهما ابنان لهما، جاء الذئب فأخذ أحد الابنين، فتحاكما إلى داود عليه السلام فقضى به للكبرى، فخرجتا فدعاهما سليمان فقال: هاتوا السكّين أشقّه بينهما، فقالت الصُغرى: يرحمك الله، هو ابنها لا تشقّه، فقضى به للصغرى»**(٢).

ومن الحديث القصصي ما روي عن أنس أنّ النبي ﷺ قال:

«إنّ ثلاثة نفر فيما سلف من الناس، انطلقوا يرتادون لأهلهم فأخذتهم السماء، فدخلوا غاراً فسقط عليهم حجر متجافٍ حتّى ما

---

(١) أمالي الصدوق ٤١٤ ح٨، البحار ١٤: ٢٨٧ ح ١١.

(٢) مسند أحمد بن حنبل ٢: ٣٢١، المحلى لابن حزم ١١: ٤١٤، بحار الأنوار ٦٢: ٧٩.

يرون منه خَصاصَة[١]، فقال بعضهم لبعض: قد وقع الحجر وعفا الأثر، ولا يعلم بمكانكم إلاّ الله فادعوا الله بأوثق أعمالكم.

قال ﷺ: فقال رجلٌ منهم اللّهم إنْ كنت تعلم أنه قد كان لي والدان، فكنت أجلب لهما في إنائهما فآتيهما، فإذا وجدتهما راقدين قمتُ على رؤوسهما كراهية أن أردّ سِنَتهما في رؤوسهما حتّى يستيقظا متى استيقظا، اللّهم إنْ كنت تعلم أنّي إنّما فعلت ذلك رجاء رحمتك ومخافة عذابك ففرّج عنّا. فزال ثلث الحجر.

وقال الآخر: اللّهم إنْ كنت تعلم أنّي استأجرت اجيراً على عملٍ يعمله، فأتاني يطلب أجره وأنا غضبان فزجرته، فانطلق فترك أجره ذلك، فجمعته وثمرته حتّى كان منه كلّ المال، فأتاني يطلب أجره فدفعت إليه ذلك كلّه، ولو شئت لم أعطه إلاّ أجره الأوّل، اللّهم إنْ كنت تعلم أنّي إنّما فعلت ذلك رجاء رحمتك ومخافة عذابك ففرج عنّا. قال ﷺ: فزال ثلثا الحجر.

وقال الثالث: اللّهم إن كنت تعلم أنه أعجبته امرأة فجعل لها جعلاً، فلمّا قدر عليها وفَرَّ لها نفسها وسلّم لها جعلها، اللّهم إنْ كنت تعلم أنّي إنّما فعلت ذلك رجاء رحمتك ومخافة عذابك ففرج عنّا. فزال الحجر وخرجوا معاً يتماشون»[٢].

وقال رسول الله ﷺ في حديث تمثيلي: «مثل المؤمن كمثل خامة الزرع تكفئها الرياح كذا وكذا، وكذلك المؤمن تكفئه الأوجاع

---

(١) الخَصاص: شِبه كوّة في قبّة أو نحوها إذا كان واسعاً قدر الوجه وبعضهم يجعل الخصاص للواسع الضيّق حتى قالوا لخُروق المِصفاة والمنخل خَصاص، واحدته خَصاصة. اللسان ٧: ٢٥ (خصص).

(٢) مسند أحمد ٣: ١٤٢، ونحوه في الدعوات لقطب الدين الراوندي: ٣٠ ح١٠٤، بحار الأنوار ٦٦: ٢٨٨ ح٢٢. والإرزبة: المطرقة.

والأمراض، ومثل المنافق مثل الإرزَبّة المستقيمة التي لا يصيبها شيء حتى يأتيه الموت فيقصفه قصفاً» [(١)]. **وفي آخر: «إنّ مثل ما بعثني الله ﷻ به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب الأرض، فكانت منه طائفة قبلت فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله ﷻ بها ناساً فشربوا فرعوا وسقوا وزرعوا وأسقوا، وأصابت طائفة منها أخرى، إنّما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تُنبت كلأً، فذلك مثل من فقه في دين الله ﷻ ونفعه الله ﷻ بما بعثني به، ونفع فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله ﷻ الذي أرسلت به»** [(٢)].

٥ ـ الحديث الاجتماعي: وهو الحديث الذي يجسّد النظرة الإلهية للمجتمع المثالي، الذي يصبو له المصلحون والأنبياء.

وهذا النوع من الحديث الذي يُعنى بالعلاقات والروابط الاجتماعية بين أفراد المجتمع، يضع القواعد والأسس التي ينبغي أن يسير على ضوئها المجتمع الإسلامي في تنظيم الروابط والعلائق بين الوحدات الاجتماعية كالأسرة والقبيلة والجمعية، أو بين الأفراد ككيانات صغيرة داخل المجتمع الذي ينضوي كلّ فرد تحته.

ويتّسم هذا النمط من الحديث بلغة علمية ذات بُعد فنّي أحياناً، كما في قوله ﷺ: **«اليد العُليا خيرٌ من اليد السُفلى»** [(٣)].

فالحديث كنّى عن السخاء والجود والمساعدة للآخرين بالعلوّ،

---

(١) الكافي ٢: ٢٥٧ ح ٢٥.

(٢) بحار الأنوار ١: ١٨٤ ح١٠٠، منية المريد للشهيد الثاني :١٠٢ مسند أحمد بن حنبل ٤: ٣٩٩.

(٣) الكافي ٤: ٢٦ ح١، من لا يحضره الفقيه ٤: ٣٧٦ ح٥٧٦٣ كنز العمال ٦: ٣٨١ح١٦١٥٥.

وكنّى عن اليد القابضة الممتنعة عن العطاء والمساعدة بالدنوّ والهبوط.

ويرى الشريف الرضي أنه ﷺ أراد باليد العليا: يد المُعطي، وباليد السُفلى: يد المُستَعطي، وإنّما كنّى ﷺ عن هاتين الحالتين باليدين؛ لأن الأغلب أن يكون بهما العطاء والبذل، وبهما القبض والأخذ[١].

وقد فسّره بعض العلماء بأنه إشارة إلى فضل المُعلِّم على المُتَعَلِّم، فحقّ المتعلّم إذا وجد مُعلّماً أن يأتمر له ولا يتأمّر عليه[٢].

ومن الحديث الاجتماعي قوله ﷺ لأصحابه: **«يوشك أن تكونوا في الناس كالملح في الطعام، لا يصلح الطعام إلاّ بالملح»** [٣] بما يرى ﷺ من ضرورة رجل الدين في توجيه الناس والأخذ بأيديهم، وتنظيم أحوالهم وأمورهم وإلاّ اختلّ النظام الاجتماعي للناس.

ولعلّ قوله ﷺ: **«من قتل مُعَاهَداً لم يَرَح رائحة الجنة، وإنّ ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً»**[٤] من أحاديثه الاجتماعية التي تنظم علاقات المسلمين بغيرهم من الأديان السماوية الأخرى والتي تفرضها الأخلاق الإسلامية في حفظ ورعاية أحوال غير المسلمين واحترام أنفسهم وأموالهم، كجزء من كيان المجتمع الإسلامي الكبير، الذي يحتفظ في نظامه الاجتماعي والسياسي بطوائف من الأديان الأخرى التي أبت أن تدخل تحت راية هذا الدين الحنيف، ويمكن أن نضعه في إطار الحديث السياسي الذي ينظم العلاقات الدولية ضمن القانون الدولي للإسلام.

---

(١) المجازات النبوية ٢٩ ح ١٩.
(٢) بحار الأنوار ٢: ٥٩.
(٣) الغدير ١١: ٦٠، المعجم الكبير للطبراني ٧: ٢٦٨ ح ٧٠٩٨.
(٤) الغدير ١١: ٦٠، جامع الأصول ٣: ٢٥٧ ح ١١٣٧.

وقوله ﷺ: **«ليس منّا من سلق، ولا حلق، ولا خرق»**(١) يتناول ظاهرة اجتماعية كانت ولا زالت تطبع المجتمع الإسلامي الذي يعجّ ويطفح بعواطفه وانفعالاته عند وقوع مصيبة، كأن تفقد المرأة زوجها، أو الأم ولدها، فالسلق في الحديث كناية عن رفع الصوت عند المصيبة، والحلق المراد به حلق الشعر، والخرق هو شق الثياب عند المصيبة(٢).

وقوله ﷺ: **«البذاذة من الإيمان»**(٣) حثٌّ على نبذ الترف ،والتأنّق الذي يتجاوز حدوده المقبولة، بحيث يصبح الفرد، إذا انغمس في مظاهر الزينة المفرطة، تافهاً لا حسّ إنساني له ولا بُعد اجتماعي لديه، تكون المظاهر البرّاقة التي لا جدوى فيها هدفاً نهائياً وغايةً له، فيكون مبذخاً متعالياً منطوياً.

وأنت تجد له حسّاً ونظراً اجتماعياً ثاقباً في مجمل أحاديثه ﷺ التي تتناول علاقات المسلمين بعضهم مع بعض، وما وصاياه ﷺ إلاّ تنظيم لأحوال الأسرة والعلاقات الزوجية والعلاقات العامة والخاصة.

ومن ذلك قوله ﷺ: **«يُعيّر الله ﷻ عبداً يوم القيامة فيقول: عبدي ما منعك إذا مَرِضتُ أن تعودني؟ فيقول: سبحانك سبحانك ! أنت ربّ العباد لا تألم ولا تمرض، فيقول: مرض أخوك المؤمن فلم تعده، وعزّتي وجلالي، لو عدته لوجدتني عنده، ثم لكتفّلت بحوائجك فقضيتها لك، وذلك من كرامة عبدي المؤمن، وأنا الرحمن الرحيم»**(٤).

---

(١) عوالي اللآلي ١: ١١١ ح ١٩، مستدرك الوسائل ١: ٤٠٦ ح ١٠٠٤، مسند أبي يعلى الموصلي ٤: ١٠٠ ح ٢١٣٣.

(٢) ينظر النهاية في غريب الحديث والأثر (حلق) و (سلق) و (خرق).

(٣) بحار الأنوار ٧٠: ٢٠٧ المعجم الكبير للطبراني ١: ٢٧٢ رقم ٧٨٩ ـ ٧٩١.

(٤) أمالي الشيخ الطوسي ٢: ٢٤٢ ط النجف، بحار الأنوار ٧: ٣٠٤ح٧٥.

ومن الحديث الاجتماعي قوله ﷺ: **«ثلاث خصال من كُنّ فيه استكمل خِصال الإيمان: الذي إذا رضي لم يدخله رضاه في إثم ولا باطل، وإذا غضب لم يخرجه الغضب من الحق، وإذا قدر لم يتعاط ما ليس له»**(١).

ومثل هذه الأحاديث تندرج ضمن الأحاديث التربوية، وقد درجناها ضمن الأحاديث الاجتماعية التي تهدف إلى تنمية الروابط الاجتماعية بين الأفراد وزرع المودّة والتراحم بينهم، فالرسالة التي جاء لهاﷺ كاملة تمتد أبعادها وأنوارها حتّى إلى العلاقات الشخصية بين الأفراد.

وقد وضعﷺ بلغته الفنيّة الجميلة البخيل في قيود الأصفاد فقال لعبد الرحمن بن عوف: **إنك من الأغنياء، ولن تدخل الجنّة إلاّ زحفاً، فأقرض الله يطلق قدميك**(٢).

وتهذيب الإنسان وإعداده إنساناً كاملاً من أهداف رسالته التي جاء بهاﷺ ويتجلّى في قولهﷺ لأحد أصحابه: **«إن الناس شجرة ذات جنىً، ويوشك أن تعودوا شجرة ذات شوك، إن ناقدتهم ناقدوك، وإن تركتهم لم يتركوك، وإن هربت منهم طلبوك، فقال: كيف المخرج؟ قال ﷺ: تقرضهم من عِرْضك ليوم فاقتك»**(٣).

---

(١) الخصال للصدوق ١٠٥ ح ٦٦، الكافي ٢: ٢٣٩ ح٢٩.

(٢) كنز العمال ٦: ٣٧٨ ح ١٦١٤١، مستدرك الحاكم ٣: ٣١١.

(٣) المعجم الكبير للطبراني ٨: ١٢٦ ح ٧٥٧٥، مجمع الزوائد للهيثمي ٧: ٢٨٥.
ومعنى ناقدتهم في الحديث المراد هو عبتهم واغتبتهم. ينظر اللسان (نقد) ٣: ٤٢٦
ومعنى المقارضة في الحديث هو العمل السيء والقول السيء بقصد الإنسان به صاحبه، وأصل القرض ما يعطيه الرجل أو يفعله ليُجازى، ومعنى قوله ﷺ: إذا نال عرضك رجل فلا تُجازه ولكن استبق أجره موفّراً لك قرضاً في ذمته لتأخذه منه يوم حاجتك إليه» ينظر اللسان (قرض) ٧: ٢١٧.

٦ ـ الحديث السياسي [١]: شهد عصر النبوة مجموعة من الأحداث السياسية، وإن كانت كلّ حركته ﷺ حركة سياسية واجتماعية وفكرية زلزلت النظام السياسي للعالم الذي كان قائماً حينذاك، إلاّ أن بعض الأحداث ألقت ظلالها في مناحي الحديث فانبثقت طائفة من الأحاديث تحمل أنفاسها عبيق هذه الأحداث.

ومن ذلك قوله ﷺ: **«إنّ أقواماً يتعمّقون في الدين يمرقون كما يمرق السهم من الرميّة»** [٢]، يشير لحركة سياسية مهمة هي حركة الخوارج التي انبثقت في عصر الكمال السياسي، عصر عليّ عليه السلام، وقد تركت آثاراً كبيرة في مجمل التاريخ السياسي للإسلام.

قال الشريف الرضي في مجاز الحديث: شبّه دخولهم في الدين وخروجهم منه بسرعة من غير أن يتعلّقوا بعقدته أو يعيقوا بطينته، بالسهم الذي أصاب الرَّميَّة، وهي الطريدة المَرميّة، ثم خرج مسرعاً من جسمها، ولم يَعلَق بشيءٍ من فَرْثِها ودَمِها، وذلك من صفات السهم الصائب؛ لأنه يكون شديد السرعة إلاّ بعد أن يكون قويّ النزعة[٣].

ويتّصف الحديث السياسي بطابع الوصف والحكم أحياناً كما في الحديث المذكور الذي يشير لحركة الخوارج، وقد صيغ بلغة فنية رائعة.

والحديث المشهور: **«إنّي تاركٌ فيكم خليفتين: كتاب الله ﷻ، حبلٌ ممدودٌ بين السماء والأرض، أو بين السماء إلى الأرض،**

---

(١) وقد يتداخل هذا الحديث مع الحديث العسكري.
(٢) مسند أحمد بن حنبل ٣: ١٥٩، وينظر من لايحضره الفقيه ١: ١٣٤ح٢٨٨.
(٣) المجازات النبوية ٢٦ ح ١٦.

وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض»[١].

يعتبر أهم بيان سياسي وأوضح منشور وُضع بين أعين وأيدي العلماء والجهلاء.

ويمكن لنا وضع جملة أحاديث الفضائل ضمن إطار الحديث السياسي وخصوصاً الفضائل الواردة في فضائل عليّ عليه السلام، فجملة هذه الأحاديث تطرح موضوعاً مهماً وخطيراً هو موضوع الولاية والإمامة.

والإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا، كما يقول الماوردي الشافعي. وقال: أوجبت طائفةٌ الإمامة بالعقل لما في طبع العقلاء من التسليم لزعيم يمنعهم من التظالم ويفصل بينهم في التنازع والتخاصم[٢].

ومن أبرز شواهد الحديث السياسي الحديث المشهور الذي رواه الحاكم النيشابوري: أنه لما خرج رسول الله صلى الله عليه وآله في غزوة تبوك وخرج الناس معه. قال له عليّ عليه السلام: أخرج معك.

فقال النبي صلى الله عليه وآله: لا.

فبكى عليّ عليه السلام، فقال له صلى الله عليه وآله: **أمَا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه ليس بعدي نبي، أنه لا ينبغي أن أذهب إلاّ وأنت خليفتي**[٣].

٧ ـ **الحديث الاقتصادي**: هذا الحديث يتناول الوضع الاقتصادي والتجاري للمجتمع، سواء أكان هذا الحديث مقنناً لهذا

---

(١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٩: ١٦٢. وقد ورد الحديث بألفاظ وزيادات أخرى، ينظر مثلاً كنز العمال ٥: ٢٨٩ ح ١٢٩١١.

(٢) ينظر الأحكام السلطانية: ٥ ط الحلبي مصر.

(٣) المستدرك على الصحيحين ٣: ١٣٣، العمدة لابن البطريق: ٨٦و٢٣٩.

الوضع أو واصفاً له، أو متناولاً مسألة اقتصادية معيشية معيّنة.

من ذلك قوله ﷺ: **«تسعة أعشار الرزق في التجارة والعشر في المواشي»** (١)

وقوله ﷺ: **«لما خلق الله المعيشة جعل البركات في الحرث والغنم»** (٢).

وقوله ﷺ: **«إنّما البيع عن تراضٍ»**(٣).

وقوله ﷺ: **«أفضل أموالكم فرس في بطنها فرس، يتبعها فرس، وعين ساهرة لعين نائمة»**(٤).

وقوله ﷺ: **«الغنم إذا أقبلت أقبلت، وإذا أدبرت أقبلت، و البقر إذا أقبلت أقبلت، وإذا أدبرت أدبرت، والإبل أعنان الشياطين، إذا أقبلت أدبرت، وإذا أدبرت أدبرت، ولا يأتي خيرها إلاّ من جانبها الأشأم»**(٥).

---

(١) كنز العمال ٤: ٣٠ ح ٩٣٤٢ وينظر الكافي ٥: ٣١٩ ح ٥٩، والفقيه ٣: ١٩٧ ح ٣٧٢٢ وفي الخصال: ٤٤٥ ح ٤٤ والعشر الباقي في الجلود أو في السابياء يعني الغنم.

(٢) كنز العمال ٤: ٣٢ ح ٩٣٥٤، مستدرك الوسائل ١٣: ٢٩٨ ح٧، الجامع الصغير ١: ٣٩٠ ح٢٥٥١.

(٣) كنز العمال ٤: ٩١ ح ٩٦٨٨.

(٤) العقد الفريد ٢: ٣٤٨ ومعنى عين ساهرة في الحديث هو عين ماءٍ تجري ليلاً ونهاراً وصاحبها نائم، فجعل ﷺ دوام جريها سهراً لها. ينظر اللسان (سهر) ٤: ٣٨٤.

(٥) معاني الأخبار: ٣٢١ ح١، بحار الأنوار ٦٤: ١٢٣، وقيل في معنى «لايأتي خيرها إلاّ من جانبها الأشأم»، أي لا تُحلب ولا تُركب إلاّ من شمالها. ويمكن أن يكون ذلك كناية عن أنّ نفعها مشوب بضرر عظيم، أو يكون الغرض موتها واستئصالها، أي خيرها في عدمها مبالغة في عدم نفعها، كأنّ عدمها أنفع من وجودها، كما ذكر المجلسي.

٨ ـ **الحديث النفسي**: لقد كان الحديث النبوي جامعاً شاملاً لكلّ ما يتعلّق بمسائل ومشكلات الحياة، ولأوضاعها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعسكرية، وقد حفلت أحاديثه ﷺ بإشارات للوضع النفسي للأفراد ومشاكلهم السيكلوجية، وهذه الإشارات ظهرت في نظريات ودراسات علم النفس الحديث، وقد تجلّت هذه الإشارات بعضها في أهميّة اختيار اسم الفرد وتأثير ذلك على وضعه النفسي.

وإضافة إلى انعكاسات هذه التسمية على علاقة الفرد بالمجتمع الذي ينتسب إليه، فبعض الأسماء تجعل الفرد في وضع نفسي شاذ تؤدّي به إلى أزمة سيكولوجية ينجم عنها انزواء الفرد عن المجتمع، وقد يترتّب هذا عن شعور عدواني تجاه المجتمع الذي ينتسب إليه.

فقال ﷺ **«شرّ الأسماء ضرار، ومرة، وحرب، وظالم»**[1].

وروي أنه قال: **«تسمّوا بأسماء الأنبياء، وأحبّ الأسماء إلى الله: عبد الله وعبد الرحمن، وأصدقها: حارث وهمّام، وأقبحها: حرب ومرّة»**[2].

لِما في ذلك من انعكاس على نفس الإنسان وأحاسيسه، فالأسماء التي ندب لها ﷺ تفوح منها رائحة الرحمة والهدوء والسكينة، يكون لها تأثير كبير في صنع التوازن النفسي للإنسان وكبح النَّفَس العدواني المتمرّد الذي يؤجّج نوازع الشرّ والجريمة.

وقد روى عبد الرحمن ابن أبي سبرة قال: دخلت أنا وأبي على رسول الله ﷺ

---

(١) الخصال: ٢٥٠ ح ١١٨، الوسائل ٢١: ٣٩٩ ح ٢٧٤٠٣.

(٢) مسند أبي يعلى الموصلي ١٣: ١١٤ ح ٧١٦٩، شرح نهج البلاغة ١٩: ٣٦٥.
وروى الطبراني عن عيسى بن عقيل قال: أتيت النبي ﷺ بابن لي فقال: ما اسمه؟ فقلت: فلان، قال: بل عبد الرحمن. المعجم الكبير ١٨: ١٠٢ ح ١٨٣.

فقال لأبي: **هذا ابنك؟**

فقلت: نعم.

قال: **ما اسمه؟**

قال: الحُباب.

قال: **لا تسمّه الحُباب، فإن الحباب شيطان، ولكن هو عبد الرحمن**[١].

وقد عرّفوا الحباب بأنه حيّة، وقيل: هي حيّة ليست من العَوارم.

قال أبو عبيد: وإنّما قيل الحباب اسم شيطان، لأنّ الحيّة يقال لها شيطان.

قال الشاعر:

تُلاعبُ مَثْنى حَضْرَميٍّ، كأنَّه تَعَمُّجُ شَيطانٍ بذِي خِرْوَعٍ قَفْرِ

وبه سُمّي الرجل[٢].

وكأنه ﷺ يدرك بأنّ موحيات هذا الاسم تشحن النفس بالانفعالات والهواجس النفسية السوداء، مما تسلب الإنسان أحاسيس الموادعة والمسالمة مع الآخرين.

ومن الحديث النفسي قوله ﷺ: «**لا يقولنّ أحدكم خَبُثَت نفسي، ولكن ليقل لقست نفسي**»[٣].

يقول ابن فارس: الخاء والباء والثاء أصل واحد يدل على

---

(١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٣: ١٢٢، سبل الهدى والرشاد ٩: ٣٦٠.

(٢) لسان العرب ١: ٢٩٥ (حبب).

(٣) المعجم الكبير للطبراني ٢: ١٢٥ ح ١٥٣٨، مسند أحمد ٦: ٢٠٩.

خلاف الطيّب، يقال: خبيث، أي ليس بطيّب، وأخبث إذا كان أصحابه خبثاء. ومن ذلك التعوّذ من الخبيث المخبِث، فالخبيث في نفسه، والمخبث الذي أصحابه وأعوانه خبثاء[١].

وأما اللَّقَس: الغثيان، ولَقِسَت نفسه من الشيء تلقَس لَقساً، وقيل: نازعته إلى الشر، وقيل: بخلت وضاقت. وجعل الليث اللَّقَس: الحِرص والشَّره، وجعله غيره الغثيان وخُبث النفس.

ولو نظرنا إلى مقلوب الكلّمة وهو القَلْس، ومعناه القي ،والسحابة تقلِس الندى، إذا رمت به من غير مطر، وقَلَست النحل العسل تقلسه قلساً: مجّته[٢].

وكذا لو تأملنا المفردة لوجدنا لهﷺ نظراً وعناية بوضع الفرد النفسي، فإيحاءات اللقس أو القلس أخفّ على النفس من إيحاءات الخبث، نظراً لما يتداعى إلى ذهن وأحاسيس الفرد من اشتقاقات الكلّمة ومعانيها، وأما تركيب الكلمة من آحاد الحروف فهذا ذوق رفيع وسليقة عالية ركّبتها نفسهﷺ الصافية بلفظه العذب «لقست».

قال ابن ميثم: العين والقاف لا يدخلان في بناء إلاّ حسّناه، لأنهما أطلق الحروف، أما العين فأفصح الحروف جرساً وألذّها سمعاً، وأما القاف فأمتن الحروف وأوضحها جرساً، فإذا كانتا أو إحداهما في بناء حَسُن البناء[٣].

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٢: ٢٣٨ (خبث). وقال ابن الأعرابي: أصل الخبث في كلام العرب المكروه، فإن كان من الكلام فهو الشتم، وإن كان من المِلل فهو الكفر، وإن كان من الطعام فهو الحرام، وإن كان من الشراب فهو الضار. ينظر إصلاح أغلاط المحدثين للخطّابي ٣٣.

(٢) ينظر لسان العرب ٦: ١٨٠و٢٠٨ (قلس) و (لقس).

(٣) مقدمة شرح نهج البلاغة (فن البلاغة والخطبة) ٧٢ تقديم وتحقيق د. عبد القادر حسين ط دار الشروق.

ومن هذا المنطلق يُفسر إبداله ﷺ مفردة بمفردة.

ومن الحديث النفسي ما رواه ابن أبي الورد عن أبيه قال: رآني النبي ﷺ فرآني رجلاً أحمر. فقال: **أنت أبو الورد**[١].

فالنبي ﷺ ذو حسّ مرهف عالم بأسرار الألوان، فاللون الأحمر يذكّر الإنسان بالدم أحياناً، وأجواء الانفعال والعصبية، إلاّ أنه ﷺ جعله يترامى إلى الإحساس في هذا اللون بأحاسيس الطبيعة وزهرتها، وما فيها من نضارة وجمال، فذكّره بالورد، ويعلم العاقل كم للورد من إشراق وبهجة تبعث في النفس البشرية فتطيب وتصفو.

وقد أدرك ﷺ ما للون من تأثير حتّى في معنوية المقاتل الفارس فقال: «**يمن الخيل في شقرها**»[٢]؛ لما في الشقرة من بهجة وإشراق فتبعث الزهو والمسرّة في نفس الفارس.

ومن الحديث النفسي ما روي عن رائطة بنت مسلم عن أبيها مسلم قال: شهدتُ مع النبي ﷺ حُنيناً، فقال لي: **ما اسمك**؟ قلت: غراب. قال: **بل أنت مسلم**[٣].

وهذا نظر ثاقب منه ﷺ فالغراب من لئام الطير، وليس من كرامها، ولا من أحرارها، ومن شأنه أكل الجيف والقمامات، ولما كانت العرب تتشاءم من الغراب اشتقّوا من اسمه الغُربة والاغتراب و الغريب[٤].

---

(١) المعجم الكبير للطبراني ٢٢: ٣٨٣ ح ٩٥٣، سبل الهدى والرشاد ٧: ١١٦.

(٢) سنن أبي داود ٣: ٢٢ ح ٢٥٤٥، الإمامة والتبصرة :١٧٦ لابن بابويه القمي. وقد روي أنه كانت رايته ﷺ صفراء. سنن أبي داود ٣: ٣٢ ح ٢٥٩٣.

(٣) تاريخ البخاري ج٧ القسم الأول ٢٥٢ رقم ١٠٧٥. واشتقاق الأسماء هو مستوحى من طبع الإنسان وخصائصه كما يظهر من رواية أنه ﷺ كان اسمه في التوراة الضحوك ؛ لأنه كان طيّب النفس. البحار ١٦: ١١٦.

(٤) موسوعة الطير والحيوان في الحديث النبوي ٢٩٠ لعبد اللطيف عاشور ط مكتبة القرآن القاهرة.

وهذا له أثر في الوضع النفسي للفرد المسمّى به، فإبداله ﷺ بلفظ مسلم يبعث في نفس المسمى إحساساً بالأمن والسلامة، ويطرد من نفسه ظلام التشاؤم وينفي عنه دَرَن السواد القاتم.

إلاّ أنَّ بعضهم لم يدرك ولم ينل السعادة بهذه العناية النفسية منه ﷺ، فقد روى سعيد بن المسيب بن حَزن بن أبي وهب المخزومي، قال: قدم جدّي حَزن بن أبي وهب على النبي ﷺ فقال له: **كيف اسمك؟**

قال: حَزن.

قال له رسول الله ﷺ: **بل سهل.**

قال: ما كنتُ لأدع اسماً سمّتني به أمّي.

قال سعيد: فإنّا لنجد تلك الحزونة في أخلاقنا إلى اليوم[١].

ووضع الاسم للفرد دلالة على هوية الشخص وبطاقته النفسية والاجتماعية، وهو بمثابة مترجم لأحوال الإنسان[٢].

٩ ـ الحديث العام الجامع: وهذا النمط من الحديث يكاد يستغرق أكثر الأحاديث المنسوبة له ﷺ، فهي مجموعة أحاديث عامة موسوعية قد يتّخذ بعضها شكلّ التعديد والتصنيف.

مثل قوله ﷺ: **«سبّاق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين: حزقيل مؤمن آل فرعون، وحبيب النجّار صاحب يس، وعليّ ابن أبي طالب عليه السلام وهو أفضلهم»**[٣].

---

(١) العقد الفريد ٢: ١٥٨.

(٢) وبلغت عنايته ﷺ أنه قال: سمّوا أسقاطكم فإنّ الناس إذا دُعوا يوم القيامة بأسمائهم تعلّق الأسقاط بآبائهم فيقولون: لِمَ لَم تسمّوا. قرب الإسناد للحميري ٧٤.

(٣) قصص الأنبياء للثعلبي المسمّى العرائس ١٠٣ ط بيروت، بحار الأنوار ١٣: ٥٨.

وقوله ﷺ: «ثلاثة لم يكفروا بالوحي طرفة عين: مؤمن آل يس، وعليّ ابن أبي طالب عليه السلام، وآسية امرأة فرعون»[(١)].

وقوله ﷺ: «ممّا أعطى الله أمّتي وفضّلهم به على سائر الأمم، أعطاهم ثلاث خصال لم يُعطها إلاّ نبيّ، وذلك أنّ الله تعالى كان إذا بعث نبياً قال له: اجتهد في دينك ولا حرج عليك، وإنّ الله تبارك وتعالى أعطى ذلك أمّتي حيث يقول: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[(٢)] يقول: من ضيق، وكان إذا بعث نبياً قال له: إذا أحزنك أمرٌ تكرهه فادعني استجب لك، فإنّ الله تعالى أعطى أمّتي ذلك حيث يقول: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[(٣)]، وكان إذا بعث نبيّاً جعله شهيداً على قومه، وإن الله تبارك وتعالى جعل أمّتي شهداء على الخلق حيث يقول: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[(٤)]»[(٥)]

وقوله ﷺ: «أحبّوا العرب لثلاث: لأنّي عربي والقرآن عربي وكلام أهل الجنة عربي»[(٦)].

وقد يتّخذ شكلّ الإخبار كقوله ﷺ: «إن فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على سائر خلقه»[(٧)].

أو شكلّ الوصف المجرّد كقوله ﷺ: «نزل القرآن على أمرٍ

(١) الخصال للصدوق ١٧٤ ح ٢٣٠ ط جماعة المدرسين قم، مناقب آل أبي طالب ٢: ٢٥.
(٢) الحج ٧٨.
(٣) المؤمن ٦٠.
(٤) الحج ٧٨.
(٥) قرب الإسناد للحميري ٤١ ط النجف، بحار الأنوار ٩٠: ٢٩٠.
(٦) المعجم الكبير للطبراني ١١: ١٤٩ ح ١١٤٤١، مجمع الزوائد ١٠: ٥٢، تفسير مجمع البيان ٥: ٣٥٥.
(٧) كنز العمال ١: ٥٢٧ رقم ٢٣٦٠، سنن الدارمي ٢: ٤٤١.

ونهي، وحلال وحرام، ومحكم ومتشابه، وأمثال، فأحلّوا حلاله، وحرّموا حرامه، وافعلوا ما أُمرتم به، وانتهوا عما نُهيتم عنه، واعملوا بمحكمه وآمنوا بمتشابهه، وقولوا آمنا به كلّ من عند ربّنا»[(١)].

وقد يكون الوصف وصفاً فنياً مثل قوله ﷺ: **«إنّ لإبليس كحلاً ولُعوقاً وسعوطاً، فكحله النعاس، ولعوقه الكذب، وسعوطه الكبر»**[(٢)].

ومن الوصف المصوّر كقوله ﷺ: **«مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأُترجّة ريحها طيّب وطعمها طيّب.**

ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيّب ولا ريح لها.

ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيّب وطعمها مُرّ.

ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مُرّ ولا ريح لها.

ومثل الجليس الصالح كمثل صاحب المِسك، إن لم يُصبك منه شيء أصابك من ريحه.

ومثل الجليس السوء كمثل صاحب الكير، إن لم يُصبك من سواده أصابك من دخانه»[(٣)].

---

(١) البحار ٧٥: ٤٤، الاحتجاج ١: ٤٠٦، عيون الحكم: ٣٤٢، كنز العمال ١: ٥٢٩ رقم ٢٣٧٠.

(٢) معاني الأخبار للصدوق: ١٣٩.

(٣) كنز العمال ١: ٥٢٢ رقم ٢٣٣٧، مسند الشهاب ٢: ٢٨٩ح١٣٨١ وينظر الكافي ٢: ٦٠٥ ح ٦.

ومن ذلك قوله ﷺ في الوصف المصوّر للعلماء: **«إنّ مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء يُهتدى بها في ظلمات البرّ والبحر، فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضلّ الهداة»**(١).

وقوله ﷺ في وصف المنافق: **«ألا أخبركم بصلاة المنافق، يدع العصر حتّى إذا كانت بين قرني الشيطان، أو على قرني الشيطان قام فنقرها نقرات الديك، لا يذكر الله فيها إلاّ قليلاً»**(٢).

ومن الوصف الفنّي البديع قوله ﷺ: **«الإسلام عريان، فلباسه الحياء، وزينته الوقار، ومروءته العمل الصالح، وعماده الورع، ولكلّ شيء أساس، وأساس الإسلام حبّنا أهل البيت»**(٣).

ومن الأحاديث الوصفية التي تجد فيها بعداً تربوياً قوله ﷺ: **«إنّما المرأة كالضلع إنْ أقمتها كسرتها وفيها بلغة»**(٤).

وقد يتّخذ الحديث شكل تعريف(٥) وتبيين كما في قوله ﷺ:

---

(١) منية المريد للشهيد الثاني: ١٠٤، مسند أحمد بن حنبل ٣: ١٥٧، مجمع الزوائد ١: ١٢١.

(٢) مسند أحمد بن حنبل ٣:٢٤٧، مسند أبي يعلى الموصلي ٨: ١٠٥ ح٦٤٦٢. قيل قرنا الشيطان ناحيتا رأسه، وقيل قرناه جمعاه اللذان يغريهما بإضلال البشر.

وفي الحديث: «تطلع الشمس بين قرني شيطان، فإذا طلعت قارنها فإذا ارتفعت فارقها» ونهى النبي ﷺ عن الصلاة في هذا الوقت. ينظر اللسان (قرن) ١٣: ٣٣٢، فظاهر الكناية يفيد غيبوبة الشمس أو دنوّها من المغَيب.

(٣) أصول الكافي ٢: ٤٦ ح ٢، باب نسبة الإسلام، تحف العقول: ٣٠٧.

(٤) معاني الأخبار للصدوق: ٣٠٥، البحار ٢٢: ٤٢٥ ح ٣٤، وفي المعجم الكبير للطبراني ٧: ٢٤٤ ح ٦٩٩٢ فدارها تعش.

(٥) التعريف يقصد به: تحصيل صورة الشيء في الذهن أو تصحيحها، مع التمييز في العملية ذاتها بين الذي يُعرف مع الشيء وبين الذي يُعرف به الشيء. ينظر المعجم المختص ٧٧ تأليف جمعية المعجمية التونسية ط دار الغرب الإسلامي بيروت.

«إنّ من أخوف ما أخاف على أمّتي: الشِرك بالله، والشهوة الخفيّة، يصبح الرجل صائماً فيرى الشيء يشتهيه فيواقعه.

والشِّرْك: قوم لا يعبدون حجراً ولا وثناً، ولكن يعملون عملاً يُراءون»[١].

ومن ذلك قوله ﷺ: «لا يغرّنكم رَحْبُ الذراعين بالدم، فإنّ له عند الله قاتلاً لا يموت.

قالوا: يا رسول الله، وما قاتل لا يموت؟

قال ﷺ: النار»[٢].

ومن ذلك قوله ﷺ: «ثمانية لا يقبل الله تعالى لهم صلاة:

العبد الآبق حتّى يرجع إلى مولاه.

والناشز عن زوجها وهو عليها ساخط.

ومانع الزكاة.

وتارك الوضوء.

والجارية المدركة تصلي بغير خمار.

وإمام قوم يصلّي بهم وهم له كارهون.

والزبّين. قالوا: يا رسول الله وما الزبين؟

قال: الذي يدافع الغائط والبول.

والسكران، فهؤلاء ثمانية لا تقبل منهم صلاة»[٣].

---

(١) المعجم الكبير للطبراني ٧: ٢٨٥ ح ٧١٤٥.
(٢) من لا يحضره الفقيه ٤: ٩٣ ح ٥١٥٢.
(٣) الخصال ٤٠٧ ح ٣، المحاسن ١: ١٢ ح٣٦.

ومن ذلك ما روت عائشة قالت: كنت عند رسول الله ﷺ فأقبل عليّ عليه السلام

فقال: **هذا سيّد العرب.**

فقلتُ: يا رسول الله ألست سيّد العرب؟!.

قال: **أنا سيد ولد آدم وعليّ سيد العرب**»[١].

ومن ذلك قوله ﷺ: «**شرّ الناس المثلث**، قيل: يا رسول الله، وما المثلث؟

قال: **الذي يسعى بأخيه إلى السلطان فيهلك نفسه ويهلك أخاه ويهلك السلطان**»[٢].

ومن الحديث الجامع العام أحاديث التوحيد، كقوله ﷺ: «**إنّ لله تبارك وتعالى تسعة وتسعين اسماً، مائة إلاّ واحدة، من أحصاها دخل الجنة، وهي:**

الله، الإله، الواحد، الأحد، الصمد، .... إلى آخر الأسماء»[٣].

الأحاديث الموضوعة وفصاحتها

كانت قضيّة توثيق نصوص الحديث وما زالت من أهمّ القضايا التي شغلت أذهان الباحثين، فقد كان العلماء من فرق المسلمين كافّة

---

(١) معاني الأخبار للصدوق ١٠٣، روضة الواعظين ١: ١٠١.

(٢) جامع الأحاديث للقمي ٨٩، بحار الأنوار ٧٢: ٢٦٦.

(٣) التوحيد للصدوق ١٩٤و١٩٥. وإحصاؤها: هو الإحاطة بها والوقوف على معانيها، وليس معنى الإحصاء عدّها، كما بيّن الشيخ الصدوق ذلك، بحار الأنوار ٤: ١٨٦ح١.

يدرسون هذه القضيّة من جوانب متعددة ؛ كون نصوص الحديث كان تدوينها في عصور تأخّرت عن حياة النبي ﷺ، وكون هذه النصوص قيلت في مناسبات متعددة، ورواتها مختلفون، فمن العسير تحديد هذه النصوص وعدد الرواة لها.

فكلّ من صحب النبيﷺ يحمل في جعبته حفنة من نصوص منثورة في صفحات ذاكرته، ودفع بهذه النصوص إلى جمع من التابعين وتناقلها المسلمون في الأمصار الإسلامية، وزاد الرواة والناقلون لها بتقادم الزمن وبُعده عن عصر ولادة النصوص.

والسؤال الذي يُطرح، أين حصل الوضع؟ أي أيُّ حديث طالته يد الواضعين؟ ومَن هم هؤلاء؟ وفي أيّ زمان جرى ذلك؟ ولماذا؟ ولأيّ شيء سرت وجرت في تاريخ المسلمين مقولة (أنّ الصحابة كلّهم عدول)؟ ... وغيرها من المسائل.

ونستطيع أن نقول بأنّ بدايات الوضع والتحريف في الحديث بدأت مع وفاة النبيﷺ ومفارقته لهذه الأمة، فالمناخ الذي تركهﷺ ساعد على نشوء هذه النصوص ونموّها خصوصاً في حياة الخلفاء الثلاثة.

كان النبيﷺ مدّة حياته يضبط ويتابع هذه النصوص، فلم يكن يسمح ويأذن في تغيير ألفاظه، فالتغيير في ألفاظ الحديث يعني تغيير المواقف والأحكام، وحتّى أنهﷺ كان يتابع ما يقال له وما يقال عنه فيُصححه، وقولهﷺ لرجل حين قال له: يا نبيء الله ـ فهمز ـ: **لستُ بنبيء الله، ولكني نبي الله**[1]، مظهر من مظاهر الاهتمام والتصحيح

(١) ينظر معاني الأخبار للصدوق: ١١٤، والبحار ٢٩: ١١، والاشتقاق لابن دريد ٤٦٢.

الذي كان يوليه ﷺ، لمجمل الألفاظ والنصوص الصادرة عنه.

وكان ﷺ يتابع أدقّ الأمور وأعلاها فيصححها بلطف وحكمة، وكانت صيانة ألفاظ الحديث من أولويات عمله الثقافي والتربوي، إلاّ أنّ هذا العمل محدود بحدود حياته ﷺ، فلا يمكن له ضبط حركة النقل والتغيير للألفاظ بعد وفاته ﷺ.

ومسألة تحريف النصوص وتغييرها ابتُليت بها الأمم قبل بعثته ﷺ، ولم تنج الكتب السماوية التي أُنزلت على الأنبياء من ظاهرة التحريف والتغيير، فالإنجيل والتوراة التي تداولها أهل الأديان لم تسلم من العبث والتغيير، فالنصوص تخضع لأهواء أهل المصالح، ورجال الدين قبل بعثته ﷺ استسلموا لهذا التغيير والتبدّل في النصوص لأنّه أصبح لهم أمراً واقعاً وحقيقة لا جدوى من الفرار منها، كما أنه يتعارض مع مصالحهم وكيانهم الاجتماعي والسياسي.

وقد سجّل القرآن الكريم هذه الظاهرة الانحرافية التي ابتُليَ بها رجال الدين وعوام الناس، قال ﷻ حاكياً عن بني إسرائيل:

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (١)، والتبديل جاء في الآية بمعنى التغيير، أي بدّلوا قولاً غير الذي أمروا أن يقولوه فقالوا بخلافه، فذلك هو التبديل والتغيير(٢).

فكأنّ التحريف والتبديل سُنّة أهل الكتاب ،وخصوصاً لدى

---

(١) البقرة ٥٨و٥٩.

(٢) ينظر تفسير التبيان للشيخ الطوسي ١: ٢٦٨.

اليهود، وقد توارث رجال الدين اليهود هذا التحريف والتبديل حتّى صار جزءاً من متعبداتهم، وظاهرة الانحراف والتحريف أصبحت الطابع العام الذي اقترن بتاريخ بني إسرائيل، حتّى مَلَكتهم هذه الظاهرة [(١)]، فلم يستطيعوا الخلاص منها.

وقد حكى القرآن الكريم عن عالم من علماء من بني إسرائيل، وهو بلعم بن باعور، بقوله ﷻ: ﴿وَٱتْلُ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [(٢)]، وروي عن الرضا عليه السلام أنه أُعطيَ الاسم الأعظم وكان يدعو به فيُستجاب له، فمال إلى فرعون، فلما مرّ فرعون في طلب موسى عليه السلام وأصحابه، قال فرعون لبلعم فادع الله على موسى وأصحابه ليحبسه علينا، فاستجاب لطلب فرعون [(٣)].

فأيّ انحراف هذا أن يصل به الأمر أن يدعو على نبي مرسل؟ وأيّ جرأة بلغت به هذا المبلغ؟ وقد بلغ من انحراف بني إسرائيل أن يطلبوا من نبيّهم مصادرة عقيدة التوحيد التي هي أساس رسالات السماء، ولأجلها بُعث الرسل.

وقد عاب عليّ عليه السلام يهودياً ـ لإزرائه على المسلمين ـ هذه الظاهرة فيهم بقوله: ما جفّ أقدامكم من البحر حتّى قلتم: يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة [(٤)].

---

(١) قال عز وجل معرضاً: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الجمعة ٦و٧.

(٢) الأعراف ١٧٥.

(٣) ينظر هذه القصة في بحار الأنوار ١٣: ٣٧٧ـ٣٨٠، وتفسير الطبرسي مجمع البيان ٢: ٥٠٠.

(٤) ينظر بحار الأنوار ١٣: ١٧٦.

وقد أخبر الرضا عليه السلام جاثليق النصارى بأنّه: لما افتقد الإنجيل الأول اجتمعت النصارى إلى علمائهم فقالوا لهم: قُتل عيسى بن مريم عليه السلام وافتقدنا الإنجيل وأنتم العلماء فما عندكم؟

فقال لهم: ألوقا ومرقابوس ويوحنا ومتّى: إنّ الإنجيل في صدورنا ونحن نخرجه إليكم سِفراً سِفراً في كل أحد، فلا تحزنوا عليه ولا تخلوا الكنايس، فإنّا سنتلوه عليكم في كلّ أحد سِفراً سِفراً حتّى نجمعه كله.

فقصد ألوقا ومرقابوس ويوحنا ومتّى فوضعوا لكم هذا الإنجيل بعدما افتقدتم الإنجيل الأوّل، وإنّما كان هؤلاء الأربعة تلاميذ التلاميذ الأوّلين[١].

وهذا يدلّ أنّ الإنجيل المتداول غير الإنجيل الحقيقي الذي عبّر عنه الإمام الرضا عليه السلام بأنّه الأوّل.

أما السؤال المطروح الآخر، فهو من هم الوضّاعون؟

إنّ هؤلاء طبقة مهمة لعبت دوراً مهماً في تاريخ الإسلام السياسي والثقافي، فهم بين متسوّل وبين من يحمل قدراً من العلم والثقافة، وبين هؤلاء طبقة من الحكّام وأهل السياسة وظّفت الحديث لأغراض سياسية وبعضها عقائدية.

وقد لعبت أيادي اليهود دوراً متميّزاً في هذه اللعبة، فقد رصدوا ضعف هذه الأمة وتخلفها عن الركاب باللحاق بالفهم العلوي الصحيح للدين، فأفنوا أعمارهم وأعدّوا عدتهم لتحريك التيار الثقافي الحديثي السالب للدين من الفقه العلوي الصحيح. فظهرت بوادر الدعوة لسلخ

---

(١) الاحتجاج ٤٢٠.

الدين من بعده العلوي، وهو الركن الثاني أو العمود الثاني للدين الإسلامي، فانبرت الأحاديث بهذا الاتجاه تترى كقولهم في وصيته ﷺ: «إنّي تارك فيكم خليفتين كتاب الله، وعترتي أهل بيتي»[١] (سنّتي) بدل عترتي، ولو سلمنا أنه قال: (سنتي) فهل السنة إلاّ عليّ عليه السلام وأهل بيته[٢]، فكلّ سنن النبي ﷺ وضعت في وجود عليّ وعبادة عليّ وفقه علي ورؤية علي عليه السلام ... فما السنة غيره أبداً وغير المعصومين من أولاده.

وقد كان أعجب من هذا أن توضع الأحاديث في فضل معاوية، أو أن يتأوّل بعضهم في أحاديثه بأن مراد أهل البيت في الحديث نساء النبي ﷺ، فيندفع فقه الحديث إلى الزوجة بدل من أولاد الصلب، وغير ذلك من الأحاديث والتفسيرات التي لا يرتضيها أهل العلم والتحقيق.

وقد سادت الثقافة اللاإسلامية في أوساط المسلمين حتّى صارت الثقافة والمعرفة الحديثية هي وضع أحاديث على لسان النبي ﷺ في تجريد عليّ عليه السلام من فضائله ووضع مساوئ له بدلها، كما ذكر ابن أبي الحديد فقال في ذلك:

(وقد كان من المحدثين من يبغض عليّاً ويروي فيه الأحاديث المنكرة منهم جرير بن عثمان، وكان يبغضه وينقصه ويروي أخباراً مكذوبة، قال محفوظ: قلت ليحيى بن صالح: قد رويت عن مشايخ

---

(١) مجمع الزوائد ٩: ١٦٢.

(٢) وقد سُئِل عليّ عليه السلام عن معنى العترة ومَن العترة؟ فقال: أنا والحسن والحسين والأئمّة التسعة من ولد الحسين عليه السلام. معاني الأخبار للصدوق: ٩٠ح٤، عيون أخبار الرضا ١: ٥٧ ح٢٥.

وينظر لسان العرب ج٤ مادة (عتر) في تفصيل اللغويين في معنى العترة والذي يفيد أنّ عترة النبيّ ﷺ ولد فاطمة وعليّ (عليهما السلام).

نظراء جرير فما بالك لم تتحمّل عن جرير؟

قال: إني أتيته فناولني كتاباً فإذا فيه: حدّثني فلان عن فلان أنّ النبي ﷺ لما حضرته الوفاة أوصى بقطع يد عليّ بن أبي طالب، فرددت الكتاب)[١].

ويقول السيد الحسني:

(وبلغ زعم هذه الطائفة من الوضّاع والمنحرفين، بأنّ صحبة معاوية وسمرة بن جندب وعمرو بن العاص وغيرهم من العشرات الذين لطّخوا تاريخ الإسلام بالجرائم والموبقات، وبأن ترفع من شأنهم وتجعلهم في صفوف القدّيسين، مع أن التاريخ يؤكّد بأنّهم منذ دخلوا الإسلام إلى أن خرجوا من هذه الدنيا أيديهم تقطر من دماء الأبرياء الصلحاء، وأغرب من ذلك بأن يبالغ الإسفاف ببعض المحدّثين إلى القول بأنّ يوماً واحداً من أيّام معاوية مع رسول الله ﷺ خيرٌ من عمر بن عبد العزيز وأهل بيته)[٢].

ولم يكن بغض عليّ عليه السلام ودفعه عن إمامة الأمّة الدافع الأوحد في وضع الحديث، بل تظافرت دوافع أخرى، منها الحرص غير الموجّه وغير المسؤول، فقد وضعوا أحاديث ترغيبية وترهيبية، قال ابن الأثير في ذلك: ومنهم جماعة وضعوا الحديث حسبة، كما زعموا يدعون الناس إلى فضائل الأعمال، مثل أبي عصمة نوح بن أبي مريم المرْوَزي، ومحمد بن عكاشة الكرماني، وأحمد بن عبد الله الجويباري وغيرهم.

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤: ٧٠ بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط بيروت.

(٢) الموضوعات في الآثار والأخبار لهاشم معروف الحسني ٣٠.

وقيل لأبي عصمة: من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس في فضائل القرآن سورة سورة، وليس عند أصحاب عكرمة هذا؟

قال: إنّي رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن واشتغلوا بفقه أبي حنيفة، ومغازي محمد بن أبي إسحاق، فوضعت الحديث حِسبةً.

ومنهم جماعة وضعوا الحديث تقرّباً إلى الملوك، مثل غياث بن إبراهيم، دخل على المهدي بن منصور، وكان يعجبه الحمام الطيّارة الواردة من الأماكن البعيدة، فروى حديثاً عن النبي ﷺ(١) أنه قال: لا سبق إلاّ في خفّ أو حافر، أو نصل أو جناح.

قال: فأمر له بعشرة آلاف درهم، فلمّا قام وخرج، قال المهدي: أشهد أنّ قفاك قفا كذّاب على رسول الله ﷺ، ما قال رسول الله ﷺ: (جناح) ولكن هذا أراد أن يتقرب إلينا، يا غلام اذبح الحمام.

قال: فذبح حماماً بمال كثير، فقيل: يا أمير المؤمنين وما ذنب الحمام؟ قال: من أجلهنّ كذب على رسول الله ﷺ(٢).

وعرّف الحسين بن عبد الله الطيبي طبقة من الكذابين والوضّاع بأنهم من السوّال والمنكدين(٣)، يقفون في الأسواق والمساجد فيضعون على رسول الله ﷺ أحاديث بأسانيد صحيحة قد حفظوها فيذكرون الموضوعات بتلك الأسانيد.

وقال: قال جعفر بن محمد الطيالسي: صلّى أحمد بن حنبل

---

(١) الحديث في قرب الإسناد للحميري ٤٢ ط النجف.

(٢) جامع الأصول لابن الأثير ١: ٧٦ ط بيروت دار إحياء التراث العربي، حققه محمد القفي.

(٣) يقال: نُكد الرجل فهو منكود، إذا كثر سؤاله وقلّ خيره. اللسان (نكد).

ويحيى بن معين في مسجد الرصافة فقام بين أيديهما قاص فقال: حدّثنا أحمد بن حنبل ويحيى بن معين قال: حدّثنا عبد الرزاق قال: حدثنا معمر عن قتادة عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: من قال لا إله إلاّ الله يخلق من كلّ كلمة منها طائر منقاره من ذهب وريشه مرجان.

وأخذ في قصة من عشرين ورقة، فجعل أحمد ينظر إلى يحيى بن معين، ويحيى ينظر إلى أحمد، فقال: أنت حدّثته بهذا.

فقال: لا والله ما سمعت به إلاّ هذه الساعة.

قال: فسكتا جميعاً حتّى فرغ، فقال يحيى بيده: أنْ تعال، فجاء فقال له يحيى: من حدثك بهذا؟

فقال: أحمد بن حنبل ويحيى بن معين.

فقال: أنا ابن معين وهذا أحمد بن حنبل ما سمعنا بهذا قط في حديث عن رسول الله ﷺ فإن ولابدّ من الكذب فعلى غيرنا.

فقال له: أنت يحيى بن معين؟

قال: نعم.

قال: لم أزل أسمع أن يحيى بن معين أحمق، وما علمت إلاّ هذه الساعة.

فقال له يحيى: وكيف علمت أنّي أحمق؟

قال: كأنه ليس في الدنيا يحيى بن معين وأحمد بن حنبل غيركما! كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل غير هذا.

قال: فوضع أحمد كمّه على وجهه وقال: دعه يقوم. فقام كالمستهزئ بهما[1].

(١) الخلاصة في أصول الحديث ٧٧ بتحقيق صبحي السامرائي ط عالم الكتب بيروت.

فالظاهر من هذه الأخبار أنّ الحديث النبوي صار في فترة زمنية بضاعة اقتصادية ذات عائد اقتصادي له حسابه وسعره السوقي، كما كان له حساب سياسي وعقائدي واجتماعي وتعليمي لفترات زمنية، فخرج من إطاره القدسي السماوي، فاحتوشته أيدي العابثين والبطّالين.

وقد وصف بعض الباحثين تزايد ظاهرة الوضع في الحديث بأنها كانت ظاهرة خطيرة فقال: من الأخطار التي تعرّض لها الحديث الكذب والوضع، فقد كثر وضع الأحاديث في بعض عصور التاريخ الإسلامي خدمةً للسياسة وتأييداً للحزبية، أو ترويجاً لبضاعة القُصّاص، أو غير ذلك من الأسباب.

وكثرت الأحاديث كثرة لا تحصى بالقياس إلى ما كانت عليه في عهد صحابة النبيﷺ ومن تبعهم من كبار التابعين، ورويت أحاديث ضعيفة سخيفة، يأباها المنطق والعقل السليم[١].

وقد حذّرﷺ من ظاهرة الوضع في الحديث بقوله: «**قد كثرت عليَّ الكذّابة وستكثر، فمن كذب عليَّ متعمّداً فليتبوأ مقعده من النار، فإذا أتاكم الحديث فأعرضوه على كتاب الله وسنّتي، فما وافق كتاب الله وسنتي فخذوا به، وما خالف كتاب الله وسنتي فلا تأخذوا به**»[٢].

وإنّ بلاغ رسول اللهﷺ لأمّته، عالمهم وجاهلهم، واضح في

---

(١) فلسفة التشريع في الإسلام للدكتور صبحي محمصاني ١٧٣ط دار العلم للملايين بيروت.

(٢) الاحتجاج للطبرسي ٤٤٧. ومن الوضّاع الذين حفظت ذاكرة التاريخ أسماؤهم: عبد الكريم بن أبي العوجاء، ذكروا بأنه لما أيقن أنه مقتول قال: لقد وضعت أربعة آلاف حديث أحرّم فيها الحلال وأحل بها الحرام، ولقد فطّرتكم في يوم صومكم، وصومتكم في يوم فطركم. (بحار الأنوار ٥٨ : ٣٥٧).

قوله ﷺ: «نضّر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها وبلّغها من لم يسمعها، فكم من حامل فقه غير فقيه، وكم من حامل فقه إلى من هو أفقه منه»(١).

وقد درس السيد الحسني جذور هذه الظاهرة فعللها بأنّ:

(فتور الطبقة الأولى من الصحابة عن تدوين الأحاديث، مهما كانت أسبابه، قد يسّر للعناصر الفاسدة التي اندسّت في صفوف المسلمين، من اليهودية والنصرانية وغيرهما من مشركي مكّة وغيرها، ممّن لم يدخل الإسلام قلبهم، قد يسّر لهم الدسّ والكذب على الرسول ﷺ، وإدخال الكثير من القصص وأخبار الأمم السابقة، وبخاصّة اليهودية حسبما روتها التوارة وشروحها، وأضافوا قسماً من تلك الأساطير إلى تفسير القرآن، ومن بين أولئك:

عبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، ووهب بن منبه، وأمثالهم ممّن، اتخذوا القصص مهنةً لهم يخدعون الجماهير السذّج بأساطيرهم ليبتزوا أموالهم، ويتملّقوا بذلك إلى الحكام ليستدّروا عطفهم وأعطياتهم.

وقد ظهرت طلائع هؤلاء في عصر الطبقة الأولى من الصحابة، ولعل أول من تعاطى هذه المهنة تميم الداري المعاصر للخليفة الثاني عمر بن الخطاب، وقد استأذنه في أن يقصّ على الناس فأبى عليه أوّلاً، وفي أُخريات أيّامه أذن له أن يقصّ على الناس مرّةً في الأسبوع.

ولما جاء دور عثمان بن عفان أطلق له السراح، فانطلق يحدث في المسجد والمجتمعات بما لذّ له وطاب بدون وازع من دين أو

(١) مجالس الشيخ المفيد ١٨٦ ح ١٣ ط جماعة المدرسين قم.

رقابة من أحدٍ، وممّا يشير إلى عدم تحرّج هذه الطبقة من الكذبة والقصّاصين أنّ روح بن زنباع دخل عليه وهو ينقّي لفرسه شعيراً فقال له:

أما كان في هؤلاء من يكفيك؟

قال: بلى، ولكنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما من امرئ مسلم ينقّي لفرسه شعيراً ثم يعلّقه عليه إلاّ كتب له بكل حبّة حسنة)[١].

أما نظرية كون الصحابة كلهم عدول [٢]، فهي نظرية أموية، وجدت لتعليق ما صُنع وافتُعِل على ذمّة هؤلاء الرواة لغرض تمريرها على عوام الناس ؛ لأن بعضهم ـ أي الصحابة ـ من استهوته الأعطيات الأموية ووضعته في جبهة الحكّام، بعد أن استسلم لمغريات المال والجاه، وأصبح أداة إعلامية طيّعة للدولة الأموية، فطرح مثل هذه النظرية يعني تثبيت ودعم سياسي وإعلامي لهذه الدولة ولهذه الطبقة.

قال الحسني: ولقد أدرك الأمويون أنّ المسلمين سوف لا يقفون من هذه الخلافة موقف المتفرج ،فجدّوا في وضع الأحاديث التي تؤيد عروشهم وشرعية حكمهم، وتضع من شأن أخصامهم، فوضعوا هم وأتباعهم سيلاً من المرويات ونسبوها إلى الرسول ﷺ بتوسط الصحابة بعد أن أكلت الحروب والسنين أكثرهم.

وحتّى لا يتسرّب الشك إليها ولا يتّسع المجال للطعن بها وتجريحها، خلقوا للصحابة تلك الهالة من القداسة ومنحوهم صفة

---

(١) الموضوعات في الآثار والأخبار للسيد هاشم معروف الحسني :٢٢ ط دار التعارف بيروت.

(٢) إنّ الصحابة كسائر الناس فيهم العدول والمنافق والفاسق والضالّ، وقد ارتدّ كثير منهم بعد النبيّ ﷺ. ينظر بيان ذلك في بحار الأنوار ٢٨: ٣٣ و٣٦.

العدالة، وأشاعوا بين الناس على اختلاف فئاتهم وطبقاتهم، وجدّوا في تثبيتها وتركيزها في النفوس بالمال والسلاح وكل المغريات، وظلت هذه الفكرة تسير مع الأجيال جيلاً بعد جيل إلى أن جاء دور المؤلّفين في الرجال وأقوال الرواة[١].

وإذا كانت ظاهرة الوضع في الحديث قد فرضت نفسها كحقيقة يجب القبول بها والتعامل معها، كان من الضروري نشوء المعادل العلمي لها وهو التمييز والفرز لهذه الأحاديث عن الأحاديث الحقيقية؛ فكان أن تصدّت طبقة من العلماء مهمتها نقد الرجال وتقويمهم، فهم المصدر الناقل لهذه الأخبار، فلابدّ من وضعهم في ميزان علمي، فوثقوا الثقاة منهم وضعّفوا الضعفاء منهم، وبيّنوا من يُعتمد على حديثه ومن لا يُعتمد على حديثه، ضمن قواعد ومقررات علمي الرجال والدراية[٢] فأصبح من الضروري اللجوء إلى هذه الكتب والاحتكام إليها للاطمئنان من هذه الأحاديث وسلامتها من الوضع والتدليس.

وقد لمعت أسماء كتب وكتّاب من الفريقين من المسلمين في هذا المضمار منها:

---

(١) الموضوعات في الآثار والأخبار للسيد هاشم معروف الحسني :٢٥ ط دار التعارف بيروت.

(٢) والأصل اللغوي للدراية يفيد معنى العلم والعرفان، يقال: درى الشيء دَرْياً ودِرْياً ودِرْيةً ودِرْياناً ودِراية: علمه، ويقال: دريت الشيء أدريه: عرفته. وأدريته غيري، إذا أعلمته، ويقال: أتى هذا الأمر من غير دِرْية، أي من غير علم. لسان العرب ١٤: ٢٥٤ (درى).

وفي الاصطلاح هو علم يُبحث فيه عن متن الحديث، وطُرُقه من صحيحها وسقيمها وعللها وما يُحتاج إليه، ليعرف المقبول منه والمردود. وموضوعه الراوي والمروي الرعاية في علم الدراية للشهيد الثاني :٤٥.

١ ـ كتاب (المجروحين من المحدّثين والضعفاء)[١] للحافظ محمد بن حبّان بن أحمد بن حاتم البستي المتوفّى ٣٥٤ هـ.

٢ ـ كتاب (الضعفاء الصغير)[٢] لمحمد بن إسماعيل البخاري المتوفّى ٢٥٦ هـ.

٣ ـ كتاب (الضعفاء الكبير) لأبي جعفر محمد بن عمرو بن موسى بن حمّاد العقيلي المتوفّى ٣٢٢ هـ.

٤ ـ (العلل المتناهية في الأحاديث الواهية) لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي المتوفّى ٥٩٧ هـ.

٥ ـ (الموضوعات من الأحاديث المرفوعات)[٣] لابن الجوزي أيضاً.

٦ ـ (الضعفاء والمتروكين)[٤] لابن الجوزي أيضاً.

وقد عُدّ جمال الدين أحمد بن موسى بن جعفر بن طاووس المتوفّى ٦٧٣هـ أوّل من ألّف في علم الدراية من الطائفة الإمامية[٥].

ونال علم الدراية اهتمام الطائفة الإمامية ؛ لأنه بمنزلة المقدّمة لعلم الرجال، وكلاهما من أهم علوم الحديث، وعليهما تدور رحى استنباط الأحكام، وبهما يصفّى المقال.

وقال السيد المرعشي (قدّس سره): فمن ثم توجهت همم فطاحل الرجال إلى التأليف والتصنيف حولهما فلم يألوا الجهود في

(١) وله طبعات متعددة منها طبعة دار المعرفة بيروت.
(٢) ومن طبعات هذا الكتاب طبعة بيروت عالم الكتب.
(٣) طبع هذا الكتاب في المدينة نشرته المكتبة السلفية ١٣٨٦هـ.
(٤) نشرت هذا الكتاب دار الكتب العلمية في بيروت.
(٥) ينظر أصول الحديث وأحكامه في علم الدراية للشيخ جعفر السبحاني ٧.

تنسيق الزبر والأسفار، فلله درّ أصحابنا شيعة آل الرسول الأكرم ﷺ حيث جاءت أقلامهم وحالت يراعاتهم في هذا الشأن، فكم من آثار في هذين العلمين:

كالعلاّمة الشيخ ابن أبي جمهور الأحسائي صاحب كتاب (المجلي والغوالي)

والعلاّمة الفاضل المقداد السيّوري الحليّ صاحب (كنز العرفان).

والعلاّمة الشيخ ضياء الدين علي العاملي نجل شيخنا السعيد أبي عبد الله محمد بن مكي الشهيد الأول.

والعلاّمة السيد أبي الرضا فضل الله الحسني الراوندي الكاشاني.

والعلاّمة الشيخ حسين بن عبد الصمد الحارثي، والد شيخنا البهائي.

والعلاّمة الحاج الميرزا أبو طالب الموسوي الزنجاني، نزيل طهران من مشايخ والدي العلاّمة في الرواية.

والعلاّمة الحاج الشيخ محمد باقر البيرجندي صاحب كتاب (الكبريت الأحمر في شرائط المنبر) وهو من أجلّة مشايخنا في الرواية.

والعلاّمة الاستاذ الحاج الشيخ عبد الله المامقاني النجفي صاحب كتاب (الرجال الكبير) وهو من مشايخنا في الرواية والدراية، وغيرهم من الأعلام [١].

---

(١) مقدمة السيد شهاب الدين المرعشي النجفي لكتاب الرعاية في علم الدراية للشهيد الثاني بتحقيق عبد الحسين بقال.

وإذا كان لا مناصّ لنا من الرجوع إلى ما وضع علماء الدراية والرجال من معايير علمية من وثاقة الراوي، وتواتر الحديث، في معرفة صحيح الحديث من سقيمه، إلاّ أننا نضع معايير فنية نضعها بين يدي القارئ في تمييز الحديث الموضوع من بين الأحاديث الصحيحة، كما يميّز الصائغ السبائك الذهبية المغشوشة من الأصلية منها، وكما يميّز الصيرفي الدينار الزائف من الصحيح، عسى أن تكون لدى بعض أهل البحث والتحقيق مقبولة.

ونقول: كما يمكن تمييز كلام الله ﷻ المنظوم من كلام البشر الموضوع من ضعف النسيج والتركيب، كما يبدو من ظاهر اللفظ، كذلك منظوم الحديث النبوي، فكلام مسيلمة الكذّاب لو وضعته في صف النظم القرآني لَندَّ ضعفاً وشذوذاً، كما في هذه الألفاظ المصنوعة التي نُسبت إليه:

يا ضفدع بنت ضفدع، نُقّي ما تنقّين، أعلاك في الماء وأسفلك في الطين، لا الشارب تمنعين ولا الماء تكدّرين[١].

فلا صورة فنية، ولا تشريع أحكام، ولا بلاغة، وإنّما كلام ككلام الآخرين، لا تميّز فيه ولا تفوّق، مهلهل النسج وضعيفه.

ومن ذلك النسيج المهلهل قوله:

والمبديات زرعاً، والحاصدات حصداً، والذاريات قمحاً، والطاحنات طحناً، والخابزات خبزاً، والثاردات ثرداً، واللاقمات لقماً إهالةً وسَمْناً، لقد فُضّلتم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر[٢].

---

(١) الكامل لابن الأثير ٢: ٣٦١.

(٢) الكامل لابن الأثير ٢: ٣٦١.

ويبدو أنّ الوضع طال الأحاديث النبوية القصار، أمّا الأحاديث الطوال والوصايا والخطب فمن المتعذّر توليد ألفاظ بحجم الخطبة أو الوصية لوضعها في خزانة الموضوعات ؛ لذا يمكننا الاطمئنان لحد ما بصحّة الخطب والوصايا المروية عنه ﷺ.

وإذا كانت شكوك الباحثين في هذا الميدان موجودة أو مطروحة، فإنها لا تتعدى فقرات أو ألفاظ أو قطع قصيرة من هذه النصوص ،ويمكن لنا تحديدها وتشخيصها ضمن نسيج كلامه ﷺ وإبرازها إلى سطح البحث والتحقيق.

وقد يتطاول الحديث الصحيح إلى عالم الجماد والحيوان فلا ينصرف هَمُّ الوضّاع إلى افتعال مثل هذا الحديث؛ لعدم جدوى وضع هذه الأحاديث ولا أثر نفعي مباشر لها، كما هو الحال في قوله ﷺ: **«لا تسبّوا الرياح فإنها مأمورة، ولا تسبّوا الجبال ولا الساعات ولا الأيام ولا الليالي فتأثموا وترجع عليكم»** [1].

وتجد خيطاً فنياً رابطاً لأقواله ﷺ لا يستطيع الواضع للحديث أن يقطع طرفاً منه، أو يضع سلك الكذب فيصله بهذا الخيط ،فإن نسيج خيطه الفني الرابط لا يقبله كما في قوله ﷺ: **«من بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه»**[2].

وقوله ﷺ: **«إذا تلاقيتم فتلاقوا بالتسليم والتصافح، وإذا تفرّقتم تفرّقوا بالاستغفار»**[3].

و قوله ﷺ: **«إذا قام أحدكم من مجلسه فليودّعهم بالسلام»**[4].

---

(١) علل الشرايع :٥٧٧.
(٢) الخصال :١٩ ح ١٧.
(٣) بحار الأنوار ٧٦: ١١.
(٤) أمالي الطوسي ١: ٢١٩.

فلا يتمكّن الواضع من أن يضع ما شاء من المفردات بين ثنايا الحديث؛ لأن ذلك يظهر قطعاً وخللاً فنياً في تأليف الحديث.

وقد يتّخذ التحريف شكل الحذف والقطع أحياناً في الحديث ،كأن ينسى الراوي أوّل الحديث، أو آخره أو قطعة منه، فيدخل ضمن الموضوعات، كما يظهر من رواية الحسين بن خالد قال: قلت للرضاﷺ: يا بن رسول الله، إن الناس يروون أن رسول الله ﷺ قال: إن الله خلق آدم على صورته.

فقال: قاتلهم الله، لقد حذفوا أول الحديث، إنّ رسول الله ﷺ مرّ برجلين يتسابّان، فسمع أحدهما يقول لصاحبه: قبّح الله وجهك ووجه من يشبهك !

فقال: يا عبد الله، لا تقل هذا لأخيك ؛ فإنّ الله ﷻ خلق آدم على صورته[١].

ويرتبط الحديث النبوي بقصّة وحدث أو سؤال أو موقف، أي أنَّ ولادة النص تمخّضت وتتوّجت ضمن مناخ اجتماعي معيّن ربّما أهمله المحدّثون وسجّله المؤرّخون وتداوله أهل السيرة.

فقوله ﷺ: «لا ضَرر ولا ضِرار»[٢]، اقترن بقصّة ورواية واقعية

---

(١) عيون أخبار الرضا ١: ١٢٠ ح ١٢، التوحيد ١٥٣ ح ١١.

(٢) ذكر أنّ سمرة بن جُندب كان له عذق في حائط لرجل من الأنصار ،وكان منزل الأنصاري بباب البستان، فكان يمرّ به إلى نخلته ولا يستأذن، فكلّمه الأنصاري أن يستأذن إذا جاء فأبى سمرة، فلما تأبّى جاء الأنصاري إلى رسول الله ﷺ فشكا إليه وخبّره الخبر، فأرسل إليه رسول الله ﷺ وخبّره بقول الأنصاري وما شكا، وقال: إذا أردت الدخول فاستأذن ،فأبى فلما أبى ساومه حتّى بلغ من الثمن ما شاء الله، فأبى أن يبيع، فقال: لك بها عذق مذلل في الجنة، فأبى أن يقبل، فقال رسول الله ﷺ للأنصاري: اذهب فاقلعها وارم بها إليه فإنه لا ضرر ولا ضرار. فروع الكافي ٥: ٢٩٢ ح ٢.

رواها التاريخ لنا، لا يمكن للواضع أن ينسج نحوها، أو يختلق لها أبطالاً وأوضاعاً ؛ لأنه يُطالَب بقصة لهذا الحديث.

وإذا كان القاص يستطيع أن يختلق أحداثاً ووقائع لأمم ماضية، فإنه لن يتمكّن في تاريخ المسلمين من اختراع أحداث ووقائع يضمنها أحاديثه وكلامه ﷺ؛ لأنّ علوماً أخرى كالتاريخ والسيرة ضبطت بعض هذه الأحداث ودوّنتها، فافتعال مثل هذه النصوص يظهر كذبها وبطلانها عند مراجعة مدوّنات هذه العلوم؛ لأنها تحتفظ بهذه النصوص وثائق علمية لديها.

ويخلو الحديث الصحيح من الألفاظ النابية والفاحشة ،وهو القائل في حديث له ﷺ: **ألا أخبركم بأبعدكم مني شبهاً؟**

قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: **الفاحش، المتفحش، البذئ، البخيل، المختال، الحقود، الحسود، القاسي القلب، البعيد من كلّ خير يُرجى، غير المأمون من كلّ شر يتّقى** [١].

فتجد اللفظ العفيف المستتر بالكناية المهذبة، ومن ذلك قوله ﷺ وقد كسا أسامة بن زيد قُبطيّة[٢] فكساها امرأته، فقال له ﷺ: **«أخاف أن تصف حجم عظامها»**.

والمراد أنّ القبطيّة برقّتها تلصق بالجسم، فتبين حجم الثديين والرادِفَتين وما يشذّ من لحم العضدين والفخذين، فيعرف الناظر إليها

---

(١) أصول الكافي ٢: ٢٩١ ح ٩.

(٢) القبطية: ثياب كتّان بيض رقاق تعمل بمصر، وهي منسوبة إلى القبط على غير قياس، والجمع قُباطِيّ وقَباطِي. قال شمر: ثياب إلى الدقّة والرقّة والبياض. اللسان (قبط).

مقادير هذه الأعضاء حتّى تكون كالظاهرة للحظه والممكنة للمسه، فجعلها ﷺ لهذه الحال كالواصفة لما خلفها والمخبرة عمّا استتر بها[1].

فترى عفّته ﷺ واضحة بهذه الكناية والسَّتْر، وقد أبعد ﷺ في عفّته إلى حد أنه لم يطلق اسم اللحم أو العضو لأنّه بهذا يتقرب من الوصف المباشر المجسّم، بل قال ﷺ: **عظمها**.

ومن ذلك قوله ﷺ مكنيّاً عن المرأة الجميلة النابتة في بيوت السوء والدعارة: «**إيّاكم وخضراء الدمن**» حيث نهى ﷺ عن نكاح المرأة على ظاهر الحسن، وهي في المنبت السوء، أو في البيت السوء، شبّه المرأة الحسناء بالروضة الخَضِرة لجمال ظاهرها، وشبّه مَنْبتها السوء بالدِّمنة لقباحة باطنها[2].

وقوله ﷺ: «**لا تمنعوا إماءَ الله مساجد الله، ولكن ليخرجن وهُنَّ تَفِلات**»[3]، من جوامع الكلم، أراد بأنه يكره للمرأة أن تتطيّب لغير زوجها، وأن لا تُظهر معالم الزينة إلاّ له، ولكن لفظ العبودية التي بدأ بها الحديث تلقي ظلاً وجوّاً نفسياً على نص الحديث يفيد معنى العبادة وأهميتها، وأنّ المساجد أسست للعبادة والتقوى فإن تمنعوا عباده فكيف تتحقّق العبادة؟ومن يعبد إنْ كان نصف الناس ممنوعين من دخول المسجد.

ولفظ التَّفل يوحي بهجران الزينة، إلاّ أنّ اللفظ نفسه جميل وجرسه وإيقاعه يبثّ جمالاً وروعة في سياق الحديث، كأنّه ﷺ حين

---

(١) المجازات النبوية للشريف الرضي ١٥٨ ح ١٥٩.

(٢) المجازات النبوية ٦٢ رقم ٤٦.

(٣) سنن أبي داود ١: ١٥٥ ح ٥٦٥ باب ما جاء في خروج النساء إلى المساجد.

قال لهم: **«صلاتها في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها»**[١]، ألقى ظلال الستر حتّى داخل بيتها فكما أنّ المخدع في البيت أخصّ وأستر ما في البيت جعله مسجداً لها.

ويتّسم الحديث الصحيح بغنى المعاني وتعددها فيه: كما روي عنه ﷺ أنّه قال: **«إنّ قلوب بني آدم كلّها بين إصبعين من أصابع الرحمن يصرّفها كيف يشاء»**.

وقد ذُكر له معانٍ كثيرة منها:

الأول: أنه قد ورد في اللغة والشعر الفصيح إطلاق الإصبع على الأثر الحسن، ومعناه حينئذٍ أنّه ما من آدمي إلاّ وقلبه بين نعمتين جليلتين حسنتين: وهي نعيم الدنيا ونعيم الآخرة ؛ لأنهما نوعان، ووجه تسمية النعمة بالإصبع أنّه يُشار بالإصبع إلى النعمة.

الثاني: أن يكون المقصود تيسير تصريف القلوب عليه ﷻ كما يقال: هذا الشيء في خنصري وتحت إصبعي، وهو المراد من قوله ﷻ: ﴿ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦٓ ﴾[٢].

الثالث: أنّه يجوز أن يكون القلب يشتمل عليه جسمان على شكل الإصبعين بحركة الله ﷻ بهما ويقلبّه بهما.

الرابع: أنّ المراد بالإصبعين النقطة السوداء والنقطة البيضاء اللتان في قلب ابن آدم كما ورد في الأخبار أن الأولى تتزايد بتزايد الذنوب حتّى يصير القلب كلّه أسوداً، كما أنّ القلب إذا فعل أفعال البرّ يتزايد بياضاً حتّى يصير كلّه أبيض.

---

(١) سنن أبي داود ١: ١٥٦ ح ٥٧٠.

(٢) الزمر ٦٧.

الخامس: أنّ المراد بهما أوامر الله ﷻ ونواهيه اللذين لا يكون التصديق بهما والإذعان إلاّ بالقلب فيكون إشارة إلى الأوامر والنواهي ونسخهما في وقت دون آخر.

السادس: أن يكون المراد بهما اللطف والخذلان فإنه من عمل ما يستحق به الألطاف منحه من الألطاف ما يكون هو جلّ شأنه عينه التي بها يبصر، وسمعه الذي به يسمع، وقلبه الذي به يفهم، كما ورد في الحديث المشهور، ومن استحق الخذلان بأعماله أهمله ونفسه حتّى يرد مورد المهالك.

السابع: أن المراد بهما ما رد في بعض الأخبار أن لكلّ إنسان ملكاً عن يمينه وشيطاناً عن يساره أحدهما يأمره بالخير والآخر يأمره بالشر، وسُميّ كلّ منهما إصبعاً لأنه مخلوق من مخلوقاته، والله العالم[(١)].

فهل يتمكن القصّاص أو المتسوّل من تركيب حديث غني بالمعاني والأفكار كهذا؟

وتجد ازدحام البلاغة وعفويتها في الحديث الصحيح، ولم تكن البلاغة التي وضع علماء البيان والبديع والمعاني قواعدها، صناعة لديه ﷺ يتصنّع اللفظ الذي يكون فيه جناس أو طباق أو سجع أو استعارة أو كناية من المحسنات البديعية والبيانية.

وإنما كانت البلاغة منقادةً له ﷺ وطوع أنفاسه، فلم يكن يتكلّفها ويتقصدها في ألفاظه، بل كانت تتشكل بين ماضغيه مطواعة منقادة، يتناثر الحرف المسجوع مع رضابه الطاهر، وينعجن في شهد كلامه ﷺ.

---

(١) مصابيح الأنوار في حل مشكلات الأخبار للسيد عبد الله شبّر ١: ٤٢٤ ح ٧٧ ط مكتبة بصيرتي قم.

فقوله ﷺ: **«أفضل الحجّ العجّ والثجّ»** [١]، كلام مسجوع بمفردات بليغة قليلة، أتى بها ﷺ على معنى يطلبه بأروع بيان بلاغي جميل.

فتجد في حديثه ﷺ سجعاً عفوياً ليس فيه ثقل وتصنع، كما في قوله ﷺ: **«إنّ الله يحبّ البصر النافذ عند مجيء الشهوات، والعقل الكامل عند نزول الشبهات، ويحبّ السماحة ولو على تمرات، ويحبّ الشجاعة ولو على قتل حيّة»** [٢].

ومن عفوية السجع وجماله، قوله ﷺ: **«من عرف الله وعظّمه، منع فاه من الكلام، وبطنه من الطعام، وعنّى نفسه بالصيام والقيام»** [٣].

ومن الألفاظ المسجوعة المتجانسة، ما روي عن جابر قال:

أتت النبي ﷺ بواكي فقال: **«اللهمّ اسقنا غيثاً، مُغيثاً، مَريئاً، مَريعاً، نافعاً غير ضارّ، عاجلاً غير آجل»** [٤].

تجد السجع والتتابع في ألفاظ الحديث وكذلك ثراؤها وتدفقها، حتّى كأنك تحسّ الخصب والنماء في ألفاظ الحديث الدافقة بينبوع ثر من المعاني والألفاظ الرشيقة، ورحمة النبوة في ظاهرها وباطنها، فعطوفته ولطافته ورقّته لأمّته تجدها خفّاقة تقرع أذن المتلقي.

وفي الخبر قال: فأطبقت عليهم السماء، وكأنها كانت متأثرة ومنفعلة لهذه الألفاظ الرؤوفة الرشيقة، سريعة الإجابة لها، فأطبقت بسحب من الغمام المغيث.

---

(١) الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير للسيوطي ١: ٤٩.
(٢) شهاب الأخبار للقضاعي ١٢٧ ح ٧٠٧.
(٣) أصول الكافي ٢: ٢٣٧ ح ٢٥.
(٤) سنن أبي داود ١: ٣٠٣ ح ١١٦٩.

ومن التشبيه الرائع الذي يجد الإنسان فيه الجمال والموعظة:

قوله ﷺ: **«ما لي وللدنيا إنّما مثلي ومثلها كمثل الراكب رُفعت له شجرة في يوم صائف فقال تحتها ثم راح وتركها»**[١].

وقال ﷺ في الندب إلى القناعة: **«مَن سألَنا أعطيناه، ومن استغنى أغناه الله»**[٢].

وضع ﷺ في كلام واضح ويسير وبألفاظ محدودة قواعد السؤال كما أنه حبّب للإنسان العِفّة وعدم السؤال، ولم ينهر السائل وإنما وعده بأن الله ﷻ يعطيه وعطاء الله ﷻ كثير غير محدود، وضعه النبي ﷺ في هذه العبارة «أغناه الله» وغناء الله خير الغنى.

وقد رووا لهذا الحديث قصة أنّ رجلاً من أصحاب النبي ﷺ، قالت له امرأته: لو أتيت رسول الله ﷺ فسألته[٣].

وقد قال ﷺ: **«من أراد أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يد غيره»**[٤].

وإن كان القليل من رزق الله هو خير، كما قال ﷺ: **«إنّ ما قلّ وكفى خيرٌ ممّا كثر وألهى»**[٥].

وتجد الاستعارة والمجاز في حديثه ﷺ فيها عفوية اللفظ وجمالية التعبير، تجعل المتلقّي يحس بالمتعة الفنيّة، إضافة إلى الفائدة الفكرية والتربوية التي تربي الإنسان وتغنيه بمعانيها.

---

(١) أصول الكافي ٢: ٣٤ ح ١٩ باب ذم الدنيا والزهد فيها.
(٢) أصول الكافي ٢: ١٣٨ ح٢ باب القناعة.
(٣) أصول الكافي ٢: ١٣٩ ح ٧.
(٤) أصول الكافي ٢: ١٣٩ ح ٨.
(٥) أصول الكافي ٢: ١٤١ ح٤ باب الكفاية.

فقوله ﷺ: **«أكثروا من الحمد لله، فإنّ لها عينين وجناحين تطير في الجنة وتستغفر لقائلها إلى يوم القيامة»**(١).

استعار جناح الطائر وعينه للعبد الشاكر المتواضع الذي ترفرف أنفاس الشكر والتسبيح من لسانه لتنطلق طائرة في جنات الخلود.

وقوله ﷺ: **«أحسنوا جوارَ نِعم الله، فإنها قلّ ما نفرت عن أهل بيت فكادت ترجع إليهم»** (٢)، جعل النعمة كالوحش الذي يأنس بالشكر.

وقوله ﷺ: **«ما مَن مسلم يُصاب في جسده إلاّ أمر الله تعالى الحَفَظة: اكتبوا لعبدي في كلّ يوم وليلة من الخير ما كان يعمل، مادام محبوساً في وثاقي»**(٣).

استعار للمرض وثقل الإنسان السجن الذي يقبع فيه السجين فلا يستطيع حراكاً ؛ لأنه مغلول كمن جعلت الجامعة في عنقه ويده.

ومن التشبيه البليغ لديه ﷺ قوله: **«إنّ الإيمان ليأرز إلى المدينة، كما تأرِزُ الحيّة إلى جُحرها»**(٤).

أراد انضمام الإيمان واجتماعه في المدينة، مركز الدين ونقطة انطلاقه، ومنها بدأت البعثة النبوية، فهي أصله كما أنّ جحر الأفعى أصل الأمن والاستقرار لها، قال الشريف الرضي: جعل ﷺ المدينة كالوجار للإسلام يتقلّص إليها، وينضمّ إلى حماها ؛ لأنها قطب مداره ونقطة ارتكازه(٥).

---

(١) كنز العمال ٣: ٢٦١ ح ٦٤٥٠.

(٢) كنز العمال ٣: ٢٦١ ح ٦٤٥٤.

(٣) كنز العمال ٣: ٣٠٤ ح ٦٦٦٨.

(٤) سنن ابن ماجة ٢: ١٠٣٨ ح ٣١١١.

(٥) المجازات النبوية ٩٩ رقم ٨٥.

ووضع ﷺ الباغي للدين وأهله في متاهات العدم بتشبيه بليغ قاله ﷺ:

«من أراد أهل المدينة بسوء أذابه الله كما يذوب الملح في الماء»[(١)].

وجعل ﷺ ببلاغة رائعة للأحجار والجبال عواطف وأحاسيس ناطقة، تضطرم بها أفئدتها كما تضطرم أفئدة بني الإنسان، فقال ﷺ:

«إنّ أُحُداً جبل يحبّنا ونحبّه، وهو على تُرعة من تُرَع الجنة، وعَيْرٌ على تُرعة من تُرع النار»[(٢)].

وقال لصفية حين حاضت في موسم الحج: **«عَقْرَى حَلقى إنّك لحابستنا»**[(٣)] فعقرى مصدر كدعوى، والعقرى: الحائض، على قول، وعَقْرى حَلقى كلمتان تزدحم فيهما البلاغة والغِنى اللغوي، فاللغويون فسّروها بأن معناهما عقرها الله وحلقها، أي حلق شعرها أو أصابها بوجع في حلقها . .

وقالوا: إنما هو عقراً وحَلقاً بالتنوين، واستظهر بعضهم فيها معنى الدعاء عليها، وليس بدعاء في الحقيقة.

وبعضهم رأى فيهما الوصف، والألف للتأنيث مثلها غضبى وسكرى[(٤)]، وأمّا بلاغتهما فواضحة بكثافة اللفظ وقوّته واحتمالهما بين الخبر والإنشاء، وأمّا إيقاعهما الموسيقي فتجد فيهما التقطيع الصوتي المتوازن والمتجانس بينهما.

---

(١) سنن ابن ماجة ٢: ١٠٣٩ ح ٣١١٤.
(٢) سنن ابن ماجة ٢: ١٠٤٠ ح ٣١١٥.
(٣) صحيح البخاري ٢: ٢٢١ باب إذا حاضت المرأة بعدما أفاضت أفسيت، ط السلطانية.
(٤) ينظر تفصيل ذلك في اللسان (عقر).

وأمّا إدراك هذا الإيقاع الموسيقي المتناغم للفظتين فلن يفقد الإحساس بهما من يبحث فيهما، وإيقاع حرف القاف يوحي بجمال اللفظ وتناسقه وتدفقه، فمن رام وضع الحديث وافتعاله تستجيب له بلاغته بهذا النمط من التأليف للألفاظ؟

ويتميّز الحديث الصحيح بلغة المجاز الرفيع، فلا يمكن للوضّاع من صنع استعارة وكناية في الحديث الموضوع، كصنعه ﷺ مهما أوتي أحدهم من فصاحة بيان، فقوله ﷺ عن زيد بن صوحان:

«زيد وما زيد! يسبق منه عضو إلى الجنة» [١]، مِن أرفع المجاز وأبلغه، كنّى عن قطع يده التي قطعت في معركة نهاوند، جعل ﷺ اليد المقطوعة كائناً حيّاً يتحرّك بلغة المجاز، فكان من هذا الكائن أن يمهّد لصاحبه في جنات الخلود، فهل يتمكّن قصّاص أو متزلفو السلاطين من صنع هذا المجاز؟

ومن المجاز الرفيع قوله ﷺ: **«رأيت في يدي سوارين من ذهب فنفختهما فطارا، فأوّلتهما هذين الكذّابين، مسيلمة كذّاب اليمامة، وكذّاب صنعاء العنسي»** [٢].

ورؤيته ﷺ في الحديث هي رؤيا المنام، والنفخ كناية عن الظفر وضربهما بالسيف، وطيرانهما هو هزيمتهما وانمحاقهما، شبّه سرعة هزيمتهما واضمحلال دعوتهما بالطائر الذي له جناحان فيحطط لحظات فيخفق بهما محلّقاً لا رجعة ولا استقرار له.

ومن القوة البلاغية لنصوص الأحاديث النبوية الإجمال والتفصيل فيها، فالحديث النبوي إن كان وصفياً أو حكمياً، يلحظ القارئ فيه

---

(١) الخرائج والجرائح للقطب الراوندي ١: ٦٦ ح ١١٦.

(٢) الخرائج والجرائح ١: ٦٦ ح ١٢١.

بعض الإجمال في مواطن، وفي بعضها التفصيل حسب مقتضيات الموضوع وما يتطلّبه الموقف.

إضافة إلى مراعاة ذهن المتلقي وقدرته على استيعاب وتمثيل الغرض الموضوع من أجله، فقوله ﷺ:

«من ملك زاداً وراحلةً تُبلِّغه إلى بيت الله ولم يحج، فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً وذلك أن الله يقول في كتابه: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾» (١)، قولٌ فيه تفصيل.

وقوله ﷺ في هذا الموضوع حين سأله رجل: ما يوجب الحج؟

قال: **الزاد والراحلة**(٢). هو مجمل، وهذا فن في الكلام وبلاغة من المتعذّر لكلّ إنسان الإتيان بها.

وتجد الإجمال في قوله ﷺ: حين سُئل أي الحج أفضل؟

قال: **العجّ والثجّ**(٣).

فالمراد بالعج هو التلبية ورفع الصوت بها، فبيان الموضوع يتعاوره التفصيل والإجمال حسب تقدير الموقف.

وقوله ﷺ: **«ما مِن مسلم يلبّي إلاّ لبّى من عن يمينه أو عن شماله، من حجر أو شجر أو مدر، حتّى تنقطع الأرض من هاهنا وهاهنا»**(٤) فيه تفصيل.

---

(١) سنن الترمذي ٣: ١٧٦ ح ٨١٢ باب ما جاء في التغليظ في ترك الحج، والآية من سورة آل عمران / ٩٧.

(٢) سنن الترمذي ٣: ١٧٧ ح ٨١٣ باب ما جاء في إيجاب الحج بالزاد والراحلة.

(٣) سنن الترمذي ٣: ١٨٩ ح ٨٢٧ باب ما جاء في فضل التلبية والنحر.

(٤) سنن الترمذي ٣: ١٨٩ ح ٨٢٨ ما جاء في فضل التلبية.

ومن الحديث المفصّل قوله ﷺ: **«ماء زمزم لِما شُرب له ،إن شربته تستشفي به شفاك الله، وإن شربته لشبعك أشبعك الله به، وإن شربته ليقطع ظماك قطعه الله، وهي هزمة جبرئيل وسقيا الله إسماعيل»**[١].

ومن المجمل في معناه: **«ماء زمزم لِما شُرب له»**[٢].

ويأخذ التفصيل شكل الامتداد والتفريع والتكثيف للحكم أو للخبر أو للوصف، وقد أتى التفصيل متنوعاً ومتكثراً ليتناسب مع حجم الموضوع وأهميّته، ومرحلة التقنين والتشريع ومستوى المخاطبين، فإنّ ذلك رهين بامتداد الزمن.

فالتشريع في بداية ظهور دعوته ﷺ غيره بعد مراحل متعددة من النضج الرسالي الذي كان يتمتّع به المتلقين من أصحابه ومن عامّة المسلمين.

ومن التفصيل قوله ﷺ حين سُئل ماذا تأمرنا أن نلبس من الثياب في الحرم؟

فقال ﷺ: **لا تَلبَسوا القُمُصَ ولا السراويلات ولا البرانس ولا العمائم ولا الخِفاف، إلاّ أن يكون أحد ليست له نعلان فليلبس الخفّين وليقطعهما أسفل من الكعبين، ولا تلبسوا شيئاً من الثياب مسّه الزعفران ولا الوَرس، ولا تنتقب المرأة المحرمة ولا تلبس القفّازين»**[٣].

ومن التفصيل قول ﷺ: **«إنّ الصدقة لا تحلّ لي ولا لأهل بيتي**، وأخَذَ وبرةً من كاهل ناقته، فقال:

---

(١) سنن الدارقطني ٢: ٢٨٩ ح ٢٣٨ كتاب الحج.

(٢) كنز العمال ١٢: ٢٢٤ ح ٣٤٧٧٤.

(٣) سنن الترمذي ٣: ١٩٤ ح ٨٣٣ باب ١٨، كنز العمال ٥: ٣٣ ح ١١٩٢٤.

لا والله ولا ما يساوي هذا، وما يزن هذا، لعن الله من ادّعى إلى غير أبيه أو تولّى إلى غير مواليه، الولد للفراش وللعاهر الحجر إنّ الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصيّة لوارث»[١].

والإجمال والتفصيل في الحديث له مبرراته ومسوّغاته الفنية والتشريعية، فالإدراك الذهني للبشر يختلف من شخص لآخر، ومن سنّ لسنّ، ومن مرحلة لمرحلة، ومن موقف لموقف، وهذا مراعى من قِبله ﷺ.

ويتصّف الحديث الصحيح بسهولة الألفاظ ورقّتها وطلاقتها، فقد كانت ألفاظه ﷺ سهلة رقيقة مأنوسة تهشّ لها النفس وينشرح لها القلب، فكأنها تفتح مغاليق النفس وتستقرّ في زوايا القلب لأنسها ورقّتها.

فقد قال ﷺ: **«إنّ الله ﷻ يُحبّ السهل الطّلق»**[٢].

وهذه السهولة انعكست في أفعاله وأقواله حتّى ألفاظه ﷺ نجدها سهلة ميسورة.

فقوله ﷺ: **«أشكر الناس لله أشكرهم للناس»**[٣].

فتوالي الشين ونغمته أسهل في هذا الموضع لما يوجبه الشكر من هشاشة، وبشاشة المتلقّي من ألفاظه ﷺ.

وقوله ﷺ: **«الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر»**[٤].

فالذي أطعمه الله ﷻ وفضّل عليه من نعمه بهذا البناء القليل

---

(١) كنز العمال ٥: ٢٩٣ ح ١٢٩١٧.
(٢) كنز العمال ٣: ١٤ح ٥٢١٠.
(٣) كنز العمال ٣: ٢٥٤ ح ٦٤١٣.
(٤) كنز العمال ٣: ٢٥٦ ح ٦٤٢٥.

الموجز اللفظ، لَهوَ أروع بناء لفظي أوجده النبي ﷺ بهذه العبارة وجاء بصيغة اسم الفاعل، وهي تفيد معنى المفعولية لغرض بلاغي، أن نِعَم الله ﷻ على عبده مهما كانت فإنّها مع الشكر جارية تنتظر صاحبها، فكأنه ربّ النعمة وسيّدها وهذا أروع ما أرادته بلاغته ﷺ.

فمن هذه السهولة والرقّة اتشحت واتصفت ألفاظ الحديث النبوي بالرشاقة والشفافية.

فقوله ﷺ: «رفقاً بالقوارير» [(١)]، **وقوله ﷺ: «المرأة ريحانة».**

ألفاظ شفافة رقيقة رشيقة، يحسّ المتلقي لها عذوبة في السمع ،وإشراقاً في حروفها، فكأنّ وجهاً مشرقاً وخَلقاً رشيقاً أجاد صانعه خلقه، يُطلّ علينا ويتجسّم في عين الناظر وأذن السامع بصورة ناعمة طرية تكاد النفس تذوب لحلاوتها.

فالمرأة الجميلة والصورة الجميلة في الوجود تنشرح لها النفس وتبتهج، فالله ﷻ حين خلق مخلوقاته، من حيوانات وطيور وأزهار أوجد فيها رشاقة وشفافية تبتهج لها نفوس الخلق حين تتأملها، وتطرب لهذا الجمال الذي أودعه الله ﷻ في هذا النسق الجميل الذي يحكي نسيج الإبداع الربّاني وتناسقه وانسجامه مع أسرار الجمال.

فكما هُندست مظاهر الجمال في الأشكال من الطيور والأزهار، تجد أثر هذه الهندسة البديعة في تشكيل ألفاظه ونسجها لديه ﷺ، فلا تلمس ذلك عند مشاهير الأدباء والفنانين، فمهما أُوتوا من موهبة وقدرة في إبداع هذه الألفاظ فلن يجاروا الرشاقة والشفافية التي وضعها مبدعها النبي ﷺ ؛ لذا يتعذّر على الوضّاع صنع ألفاظ وأحاديث بهذه الرشاقة والأناقة والجمال.

---

(١) المجازات النبوية :٢٣ رقم ١٣.

ولهندسة الألفاظ ونسيجها وقع مؤثر وجميل في ذهن المتلقي، فبناء الحديث وعمارته ينمّ عن صانع عظيم، يمكن أن نطلق عليه لفظ المهندس المعمار الذي يؤسس ويشيّد بنياناً يبهر بهندسته عيون الناظرين...

وتجد سرّ تأليف الألفاظ وتركيبها في نفس قائلها وواضعها، فالحديث بهذا التركيب والتأليف نسيج واحد، ومهما أوتي الأدباء والمؤلفون من قدرة في هندسة الألفاظ وترتيبها فلن يتمكنوا من بناء الألفاظ بهذه الهندسة والتركيب النبوي العجيب، فأنّى للوضّاع ذلك في تأليف الحديث؟ !.

أمّا نظم الحديث وتأليفه، بما في الألفاظ من أسرار، وبما في الحروف من أسرار، وبما في الحروف من طاقة تعبيرية تنسجم مع رؤية النبي ﷺ وعلمه، ينجم عنها وضع الأفكار وترتيبها في سبك من البديع والبيان البديع.

كما في قوله ﷺ: **«تأخذون كما أخذت الأمم من قبلكم، ذراعاً بذراع، وشبراً بشبر ،وباعاً بباع، حتّى لو أنّ أحداً من أولئك دخل جُحر ضَبٍّ لدخلتموه»**(١).

والذراع والساعد واحد، إلاّ أنه ﷺ لم يقل ساعداً ؛ لأن الساعد لا ينسجم مع تأليف الألفاظ، والذراع ما يُذرع به، والذراع نجم من نجوم الجوزاء على شكل الذراع، واللفظ يوحي بالاقتداء والاهتداء، فوضعه في سياق النص عضد بلاغة النص وتأليفه.

ويتّسم الحديث الصحيح بتقسيم الجمل وتوزيع هذه الجمل وتفريعها، كما في قوله ﷺ: **«ما قسم الله للعباد شيئاً أفضل من**

---

(١) أمالي الشيخ الطوسي ص٢٧٢.

العقل، فنوم العاقل أفضل من سهر الجاهل، وإفطار العاقل أفضل من صوم الجاهل، وإقامة العاقل أفضل من شخوص الجاهل، ولا بعث الله رسولاً ولا نبيّاً حتّى يستكمل العقل، ويكون عقله أفضل من عقول جميع أمّته، وما يضمر النبيّ في نفسه أفضل من اجتهاد المجتهدين»[١].

وهذا التقسيم والتفريع يفتقر إليه الحديث الموضوع ؛ لأنه علم وفن في الكلام.

ومن تفريعات الحديث الصحيح قوله ﷺ:

«للمرائي ثلاث علامات: يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان عنده، ويحبّ أن يُحمد في جميع أموره.

وللظالم ثلاث علامات: يقهر من فوقه بالمعصية، ومن دونه بالغلبة، ويظاهر الظلمة.

وللكسلان ثلاث علامات: يتوانى حتّى يفرّط، ويفرّط حتّى يضيّع، ويضيّع حتّى يأثم.

وللمنافق ثلاث علامات: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتُمن خان»[٢].

ومن خصائص الألفاظ النبوية الصادقة، ودليل فصاحتها التشابه والتجانس في مفرداتها واتصال أحاديثه ﷺ بعضها ببعض، فتجد قوله ﷺ:

---

(١) المحاسن للبرقي ١٩٣ ح ١١.
(٢) قرب الإسناد للحميري ١٥، بحار الأنوار ٧٢: ٢٠٥.

«من قتل حيّة قتل كافراً» [١]، يتصل بقوله ﷺ: **«إن الله يحبّ الشجاعة ولو على قتل حيّة»** [٢].

وقوله ﷺ لعليّ عليه السلام: **«إذا رأيت حيّة في رحلك فلا تقتلها حتّى تحرّج عليها، فإن رأيتها في الرابعة فاقتلها فإنها كافرة، يا عليّ إذا رأيت حيّة في الطريق فاقتلها، فإنّي اشترطت على الجنّ أن لا يظهروا في صورة الحيّات»** [٣].

وقوله ﷺ في الحيّات: **«من تركهنّ مخافة تبعاتهن فليس منّي، وإنما تتركها لأنها لا تريدك»** [٤].

فيلحظ المتتبع لألفاظ الحديث تشابه الكلمات وارتباط بعضها ببعض، فالوحدة الموضوعية تشكل وحدة رئيسية تتفرع عنها وحدات فرعية في مواضيع متعددة، من أحكام وقصص ومواعظ، وقد لحظ الشيخ الصدوق (رحمه الله) هذا الترابط والتشابه في اتحاد موضوع الحديث المروي عن النبي والأئمة المعصومين عليهم السلام فقال:

لأنّ علم كلّ واحدٍ منهم مأخوذ عن أبيه حتّى يتصل ذلك بالنبي ﷺ [٥].

فتجد قوله ﷺ: **«أوصي الشاهد من أمّتي والغائب منهم، ومن في أصلاب الرجال وأرحام النساء إلى يوم القيامة، أن يصل الرحم وإنْ كانت منه على مسيرة سنة، فإنّ ذلك من الدين»** [٦].

---

(١) عيون أخبار الرضا ٢: ٦٥ ح ٢٨٤.
(٢) شهاب الأخبار ١٢٧ ح ٧٠٧.
(٣) تحف العقول لابن شعبة الحرّاني ١٢.
(٤) من لا يحضره الفقيه ٣: ٣٥١ ح ٤٢٣٤.
(٥) ينظر التوحيد ٣٠٩.
(٦) أصول الكافي ٢: ١٥١ ح ٥.

يتّصل بقوله ﷺ: «من سرّه أن يمدّ الله في عمره ويبسط في رزقه فليصل رحمه، فإنّ الرحم لها لسان يوم القيامة ذَلِقٌ، يقول: يا ربّ صِل من وصلني، واقطع من قطعني، فالرجل ليُرى بسبيل خير إذ أتته الرحم التي قطعها فتهوي به إلى أسفل قعر في النار»(١).

و قوله ﷺ: «إنّ رؤيا المؤمن ترفّ بين السماء والأرض على رأس صاحبها حتّى يعبرها لنفسه، أو يعبّرها له مثله، فإذا عُبّرت لزمت الأرض، فلا تقصّوا رؤياكم إلاّ على من يعقل»(٢).

يتّصل بقوله ﷺ: «الرؤيا لا تُقصّ إلاّ على مؤمن، خلا من الحسد والبغي»(٣).

و قوله ﷺ: «الدعاء سلاح المؤمن، وعماد الدين، ونور السماوات والأرض»(٤).

فهو متّصل بقوله ﷺ: «ألا أدلكم على سلاح ينجيكم من عدوّكم ويدرّ أرزاقكم؟

قالوا: نعم.

قال: تدعون بالليل والنهار، فإن سلاح المؤمن الدعاء»(٥).

و قوله ﷺ: «أمرني ربي بمداراة الناس كما امرني بأداء الفرائض»(٦).

---

(١) أصول الكافي ٢: ١٥٦ ح٢٩.
(٢) روضة الكافي ٨: ٣٣٦ ح ٥٢٩.
(٣) روضة الكافي ٨: ٣٣٦ ح ٥٣٠.
(٤) عيون أخبار الرضا ٢: ٣٧ ح ٩٥.
(٥) ثواب الأعمال ٤٥.
(٦) أصول الكافي ٢: ١١٧ ح ٤.

يتّصل بقوله ﷺ: **«أعقل الناس أشدّهم مداراةً للناس، وأذّل الناس من أهان الناس»**(١).

و قوله ﷺ: **«إنّا أُمرنا ـ معشر الأنبياء ـ بمداراة الناس كما أُمرنا بأداء الفرائض»**(٢).

و قوله ﷺ: **«مداراة الناس نصف الإيمان، والرفق بهم نصف العيش»**(٣)

ومن هذا الاتصال في حديثه ﷺ الذي يلمسه القارئ والسامع ذلك يقف على الاتصال الموضوعي والوحدة الموضوعية التي أشرنا لها، ويظهر له أن الألفاظ تصدر من نبع واحد، فقوله ﷺ:

«كلوا السفرجل وتهادوا بينكم، فإنّه يجلو البصر، وينبت المودّة في القلب، وأطعموا حبالاكم فإنّه يحسّن أولادكم»(٤).

ينسجم مع قوله ﷺ لجعفر بن أبي طالب ﵇ حين كسر سفرجلة وأطعمه: **«كُل فإنّه يصفّي اللون، ويحسّن الولد»**(٥).

وحليت الأحاديث الصحيحة بعنصر الحوار والمساءلة، فتجد أنَّ النبي ﷺ يُسأل أو يحاور كما في قوله ﷺ:

في الحبّة السوداء شفاء من كلّ داء إلاّ السام.

قيل يا رسول الله، وما السام؟

---

(١) أمالي الصدوق ٢٨ ط بيروت الأعلمي.
(٢) أمالي الطوسي ٢: ١٣٥ ط النجف.
(٣) أصول الكافي ٢: ١١٧ ح ٥.
(٤) مكارم الأخلاق ١٩٥.
(٥) المحاسن البرقي ٥٤٩ ح ٨٧٨.

قال: **الموت**[١].

والواضع للحديث لا يستطيع أن يفتعل هذه المحاورة، كما لا يستطيع أن يضع هذا البيان والمعنى الجديد الذي يضعه النبي ﷺ للألفاظ.

ومن هذه المساءلة قول ابن مسعود: سألت رسول الله ﷺ: أي الأعمال أحبّ إلى الله ﷻ.

قال: **الصلاة لوقتها**[٢].

ونجد في المحاورة المشاهد الواقعية الموجهة، ونلحظ أن النبي ﷺ زيّنها أحياناً بعنصرٍ فنيٍّ مصوّر، كما روى عنه ﷺ الباقر عليه السلام في حديث قال:

دخل رسول الله ﷺ على أم سلمة فقال لها: **ما لي لا أرى في بيتك البركة؟**

قالت: بلى يا رسول الله، والحمد لله، إن البركة لفي بيتي.

فقال: **إن الله أنزل ثلاث بركات: الماء والنار والشاة**[٣].

وقال ﷺ لعمّته: «**ما يمنعك من أن تتخذي في بيتك البركة؟**

فقالت: يا رسول الله، وما البركة؟

فقال ﷺ: **شاة تُحلب فإنّه من كانت في داره شاة تُحلب أو نعجة أو بقرة فبركات كلهنّ**»[٤].

---

(١) بحار الأنوار ٦٢: ٢٢٩.
(٢) بحار الأنوار ١٣: ٨٣.
(٣) المحاسن للبرقي ٦٤٣ ح ١٦٩.
(٤) المحاسن ٦٤١ ح ١٥٥.

ونلحظ بأنَّ اللفظ في الحديث النبوي يوازن المعنى، فقد سجلت لنا تواريخ الأمم والحضارات أعمالاً فنية عظيمة، من قصص وأساطير وخطب وأشعار وقصائد ملحمية ومسرحية وغيرها، لكن حين ندرس هذه الأعمال، ونتمعن فيها نجد سرّ النبوغ والإبداع في جانب واحد فيها.

أما في لفظ هذه الأعمال، أو في المعنى والمحتوى الفكري الذي جاءت بها هذه الأعمال، ولم نجد عملاً كاملاً يرتقي إلى مستوى الحديث النبوي الذي صنعه خاتم الأنبياء، فالموازنة بين اللفظ والمعنى تجدها واضحة، فلو وضعنا اللفظ في كفّة ميزان والمعنى الذي جاء به المصطفى ﷺ في أخرى، لأحسسنا بالتعادل بين الرقي في الألفاظ ورقي المعاني، فإنها من معجزة النبوّة التي صنعت لنا هذه الأعمال، فلا يستطيع البشر العاديون خلق هذا التوازن بين الألفاظ والمعاني.

وتوليد الألفاظ يخضع إلى حاجة المجتمع، وهو مرهون بمدى قدرة الواضعين لهذه الألفاظ وتوليدها، وقد تصدّى لهذه المهمة علماء الأمم وعقلائها وفلاسفتها ومفكّروها ؛ لذا تجد كثيراً من المصطلحات العلمية ولدت وعاشت في لغات الأمم المتمدنة والمتحضرة، نظراً لإحساس واضعيها بضرورتها، وهذا التوليد يصبح في زمن لاحق جزء من لغة الأمة وحضارتها.

وتفتخر الأمم بهذا التوليد فإنّه دليل حيوية اللغة ورقيّها، وقد هيّأ الله ﷻ للغة العربية واضعاً كريماً جاء بألفاظ جديدة لم تعرف في تاريخ المعجم العربي إلاّ بعد ظهور دعوة الكريم المصطفى ﷺ، فإذا أخذنا معيار توليد الألفاظ واعتبرناه من معايير الحديث الصحيح، نكون قد وقفنا على معيار صعب لا نجده في الحديث الموضوع، فلا تجد

حديثاً موضوعاً واحداً فيه لفظة مولّدة ؛ لأن الوضّاع ليسوا من الناس المبدعين.

ومهما كان جهد الوضّاعين وقدرتهم اللغوية في صنع حديث أو نصّ فإنّ أحدهم لا يستطيع أن ينسج حديثاً فصيحاً مشرقاً تكاد ألفاظه تضيئ السماوات والأرض، وتبدد ظلام الوجود، كقوله ﷺ حاكياً عن الله ﷻ:

«الشيبة نوري فلا أُحرق نوري بناري»[1].

وتبدو ألفاظه ﷺ كأنها شموع موقدة ناطقة بالشكر والتسبيح كما في قوله ﷺ: **«إنّ الله تعالى خلقني وخلق عليّاً وفاطمة والحسن والحسين والأئمة (عليهم السلام) من نور، فعصر ذلك النور عصرةً فخرج منه شيعتنا فسبّحنا وسبّحوا، وقدّسنا فقدّسوا، وهللنا فهللوا، ومجّدنا فمجدوا، ووحّدنا فوحّدوا»**[2].

وقوله ﷺ: **«لا تقتلوا الضفادع فإنّ نقيقها تسبيح»**[3]، عبارة تسبّح حروفها شكراً وطاعةً وانقياداً وتسليماً لله ﷻ، تحسّ بأن صانع هذه الألفاظ نبيّ مرسل ترفرف أرواح الأنبياء ورأفتهم مع رأفته ورحمته ﷺ في عبارة قصيرة تمنع الطائشين والعابثين من أن يُعتدى على مخلوقات الله ﷻ المتناثرة في الأودية والغدران وإذا كانت ألفاظه ﷺ تسبّح بإيقاع جميل منضّد منظم يحاكي تسبيح الملائكة والأرواح العظيمة المبثوثة مع أمواج البحار والرياح فإنّها ألفاظ داعية بهمس وهدوء إلى الزهد والبساطة والقناعة.

---

(١) بحار الأنوار ٧٣: ٣٩٠.

(٢) جامع الأخبار ٩.

(٣) بحار الأنوار ٦٤: ٢٩٥.

فتجد قوله ﷺ: **«إيّاكُم والبِطنة، فإنها مفسدة للبدن، مورثة للسقم، مَكسلة عن العبادة»** [١]، دعوة للزهد والتقشّف، تدفع المسلم عن أبواب السلاطين وتحميه من موائد المترفين، فكيف يمكن للوضّاع ـ وهم أناس شرهون، همّهم بطونهم وعباداتهم وقبلتهم الموائد المنتفخة بالألوان ـ من أن يضعوا ما يخالف طبعهم.

أترى يختلقون مثل هذا الحديث! أو يضعون الكذب على لسان رسول الله ﷺ بهذا الكلام الذي يتعارض مع مصالحهم ومنافعهم وهم أناس نفعيون، محرّفون للحقائق، بعيدون عن العلم.

وهل يضع الوضّاع حديث العلم والعلماء الربّانيين الذي يقرره ﷺ بقوله: **«سيأتي زمان على الناس يفرّون من العلماء كما يفرّ الغنم من الذئب، فإذا كان كذلك ابتلاهم الله تعالى بثلاثة أشياء:**

الأول: برفع البركة من أموالهم.

الثاني: سلّط الله عليهم سلطاناً جائراً.

الثالث: يخرجون من الدنيا بلا إيمان» [٢].

ولو نظرنا إلى الحديث المقلوب الذي عرّفه الشهيد الثاني:

بأنّه حديث ورد بطريق فيُروى بغيره، إمّا بمجموع الطريق، أو ببعض رجاله، بأن يُقلَب بعض رجاله خاصة، بحيث يكون أجود منه، ليُرغب فيه.

وقد يقع سهواً، كحديث يرويه محمد بن أحمد بن عيسى عن أحمد بن محمد بن عيسى، وكثيراً ما يتفق ذلك في إسناد التهذيب

---

(١) دعوات الراوندي ٧٤ ح ١٧٢.

(٢) جامع الأخبار ١٣٠.

ومثله: محمد بن أحمد بن يحيى عن أبيه أحمد بن محمد بن يحيى، عن محمد بن يحيى، فيُقلب الاسم ونحوه من الأغراض الموجبة للقلب.

وقد يقع ذلك القلب من العلماء بعضهم لبعض ؛ للامتحان أي امتحان حفظهم وضبطهم، كما اتفق ذلك لبعض العلماء ببغداد.

وقد يقع القلب في المتن ،كحديث السبعة الذين يظلهم الله في عرشه، ففيه: **ورجلٌ تصدّق بصدقة فأخفاها، حتّى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله.**

فهذا مما انقلب على بعض الرواة، وإنما هو: **حتّى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه،** كما ورد في الأصول المعتبرة[١].

فلو وضعناه في ميزان المعايير الفنية مشرعين ببحث أصل الحديث:

فأصل الحديث هو: «**سبعة يظلهم الله في ظلّه يوم لا ظل إلاّ ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربّه، ورجل قلبه معلّق بالمساجد، ورجلان تحابّا في الله اجتمعا عليه وتفرّقا عليه، ورجلٌ طلبته امرأةٌ ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله ﷻ، ورجلٌ تصدّق بصدقة أخاها حتّى لا تعلم شماله ماذا تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه**»[٢].

فلو نظرنا إلى مقاييس علم الدراية وجدناها تنظر إلى ترتيب الكلام كما هو مكتوب أو مروي في الأصول المعتبرة، أما لو ابتعدنا

---

(١) الرعاية في علم الدراية للشهيد الثاني ١٥٠، بتحقيق عبد الحسين محمد علي بقال ط مكتبة المرعشي قم ١٤٠٨ ه.

(٢) صحيح مسلم ٢: ٧١٥ ح ١٠٣١، مسند أحمد ٢: ٤٣٩، الخصال :٣٤٣ ح٧.

قليلاً عن هذه المعايير ووقفنا عند المعايير الفنية، وهي أسلوب النبي ﷺ في هندسة الألفاظ وتركيبها، لوجدنا أن النبي ﷺ ينسب النفقة والصدقة لليمين، فاليمين أشرف العضوين وأمتنها، فبها يزاولون الأمور، ولها أشار قوله ﷻ: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾[1].

وبها أظهر الله ﷻ قدرته كما جاء في قوله جل جلاله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾[2].

وكان ﷺ يحبّ التيامن في كل شيء، فكيف ينسب العطاء والصدقة إلى الشمال ويجعل اليمين ـ وهي الأساس ـ هي المنزوية عن مشهد الصدقة والعطاء، فمن يتذوق أساليب النبي ﷺ ولغته يرى أثر القلب في الحديث.

ولو نظرنا إلى نص الحديث ككل، لوجدنا الأثر الفني والهندسي لنظم الحديث وتأليفه، الذي اتسم به ﷺ، فالنظم والتأليف النبوي كان واضحاً فيه.

ومن المعايير الفنية التي نجدها فيه، هي أسلوب التعديد والتصنيف التي نلمسها في مجمل أحاديثه ﷺ، فالمتتبع لألفاظ الحديث يجد هذه السِمة في حديثه وأحاديث الأئمة المعصومين (ﷺ): ثلاث ... أربع ... خمس ... إلى آخر الأرقام التي دفعت الشيخ محمد بن علي بن بابويه القمي المتوفّى ٣٨١هـ إلى أن يصنّف كتاب الخصال[3] وفقاً لهذا التصنيف ؛ نظراً لكثرة الأحاديث الصحاح المنضوية تحت هذا الأسلوب.

---

(١) الإسراء ٧١.

(٢) الزمر ٦٧.

(٣) طُبع هذا الكتاب طبعات متعددة منها الطبعة التي نشرتها جماعة المدرسين في الحوزة العلمية بقم ١٤٠٣ هـ بتحقيق علي أكبر غفاري.

وقد تحدّثنا عنها فيما مضى، فقلب الحديث يعني تشعيث الألفاظ وسلبها أناقتها فيظهر خلل الترتيب فيها.

غريب الحديث وعلمه

توجد في القرآن الكريم ألفاظ اصطلح العلماء على تسميتها بالغرائب، وليس المراد بغرابتها أنها منكرة أو نافرة أو شاذّة، فإنّ القرآن منزّه من هذا جميعه، إنّما اللفظة الغريبة هاهنا هي التي تكون حسنة مستغربة في التأويل، بحيث لا يتساوى في العلم بها أهلها وسائر الناس.

وجملة ما عدّوه من ذلك في القرآن سبعمائة لفظة أو تزيد قليلاً، ومنشأ الغرابة فيما عدّوه من الغريب أن يكون ذلك من لغات متفرقة، أو تكون مستعملة على وجه من وجوه الوضع يخرجها مُخرَج الغريب، أو يكون سياق الألفاظ قد دلّ بالقرينة على معنى معيّن غير الذي يُفهم من ذات الألفاظ[١].

فكان هذا من دواعي نشوء علم غريب القرآن الذي انبرى له العلماء بالتصنيف فيه، وكان أوّل من صنّف في هذا العلم أبان بن تغلب بن رباح البكري المتوفّى ١٤١هـ[٢].

فإذا كان كلام الله ﷻ المصدر الأول لهذا التشريع حاوياً لهذا الغريب، فكيف بالمصدر الثاني للتشريع وهو الحديث النبويّ الشريف؟

---

(١) ينظر تاريخ آداب العرب للرافعي ٢: ٧١.

(٢) ينظر كشف الظنون لحاجي خليفة ٢: ١٢٠٣. وأبان هذا كان من أصحاب السجاد والباقر والصادق (عليهم السلام) ونهل من علومهم، فتخصص وعُرف بهذا العلم (ينظر رجال النجاشي ١٠ ط جماعة المدرسين قم).

وعلى الرغم من خلوّ الحديث النبويّ من اللفظ المستبشع الذي تنفر منه أذن السامع، فإنَّ ابتعاد المسلمين الزمني عنه ﷺ أوجد لهم صعوبة في فهم ألفاظه ﷺ، وكذلك دخول الإسلام جمع كثير من الأمم الأخرى كان حافزاً وموجباً لنشأة علم غريب الحديث.

وهذا العلم يبيّن ما يخفى معناه من ألفاظ الحديث النبويّ، وقد اهتم علماء المسلمين به ؛ لما يترتَّب عليه من ضبط ألفاظ الحديث وفهم معناه، إذ من العسير على المرء أن يروي ما لا يفهم، أو ينقل ما لا يحسن أداءه.

ومعرفة مفردات الحديث ومعناها هي الخطوة الأولى إلى فهم معنى الحديث واستنباط الحكم منه، وتتأكّد العناية بمعرفة غريب الحديث لمن يروي الحديث بالمعنى(١).

وإذا كان النبيّ ﷺ ناطقاً بلسان قومه ولغتهم، كما روي عنه ﷺ: **«لم يبعث الله نبيّاً إلاّ بلغة قومه»**(٢)، فَلِمَ هذا الحشد الكبير من الألفاظ الذي أطلق عليه غريب الحديث؟

ولا يخفى أن الألفاظ الغريبة ـ وخصوصاً لدى الأجيال المتعاقبة من عصر التشريع الأول ـ كانت تحملها وفود الأعراب التي تفد على النبيّ ﷺ، وهي لغة عادية يومية يتخاطبون بها دون تكلّف وتصنّع، وكان النبيّ ﷺ بصفته مبلّغاً لرسالات السماء، وعالماً بألسن العرب ولغاتها. وباعتبار كونه ﷺ قد خبر هذه البيئة وألفاظها، فلا يجد

---

(١) أصول الحديث للدكتور محمد عجّاج الخطيب ٢٨٠ الفصل الرابع، علم غريب الحديث.

(٢) مسند أحمد بن حنبل ٥ : ١٥٨، مجمع الزوائد ٧ : ٤٣. وقد أشار القرآن الكريم أيضاً إلى هذه الحقيقة بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (إبراهيم ٤).

غضاضة من التفاعل مع هذه الوفود لتوصيل الرسالة الإسلامية لها فكان يوظفها في مجمل أحاديثه.

ومن عرف البوادي والفيافي وشافه الأعراب وسمع ألفاظهم، يجد من الضرورة بمكان أن يكون جواب كلامهم بنفس المستوى اللغوي من الفصاحة؛ للتأثير في عقولهم ونفوسهم، وهذا ما كان ملحوظاً في إجاباته ﷺ لهذه الوفود.

ومن ذلك حديث طَهْفة بن أبي زهير النَّهديّ، وذاك أنّه لما قَدِمت وفود العرب على النبيّ ﷺ قام طَهْفة بن أبي زهير، فقال: أتيناك يا رسول الله من غَوْرَي[١] تِهامة على أكوار المَيْس[٢]، ترتمي بنا العِيس[٣]، نستحلب الصّبير[٤]، ونستجلب الخبير[٥]، ونَسْتَعضِد البرير[٦]، ونستخيل الرِّهام[٧]، ونستحيل الجهام[٨]، في أرض غائلة النطاء[٩]، غليظة الوطاء، قد نشفَ المُدْهُن[١٠]، ويَبِس

---

(١) قيل: الغور تهامة وما يلي اليمن. قال الأصمعي ما بين ذات عرق إلى البحر غور وتهامة، وقال الباهلي: كلّ ما انحدر مسيله فهو غور. اللسان (غور).

(٢) الأكوار: جمع كُور بالضم، وهو رحل الناقة بأداته، وهو كالسرج وآلته للفرس. والميس: شجر تُعمل منه الرحال وهو شجر صلب. اللسان (كور) و (ميس).

(٣) العيس: هي الإبل البيض مع شقرة يسيرة واحدها أعيس وعَيساء. اللسان (عيس).

(٤) الصّبير: السحاب الأبيض الذي يصير بعضه فوق بعض درجاً، وقيل: الصّبير السحاب يثبت يوماً وليلة ولا يبرح كأنه يُصبر، أي يحبس. اللسان (صبر).

(٥) الخبير: النبات، وفي خبر (نستخلب) بالخاء بدل الجيم، أي نقطع النبات والعشب ونأكله. اللسان (خبر).

(٦) العضد: القطع. (العين ١ : ٢٨٣). والبرير: ثمر الأراك عامة. اللسان (برر).

(٧) الرهام: جمع رِهمة وهو المطر الضعيف الدائم. اللسان (رهم).

(٨) الجهام: السحاب الذي لا ماء فيه. اللسان (جهم). واستحال الجَهام: أي نظر إليه هل يحول أي يتحرّك. واستخلت الرّهام، اذا نظرت إليها فخلتها ماطرة. اللسان (خيل).

(٩) النطاء: البعد، وبلد نَطيّ: بعيد. اللسان (نطا).

(١٠) المدهن: نقرة في الجبل يستنقع فيها الماء ويجتمع فيها المطر. اللسان (دهن).

الجعثِن[(١)]، وسقط الأُملوج[(٢)]، وهلك الهَدِيُّ[(٣)]، وفادَ[(٤)] الوديّ[(٥)].

برئنا إليك يا رسول الله من الوثن والعَنَن[(٦)]، وما يُحدث الزمن، لنا دعوة السلام، وشريعة الإسلام، ما طَمَى البحر[(٧)] وقام تِعارٌ، ولنا نَعَمٌ هَمَلٌ[(٨)]، أغفالٌ[(٩)] ما تبضّ ببلال[(١٠)]، ووقير[(١١)] كثير الرَّسَلِ قليل الرِّسْل.

أصابتنا سُنيّة[(١٢)] حمراء مؤزِلة[(١٣)]، ليس لها عَل[(١٤)] ولا نَهَل.

---

(١) الجعثِن: هو أصل النبات، ويقال لأصول الشوك جعثن. اللسان (جعثن).

(٢) الأُملوج: نوى المقل، وقيل الأملوج ورق من أوراق الشجر كالعيدان، والأملوج الغصن الناعم وقيل ضرب من النبات ورقه كالعيدان. اللسان (ملج).

(٣) الهديّ: ما يُهدى إلى مكة.

(٤) الفَود: الموت، فاد يفود فوداً: مات. اللسان (فود).

(٥) الوديّ: فسيل النخل وصغاره واحدتها وديّة. اللسان (ودي).

(٦) العثن: الصنم الصغير، والوثن: الصنم الكبير، والجمع الأعثان والأوثان. اللسان (عثن).

(٧) طما البحر: أي ارتفع وعلا موجه. اللسان (طما). وتعار: اسم جبل.

(٨) نعم همل: أي مهملة لا رعاء لها ولا فيها من يُصلحها ويهديها فهي كالضالّة. اللسان (همل).

(٩) نعم أغفال: لا لِقحة فيها ولا نجيب، وقال شمر: إبل أغفال، لا سمات عليها. اللسان (غفل).

(١٠) ما تبض ببلال، أي ما يقطر منها لبن، وبضّ الشيء: سال. اللسان (بضض).

(١١) الوقير: الغنم، وقيل الغنم والكلاب والرعاء. اللسان (وقر). والمراد كثير الرسَل أنها كثيرة الإرسال في المرعى، أو أراد أنها قطيع بعد قطيع، والرِّسْل بكسر الراء: اللبن، وأراد أنها كثيرة العدد قليلة اللبن، فهي فَعَل بمعنى مُفعَل أي أرسلها فهي مرسلة. اللسان (رسل).

(١٢) سنية: تصغير سنة، والسَّنة الجدب ،وهي من الأسماء الغالبة، نحو الدابة في الفرس، والمال في الإبل. الفائق في غريب الحديث ٢: ٢٠١. وسنة حمراء: شديدة الجدب، لأنّ آفاق السماء تحمّر في سني الجدب والقحط. اللسان (حمر).

(١٣) مؤزلة من الأزل: الضيق والشدّة، ومؤزلة آتية بالأزل، ويروى مؤزّلة بالتشديد على التكثير. اللسان (أزل).

(١٤) العل والعلل: الشربة الثانية، وقيل الشرب بعد الشرب تباعاً. اللسان (علل). والنهل: أوّل الشرب. اللسان (نهل).

فقال رسول الله ﷺ: «اللهم بارك لهم في مَحْضِها[١]، ومَخْضِها[٢] ومَذْقِها[٣] وفِرْقِها [٤]، وابعث رَاعِيها في الدَّثْر[٥] بيانِع الثمر، وافجر له الثَّمَد [٦]، وبارك له في المال والولد.

من أقام الصلاة كان مسلماً، ومن آتى الزكاة كان مُحسِناً، ومن شهد أن لا إله إلاّ الله كان مخلصاً، لكم يا بني نهد ودائع[٧] الشرك، ووضائِع[٨] المِلك، لا تُلطط[٩] في الزكاة، ولا تُلحِد[١٠] في الحياة،

---

(١) المحض: اللبن الخالص بلا رغوة ولم يخالطه ماء، ومحض الرجل وأمحضه: سقاه لبناً محضاً لا ماء فيه. اللسان (محض).

(٢) الإمخاض: ما اجتمع من اللبن في المرعى حتّى صار وقر بعير، والمخض تحريك الممخض الذي فيه اللبن المخيض الذي أُخذت زُبدته. اللسان (مخض).

(٣) المذق: اللبن الممزوج بالماء. اللسان (مذق).

(٤) الفِرق: القطيع من الغنم والبقر والظباء العظيم. اللسان (فرق).

(٥) الدَّثر بالفتح: المال الكثير لايُثنى ولا يجمع، وقيل هو الكثير من كلّ شيء. اللسان (دثر).

(٦) الثمد: الماء القليل، وأراد افجره لهم حتّى يصير كثيراً. اللسان (ثمد).

(٧) الموادعة والتوادع: شبه المصالحة والتصالح، والوديع: العهد، قيل يحتمل أن يريدوا بها ماكانوا استودعوه من أموال الكفار الذين لم يدخلوا الإسلام، أراد إحلالها لهم لأنه مال كافر قُدر عليه من غير عهد ولا شرط. اللسان (ودع).

(٨) الوضائع: جمع وضيعة وهي الوظيفة التي تكون على المِلك، وهي ما يلزم الناس في أموالهم من الصدقة والزكاة، أي لكم الوظائف التي تلزم المسلمين لا تتجاوزها معكم ولا نزيد عليكم فيها شيئاً، وقيل معناه ما كان ملوك الجاهلية يوظّفون على رعيتهم ويستأثرون به في الحروب وغيرها من المغنم، أي لا نأخذ منكم ما كان ملوككم وظفوه عليكم بل هو لكم. اللسان (وظف).

(٩) لا تُلطط في الزكاة: أي لا تمنعها، وروي لا يُلْطَط، ورواه الزمخشري: لا نُلطط ولا نُلحد. ولَطَّ الغريم بالحق، وألطّ: دافع ومنع. اللسان (لطط). وفي رواية ابن الأثير: لا تَلطط ولا تَلحد.

(١٠) الإلحاد: الميل عن القصد وأراد ﷺ لا يجري منكم ميل عن الحق ما دمتم أحياء. اللسان (لحد).

ولا تتثاقل من الصلاة»[١].

وكتب معه كتاباً إلى بني نهدٍ:

«من محمد رسول الله ﷺ إلى بني نهدٍ:

السلام على من آمن بالله ورسوله، لكم يا بني نهدٍ في الوظيفة الفريضة[٢] ولكم الفارض والفريش[٣] وذو العنان الرّكوب [٤]، والفلوّ[٥] الضبيس، لا يُمنع سَرْحُكُم [٦]، و لا يُعضَد طَلْحُكُم [٧]، ولا يُحبس درّكم [٨]، ولا يُؤكل أكلكم، ما لم تُضمروا

---

(١) المثل السائر ١: ١٧٨، الفايق في غريب الحديث ٢: ٣٢٩ ـ٣٣٠.

(٢) يعني هي لكم لا تُؤخذ منكم في الزكاة. ويروى: عليكم في الوظيفة الفريضة، أي في كلّ نصاب ما فرض فيه. والفريضة: الهرمة المسنّة، وهي الفارض أيضاً. اللسان (فرض). وروي: لكم في الوظيفة الفريضة ولكم العارض.

(٣) الفريش من الحافر: التي عليها من نتاجها سبعة أيام واستحقّت أن تُضرب، وهو على التشبيه بالفريش من النساء والجمع فرائش.

وفرش الإبل وغيرها: صغارها، الواحد والجمع في ذلك سواء. وفي حديث آخر: «لكم العارض والفريش». والعارض: المريضة. وقيل: هي التي أصابها كسر. اللسان (فرش) و(عرض).

(٤) ذو العِنان الرّكوب: يريد الفرس الذلول، نسبه إلى العنان والركوب؛ لأنّه يُلجم ويُركب. والعِنان: سير اللجام. اللسان (عنن).

(٥) الفَلُوّ والفُلُوّ والفِلْوّ: الجَحْش والمُهْر إذا فطم. والضبيس: أي العسر الذي لم يُرَضْ. اللسان (فلا) و (ضبس).

(٦) السَّرْح والسارحة والسارح سواء: الماشية. ويقال: سرحتُ الماشية، أي أخرجتها بالغَداة إلى المرعى. وسرح المال نفسه، إذا رعى بالغداة إلى الضحى. اللسان (سرح).

(٧) يُعضد: يقطع. والطَّلح: شجرة طويلة لهاظلّ يستظلّ بها الناس والإبل، ورقها قليل، ولها أغصان طوال عظام تنادي السماء من طولها. اللسان (طلح).

(٨) الدرُّ: اللبن ما كان. ودرّكم، أي ذوات الدرّ، أراد أنّها لا تُحشر إلى المُصَدّق، ولا تُحبس عن المرعى إلى أن تجتمع الماشية ثم تُعدّ لما في ذلك من الإضرار بها. اللسان (درر).

الإماق[١]، وتأكلوا الرِّباق[٢]، من أقرّ بما في هذا الكتاب فله من رسول الله الوفاء بالعهد والذمّة، ومن أبى فعليه الرِّبوة[٣]».

وهذا اللفظ الذي عُني به العلماء منذ عصور بدراسته وبيان معانيه هو غريب لعصر وزمان ما بعد النبوة[٤]، أمّا لعصر النبيّ ﷺ

---

(١) الإمآق: نكث العهد من الأنفة. وترك الهمز من الإمآق ليوازن به الرماق. يقول: لكم الوفاء بما كتبت لكم ما لم تأتوا بالمأقة فتغدروا وتنكثوا وتقطعوا رباق العهد الذي في أعناقكم. وقيل: يعني الغيظ والبكاء ممّا يلزمكم من الصدقة فأطلقه على النكث والغدر، لأنهما من نتائج الأنفة والحميَّة أن تسمعوا وتطيعوا، وقال الزمخشري: وأوجه من هذا أن يكون الإمآق مصدر أماق، وهو أفعل من الموقِ بمعنى الحمق،. والمراد إضمار الكفر والعمل على ترك الاستبصار في دين الله تعالى. اللسان (مأق).

(٢) والرِّبقة والرَّبقة والرِّبق: الحبل والحَلْقة تُشدّ بها الغنم الصغار لئلاّ ترضع والجمع أرباق ورِباق وربَق. وشبّه ﷺ ما يلزم الأعناق من العهد بالرباق واستعار الأكل لنقض العهد، فإنّ البهيمة إذا أكلت الربق خلصت من الشدّ. اللسان (ربق).

(٣) أي من تقاعد عن أداء الزكاة فعليه الزيادة في الفريضة الواجبة عليه كالعقوبة له، ويُروى: من أقرَّ بالجزية فعليه الربوة، أي من امتنع عن الإسلام لأجل الزكاة كان عليه من الجزية أكثر ممّا يجب عليه بالزكاة. اللسان (ربا).

(٤) إن مفهوم الغريب يختلف حسب العصور والأزمنة، فليس غرابته عائدة إلى نفس اللفظ، وإنّما متلقُّو هذه النصوص يشعرون بغرابة هذا الكلام وعدم إدراكهم لمعانيه، وقد حكى الأصمعي قال: خرج صالح بن عبد الرحمن يسير بين الحيرة والكوفة، فإذا هو براكبٍ فقال: ممّن أنت؟ فقال: من بني سعد. فمَن أنت؟ فإني أرى بزّة ظاهرة وجلدة حسنة. فقال بعض أصحاب صالح: أتقول هذا للأمير؟ فقال صالح: دعوه فلم يقل إلاّ خيراً، ثم استخبره عن المطر فقال:

أقبلت حتّى إذا كنت بين هذا الحَزن والسهل، وفي كُفّة النخل، رأيت خريجاً من السحاب مُنْكفِت الأعالي، لاحقَ التوالي، فهو غادٍ عليك أو سارٍ، يُسيْل السُّلاّن، ويُروي الغدران.

وروى أبو حاتم عن العتبيّ قال: حدّثني أبي قال: خرج الحجّاج إلى ظهرنا هذا، فلقيَ أعراباً قد انحدروا للميرة فقال: كيف تركتم السماء وراءكم؟ فقال متكلّمهم: أصابتنا سماءٌ بالمثل مثل القوائم، حيث انقطع الرِّمث بضرب فيه تقتير، وهو على ذلك يُعْضِد ويُبْرِسْغ، ثم أصابتنا سماءٌ أُميْثل منها تسيل الدِّماث والتَّلعة الزهيدة، فلما كنا جِذاء الحفر أصابنا ضِرسٌ جَودٌ ملأ الإخاذ. =

ومخاطبيه فليس غريباً، إلاّ أنّ ذلك لا يمنع من حصول جهل لدى صحابته وأهل عصره في بعض هذه المفردات، وقد بان جهلهم واضحاً بسؤالهم عن معنى هذه المفردات، وهذا أمر طبيعي ومألوف، فليس كلّ إنسان مهما كان علمه وثقافته أن يحيط بمعجم لغة عصره المتداول، وأن يقف على مدلول هذا اللفظ ومغزاه.

وليس بمقدور الإنسان أيضاً أن يجد إجابة حاضرة في ذهنه عن معنى المفردة ضمن سياقها اللغوي، في قصد واضعها لها من المجاز والنقل، فهذا يتطلّب ثقافة ومعرفة بتأليف الكلام ونظمه، وأسرار الألفاظ، أمّا أن يكون اللفظ لذاته منه ﷺ غريباً فليس من ذلك المعنى المراد به الغريب.

معنى الغريب اللغوي والاصطلاحي

وإذا رجعنا إلى معنى الغريب اللغوي وجدنا أنَّ الأصل اللغوي يفيد الابتعاد والعلو، من ذلك قولهم لأعلى الظهر والسنام: الغارب.

ويُقال: غربت الشمس تغرُب غروباً، ومُغَيرباناً: غابت في المغرب، وكذلك غَرَب النجم، وغرَّب.

والمغرِّب: الذي يأخذ في ناحية المغرب.

وغرَّب القوم: ذهبوا في المغرِب، وأغربوا: أتوا المغرب، وتغرَّب: أتي من قبل الغرب، والخبر المُغرِب: الذي جاء غريباً حادثاً طريفاً.

= فأقبل الحجّاج على زياد بن عمر العتكيّ فقال: ما يقول هذا الأعرابي؟ فقال: وما أنا وما يقول؟ إنّما أنا صاحب رمحٍ وسيف، فقال: بل أنت صاحب مجذاف وقَلْس، اسبح، فجعل يفحص الثرى، ويقول: لقد رأيتني، وإنّ المُصْعَب ليُعطيني مائة ألف، وهاأنا ذا أسبح بين يدي الحجاج.

(وصف المطر والسحاب لابن دريد ٦٣ و ٧٠).

والغَرب: الذهاب والتنحي عن الناس، وقد غَرَب عنّا يُغرب غَرباً، وغرَّب وأغرَب وغَرّبه، وأغربه: نحّاه.

وفي الحديث: (أن النبيّ ﷺ أمر بتغريب الزاني سنة إذا لم يُحصَن)، وهو نفيه عن بلده.

ورجل غُرُب، وغريب: بعيد عن وطنه، والغَرْبَة والغَرب: النَّوى والبُعد، وقد تغرَّب.

ويقال: غرَّب في الأرض وأغرَب، إذا أمعن فيها.

وأغرب القوم: انتووا، وشأوٌ مُغَرِّبٌ ومُغَرَّب، بفتح الراء: بعيد.

قال الكميت:

عَهدَك من أُولى الشبيبة تَطلُبُ   على دُبرٍ، هيهات شأوٌ مُغَرِّبٌ

وقالوا: هل أطرقتنا من مُغَرِّبة خبرٍ؟ أي هل من خبر جاء من بعيد، يعني الخبر الذي يطرأ عليك من بلدٍ سوى بلدك.

والغريب: الغامض من الكلام(١).

وقيل لكلّ متباعد غريب، وسُمّي الدَّلْو غَرْباً لتصوّر بعدها في البئر، والغُراب سُمّي لكونه مُبعداً في الذهاب. والغَرْب: الذهب ؛ لكونه غريباً فيما بين الجواهر الأرضية. وقيل لكلّ شيء فيما بين جنسه عديم النظر: غريب، وعلى هذا قوله ﷺ: «**بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً**»(٢).

---

(١) لسان العرب ١: ٦٨٣ (غرب).

(٢) المفردات للراغب الأصفهاني :٣٥٨ (غرب)، عوالي اللآلي ١: ٣٢ ح١٢، سنن ابن ماجة ٢: ١٣٢٠ ح٣٩٨٦.

وهذا الكلام من محاسن الاستعارات وبدائع المجازات، لأنّه (عليه الصلاة والسلام) جعل الإسلام غريباً في أوّل أمره تشبيهاً بالرجل الغريب الذي قلّ أنصاره وبَعُدت دياره، لأنّ الإسلام كان على هذه الصّفة في أوّل ظهوره، ثم استقرّت قواعده، واشتدَّت معاقِده، وكثر أعوانه، وضَرَب جِرَانه.

وقوله (عليه الصلاة والسلام): **وسيعود غريباً**. أي يعود إلى مثل الحال الأولى في قلّة العاملين بشرائعه والقائمين بوظائفه، لا أنّه ـ والعياذ بالله ـ تَمّحِي سماتُه، وتَدْرس آياته[(١)].

وقد ذهب ضياء الدين ابن الأثير إلى أنَّ الغريب داخل ضمن الوحشي فقال:

وقد خفي الوحشي على جماعة من المنتمين إلى صناعة النظم والنثر وظنّوه المستقبح من الألفاظ، وليس كذلك، بل الوحشي ينقسم إلى قسمين:

أحدهما غريب حسن، والآخر غريب قبيح، وذلك أنه منسوب إلى اسم الوحشي الذي يسكن القفار، وليس بأنيس، وكذلك الألفاظ التي لم تكن مأنوسة الاستعمال.

وليس من شرط الوحشي أن يكون مستقبحاً، بل أن يكون نافراً لا يألف الإنس، فتارة يكون حسناً وتارة يكون قبيحاً، وعلى هذا فإنّ أحد قسمي الوحشي وهو الغريب الحسَن، يختلف باختلاف النسب والإضافات، وأمّا القسم الآخر من الوحشي الذي هو قبيح، فإنّ الناس في استقباحه سواء ،ولا يختلف فيه عربي بادٍ، ولا قرويّ متحضّر.

---

(١) المجازات النبوية :٢٦ رقم ١٥.

وأحسن الألفاظ ما كان مألوفاً متداولاً ؛ لأنّه لم يكن مألوفاً متداولاً إلاّ لِمكان حسنه، فإنّ أرباب الخطابة والشعر نظروا إلى الألفاظ ونقبّوا عنها، ثم عدلوا إلى الأحسن منها فاستعملوه، وتركوا ما سواه، وهو أيضاً يتفاوت في درجات حسنه.

فالألفاظ إذن تنقسم ثلاثة أقسام: قسمان حسنان، وقسمٌ قبيح.

فالقسمان الحسنان: أحدهما ما تداول استعماله الأول والآخر من الزمن القديم إلى زماننا هذا، ولا يُطلق عليه أنه وحشيّ.

والآخر ما تداول استعماله الأول دون الآخر، ويختلف في استعماله بالنسبة إلى الزمن وأهله، وهذا هو الذي لا يُعاب استعماله عند العرب ؛ لأنّه لم يكن عندهم وحشياً، وهو عندنا وحشيّ.

وقد تضمّن القرآن الكريم منه كلمات متعددة، وهي التي يُطلق عليها (غريب القرآن)، وكذلك تضمّن الحديث النبويّ منه شيئاً، وهو الذي يُطلق عليه (غريب الحديث).

ويتابع ابن الأثير ليقول: وحضر عندي في بعض الأيام رجل مُتَفَلْسِفٌ فجرى ذكر القرآن الكريم، فأخذت في وصفه وذِكر ما اشتملت عليه ألفاظه ومعانيه من الفصاحة والبلاغة.

فقال ذلك الرجل: وأيّ فصاحة هناك، وهو يقول: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾[1] **فهل في لفظة ضيزى من الحُسن ما يُوصف؟**

فقلت له: اعلم أنَّ لاستعمال الألفاظ أسراراً لم تقف عليها أنت ولا أئمتك، مثل ابن سينا والفارابي، ولا من أضلّهم مثل أرسطو طاليس وأفلاطون، وهذه اللفظة التي أنكرتها في القرآن وهي لفظة

---

(١) النجم: ٢٢.

﴿ضِيزَىٰٓ﴾ فإنّها في موضعها لا يسدّ غيرها مسدّها، ألا ترى أنَّ السورة كلّها التي هي سورة النجم مسجوعة على حرف الياء؟، فقال تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾ (١)فجاءت اللفظة على الحرف المسجوع الذي جاءت به السورة جميعها عليه، وغيرها لا يسدّ مسدّها في مكانها.

ويتابع ابن الأثير: وإذا نظرنا إلى كتاب الله تعالى ـ الذي هو أفصح الكلام ـ وجدناه سهلاً سلساً، وما تضمنّه من الكلمات الغريبة يسير جداً، هذا وقد أنزل في زمن العرب العرباء، وألفاظه كلّها من أسهل الألفاظ وأقربها استعمالاً، وكفى به قُدوة في هذا الباب.

وباعتبار أنَّ جواهر كلامه ﷺ ليس لها نظير في التأليف، وباعتبار البعد عن الفهم(٢) وعدم وضوح النصوص لمتلقيّ الحديث أُطلق اصطلاح ((غريب الحديث)) الذي صار فيما بعد علماً مستقلاً له علماؤه ومؤلّفوه الذين عُرف بهم، وصارت مؤلفاته ومؤلّفوه من معالم هذا العلم.

وهذه المصنّفات من مفاخر التأليف، وقد استغرق تأليف بعضها أربعين عامّا(٣) وهو جهد عظيم، ولكنّه ظل دون إدراك فصاحته

---

(١) النجم: ١ ـ ٢.

(٢) قال الخطّابي: والغريب من الكلام يقال به على وجهين، أحدهما أن يراد به بعيد المعنى غامضه، لا يتناوله الفهم إلاّ عن بعد ومعاناة فكر، والوجه الآخر: أن يراد به كلام من بعدت به الدار ونأى به المحل من شواذ قبائل العرب، فإذا وقعت إلينا الكلمة من لغاتهم استغربناها، وإنّما هي كلام القوم وبيانهم، وعلى هذا ما جاء عن بعضهم، وقال له قائل: أسألك عن حرف من الغريب، فقال: هو كلام القوم، وإنّما الغريب أنت وأمثالك من الدخلاء فيه. (مقدمة غريب الحديث ١: ٧٠ ط دار الفكر دمشق).

(٣) ينظر مقدمة غريب الحديث للهروي ١: ٥.

وبلاغته ﷺ، وظلّت كتب الغريب تنتظر من يكمل هذا الجهد وما زالت.

وقد حفظ تاريخ هذا العلم لنا أسماء الأعلام الذين صنّفوا في هذا العلم ومنهم:

١) النضر بن شُميل المتوفّى سنة ٢٠٣ هـ.

٢) محمد بن المستنير قطرب المتوفّى سنة ٢٠٦ هـ.

٣) أبو عمرو الشيباني إسحاق بن مرار المتوفّى سنة ٢١٠ هـ.

٤) أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي المتوفّى سنة ٢١٠هـ. واعتُبر هذا أول من صنّف في علم غريب الحديث[١].

٥) أبو زيد سعيد بن أوس بن ثابت المتوفّى سنة ٢١٥ هـ.

٦) عبد الملك بن قُريب الأصمعي المتوفّى سنة ٢١٦ هـ.

٧) الحسن بن محبوب السرّاد المتوفّى سنة ٢٢٤ هـ[٢].

٨) أبو عبيد القاسم بن سلاّم الهروي المتوفّى سنة ٢٢٤ هـ[٣].

٩) ابن الأعرابي محمد بن زياد المتوفّى سنة ٢٣١ هـ.

١٠) عمرو بن أبي عمرو الشيباني المتوفّى سنة ٢٣١ هـ.

١١) عليّ بن المغيرة الأثرم المتوفّى سنة ٢٣٢ هـ.

---

(١) ينظر كشف الظنون لحاجي خليفة ٢: ١٢٠٣.

(٢) كان من أصحاب الإمام الرضا ؏، وكان جليل القدر، ومن أركان الطائفة الإمامية. (ينظر فهرست الشيخ الطوسي ٩٦ رقم ٢٠٣ ط مشهد، معالم العلماء لابن شهر آشوب ٣٣ رقم ١٨٢ ط النجف).

(٣) عدّوا كتابه قدوة في التأليف، ونال استحسان العلماء، وهو بالقياس إلى بقية الكتب المؤلّفة في هذا الباب يَعدّ كتاباً متميزاً. (ينظر كشف الظنون ٢: ١٢٠٣).

١٢) أبو مروان عبد الملك بن حبيب المالكي المتوفّى سنة ٢٣٨هـ.

١٣) أبو جعفر محمد بن حبيب البغدادي النحوي المتوفّى سنة ٢٤٥ هـ.

١٤) شمر بن حمدويه الهروي المتوفّى سنة ٢٥٥ هـ.

١٥) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة المتوفّى سنة ٢٧٦ هـ.

١٦) أبو إسحق إبراهيم الحربي المتوفّى سنة ٢٨٥ هـ [١].

١٧) أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد المتوفّى سنة ٢٨٥ هـ.

١٨) محمد بن عبد السلام الخشني المتوفّى سنة ٢٨٦ هـ.

١٩) أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب المتوفّى سنة ٢٩١ هـ.

٢٠) قاسم بن ثابت بن حزم السرْقُسطي المتوفّى سنة ٣٠٢ هـ.

٢١) أبو محمد القاسم بن محمد الأنباري المتوفّى سنة ٣٠٤هـ.

٢٢) أبو موسى سليمان بن محمد بن أحمد الحامض المتوفّى سنة ٣٠٥هـ.

٢٣) أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد المتوفّى سنة ٣٢١ هـ.

٢٤) أبو بكر محمد بن القاسم المتوفّى سنة ٣٢٨ هـ.

٢٥) أبو الحسين عمر بن محمد بن القاضي المالكي المتوفّى سنة ٣٢٨هـ.

٢٦) أبو عمر محمد بن عبد الواحد الزاهد المتوفّى سنة ٣٤٥هـ.

---

(١) طبعت كتابه جامعة أم القرى بمكة.

٢٧) ابن دَرَستَويه أبو محمد عبد الله بن جعفر المتوفّى سنة ٣٤٧هـ.

٢٨) أبو سليمان الخطّابي بن حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب المتوفّى سنة ٣٨٨هـ [١].

٢٩) أبو عبيد الهروي أحمد بن محمد المتوفّى سنة ٤٠١ هـ، وكتابه يحمل عنوان كتاب الغريبين [٢].

٣٠) الشيخ العميد إبراهيم بن محمد بن إبراهيم النسوي المتوفّى سنة ٥١٩ هـ.

٣١) أبو الحسن عبد الغافر بن اسماعيل بن عبد الغافر الفارسي المتوفّى سنة ٥٢٩ هـ.

٣٢) الحافظ أبو موسى محمد بن أبي بكر المديني الأصفهاني المتوفّى سنة ٥٨١ هـ [٣].

٣٣) أبو الحسن عبد الغافر بن إسماعيل بن عبد الغافر الفارسي المتوفّى سنة ٥٢٩ هـ.

٣٤) جار الله محمود بن عمر الزمخشري المتوفّى سنة ٥٢٨هـ [٤].

---

(١) وقد نشرت جامعة أم القرى في مكة كتابه بتحقيق عبد الكريم العزباوي.

(٢) وهو جامع لغريبي القرآن والحديث ،وقد نشره المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في مصر سنة ١٣٣٠هـ، وهذا الكتاب من المصادر التي أكثر ابن الأثير في العبّ منها.

(٣) واسم كتابه (المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث) وقد نشرته جامعة أم القرى في مكة،وهو من مصادر ابن الأثير في كتابه وهو كتاب جيّد التصنيف، بذل المؤلف فيه وسعه.

(٤) وكتابه يحمل عنوان (الفائق في غريب الحديث)، وقد حققه محمد أبو الفضل =

٣٥) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي المتوفّى سنة ٥٩٧ هـ.

٣٦) ابن الحاجب أبو عمرو عثمان بن عمر المتوفّى سنة ٦٤٦هـ.

٣٧) مجد الدين بن محمد الجزري المتوفّى سنة ٦٠٦هـ [(١)].

وسعى علماء الشيعة للأخذ بحظّهم من هذا العلم في محاولات منهم لإجلاء ما غمض من حديثه ﷺ وكشف أسراره، منهم:

الشيخ محمدبن علي بن بابويه القمّي المشهور بالصدوق والمتوفّى سنة٣٨١هـ، في كتابه (معاني الأخبار)[(٢)].

وللسيد المرتضى علي بن الحسين بن موسى المتوفّى سنة ٤٣٦ هـ، إضاءات في هذا العلم بكتابه الأمالي المسمّى (الغرر والدرر)[(٣)].

ولأخيه محمد بن الحسن الرضي المتوفّى سنة ٤٠٦ هـ، اختيارات من غريب كلامه ﷺ الموشّح بلغة المجاز الرفيع، اقتطع نصوصاً من رياض كلامه ﷺ، وأوقد شموع البيان بينها فتلألأت

= إبراهيم وعلي محمد البجاوي، ونشرته دار المعرفة في بيروت، وهذا الكتاب له أهمية كبيرة بعد كتاب النهاية لابن الأثير، فيه يتجلّى براعة الزمخشري وقدرته اللغوية في فهم النصوص وبسط الشرح فيها، وقد استند ابن الأثير في مواطن من كتابه على هذا الكتاب.

(١) وكتابه يحمل عنوان (النهاية في غريب الحديث والأثر)، وحققه طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، وله طبعات متعددة ويُعتبر من أهم الكتب وأجمعها وأحسنها وأبسطها.

(٢) ولهذا الكتاب طبعات متعددة ،وأشهر هذه الطبعات طبعة جماعة المدرسين في الحوزة العلمية بقم المقدسة، وبتحقيق علي أكبر غفاري.

(٣) والكتاب له طبعات متعددة، من بين هذه الطبعات طبعة الأوفسيت التي نشرتها مكتبة آية الله المرعشي النجفي ١٤٠٣ هـ..

روائع الدرّ المصون بين منثور بيانه[١].

وجاءت كتب أخرى لتلج في هذا الميدان، منها: كتاب (روضة المتّقين) للمولى محمد تقي المجلسي المتوفّى سنة ١٠٧٠ هـ.

والشيخ محمد باقر المجلسي المتوفّى سنة ١١١١هـ في (كتاب مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول)، وكتابه الآخر (ملاذ الأخيار في فهم تهذيب الأخبار).

وأسهم الشيخ فخر الدين الطريحي[٢] المتوفّى سنة ١٠٨٥هـ، في كتاب (مجمع البحرين ومطلع النيرين) مساهمة عظيمة مع بقية العلماء الذين خاضوا في غريب هذا العلم، وما زال كتابه مرجع العلماء والواردين لهذا العلم.

وللملا محسن فيض الكاشاني المتوفّى سنة ١٠٩١هـ، في كتاب (الوافي) مساعٍ مشكورة في هذا العلم.

ولغير هؤلاء المذكورين، جهود مشكورة جاءت في كتب فقهاء الشيعة العِظام الذين كان لهم شروح مبسوطة لألفاظ الحديث.

وما زالت حركة التأليف حتّى عصرنا الحاضر في هذا الميدان جارية، تنتظر المكتبة الحديثية جهودهم لتدخل رصيدها العلمي.

---

(١) وحقق هذا الكتاب الدكتور محمد رضوان الداية ومروان العطية ونشر في دمشق ١٤٠٨ هـ وقد حقق الكتاب أيضاً وشرح غريبه الاستاذ طه عبد الرؤوف سعد ونشر في مصر ١٣٩١ هـ

(٢) وهذا المؤلف (رحمه الله) كان له ذوق رفيع وبصيرة عالية في الوقوف على أسرار الفصاحة التي حملتها نصوص النبيّ ﷺ ومن بعده أهل بيته (عليهم السلام)، وقد حقق كتابه السيد أحمد الحسيني، وأعادت ترتيبه وتنسيقه مؤسسة البعثة في قم المقدسة.

الحديث والألفاظ المعرّبة

إنَّ بعد قريش عن بلاد العجم، من جميع جهاتها، لم يحُل دون تسرّب بعض الألفاظ الفارسية والرومية إليها.

والعربية ليست بدعاً من اللغات الإنسانية، فهي جميعاً تتبادل التأثّر والتأثير، وهي جميعاً تقرض غيرها وتقترض.

وممّا يصدق على العربية من تبادل التأثير بين لهجاتها، لابدّ أن يصدق على العربية فيما اضطرّت إلى إدخاله في ثروتها من لغات الأمم المجاورة لها، أو التي كان معها ضرب من الاتصال، ولم يكن ما أدخلته من هذه الألفاظ الأجنبية قليلاً ؛ لأنها عرّبت منه الكثير قبل الإسلام، حتّى رأيناه في الشعر الجاهلي (١)، وقرأناه في سور القرآن واستخرجناه من بعض الحديث النبويّ(٢).

وقد اختلف العلماء في تفسير الألفاظ المعرّبة في القرآن على مذهبين:

المذهب الأول: مذهب الجمهور، وعلى رأسهم القاضي أبو بكر بن الطيّب وابن جرير الطبري والباقلاني، وغيرهم من العلماء، على أنَّ القرآن عربيّ كلّه، وليس فيه ألفاظ أو مفردات من غير كلام العرب، وما وجد فيه من الألفاظ التي تنسب إلى سائر اللغات، فإنّما اتفق فيها أن تواردت اللغات عليها، فتكلّمت بها العرب والفرس والحبشة وغيرهم.

---

(١) قال الأعشى:

وهرقلاً يوم ساتيدمي من بني بُرجان في البأس رجح

فتجد ثلاث مفردات أعجمية في هذا البيت، وهذا يدل على وفرة هذه الألفاظ وتداولها في لغة الشعر الجاهلي التي هي لغة الثقافة قبل الإسلام. (الأعشى حياته وشعره ٢٤ ط دار دمشق).

(٢) دراسات في فقه اللغة للصالح: ٣١٤.

المذهب الثاني: مذهب طائفة من العلماء، قالوا: إنَّ في القرآن بعض ألفاظ ليست عربية، وأنَّ تلك الألفاظ لقلّتها، لا تخرج القرآن عن كونه عربياً مبيناً[١].

ومهما قيل من نظريات وتفسيرات في هذه الألفاظ التي تسربت إلى لغة وحي السماء، فإنّها إنّما وردت في القرآن ؛ لأنه لا يسدّ مسدّها إلاّ أن توضع لمعانيها ألفاظ جديدة على طريقة الوضع الأول، فيكون قد خاطب العرب بما لم يوقفهم عليه، وما لا يدركون بفطرتهم اللغوية وجه التصرف فيه ،وليس ذلك ممّا يستقيم به أمر، ولا هو عند العرب من معاني الإعجاز في شيء ؛ لأنَّ الوضع يعجز أهله، وهم كانوا أهل لغة.

ولذا قال العلماء في تلك الألفاظ المعربة التي اختلطت بالقرآن: إنَّ بلاغتها في نفسها، أنّه لا يوجد غيرها يُغني عنها في مواقعها من نظم الآيات، لا إفراداً ولا تركيباً[٢].

وقد يُراد بهذا في نصوص الحديث، فإنّ النبيّ ﷺ أعرف بنظم الكلام وأسراره وما تناثر من درر حديثه باللفظ الأعجمي بيانه أكثر من عربيّه.

وقد رأى بعضهم أنّه قد وقع في القرآن من غير لسان العرب أكثر من مائة[٣] كلمة ترجع إلى لغات الفرس والروم والنبط والحبشة والعبران والسريان والقبط، كالجبت والاستبرق والسندس والقسطاس والزنجبيل، وقد صقلها العرب على لسانهم وأجروها على أوزانهم فصارت بذلك عربية[٤].

---

(١) التبيان في علوم القرآن للصابوني ٢٠٨.

(٢) تاريخ آداب العرب للرافعي ٢ : ٧٢.

(٣) اختلفوا في تعداد هذه الألفاظ، فمنهم من ذهب إلى أكثر من هذا بكثير.

(٤) تاريخ الأدب العربي للزيات ٦٩.

فالطور: جبل بالسريانية، والقسط والقسطاس: العدل بالرومية، والسجلّ: الكتاب بالفارسية، والرقيم: اللوح بالرومية، والسندس: الرقيق من الستر بالهندية، والاستبرق: الغليظ بالفارسية بدون القاف، والسري: النهر الصغير باليونانية، وسينين: الحسن بالنبطية، والمشكاة: الكوّة بالحبشية، واليم: البحر بالقبطية، والأبّ: الحشيش بلغة أهل المغرب، والقسورة: الأسد بلغة أهل الحبشة(١).

وقد طوّع النبيّ ﷺ بعض هذه الألفاظ وذلّلها في نسيج حديثه ﷺ، ومن ذلك وصفه للجنّة بقوله: «**وأنهار من عسلٍ مصفّى من موم العسل**»، والموم: الشمع وهو معرَّب(٢).

وجاء في حديث أم خالد لمّا أُتي بثياب فيها خميصة سوداء صغيرة، فأخذ الخميصة بيده فألبسها وقال: أبْلي وأخْلقِي. ـ وكان فيها علم أخضر وأصفر ـ فقال: يا أم خالد هذا سَناه. وسَناه بالحبشية: حَسَن(٣).

وروى أبو هريرة قال: هجّر(٤) النبيّ ﷺ، فهجّرت وصلّيت ثم جلست،

فالتفت إليّ النبيّ ﷺ فقال: **أشِكَمِتْ دَرْد؟**(٥).

قلتُ: نعم يا رسول الله.

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١: ٢٨٨.
(٢) النهاية ٤: ٣٧٣ (موم).
(٣) صحيح البخاري ٧: ١٩١ ط دار إحياء التراث العربي.
(٤) هجّر القوم وأهجروا وتهجّروا: ساروا في الهاجرة. والهاجرة: نصف النهار عند زوال الشمس الى العصر. وقيل نصف النهار عند اشتداد الحرّ. اللسان (هجر).
(٥) وروي عن مجاشع بن سعيد بن عمرو عن عبد الله عن أبيه عن جدّه، قال: أتيت رسول الله ﷺ وكلّمته بالفارسية. فقال: أما إنّه من كلام الله عز وجل. المعجم الكبير للطبراني ٢٥: ٣٥٩.

قال: **قم فصلّ فإنَّ الصلاة شفاء.**

يعني: تشتكي بطنك بالفارسية(١).

وروى أبو موسى قال: سُئِل رسول الله ﷺ عن الساعة وأنا شاهد.

فقال: **لا يعلمها إلاّ الله، لا يجليها لوقتها إلاّ هو، ولكن ساحدثكم بمشاريطها وما بين أيديها، إنّ بين أيديها رَدْماً من الفتن وهَرْجاً.**

فقيل: وما الهرج يا رسول الله؟

قال: **هو بلسان الحبشة القتل**(٢).

فازدادت هذه الألفاظ الأعجمية بهاءً وجمالاً لجريانها في ثنايا فصيح كلامه، ولو نزعتها من نسيج كلامه ﷺ لفقدت جمالها وإشراقها المكتسى في سياق كلامه ﷺ.

الوصايا النبويّة

الوصيّة: هي التقدّم إلى الغير بما يعمل به مقترناً بوعظ، من قولهم: أرض واصية، متصلة النبات(٣).

وقد وصت الأرض، إذا اتصل نبتها، وربّما قالوا: تواصى النبت، إذا اتصل، وهو نبت واصل.

---

(١) سنن ابن ماجة ٢: ١١٤٤ ح ٣٤٥٨ كتاب الطب، تفسير القرطبي ١: ١٧٠. ويمكن أن نقول: إنّ استفادة الرسول ﷺ والقرآن من الكلمات غير العربية ربما يكون إشارةً على أهمية هذه الدعوة وعالميتها من جهة، ومن جهة أخرى يكون تأكيداً على أن الإسلام لا يفرّق بين بني البشر ويحترم ثقافتهم ولغاتهم.

(٢) مسند أبي يعلى الموصلي ١٣: ١٩٨ ح ٧٢٢٨، مجمع الزوائد ٧: ٣٢٤.

(٣) مفردات الراغب الأصفهاني ٥٢٥ (وصى).

ووصّيت الشيء بكذا، إذا وصّلته[١].

قال أبو عبيد: وَصَيت الشيء ووصلته سواء.

قال ذو الرمة:

وصى اللّيل بالأيام حتّى صلاتنا مُقاسَمةٌ يشتَقُّ أنصافها السَّفرُ

والوَصَى والوصيّ جميعاً: جرائد النخل التي يُحزم بها، وقيل: هي من الفسيل خاصّة، وواحدتها وصَاة ووصيّة[٢].

والوصايا شكل من أشكال المواعظ والحِكم يلقيها الشخص كخلاصة لتجاربه ورؤاه لمختلف شؤون الحياة، ولا تخلو هذه الوصايا من مسائل عبادية واعتقادية، فهي وثيقة أمان، ومنهاج عمل عبادي ودنيوي.

والأصل اللغوي للوصّية هي العهد، يقال: أوصى الرجل ووصّاه: عهد إليه[٣]

ويمكن أن نعدّ الوصيّة مجموعة أحاديث ذات أغراض متعددة.

وقد اقترنت الوصيّة في تاريخ الأدب العربي والآداب الأخرى بحالات الاحتضار والانتقال إلى الدار الآخرة، فإنّ أكثر الوصايا المهمّة المتعلّقة بمصير الأمم كان تسجيلها عند الرحيل إلى الرفيق الأعلى، في الأعم الأغلب. أمّا الوصايا السياسيّة والمنهجيّة التي وصلت إلينا فقد دوّنها التاريخ السياسي، كدستور وميثاق دولة، عُرف بها عليّ عليه السلام[٤].

---

(١) الصحاح ٦: ٢٥٢٥ (وصى).

(٢) اللسان ١٥: ٣٩٥ (وصى).

(٣) لسان العرب ١٥: ٣٩٤ (وصى).

(٤) كان العهد الذي كتبه عليه السلام لمالك الأشتر حين ولاّه مصر أكمل وأفضل نظام إداري وسياسي وحقوقي وضعه عليه السلام، وعلى ضوئه ومن هُداه كان تنظيم مرافق الدولة ومؤسساتها. ينظر هذا العهد في نهج البلاغة: ٤٢٦ كتاب ٥٣ ط الصالح.

ومن أهم هذه الوصايا التأريخية والسياسية هي الوصيّة النازلة على رسول الله ﷺ قرب ارتحاله، وهي كتاب مسجّل نزل به جبرائيل عليه السلام مع أُمناء الله ﷻ من الملائكة، فأمره بإخراج مَن عنده إلاّ وصيّه ليقبضها منه، فارتعدت مفاصل النبيّ ﷺ وقال:

يا جبرائيل ربّي هو السلام ومنه السلام وإليه يعود السلام، صَدَقَ عزَّ وجلّ وبرّ، هات الكتاب.

فدفعه إليه وأمره بدفعه إلى أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، فقال له: إقرأه. فقرأه حرفاً حرفاً [1].

فكانت الوصيّة لعليّ عليه السلام هي وصيّة ربّانية جرت على لسان النبيّ ﷺ.

وقد نقل القرآن الكريم بعض وصايا الأنبياء، في قوله ﷻ:

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[2].

وباعتبار التجانس بين الموصي والموصَى إليه، وأنَّ الموصَى له فرع الموصي قيل لعليّ عليه السلام الوصيّ باعتباره وصيّ صاحب الرسالة محمد ﷺ، والامتداد الطبيعي له، فالذي وصلنا من نصوص قالها ﷺ في حقّه عليه السلام تؤكد ذلك.

ومن هذه النصوص قوله ﷺ:

---

(١) الكافي ١: ٢٨٢ ح٤، بحار الأنوار ٢٢: ٤٧٩.
(٢) البقرة ١٣٢ ـ ١٣٣.

«يا علي أنت منّي بمنزلة هبة من آدم، وبمنزلة سام من نوح، وبمنزلة إسحاق من إبراهيم، وبمنزلة هارون من موسى، وبمنزلة شمعون من عيسى، إلاّ أنّه لا نبي بعدي.

يا علي أنت وصيّ وخليفتي، فمن جحد وصيّتك وخلافتك فليس منّي ولستُ منه، وأنا خصمه يوم القيامة»[1].

وتتصف الوصيّة بلغة علمية تقريرية متّزنة، يتوازن فيها عنصر الفكر والعاطفة، وتتخّذ الوصيّة صفة الشمول والموضوعية، وقد تتخّذ وصاياه ﷺ صفة الموسوعة العلمية والسياسية المصغّرة، ودونك هذه الوصيّة، حيث تجد نفسك أمّام دائرة معارف متنوعة تتحف القارئ بأنواع التجارب والرؤى.

وهي مجموعة وصاياه لعليّ عليه السلام، جُمعت في هذه الوصيّة منها:

«يا علي[2]**، من كظم غيظاً وهو يقدر على إمضائه أعقبه الله يوم القيامة أمناً وإيماناً يجد طعمه.**

---

(١) أمالي الصدوق: ١٠٠ ـ ١٠١ ح٤، روضة الواعظين: ١٠١ ـ ١٠٢، بحار الأنوار ٣٧: ٢٥٤ باب أخبار المنزلة.

(٢) إن الإيقاع والتكرار والتوازي لكلمة «يا علي» تشكّل عنصر إثارة ليستجيب لها المتلقّي، لكي يتفاعل مع موضوعات الوصيّة، إضافة إلى أن النبيّ ﷺ كان يستعذب هذه المفردة، إنّ النبيّ ﷺ كإنسان يتميز بعاطفة مهذّبة هذبتها رسالة السماء، يجد كلمة «يا علي» فيها راحة نفسيّة وعذوبة لفظية يشبعها حرف النداء «يا» وما يحمل هذا الحرف من معنى أدعو وأنادي وأستغيث، ويعرف المستغيث واللائذ بعليّ كم هي لذيذة كلمة «يا علي» حين ينوء بثقل وعبء المهمات والمصاعب، وليقول لنا ـ وقد قال غير مرّة ـ: ليس في الوجود أكمل وأنعم وأفضل من عليّ، فهو مفتاح الخطاب ومنتهاه، ولا يفوت القارئ اللبيب أنّ التكرار أسلوب قرآني وظّف لأغراض تأكيدية، ولبيان أهمية الموضوع المتحدّث عنه، فقوله في سورة الرحمن: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ كانت تسير بخط متوازٍ مع إيقاع السورة ومع مضامينها الفكرية، يستعذب العارف بأنعم الله عز وجل تكرارها وجريانها على اللسان.

يا علي، من لم يُحسن وصيّته عند موته كان نقصاً في مروّته، ولم يملك الشفاعة.

يا علي، أفضل الجهاد من أصبح لا يهمّ بظلم أحدٍ.

يا علي، من خاف الناس لسانه فهو من أهل النار.

يا علي، شرّ الناس من أكرمه الناس اتّقاء شرّه.

يا علي، شرّ الناس من باع آخرته بدنياه، وشرّ من ذلك من باع آخرته بدنيا غيره.

يا علي، من لم يقبل العذر من متنصّل صادقاً كان أو كاذباً لم ينل شفاعتي.

يا علي، إن الله ﷻ أحبّ الكذب في الصلاح، وأبغض الصدق في الفساد.

يا علي، من ترك الخمر لغير الله سقاه الله من الرحيق المختوم.

فقال عليّ ﵇: لغير الله؟

قال ﷺ: نعم، والله من تركها صيانةً لنفسه يشكره الله على ذلك.

يا علي، شارب الخمر كعابد وثن.

يا علي، شارب الخمر لا يَقبل الله ﷻ صلاته أربعين يوماً، فإنْ مات في الأربعين مات كافراً.

يا علي، كلّ مُسكر حرام، وما أسكر كثيره فالجرعة منه حرام.

يا علي، جُعِلت الذنوب كلّها في بيت وجُعِل مفتاحها شُرب الخمر.

يا علي، يأتي على شارب الخمر ساعة لا يعرف فيها ربّه ﷺ.

يا علي، إنَّ إزالة الجبال الرواسي أهون من إزالة مُلك مؤجّل لم تنقص أيامه.

يا علي، من لم تنتفع بدينه ودنياه فلا خير لك في مجالسته، ومن لم يوجب لك فلا توجب له ولا كرامة.

يا علي، ينبغي أن يكون في المؤمن ثمان خصال: وقار عند الهزاهز، وصبر عند البلاء، وشُكر عند الرخاء، وقنوع بما رزقه الله ﷻ، ولا يظلم الأعداء، ولا يتحامل على الأصدقاء، بدنه منه في تعب، والناس منه في راحة.

يا علي، أربعة لا تُردّ لهم دعوة: إمام عادل، ووالد لولده، والرجل يدعو لأخيه بظَهر الغيب، والمظلوم. يقول الله: ﴿وعزّتي وجلالي لأنتصرنّ لك ولو بعد حين﴾.

يا علي، ثمانية إن أُهينوا فلا يلوموا إلاّ أنفسهم: الذاهب إلى مائدة لم يُدعَ إليها، والمتأمّر على ربّ البيت، وطالب الخير من أعدائه، وطالب الفضل من اللئام، والداخل بين اثنين في سرّ لم يُدخلاه فيه، والمستخفّ بالسلطان، والجالس في مجلس ليس له بأهل، والمقبل بالحديث على من لا يسمع منه.

يا علي، حرّم الله الجنة على كلّ فاحش بذيّ لا يبالي ما قال ولا ما قيل له.

يا علي، طوبى لِمَن طال عمره وحَسُن عمله.

يا علي، لا تمزح فيذهب بهاؤك، ولا تكذب فيذهب نورك، وإيّاك وخصلتين: الضجر والكسل، فإنّك إنْ ضجرت لم تصبر على حقّ، وإن كسلت لم تؤدّ حقاً.

يا علي، لكلّ ذنب توبة إلاّ سوء الخُلُق، فإنَّ صاحبه كلّما خرج من ذنب دخل في ذنبٍ.

يا علي، أربعة أسرع شيء عقوبةً: رجلٌ أحسنت إليه فكافأك بالإحسان إساءة، ورجل لا تبغي عليه وهو يبغي عليك، ورجل عاهدته على أمرٍ فوفّيت له فغدر بك، ورجل وصل قرابته فقطعوه.

يا علي، من استولى عليه الضجر رحلت عنه الراحة.

يا علي، اثنتا عشر خصلة ينبغي للرجل المسلم أن يتعلّمها على المائدة: أربع منها فريضة، وأربع منها سنّة، وأربع منها أدب:

فأمّا الفريضة: فالمعرفة بما يأكل، والتسمية، والشكر، والرضا.

وأمّا السُنّة: فالجلوس على الرجل اليُسرى، والأكل بثلاث أصابع، وأن يأكل ممّا يمليه، ومصّ الأصابع.

وأمّا الأدب: فتصغير اللقمة، والمضغ الشديد، وقلّة النظر في وجوه الناس، وغسل اليدين.

يا علي، خلق الله الجنة من لبنتين: لبنة من ذهب، ولبنة من فضة، وجعل حيطانها الياقوت، وسقفها الزبرجد، وحصاءها اللؤلؤ، وترابها الزعفران والمسك الأذفر، ثم قال لها: تكلّمي. فقالت: لا إله إلاّ الله الحيّ القيّوم قد سَعِد من يدخلني. فقال الله جل جلاله: وعزّتي وجلالي لا يدخلها مدمن خمرٍ؛ ولا نَمّام؛ ولا ديّوث؛ ولا شرطي؛ ولا مخنّث؛ ولا نبّاش؛ ولا عشّار؛ ولا قاطع رحم؛ ولا قدري.

يا علي، كفر بالله العظيم من هذه الأمة عشرة: القتّال، والساحر، والديّوث، وناكح المرأة حراماً في دبرها، وناكح البهيمة، ومن نكح ذات محرم، والساعي في الفتنة، وبائع السلاح من أهل

الحرب، ومانع الزكاة، ومن وجد سِعة فمات ولم يحجّ.

يا علي، لا وليمة إلاّ في خمس: في عرس، أو خُرس، أو عذار، أو وكار، أو ركاز. فالعرس: التزويج، والخرس: النفاس بالولد، والعَذار: الخِتان، والوكار: في شراء الدار، والركاز: الرجل يقدم من مكّة.

يا علي، لا ينبغي للعاقل أن يكون ظاعناً إلاّ في ثلاث: مرمّة لمعاش، أو تزوّد لمعاد، أو لذّة في غير محرّم.

يا علي، ثلاثة من مكارم الأخلاق في الدنيا والآخرة: أن تعفو عمّن ظلمك، وتصل من قطعك، وتحلم عمّن جهل عليك.

يا علي، بادر بأربعٍ قبل أربعٍ: شبابك قبل هرمك ،وصحّتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وحياتك قبل موتك.

يا علي، كره الله ﷻ لأمتي العبث في الصلاة، والمنّ في الصدقة، وإتيان المساجد جُنباً، والضحك بين القبور، والتطلّع في الدور، والنظر إلى فرج النساء ؛ لأنّه يورث العمى، وكره الكلام عند الجماع ؛ لأنّه يورث الخرس، وكره النوم بين العشاءين ؛ لأنّه يحرم الرزق.

وكره الغسل تحت السماء إلاّ بمئزر، وكره دخول الأنهار إلاّ بمئزر ؛ فإنّ فيها سكّاناً من الملائكة، وكره دخول الحمام إلاّ بمئزر، وكره الكلام بين الأذان والإقامة في صلاة الغداة، وكره ركوب البحر في وقت هيجانه، وكره النوم فوق سطح ليس بمحجّر، وقال: من نام على سطح ليس غير محجّر فقد برئت منه الذمة، وكره أن ينام الرجل في بيت وحده.

وكره أن يغشي الرجل امرأته وهي حائض، فإن فعل وخرج

الولد مجذوماً أو به برص فلا يلومنّ إلاّ نفسه.

وكره أن يكلّم الرجل مجذوماً إلاّ أن يكون بينه وبينه قدر ذراع، وقال ﷺ: فر من المجذوم فرارك من الأسد.

وكره أن يأتي الرجل أهله وقد احتلم حتّى يغتسل من الاحتلام، فإن فعل ذلك وخرج الولد مجنوناً فلا يلومنّ إلاّ نفسه.

وكره البول على شطّ نهرٍ جارٍ، وكره أن يُحدِث الرجل تحت شجرة أو نخلة قد أثمرت.

وكره أن ينتعل الرجل وهو قائم، وكره أن يدخل الرجل بيتاً مظلماً إلاّ مع السراج.

يا علي، آفة الحسب الافتخار.

يا عليّ، من خاف الله ﷻ أخاف منه كلّ شيء، ومن لم يَخف الله أخافه الله من كل شيء.

يا عليّ، ثمانية لا تقبل منهم صلاة: العبد الآبق حتّى يرجع إلى مولاه، والناشزة وزوجها عليها ساخط، ومانع الزكاة، وتارك الوضوء، والجارية المدركة تصلي بغير خمار، وأمّام قومٍ يصلي بهم وهو له كارهون، والسكران، والزَّبين: وهو الذي يدافع البول والغائط.

يا عليّ، أربع من كنّ فيه بني الله له بيتاً في الجنة: من آوى اليتيم، ورحم الضعيف، وأشفق على والديه، ورفق بمملوكه.

يا عليّ، ثلاث من لقي الله ﷻ بهنّ فهو من أفضل الناس: من أوفى الله بما افترض عليه فهو من أعبد الناس، ومن ورع عن محارم الله فهو من أورع الناس، ومن قنع بما رزقه الله فهو من أغنى الناس.

يا عليّ، ثلاث لا يطيقها أحد من هذه الأمّة: المواساة للأخ بماله، وإنصاف الناس نفسه، وذكر الله على كلّ حال، وليس هو (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر) ولكن إذا ورد على ما يحُرّم عليه خاف الله ﷻ عنده وتركه.

يا عليّ، ثلاثة إن أنصفتهم ظلموك: السفلة، وأهلك، وخادمك. وثلاثة لا ينتصفون من ثلاثة، حرّ من عبد، وعالم من جاهل، وقويّ من ضعيف.

يا عليّ، سبعة من كنّ فيه فقد استكمل حقيقة الإيمان، وأبواب الجنّة مفتّحة له: من أسبغ وضوءه، وأحسن صلاته، وأدّى زكاة ماله، وكفّ غضبه، وسجن لسانه، واستغفر لذنبه، وأدّى النصيحة لأهل بيته.

يا عليّ، لعن الله ثلاثة: آكل زاده وحده، وراكب الفلاة وحده، والنائم في بيت وحده.

يا عليّ، ثلاثة يتخوّف منهنّ الجنون: التغوّط بين القبور، والمشي في خفّ واحد، والرجل ينام وحده.

يا عليّ، ثلاث يحسن فيهنّ الكذب: المكيدة في الحرب، وعِدتك زوجتك، والإصلاح بين الناس. وثلاثة مجالستهم تميت القلب: مجالسة الأنذال، ومجالسة الأغنياء، والحديث مع النساء.

يا عليّ، ثلاث من حقائق الإيمان :الإنفاق مع الإعسار، وإنصافك الناس من نفسك، وبذل العلم للمتعلّم.

يا عليّ، ثلاث من لم تكن فيه لم يتمّ عمله: ورع يحجزه عن معاصي الله ﷻ، وخُلُق يداري به الناس، وحلم يردّ به جهل الجاهل.

يا عليّ، ثلاث فرحات للمؤمن في الدنيا: لقاء الإخوان،

وتفطير الصائم، والتهجّد من آخر الليل.

يا عليّ، أنهاك عن ثلاث خِصال: الحسد، والحِرص، والكِبْر.

يا عليّ، أربع خصال من الشقاء: جمود العين، وقسوة القلب، وبعد الأمل، وحبّ اللقاء.

يا عليّ، ثلاث درجات، وثلاث كفّارات، وثلاث مهلكات، وثلاث منجيات:

فأمّا الدرجات: فإسباغ الوضوء في السبرات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، والمشي بالليل والنهار إلى الجماعات.

وأمّا الكفارات: فإفشاء السلام، وإطعام الطعام، والتهجّد بالليل والناس نيّام.

وأمّا المهلكات: فشحّ مطاع، وهوى متّبع، وإعجاب المرء بنفسه.

وأمّا المنجيات: فخوف الله في السرّ والعلانية، والقصد في الغِنى والفقر، وكلمة العدل في الرضا والسخط.

يا عليّ، لا رِضاع بعد فِطامٍ، ولا يُتم بعد احتلامٍ.

يا عليّ، سِرْ سنتين برّ والديك، سر سنة صِل رَحِمك، سر ميلاً عد مريضاً، سر ميلين شيّع جنازة، سر ثلاثة أميال أجب دعوة، سر أربعة أميال زر أخاً في الله، سر خمسة أميال أغث الملهوف، سر ستة أميال انصر المظلوم، وعليك بالاستغفار»[1].

---

(١) من لا يحضره الفقيه ٤: ٣٥٢ ـ ٣٧٥ ح ٥٧٦٢، مكارم الأخلاق للطبرسي ٤٣٣ ـ ٤٤٥ الفصل الثالث ط الأعلمي بيروت.

نرى في مجمل فصول الوصية التي تقدّمت غنى المعاني وتعددها، فلم تترك الوصية معنى من معاني الحياة والتشريع إلاّ وفصّلته، وأنارت لنا دروبنا التي ينبغي أن نسلكها.. ويجد القارئ العمق والجدّة والإحكام فيها، والغوص في أغوار النفس البشرية ومطاويها، وكأنّه ﷺ يلامس طوايا هذه النفس ويسكنها.. ترجمها ﷺ بفصاحة عالية، ليس لها نظير بألفاظ مشرقة ورشيقة ومعاني عميقة مع مراعاة الإيجاز وغيره من مقومات الفصاحة.. ويلحظ القارئ أنّ الوصية هي دائرة معارف علمية وأدبية أثرت التراث الديني بأبعادها المختلفة، فتجد المرأة في الوصية قد أخذت حظّها من العناية، وتجد التشريع والتقنين المفصّل، والوصف المكثّف للمؤمن المتّزن الذي أرادته شريعة الله، فتزّينت فصول الوصيّة بسكينته وخطاه الوئيده، فلا هو متهافت متسكّع، ولا بالكئيب المضطرب، فهو هشاش بشاش سعيد برضاه وطاعته، توّاب أوّاب، ويقابله الكافر الفاجر الذي لا يشبع دهره، فتراه متسكعاً مخموراً، ساخطاً لاهياً لا يحمله دعاء ولا ترتيل، نأى بصده وإعراضه، واحتوشته الشياطين والأهواء.. كلّ ذلك الوصف والتشريع نفثته أنفاسه ﷺ بسحر المقال الأخاذ في أذن علي عليه السلام بأداء بليغ جميل.

الصوت اللغوي والأداء الصوتي للنبيّ

الصوت يفيد معنى الجرس، ويندرج في معناه الموسيقي. يقال: صَاتَ يَصُوتُ ويَصاتُ صوتاً، وأصاتَ وصوّت به: كله نادى.

ويقال: صوَّت يصوِّت تصويتاً فهو مصوِّت، وذلك إذا صوَّت بإنسان فدعاه، ويقال: صات يصوت صوتاً، فهو صائت، معناه صائح.

والصائت: الصائح. وأصات الرجل بالرجل، إذا شهّره بأمرٍ لايشتهيه. وانصات الزمان به انصياتاً إذا اشتهر.

وفي الحديث **«فَصْلٌ ما بين الحلال والحرام الصوت والدُفّ في النكاح»** يريد إعلان النكاح، وذهاب الصوت، والذكر به في الناس[١].

وفي حديث آخر أنّه قال ﷺ: **«فرقٌ بين النكاح والسفاح ضربُ الدفّ»**[٢].

وفي الحديث: «أنّهم كانوا يكرهون الصوت عند القتال»، وهو أن ينادي بعضهم بعضاً، أو يفعل أحدهم فعْلاً له أثر، فيصيح ويُعرِّف بنفسه على طريق الفخر والعُجْب. وكلّ ضرب من الغناء: صوت[٣].

وما اللغة إلاّ أصوات ؛ لأنّ الأصوات بانضمام بعضها إلى بعض تشكّل مفردات اللغة ومعجمها النطقي، وقد ذهب بعضهم إلى أنّ أصل اللغات كلّها إنّما هو من الأصوات المسموعات[٤].

وقد جاء لفظ الصوت في الكتاب في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾[٥].

فهنا جاء بمعنى الدعاء والوسوسة، من قولهم: صوّت فلان

---

(١) ينظر اللسان ٢: ٥٧ (صوت)، مسند أحمد ٣: ٤١٨، سنن ابن ماجة ١: ٦١١ ح١٨٩٦، سنن النسائي ٦: ١٢٧ قال أبو عبيد: إنّما معناه عندنا إعلان النكاح واضطراب الصوت به والذكر في الناس ،كما يقال: فلان قد ذهب صوته في الناس. غريب الحديث ١: ٤٠٦.

(٢) نوادر الراوندى ٤٠، بحارالأنوار ١٠٣: ٢٦٧.

(٣) اللسان (صوت).

(٤) ينظر الخصائص لابن جنّي ١: ٤٦.

(٥) الإسراء ٦٤.

بفلان، إذا دعاه. وقيل: بصوتك، أي بالغناء والمزامير والملاهي.

وقيل :كلّ صوت يُدعى به إلى الفساد فهو من صوت الشياطين[١].

وهذا المعنى جاء خاصاً بالاصطلاح القرآني للصوت، وأمّا في الحديث فهو باقٍ على أصله اللغوي.

وقد ثبت علمياً أنّ الصوت اهتزازات محسوسة في موجات الهواء، تنطلق من جهة الصوت، وتذبذب من مصانعه المصدّرة له، فتسبح في الفضاء حتّى تتلاشى، ويستقرّ الجزء الأكبر منها في السمع بحسب درجة تذبذبها، فتوحي بدلائلها، فرحاً أو حزناً، نهياً أو أمراً، خبراً أو إنشاءً، صدى أو موسيقى، أو شيئاً عادياً ممّا يفسّره التشابك العصبي في الدماغ، أو يترجمه الحسّ المتوافر في أجهزة المخّ بكلّ دقائقها[٢].

وقد نال الصوت اللغوي اهتمام العلماء منذ عصر الخليل بن أحمد الفراهيدى المتوفي ١٧٥ هـ، واضع قوانين [٣]هذا العلم ورائده، إلى زماننا هذا، والذي يظهر من النصوص النبوية أنّه كانﷺ مدركاً لقوانين هذا العلم وعارفاً بأسراره [٤]من حيث مخارج الأصوات ومدارجها، وأقسامها وأصنافها وأحكامها وعللها، ودلائلها وخصائصها، في أحوال الجهر والهمس والشدّة والرخاوة، وملامح

---

(١) ينظر مجمع البيان للطبرسي ٣: ٤٢٦.

(٢) الصوت اللغوي في القرآن ١٤.

(٣) كان دور الخليل هو اكتشاف هذه القوانين وملاحظتها لا إيجادها، ويظهر لي من خلال النصوص الواردة عنه ﷺ أنّه موجد هذا العلم ومؤسسه كما أوجد وأسّس علوماً كثيرة.

(٤) كما يأتي في براعة النبي ﷺ في التلفظ.

صوائتها وصوامتها في السكون وعند الحركة، وضوابطها في الإطباق والانفتاح.

وقد رصد الدكتور محمد حسين الصغير موضوعات هذا العلم فقال :يستقرئ به الباحث ما قدَّمه علماء العربية من جهد صوتي متميِّز، واكبه الغربيون بعد أن عبّد طريقه العرب والمسلمون، هذه المفردات في عنوانات ريادية تمثِّل الموضوعات الآتية في نظرية الصوت:

١. ظاهرة حدوث الصوت.

٢. معالم الجهاز الصوتي عند الإنسان.

٣. أنواع الأصوات العالية.

٤. درجات الأصوات في الاهتزازات.

٥. بداية الأصوات عند المخلوقات.

٦. علاقة الأصوات باللغات الحيّة.

٧. أعضاء النطق وعلاقتها بالأصوات.

٨. الأصوات الصادرة دون أعضاء النطق.

٩. علاقة السمع بالأصوات.

١٠. مقاييس الأصوات إمتداداً أو قصراً.

١١. تسميات الأصوات وأصنافها.

١٢. الأصوات الزائدة على حروف المعاجم.

١٣. الزمان والصوت (مسافة الصوت).

١٤. المكان والصوت (مساحة الصوت).

١٥. المقاطع الصوتية بالإضافة إلى مخارج الأصوات.

١٦. النقاء الصوتي.

١٧. الموسيقى والصوت.

١٨. العروض والصوت.

١٩. النبر والصوت.

٢٠. التنغيم والصوت.

٢١. التقريب بين الأصوات.

٢٢. الرموز الكتابية والأصوات.

٢٣. إئتلاف الحرف وعلاقته بالأصوات[١].

ويُعتبر هذا الموضوع من أهم مواضيع علم الصوت وأكثرها التصاقاً بعلم التجويد وعلم القراءات القرآنية[٢]. وحفلت المكتبة العربية بدراسات عن مخارج الحروف وصفاتها، وقد اختلف العلماء في تحديد مخارج الحروف، فمال أكثر النحويِّين وأكثر القرّاء إلى أنَّها سبعة عشر مخرجاً تجمعها عشرة ألقاب فقط.

والمعوّل عليه في الحرف معرفة مخرجه لا صفته، لأنّ معرفة المخرج بمنزلة الوزن والمقدار، ومعرفة الصفة بمنزلة المحكّ والمعيار، ومن هنا جاء اشتقاقهم ألقاب الحروف من مخارجها لا صفاتها، فكلّ مجموعة من الحروف تشترك في لقب لتقاربها في المخرج، وإن كان تقاربها لا يعني إتّحادها، إذ لواتفق حرفان في

(١) الصوت اللغوي في القرآن ٣١.

(٢) يقول الأستاذ فيرث: إنَّ علم الأصوات قد نما وشبَّ في خدمة لغتين مقدّستين هما: السنسكريتية والعربية. الصوت اللغوي في القر آن ٣٣.

المخرج والصفة لما صحَّ أن يُسميّا حرفين، بل كانا أجدر أن يُعدّا حرفاً واحداً.

وأفضل وسيلة لمعرفة مخرج الحرف أن تسكّنه أو تشدّده، وتدخل عليه همزة الوصل بأيّ حركة وتسمعه، فحيث انقطع الصوت كان مخرجه المحقّق، وحيث يمكن انقطاع الصوت في الجملة كان مخرجه المقدّر.

وألقاب الحروف، موزّعة كلّ مجموعة منها على مخارجها، وعلى مواقعها من جهاز النطق هي:

١ ـ **الأحرف الجوفية الهوائية**: وهي أحرف المدّ الثلاثة التي تُسمّى أيضاً أحرف اللين، وهي الألف، والواء الساكنة المضموم ما قبلها، والياء الساكنة المكسور ما قبلها. ويُراد بالجوف الذي تُنسب إليه فراغ الحلق والفم، حيث ينقطع مخرجها. وسُمّيت هوائية لأنّها تنتهي بانقطاع هواء الفم.

٢ ـ **الأحرف الحلقية**: وهي الهمزة والهاء، والعين والحاء، والغين والخاء. وللحلق ثلاثة مخارج، فأقصاها ممّا يلي الصدر للهمزة والهاء، وأوسطها ممّا يلي الصدر للعين والحاء، وأدناها مما يلي الفم للغين والخاء.

٣ ـ **الأحرف اللهوية: وهما حرفان**: القاف والكاف. مع نسبتهما إلى اللهاة بين الفم والحلق، يختلف مخرج كلّ منهما عن الآخر، فالقاف من أقصى اللسان ممّا يلي الحلق وما يحاذيه من الحنك الأعلى من منبت اللهاة والكاف من أقصى اللسان بعد مخرج القاف.

٤ ـ **الأحرف الشجرية**: **وهي ثلاثة**: الجيم، والشين، والياء

غير المدّية، ومخارجها متقاربة، ونُسبت إلى شجر الفم، وهو ما بين وسط اللسان وما يقابله من الحنك الأعلى.

٥ ـ **الأحرف الذلقية: وهي ثلاثة**: اللام، والنون المُظْهرة، والراء، واللام هي أوسع الحروف مخرجاً، إذ يمكن إخراجها من كلتاحافتي اللسان وما يحاذيهما من لِثَة الضاحكتين والنابين والرَّباعيتين، والنون المظهرة من طرف اللسان بينه وبين ما فوق الثنايا، أسفل من اللام قليلاً. أمّا الراء فهي أدخل في ظهر اللسان، ما بين رأسه وما يحاذيه من لثة الثنيتين العُليين، وتُسمّى ذلقية لخروجها من ذلق اللسان أي طرفه.

٦ ـ **الأحرف النطعية: وهي ثلاثة**: الطاء، والدال، والتاء، ومخارجها متقاربة، ونُسبت إلى النطع، وهو سقف غار الحنك الأعلى.

٧ ـ **الأحرف الأَسَلية: وهي ثلاثة**: الصاد، والسين، والزاي، ومخارجها متقاربة، ما بين رأس اللسان وبين صفحتي الثنيتين العليين، والصاد أدخلها في هذا المخرج، والسين أوسطها والزاي أبعدها.

٨ ـ **الأحرف اللِّثَوِيَة**: وهي ثلاثة: الظاء والذال والثاء، ومخارجها متقاربة، ما بين ظهر اللسان ممّا يلي رأسه وبين رأسي الثنيتين العليين. وتُسمّى لِثَوية، لخروجها من قرب اللثة.

٩ ـ **الأحرف الشفهية أو الشفوية**: وهي أربعة: الفاء، والباء، والميم، والواو غير المدّية. وتُسمّى شفوية لأن مخرجها إلى الهواء من الشفتين، غير أنَّ الفاء ممّا بين باطن الشفة السفلى ورأس الثنيتين، والثلاث الباقية ممّا بين الشفتين معا.

١٠ ـ **الأحرف الخيشومية**: وهي النون الساكنة، والتنوين، حين

إدغامها بغُنّة أو إخفاتها، والنون والميم المشدّدتان.

تلك هي مخارج الحروف، وعليها المعوّل في توضيح التباعد والتقارب ولا سيّما في معرفة القلب والإبدال اللغويين.

أمّا الصفات فقد اختلفوا أيضاً في تعدادها، ولكن أكثر العلماء والقرّاء على أنّها سبع عشرة صفة.

١) **الجهر**: وهو انحباس جري النَّفَس عند النطق بالحرف لقوّته، وذلك لقوّة الاعتماد على مخرجه. وحروف الجهر تسعة عشر حرفاً، وهي: أ ب ج د ذ ر ز ض ط ظ ع غ ق ل م ن و ي ا.

٢) **الهمس**: وهو ضدّ الجهر، فهو انطلاق النَّفَس عند النطق بالحرف لضعفه، وذلك لضعف الاعتماد على مخرجه.

وحروف الهمس عشرة وهي: ت ث ح خ س ش ص ف ك هـ.

٣) **الشدّة**: وهي انحباس الصوت عند النطق بالحرف لتمام قوّته، وذلك لتمام قوّة الاعتماد على مخرجه، وحروف الشدّة ثمانية، وهي: أ ب ت ج د ط ق ك .

٤) **الرخاوة**: وهي ضدّ الشدّة، وهي انطلاق الصوت عند النطق بالحرف لتمام ضعفه، وذلك لتمام ضعف الاعتماد على مخرجه. وهي ستة عشر: ث ح خ ذ ز س ش ص ض ظ ع ف هـ و ي .

٥) **التوسّط بين الشدة والرخاوة**: وذلك حين لا يتمّ انطلاق الصوت ولا انحباسه. وحروف التوسّط خمسة هي: ر ع ل م ن.

٦) **الاستعلاء**: وهو خروج صوت الحرف من أعلى الفم، وذلك لعلواللسان عند النطق بالحرف إلى الحنك الأعلى.

وحروف الاستعلاء سبعة، وهي: خ ص ض ط ظ غ ق.

٧) **الاستفال**: وهو ضدّ الاستعلاء، فهو خروج صوت الحرف من أسفل الفم، وذلك لتسفل اللسان عند النطق بالحرف إلى الحنك الأسفل. وحروف الاستفال اثنان وعشرون، وهي: أ ب ت ث ج ح د ذ ر ز س ش ع ف ك ل م ن هـ و ي ا.

٨) **الإطباق**: وهو انحصار صوت الحرف بين اللسان والحنك الأعلى، لارتفاع ظهر اللسان إلى الحنك الأعلى حتّى يلتصق. وحروف الإطباق أربعة، وهي: ص ض ط ظ.

٩) **الاستفتاح**: وهو ضدّ الإطباق، فهو جريان النفَس لا نفراج ظهر اللسان عند النطق باحرف وعدم إطباقه على الحنك الأعلى. وهذه الحروف خمسة وعشرون، وهي: أب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ع غ ف ق ك ل م ن هـ و ي ا.

١٠) **الصفير**: وهي ثلاثة: ص، س، ز. وسُميّت صفيرية لأنّها تخرج من بين الثنايا وطرف اللسان، فينحصر الصوت هناك إذا سكنت، كصفير الطائر.

١١) **القلقلة**: وهي اضطراب الحرف وتحرّكه بحركة عند النطق به، وهو ساكن حتّى يُسمع له نبرة قويّة. وحروف القلقلة خمسة، وهي: ب ج د ط ق.

١٢) **الانحراف**: وهو ميل الحرف بعد خروجه إلى طرف اللسان وحروفه الراء واللام.

١٣) **التكرار**: وهو ارتعاد طرف اللسان بالحرف عند النطق بالراء.

١٤) **الاستطالة**: وهي امتداد الصوت بالضاد من أوّل حافة اللسان إلى آخرها.

١٥) **التفشي**: وهو انتشار النَّفَس في الفم عند النطق بالشين.

١٦) **اللين**: وهو إخراج الحرف بعد كلفة على اللسان. وحروف اللين: الواو، والياء، الساكنتان المفتوح ما قبلهما، نحو خَوْف وبَيْت.

١٧) **الغنّة**: وهي خروج صوت الحرف من الخيشوم. وحروفها الميم والنون والتنوين[1].

وقد ثبت علمياً، من خلال الدراسات الحديثة التي قام بها علماء اللغة في الصوت اللغوي، بأنّ نطق الإنسان يضفي على لغته جمالاً وإيضاحاً، فشحن المفردات بمعانيها لا يكون مقتصراً على الألفاظ المختارة للتعبير عن أحاسيس الإنسان وأفكاره.

فالكلام الجيّد له تأثير في ذهن المتلقّي إلاّ أن أسلوب الخطاب وترسيل الكلام له تأثير أكثر، ويكمل دور اللفظ في أداء الرسالة التي يحملها الخطيب أو الأديب، وقد أدرك الإنسان هذا منذ زمن بعيد وما زالت الخطباء تتفنّن في ذلك لتحقيق أهداف عقائدية وسياسية.

براعة النبي ﷺ في التلفّظ

وبصفته ﷺ قائد هذه الأمّة المرحومة، وصاحب الرسالة المختارة، كان يدرك أهمّية ذلك ـ البراعة في الإلقاء والتلفظ ـ في أدائه لأفكاره بأداء صوتي جميل، تأصيلاً منه لنظرية الصوت اللغوي.

فقد روت عائشة أنّه كان رسول الله ﷺ لايسرد سردكم هذا، يتكلّم بكلام فصل، يحفظه من سمعه[2].

---

(١) ينظر دراسات في فقه اللغة للصالح الفصل السادس، الأصوات العربية وألقاب الحروف.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ١: ٢٨٣ منشورات بيضون العلمية ببروت، ونحوه روى أبو داوود في السنن ٣: ٣٢١ح٣٦٥٦.

وكانﷺ إذا حدّث حديثاً أعاده ثلاث مرّات[(١)].

وقالت عائشة: إنّ سول اللهﷺ ليحدّث الحديث لوشاء العادّ أن يحصيه أحصاه[(٢)]. وكان إذا تكلّم تكلّم ثلاثاً لكي يفهم عنه[(٣)].

وعن عائشة أيضاً قالت:

ما كان رسول الله يسرد الحديث كسردكم، إنّما كان حديث رسول الله فصلاً تفهمه القلوب[(٤)].

فهوﷺ كامل عارف يعلم أنّ عقل الإنسان في قلبه، فالتأثير على عقول الناس وتهذيبهم يتمّ عن طريق القلب فهو الباب الأوّل للمعرفة ومن خلاله يسلك السالك مسالك العرفان، فإمساك القلب يعنى إمساك الطريق وتذليله، وقد شبهﷺ قلوب الناس بالأواني التي تعي ما فيها فقال: **«إنّ لله آنية في الأرض، فأحبّها إلى الله ما صفا منها ورقّ وصلب وهي القلوب»**[(٥)].

والنبيّﷺ يعرف بأنّه هو مفتاح القلوب بلغته وبيانه، والله سبحانه سلطان القلب ومدبّره، بل القلب عرشه، وقد حصّنه بالعقل والملائكة ونوّره بالأنوار الملكوتية، واستخدمه القوى الظاهرة والباطنة والجوارح والأعضاء الكثيرة.

ولهذا الحصن أعداء، من النفس الأمّارة، والشياطين الغدارة، وأصناف الشهوات النفسانية والشبهات الشيطانية.

---

(١) سنن أبي داوود ٣: ٣٢٠ح٣٦٥٣.

(٢) سنن أبي داوود ٢: ٣٢٠ح٣٦٥٤.

(٣) المعجم الكبير للطبراني ٨: ٢٨٥ رقم ٨٠٩٥.

(٤) مسند أبي يعلى الموصلى ٧: ٣٥٧ح٤٣٩٣.

(٥) نوادر الراوندي ٧، بحار الأنوار ٦٧: ٦٠ ح ٤٠.

فإذا مال العبد بتأييده سبحانه إلى عالم الملكوت وصفا قلبه بالطاعات والرياضات عن شوك الشكوك والشبهات، وقذارة الميل إلى الشهوات، استولى عليه حبّه تعالى ومنعه عن حبِّ غيره، فصارت القوى والمشاعر وجميع الآلات البدنية مطيعة للحقِّ منقادةً له، ولا يأتي شيء منها بما ينافي رضاه(١).

فكان ﷺ يستخدم جرس الكلام وموسيقى الصوت ليفتح القلوب المغلقة ويعبّدها لسيّدها وربّها.

وكان ﷺ يُدرك الدلالة الصوتية للألفاظه وقد أفادت النصوص المروية عنه ﷺ أنّ كلامه ﷺ فيه ترتيل.

وترتيل الكلام مظهر من مظاهر الجمال في الأداء. والأصل اللغوي له من الرَّتَل: وهو حسن تناسق الشي. وقولهم: ثغرٌ رَتَل ورَتِل: حسن التنضيد مستوى النبات. والترتيل: هو الترسّل في الأداء والتبيين والتمكّث.

وقولهم: رتَّل الكلام: أحسن تأليفه وأبانه وتمهّل فيه. والتبيين لا يتمّ بأن يعجل في القراءة، إنّما يتمّ التبيين بأن يُبيّن جميع الحروف ويوفّيها حقّها من الإشباع(٢).

وقد اتسم منطقه بلفظ محكم متقن الأداء، و لا يخفى أنَّ حسن التأليف، وجودة التلفّظ من معالم الفصاحة.

وقد ندب القرآن الكريم في الترتيل عند قراءة القرآن بقوله تعالى ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾(٣).

---

(١) ينظر بحار الأنوار ٧٥: ٢٠٨.

(٢) ينظر لسان العرب ١١: ٢٦٥ (رتل).

(٣) المزمل: ٤.

وأمّا الترتيل القرآني فالمراد به تجويد الحروف ومعرفة الوقوف(١).

وقد فسّره الصادق عليه السلام فقال: **هو أن تتمكث فيه وتحسّن به صوتك**(٢).

ومراده عليه السلام الأثر الصوتي في منح النصّ بعداً جمالياً وشحنه بالمعاني المرادة، وقد وظّف ﷺ الأصوات اللغوية توظيفاً بارعاً في التوجيه والتهذيب النفسي.

وقد أدرك ﷺ بفطرته الصافية وحسّه المتوقّد أهمّية الأصوات اللغوية في تبليغه الرسالي، فهو يفهم ـ كـ (نبي مرسل) أنّ اللغة امتداد طبيعي للأصوات، فيربطها ربطاً عضوياً ربط الأصل بالفرع، إدراكاً منه بالبعد الجمالي والرسالي للألفاظ، قال جابر: كان في كلام رسول الله ﷺ ترتيل وترسيل(٣).

أي إخراج الصوت واضحاً لا يلتبس به غيره من الأصوات، يَردّ الحرف إلى مخرجه وأصله.

أمّا التشدّق بالكلام والتفيهق فيه فلم يستحسنه ﷺ فقال: «إنّ

---

(١) ينظر الصوت اللغوي في القرآن للدكتور محمد حسين الصغير ١٠٥ ط بيروت دار المؤرخ العربي. وقال الشيخ الطريحي: الترتيل في القرآن التبيين كأنّه يفصل بين الحرف والحرف، ومنه قيل: نغرّ مرتّل ورَتِل إذا كان مفلجاً لا يركب بعضه بعضاً. وعن أمير المؤمنين عليه السلام: ترتيل القرآن حفظ الوقوف، وبيان الحروف، وفُسّر الوقوف بالوقف التام، وهو الوقوف على كلام لا تعلّق له بما بعده لا لفظاً ولا معنى، وبالحسن وهو الذي له تعلّق بما بعده لفظاً لا معنى، والحسن هو الإتيان بالصفات المعتبرة، كالهمس، والجهر، والاستعلاء، والإطباق ونحوها. غريب القرآن ٤٥٩ تحقيق ونشر محمد كاظم الطريحي.

(٢) مجمع البيان للطبرسي ٥ : ٣٧٨.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ : ٢٨٣.

أبغضكم إليّ وأبعدكم مني يوم القيامة الثَّرثارون والمتشدّقون والمُتَفَيْهِقون».

قالوا: يا رسول الله، وما المتفيهقون؟

قال: **المتكبرون**[(١)].

وتفسير الحديث هم الذين يتوسّعون في الكلام ويفتحون أفواههم، مأخوذة من الفهق، وهو الامتلاء والاتساع[(٢)].

وقال ابن السكّيت: رجلٌ متفيهق: هو الذي يتوسّع في كلامه ويملأبه فمه[(٣)].

وقال ﷺ: **إنّ الله عزّوجلّ يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلّل بلسانه تخلّل الباقرة بلسانها**[(٤)].

ونظرة فاحصة لكلامه ﷺ تجد ملامح الإلهام والعفوية في عباراته، فكلامه جاء عن بديهة وارتجال، لا معاناة ولا مكابدة في ترتيبه، تتدفق المعاني والأفكار تدفّقاً من فيض رسالته ونفسه الصافية، فتنثال الألفاظ في قوالب هذه الأفكار انثيالاً طائعاً بلغة منطوقة جميلة مؤثرة، مازال سحرها باقياً.

براعة النبي ﷺ في الخطابة

كانت نظريات العلماء وما زالت في علم اللغة تفيد بأنّ اللغة

---

(١) كنز العمال ٣: ١٠ ـ ١١ ح ٥١٨٤، سنن الترمذي ٣: ٢٥٠.
(٢) لسان العرب ١٠: ٣١٤ (فهق).
(٣) الألفاظ ٣٨٩.
(٤) سنن أبي داود ٤: ٣٠٢ ح٥٠٠٥ باب ما جاء في التشدّق من الكلام، مسند أحمد ٢: ١٦٥.

المكتوبة هي غير اللغة المنطوقة، واللغة المنطوقة هي أقدم وهي اللغة الأصل.

وأنّ معظم اللغات لم تعرف طريقها إلى الكتابة على الإطلاق، وليس هناك من بين ال ٣ آلاف لغة المتكلّم بها اليوم سوى ما يقرب من ٧٨ لغة فقط لها أدب مكتوب.

ويقول العلماء: ليس ثمة طريقة إلى الآن لإحصاء عدد اللغات التي اختفت أو تحوّلت إلى لغات أخرى قبل أن تعرف الكتابة. كذلك فإنّ مئات اللغات المستخدمة اليوم لم تكتب أبداً إذ لم ينجح أحد في التوصّل إلى طريقة فعّالة لكتابتها وعلى هذا، فإنّ الأصل الشفاهي للغة سمة لاصقة لها.

ولا يزال للكلمة المنطوقة حضور وحياة، ذلك أنَّ كلّ النصوص المكتوبة مضطرّة بطريقة ما، مباشرة أو غير مباشرة، إلى الارتباط بعالم الصوت، الموطن الطبيعي للغة، كي تعطي معانيها[١].

وقد سجّلت لنا الآثار القديمة والنصوص التاريخية العناية الفائقة للغة الشفاهية، وهي لغة الخطب والمنافرات، وقد احتفظت بسحرها حتى بعد استخدام الكتاب والكتابة.

يقول: والترأونج: وقد استمر الافتتان بالكلام الشفاهي دون فتور أو كلل لقرون طويلة حتى بعد أن شاع استخدام الكتابة وقد ظهر هذا الافتتان في الغرب عند الإغريق القدماء في تطويرهم فن البلاغة العظيم وفي عنايتهم البالغة بصياغته، ذلك الفن الذي عُدّ على مدى ألفي سنة أكثر الموضوعات الأكاديمية شمولاً في الثقافة الغربية كلّها،

---

(١) ينظر الشفاهية والكتابية، والترأونج: ٥٤ ط الكويت.

فكلمة Rhetorike أو البلاغة، كانت تعني أساساً الكلام أمام الناس أو الخطابة[١].

ويمكن القول بأنَّ الخطَب تجسّد كلمة مرتجلة يلقيها أحد الأشخاص المتميّزين بالتمكّن اللغوي، من حيث انتقاء العبارة، وإحكام صياغتها، وتوشيحها بالعنصر الإيقاعي، وربّما بالعنصر الصوري أيضاً[٢].

والخطبة تخضع لمجموعة قواعد يلتزم بها الخطيب أمام الجمهور أثناء إلقائه خطبته، كرفع الصوت وخفضه أحياناً، ومراعاة الصورة الفنية والبلاغية، وتقسيم الخطبة إلى فقرات، ووضع العلامات والأصوات اللغوية الدالّة على المواطن الهامّة من الخطبة. ويلحظ المتتبّع والدارس لتاريخ الآداب أنَّ الخطبة يمكن تقسيمها إلى خطبة سياسية، ودينية، ورسمية، واجتماعية، واقتصادية، وعسكرية، ويجد الباحث صنوف الخطب في موسوعة البلاغة والخطابة التي انتخب الشريف الرضى منها خطباً رائعة سمّاها «نهج البلاغة» ولو سمّاها «نهج الخطابة» لكان صادقاً ؛ لأنَّ مجمل ما انتخبه كان خطباً ضمَّت البلاغة وعلومها.

وإذا كانت هذه ملامح الخطبة كأرقى كلام يصنعه الإنسان للتأثير في عقول ونفوس السامعين، فإنَّ مجمل كلامه ﷺ بما في ذلك خطبه ﷺ، زاخر بالكمال والجمال. و تجد له ﷺ القدرة الفائقة في التأثير في روح وقلب السامع، متوكناً ﷺ على البعد العاطفي الناضج في شحن الناس وتعبئتهم تعبئة إنسانية وربّانية ترشد الضال والتائه، وتضع الإنسان على مسيرة السداد وجادة الصواب.

---

(١) الشفاهية والكتابية ٥٧ و ٥٥.

(٢) تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامى ٤٣.

وقد أدرك المصلح الكبير أنَّ توظيف اللغة وتطويعها وصبّها في مسيرته الإصلاحية يتطلّب مراعاة قواعد الخطابة، وهوﷺ يعرف أنَّ لغة الخطاب هي غير لغة الكتاب، وتجد سمة عامة لخطبه هي جزالة الألفاظ وسهولتها.

وإنَّ السامع يلمس لها وقعاً وجرساً موسيقياً يجد طريقه من أُذُن السامع إلى قلبه، وهذا التأثير الذي تركهﷺ في آذان المخاطبين في زمانه تراه بنفس التأثير إلى زماننا هذا.

وألحان كلام النبيّﷺ فيها من آثار التمدّن واضحة وبيّنة، وقد أبعدﷺ أجواء خطبه من ألفاظ الجفاء والبداوة والقساوة، فالمتلقّي لخطبه تعتصر من عيونه الدموع ألفاظ حديثهﷺ حين يحدّثه عن قيام الساعة، وحين يذكّره أهوال القيامة، ويضعهﷺ في موقف العقل والتفكير حين يكون موضوعه بنائياً كأن يفضي إلى وضع أسس الدولة الإسلامية التي أمره اللهﷻ ببنائها.

وهو كقائد سياسي وأديب فصيح اللغة والبيان يرى أنَّ اللغة الخطابية تناسب الموضوع الذي يورد خطبهﷺ بها، فهندسة الخطبة وعمارتها وضعت ببراعة وإتقان.

«وتجيء الخطبة من حيث المساحة الأدبية في الدرجة الثانية بالقياس إلى الشعر لاقترانها بكثافة انفعاليه أقلّ من الشعر، وذلك بسبب خلوّها من الإيقاع المنتظم ورتابته، وبسبب من مواجهتها المباشرة للجمهور حيث إنَّ مراعاتها لآداب المخاطبة وتنظيم الموضوع، تحدّ من درجة الغلوّ العاطفي دون أن تمسح الغُلوّ نفسه، أمّا ما خلا ذلك، فإنَّ البعد العاطفي يظلّ ملحوظاً في الخطبة، نظراً لاعتمادها عنصر الإثارة للجمهور، وهي إثارة عاطفيّة، لأنَّ الجمهور ـ وهذا ما يرصده أيّ ملاحظ اجتماعي ـ عندما ينتظم في حشد، ينسلخ

عن شخصيته الفردية، وينزع إلى العقل الجمعي وما يواكبه من الإيحاءات التي تنتقل عدواها من واحد لآخر، وذلك بسبب الإثارة العاطفيّة التي يحقّقها الخطيب»[١].

والخطابة كصناعة يُتكلّف فيها الإقناع الممكن للجمهور فيما يُراد أن يُصدّقوا به، وقد أشار التنزيل الإلهي إلى هذه الصناعة في قوله: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[٢].

وبين يدى القارئ هذه الخطبة التي رواها أميرالمؤمنين علي عليه السلام، قال: خطب بنا رسول الله ﷺ فقال:

«أيّها الناس إنّكم في دار هُدْنَة، وأنتم على ظهر سَفَر، والسيُر بكم سريع، فقد رأيتُم الليلَ والنهارَ، والشمس والقمر، يُبليان كلّ جديد، ويقرّبان كلّ بعيد، ويأتيان بكلّ وعدٍ ووعيد، فأعدّوا الجهازَ، لبُعْد المجاز.

إنّها دار بلاء وابتلاء، وانقطاع وفناء، فإذا التبست عليكم الأمورُ كقطع الليل المُظلِم فعليكم بالقرآن، فإنّه شافع مُشَفَّع، وما حِل[٣] مُصَدَّقٌ، مَن جعله أمامه قاده إلى الجنّة، ومن جعله خَلْفَه ساقه إلى النار، ومن جعله الدليل يدلّه على السبيل، وهو كتابٌ فيه تفصيل، وبيان وتحصيل، هو الفصل ليس بالهَزْل، وله ظهر وبطن، فظاهره

---

(١) تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الاسلامي ١٢.

(٢) النحل: ١٢٥، وينظر مقدمة شرح النهج لابن ميثم ١٦٤ بتحقيق عبد القادر حسين.

(٣) ما حل: أي خصم مجادل مُصدَّق، وقيل ساعٍ مصدّق، من قولهم مَحَل فلان بفلان، إذا سعى به إلى السلطان. يعنى أنّ من اتّبعه وعمل بمافيه فإنّه شافع له مقبول الشفاعة ومصدّق عليه فيما يرفع من مساويه إذا ترك العمل به. اللسان ١١: ٦١٩ (محل).

حكمُ الله، وباطنه عِلمُ الله تعالى، فظاهره أنيق، وباطنه عميق، له تُخومٌ، وعلى تُخومه تُخوم، لا تُحصى عجائبه ولا تُبلى غرائبه، مصابيح الهُدى، ومَنار الحِكمة، ودليل على المعرفة لمن عرف الصّفة، فَلْيُجلْ جالٍ بَصَره، وليبلُغ الصّفة نظره، ينجُ من عَطَب، ويتخلّص من نَشَب، فإنّ التفكّر حياة قلب البصير، كما يمشي المستنيرُ في الظلمات بالنور فعليكم بحسن التخلّص وقِلّة التربّص» [١].

وهذا الخطبة هي وعظية إرشادية توجيهية، بدأت الخطبة بمفتاح فنّي جميل هو النداء المباشر ليفتح القلوب المغلقة وليشد الانتباه لحقيقة مطلقة صرح بها الأنبياء والمرسلون، وهي أنّ الإنسان يسير نحو الفناء والنهاية يتناقص عمره ويتداني أمله مع تقادم الليل والنهار فهو تائه وضال في الحياة يأخذ بيده كتاب السماء المنزل وهو القرآن.

ومن خطبه البليغة والمؤثرة لمّا فتح ﷺ مكّة ؛ روي أنّه أخذ بعضادتي الباب وخطب الناس فقال:

«لا إله إلاّ الله، وحده لا شريك له، صدق وعده، ونَصر عبده، وهزم الأحزاب وحده. الا كُلُّ مأثرةٍ أو دم أو مالٍ يُدعى فهو تحت قدميّ هاتين، إلاّ سدانةَ البيت، وسقاية الحاجّ.

يا معشر قريش ! إنَّ الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظُّمها بالآباء، الناس من آدمَ وآدمُ خُلِق من تُراب.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[٢].

يا معشر قُريش ! ويا أهل مكّة، ما ترون أنّي فاعل بكم؟ ماذا تقولون، وماذا تظنّون؟

---

(١) الكافي ٢: ٥٩٨ ـ ٥٩٩ ح ٢، تفسير الصافي ١: ١٥.

(٢) الحجرات: ١٣.

فقالوا: نقول خيراً ونظنّ خيراً، أخٌ كريم وابنُ أخٍ كريم، وقد قدرت.

فقال: فإنّي أقول ما قال أخي يوسف: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ﴾[1].

ألا إنَّ مكّة مُحرّمة بتحريم الله، لم تحلّ لأحدٍ كان قبلي، ولم تحلّ لي إلّاساعة مِنْ نهار، وهي محرّمة إلى أن تقوم الساعة، لا يُختلى[2] خلاها، ولا يقطع شجرها، ولايُنفّر صيدها، ولا تحلّ لقطتها إلاّ لمُنشد. ألا لبئس جيران النبي كنتم، لقد كذّبتُم، وطَردتَم، وأخرجتُم، وآذيتم، ثمّ ما رضيتُم، حتّى جئتموني في بلادي تقاتلوني، اذهبوا فأنتم الطُّلقاءُ[3].

وهذه الخطبة تدخل ضمن خطب التشريع والتقنين بدأت بالبيان السياسي الأول للدولة الإسلامية وهو إبطال المواثيق والمعاهدات اللامشروعة، ومنها القوانين الاقتصادية والاجتماعية الجاهلية التي تضع الرباء والطلب بالثار من أبرز هذه القوانين وأهمها لديهم.

ومن الخطب التي حظيت باهتمام الدارسين والمؤرّخين خطبته في حجّة الوداع التي يقول فيها:

الحمد لله ونستعينهُ ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا مَن يَهْد الله فلا مُضِلَّ له، ومن يُضْلل فلا هادي له، وأشهد أنْ لا إله إلاّ الله وحده لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ

---

(١) يوسف: ٩٢ إعجاز القرآن: ١٣٢، الثقات لابن حبان: ٥٥ ـ ٦٥، تاريخ الطبري ٢: ٣٣٧، البداية والنهاية ٤: ٣٤٤.

(٢) أي لا يقطع حشيشها قال الليث: الخلى: الحشيش الذي يُحتشّ من بقول الربيع. اللسان ١٤ / ٢٤٣ (خلا).

(٣) أعلام الورى بأعلام الهدى ١: ٢٢٥ ـ ٢٢٦، بحار الأنوار ٢١: ١٣٢.

محمداً عبده ورسولهُ، أوصيكم عبادَ الله بتقوى الله. وأحثّكم على طاعته، وأسْتَفْتِحُ بالذي هو خيرٌ.

أمّا بَعْد أيُّها الناسُ، اسمعوا منّي أُبيّن لكم، فإنّي لا أدري لَعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا.

أيّها الناس، إنَّ دماءَكُم وأَمْوالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربَّكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا هل بلّغتُ، اللّهم اشهَد، فمن كانت عنده أمانةٌ فليؤدّها إلى من ائتمنه عليها، وإنَّ رِبا الجاهلية موضوع، وإنَّ أوّل ربا أبدأ به ربا عمّي العبّاس بن عبدالمطّلب، وإنَّ دِماءَ الجاهلية موضوعةٌ، وإنَّ أوّل دم نبدأ به دمُ عامر بن ربيعة[1] بن الحارث بن عبدالمطلب، وإنَّ مآثر الجاهلية موضوعة غير السّدانة والسّقاية، والعَمْد قَوَد، وشِبْه العَمْد ما قُتِل بالعَصا والحَجَر، وفيه مائة بعيرٍ فمن زاد فهو من أهل الجاهليّة.

أيّها الناسُ، إنّ الشيطان يَئِسَ أن يُعبَدَ في أرضكم هذه، ولكنّه قد رَضِي أن يُطاعَ فيما سوى ذلك ممّا تحقُرون من أعمالكم، أيّها الناس إنّما النَّسيءُ[2] زيادةٌ في الكُفر، يُضِلّ به الذين كفروا، يُحلّونه عاماً ويُحرّمونه عاماً، ليُواطئوا عدّة ما حرَّم الله، وأنَّ الزمان استدارَ كهيئته يوم خلق الله السموات والأرضَ، وأنَّ عدّة الشهور عند الله اثنا

(١) كان ربيعة بن الحارث مسترضعاً في بني سعد فقتلته هُذيل. صحيح مسلم ٢: ٨٨٩ ح ١٤٧.

(٢) النسيء: شهر كانت العرب تؤخّره في الجاهلية. وذلك أنَّ العرب كانوا إذا صدروا عن مِنى يقوم رجل منهم من كنانة فيقول: أنا الذي لا أعاب ولا أجاب ولا يُردّ لي قضاء، فيقولون: صدقت ! أنسئنا شهراً، أي أخّر عنّا حُرمة المُحرَّم واجعلها في صفر وأحِلَّ المُحرَّم، لأنهم كانوا يكرهون أن يتوالى عليهم ثلاثة أشهر حُرُم، لا يُغيرون فيها، لأنَّ معاشهم كان من الغارة، فيحُلّ لهم المحرّم، فذلك الإنساء. اللسان ١: ١٦٧ (نسأ).

عشر شهراً في كتاب الله يوم خَلَق السموات والأرض، منها أربعةٌ حُرُمٌ ثلاثة متواليات وواحد فردٌ: ذوالقعدة وذوالحجّة والمُحرَّم ورَجب الذي بين جمادى وشعبان، ألاهل بلَّغت؟ اللهم اشْهد!

أيّها الناس إنَّ لنسائكم عليكم حقّاً، ولكم عليهنّ حقّ، لكم عليهنَّ ألاّ يُوطئن فُرُشَكُم غيرَكُمْ، ولا يُدْخِلْن أحداً تُكْرِهونه بُيوتكم إلاّ بإذنكُم، ولا يأتين بفاحشة، فإنْ فَعَلْنَ فإنَّ الله أَذِن لكم أن تعضُلُوهنَّ وتهجروهُنَّ في المضاجع، وتضربوهنَّ ضرباً غير مُبَرِّح فإنْ انتهين وأطعنكُم فعليكُم رِزْقُهُنَّ وكِسْوَتهُنَّ بالمعروف، وإنّما النساء عندكم عَوانٌ[1] لا يَمْلِكْنَ لأنفسهنَّ شيئاً، أخذتموهُنَّ بأمانةِ الله، واستحللتم فروجهنَّ بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهنَّ خيراً، ألا هل بلغت؟ اللّهم اشهد.

أيّها الناسُ إنّما المؤمنون إخوَة، ولا يحلّ لامرءٍ مالُ أخيه إلاّ عن طِيبِ نَفْسٍ منه، ألاهل بلّغت؟ اللهمّ اشْهَد.

فلا تَرجِعَنَّ بعدي كُفّاراً يضرب بعضكم رقاب بعضٍ، فأنّي قد تركتُ فيكم ما إنْ أخذتم به لن تَضُلوّا:

كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، ألاهل بلَّغت؟ اللهم اشْهَد.

أيّها الناسُ، إنَّ ربّكم واحد، وإنَّ أباكم واحد، كلكُم لآدم وآدمُ من تُراب، إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربيّ على عَجَمي فضل إلاّ بالتقوى، ألاهل بَلّغت؟ اللهم اشهَد.

قالوا: نعم! قال: فليُبلّغ الشاهد الغائب.

أيّها الناسُ، إنَّ الله قد قسَّم لكلّ وارثٍ نَصيبه من المِيراث، ولا

---

(١) عوانٍ، أي أسرى أو كالأسرى اللسان (عنا).

يجوز لوارث وصيّةٌ في أكثر من الثلثِ، والوَلَد للفراش، وللعاهر الحجَر.

من ادّعى إلى غير أبيه، أو تولّى غيّر مواليه فعليه لعنةُ الله والملائكةُ والناس أجمعين، ولا يُقْبل منه صرفٌ ولا عَدْلٌ، و السلام عليكم ورحمة الله[١].

بعد حمده وشكره وضع المخاطبين في مشهد عاطفي يثير الانتباه، هو غياب القائد المشرّع، فهذا الغياب يشكل صدمة عاطفية ونفسيه كبيرة للأرض وللأمة لما يترتّب عليه من فقدان رحمة كبيره وهداية كانت تنعم بها الأمّة، لم تشعر بقيمة هذه الرحمة إلاّ حين تفقدها، فكما أنَّ الإنسان لا يدرك طعم الأمن والعافية إلاّ حين يفقدهما، فكذلك الأمّة لا تدرك قيمة حضور النبّوة في سمائها إلاّ حين تفقدها.

ولو تأملنا هندسة الخطبة وبنائها لو جدنا عمارة فنية رائعة في بنائها، فالقارئ يجد أنَّ الخطبة قد اتسمت بعنصري الإيقاع والتصوير الواقعي، وقد تجلّى الإيقاع بالمحسنات البديعية والتوازن والفواصل بين مفردات ومقاطع الخطبة، وقد تضمنت الخطبة في بنائها موضوعات متعدّدة تدخل ضمن أدب التشريع والتقنين.

وقد سبر غور هذه الخطبة مفكّر وأديب إسلامي كبير، هو الدكتور محمود البستاني فقال:

وما دامت الخطب تعتمد عنصر الإثارة للجمهور، فحينئذٍ لابدَّ أن تعتمد بناءً فنّياً يقوم على مراعاة القوانين التي تُحكِم العمليات الذهنية والنفسية، من حيث الاستدلال والتدرُّج بعواطف الجمهور

---

(١) تحف العقول: ٣٠ ـ ٣٤، بحار الأنوار ٧٣: ٣٤٨ ـ ٣٥٠ ح ١٣.

وترتيب المقدّمات والنتائج، وطرح الموضوعات المتجانسة أو المتخالفة، مع وصلها بقوانين التداعي الذهني . . . إلخ.

بيد أنّه من المؤسف أن نلحظ أنَّ خُطب الرسول ﷺ ومثلها أغلبية النصوص التشريعية، قد تعرَّضت لنقيصة أو تزيُّد أو تحريف بسبب مذهبي أو أسباب فنّية من سهو وخطأ في النسخ أو الطباعة. . إلخ، ممّا يتعذّر على الدارس أن يتناول النصّ من خلال بنائه الهندسي، لأنَّ أقلّ تحريف أو تزيّد أو نقصان يترك خللاً في بناء النصّ.

لكن مع ذلك يُمكننا أن نلحظ ـ ولو إجمالاً ـ أنَّ الخطبة يُراعى فيها ترتيب الموضوعات وتخضع لعمارة فنّية ذات إحكام وإمتاع، ففي خطبته ﷺ في حجّة الوداع مثلاً، بالرغم من تفاوت النصوص فيها، إلاّ أنَّ هيكل الخطبة يفصح عن إحكام خطوطها، فقد استهلّت بالحمد والاستغفار والتشهّد . . . إلخ.

ثمَّ انتظمت في مقاطع يفتتح كلُّ واحد منها بعبارة «**أيّها الناس**»، ويختم بعبارة «**اللّهم اشهد**» في غالبية المقاطع، وكلّ مقطع يتضمّن موضوعاً محدّداً أو موضوعات مختلفة، لكنّها متجانسة، ففي المقطع الأوّل يطرح الحمد، وفي الثاني مطالبة الجمهور بالاستماع، وفي الثالث تُطرح قضية الدماء والأموال، وفي الرابع قضيّة الأشهر الحرم، وصلتها بالقتال، وفي الخامس تطرح قضيّة التعامل مع النساء، وفي السادس، وهو المقطع الذي لوحظ فيه طرح أكثر من موضوع، وفيه قضيّة الثقلين، كتاب الله وعترة النبيّ ﷺ، حيث تفاوتت النصوص في صياغة عباراته وحذف بعضها، بخاصّة أنّ الحذف مرتبط بدافع مذهبي، مضافاً إلى تضمّنه موضوعاً اقتصادياً قد يبدو وكأنّه في موضوع آخر.

وفي المقطع السابع تطرح قضيّة تزكية الإنسان من خلال التقوى وليس النسب والعنصر، وفي المقطع الثامن طرحت قضية الإرث والانتساب العائلي فالخطبة إذن خاضعة لبناء هندسي ذي مقاطع ثمانية كلّ واحد فيها يبدأ، كما قلنا، بعبارة خاصّة، وينتهي بعبارة خاصّة تتكرر في غالبيته المقاطع تناولت أهم الظواهر المتّصلة بالحاجات الفكرية والجسمية والنفسية والإجتماعية[١] فلم تكن خطبه مواعظ فقط، وإنّما كانت تشريعاً و تنظيماً لحياة الأمّة علاوة على أنّها مستودع علوم، ونشرة جدارية تجد فيها لوحات فنّية رائعة.

ومجمل حياة الرسولﷺ في صدر الاسلام كانت أساس التشريع والتنظيم للفكر والحضارة الإسلامية، وكان القرآن والرسولﷺ في أحاديثه يلبّيان حاجات الأُمّة، اعتقادية كانت أو تشريعية، أو خلقية، وكانت الأسئلة تترى موجّهة إلى الرسولﷺ فيجيب عنها الوحي القرآني تارةً، وتجيب عنها أحاديث الرسول تارة أخرى.

وأسئلة المجتمع آنذاك لم تكن تنتهي إلى حدّ، وكانوا يسألون الرسول في كلّ صغيرة وكبيرة، فقد سألوه عن الروح وسألوه في القدر، وسألوه عن الأزل، وسألوه عن المصير، وسألوه عن الله، وعن الإيمان والإسلام، والإحسان والساعة، وسألوه عن الخمر والميسر، والمأكل والمشرب، والأهلّة والمحيض، وسألوه عن كلٍّ ما كان يجول في أذهانهم[٢].

وإذا كان هذا الفيض من الأسئلة يواجه صاحب الرسالة، فلابّد

(١) تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي ١٥٤.
(٢) ينظر القرآن والنبي للدكتور عبدالحليم محمود ٩٨ ط دار المعارف مصر.

له من أدب وعلم وفنّ يغَطّي هذا السيل من الأفكار والمشاعر الأنسانية التي تجول في أذهان السائلين، فكانت الخطبة والوصيّة، وكانت الرسالة، وكان الحديث، وكان المثل، كان أسلوب الكلام يتعدّد ويتشعب وفقاً للغرض التوصيلي والرسالي الذي يراه ﷺ مناسباً للناس.

والنظرة الإجمالية للآداب النبوية من خطبة ورسالة أو مثل أو حديث أو وصية تُعطي للباحث والدارس تصوّراً واضحاً بأنَّ الأدب الذي وصل إلينا هو أدب تشريعي مقنن[١] هادف يرمي إلى وضع أساس وتشييد حضارة جديدة للإنسان المعاصر لعصر النبّوة وللأعصار التي تليه.

فدسترةُ النظم والقوانين التي تتطلبها حياة الإنسان تتطلّب وضع هذه القوانين والنظم في ثوب فنّي جميل، كي لا تضيع هذه الأفكار والنظريات العظيمة في متاهات الزمن.

إنَّ الآداب والفنون حفظت لنا ثقافات ونظريات وحضارات، والفنّ هو وسيلة وأداة موظفة ومطوّعة للمثل والقيم التي ينادي بها المصلحون، وليس مذهب الفن للفن هو ضالّة القائد والمرشد والمصلح، وهذا الإدراك الواعي لوظيفة الفن ككل، والأدب بشكل أخصّ هو الذي حدا بسيّد البشر بأن يكون انتظام كلامه وتشريعه بهذا النثر الفنّي الجميل الذي يتساوق مع الزمن.

ولفظة التشريع لو بحثنا عن أصلها اللغوي لوجدنا أنَّ الشين والراء والعين أصل واحد، وهو شيء يُفتح في امتداد يكون فيه.

---

(١) وضع الدكتور محمود البستاني كلّ النصوص المروية عن النبي ﷺ تحت عنوان أدب التشريع.

ومن ذلك الشريعة: وهي مورد الشاربة الماء، واشتُقّ من ذلك الشرعة في الدين، والشريعة.

ومن ذلك يُقال: أشرعت طريقاً، إذا أنفذته وفتحتهُ، وشرعت أيضاً، وشرعت الإبل، إذا أمكنتها من الشريعة.

هذا هو الأصل ثمّ حُمل عليه كلّ شيء يُمَدّ في رفعة وغير رفعة[1]. فوصف الدكتور البستاني بأنه أدب تشريع، جاء بعد دراسة وتأمّل امتدّ سنوات أمضاها بالبحث والدراسة.

فصيغة التشريع تضيف إلى معنى المادة المصوغة منها تأكيداً وإشعاراً بقوّة الوقوع والحصول، مثل الذي نشاهده عندما نقارن جملة كَسَر الزجاجة بـ كسَّر الزجاجة، ولذلك استعملت لفظة التشريع بمعنى القانون المقنَّن.

فإنَّ صيغة التشريع تدلّ على قوّة الإلزام في ما هو مشرّع[2]، ولعَّل هذا ما أراده البستاني في إطلاقه هذا العنوان.

وإذا كان للإنسان لغتان: لغة مجرّدة، ولغة منقّحة وهي لغة الفن، فإنّ اللغة المجرّدة لغة الكلام العادي لا تترك في نفس القارئ والسامع ما تتركه لغة الفن من تأثير وانفعالات تنصبّ في دفع الإنسان نحو التغيير والإنصلاح المشهود الذي نهجه الأنبياء والمصلحون.

فالتشريع الذي جاء به الأنبياء ورسُل الأديان صِيغ بقالب فني كامل كما هو معروف من تاريخ الأديان، وبشكل واضح وملفت تشريع الدين الإسلامي الحنيف.

---

(١) ينظر معجم مقاييس اللغة ٣:٢٦٢ (شرع).

(٢) ينظر علم أصول القانون ٦٤ لعبد الله مصطفى ط المكتبة الوطنية بغداد.

وكتاب نهج البلاغة معلم واضح في تاريخ الدين الإسلامي بعد القرآن والذي سُبِك بلغة الفن الجميل الساحر الأخّاذ للعقول، وهو كتاب تشريع للأمّة.

براعة النبيّ ﷺ في المكاتبة والرسالة

عُرفت الأمّة العربية قبل الإسلام بأنها أمّة أُميّة، لا تعرف الكتابة كفنّ من فنون الأدب، وهذا يحملنا على التفكير بأنَّ التدوين ظاهرة إسلامية بحتة أوجدتها متطلبات المدنية الجديدة، وأفرزت هذا النمط من الثقافة.

وبالرغم من أنّ عدم شيوع التدوين عصرئذٍ. أي العصر الجاهلي. يعني إمكانية نفي أي رسالة في هذا الميدان، إلاّ أنّ المراسلة وجدت بشكل أو بآخر، بخاصّة المراسلات السياسية بين الروم والفرس وبين ولاتهما من العرب في الحيرة والشام.

كما أنّ بعض التحالفات القبلية التي كانت تتمّ بين أكثر من طرف، تعني أن كتابة الرسالة أو الحلف. وهو رسالة أو ميثاق مشترك وجدت بشكل أو بآخر في عصر ما قبل الإسلام، إلاّ أنها من حيث الكم لابدّ أن تكون أضأل الأشكال الأدبية ظهوراً[١].

وقد أشار القرآن الكريم إلى حقيقة اجتماعية، هي الجهل والأميّة التي كانت سائدة في سواد العرب قبل بعثته ﷺ بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[٢]، فظاهر الآية يفيد أنَّ

(١) ينظر تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي ،١٤.
(٢) الجمعة ،٢.

الكتابة لديهم عزيزة، إنْ لم تكن عديمة.

وقد نُسِب إلى ابن عباس قوله: (الأمّيون العرب كلهم، من كتب منهم ومن لم يكتب؛ لأنهم لم يكونوا أهل كتاب)(١).

ورووا له أيضاً: (أنّ الأميين قوم لم يصدقوا رسولاً أرسله الله ﷻ ولا كتاباً أنزل، وكتبوا كتاباً بأيديهم، وكأنّ تسميتهم بالأميّين لجحودهم بكتاب الله ﷻ)(٢).

وقد يُفهم من قوله ﷻ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾(٣) بأنّ الأميّة بالمفهوم القرآني لا تعني انعدام المعرفة بالقراءة والكتابة وحدها، وإنّما اصطلاح يُراد به فقدان البصيرة وقلّة الثقافة والمعرفة، والتي تؤدّي بصاحبها إلى التيه والضلال.

وقد أيّد ﷺ ما جاء به القرآن الكريم من وصف هذه الأمّة بأنها أمّة أميّة، بقوله لجبرائيل عليه السلام:

«إنّي بُعِثتُ إلى أمّة أُميين، فيهم الشيخ الفاني، والعجوز الكبيرة، والغلام». قال جبرائيل عليه السلام: فَمُرْهُم فلْيقرءوا القرآن على سبعة أحرف(٤).

والأميّ في الأصل: الذي لا يكتب ولا يقرأ المكتوب ،وكان غالب العرب كذلك(٥).

---

(١) تفسير القرطبي ١٨: ٩١.

(٢) ينظر التبيان للشيخ الطوسي ١ : ٣١٨، جامع البيان لابن جرير الطبري ١ : ٥٢٨.

(٣) البقرة .٧٨ وقد فسّر الإمام الحسن العسكري عليه السلام الأميّ بأنه منسوب إلى أمّه، أي هو كما خرج من بطن أمه، لا يقرأ ولا يكتب. تفسير الإمام الحسن العسكري :٢٩٩ ح١٤٣، بحار الأنوار ٢: ٨٦ ح١٢، الاحتجاج: ٤٥٦.

(٤) مسند أحمد ٥: ١٣٢، كنز العمال ٢: ٦٠٢ ح٤٨٥٣، تفسير الصافي ١٠: ٦٠.

(٥) فتح القدير للشوكاني ٥: ٢٢٤.

وتأكيد أميّتهم يفهم ممّا روي عنه أنه ﷺ قال: «**إنّا أمّة أميّون لا نكتب ولا نحسب، الشهر هكذا وهكذا**»، وضرب بيده ثلاثاً ثمّ نقّص واحدة[١].

وأما قوله ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[٢]، فهو تشريف وتكريم له ﷺ وتأكيد للإعجاز اللغوي والبياني الذي جاء به ﷺ.

فالله سبحانه وتعالى يقول له: لو كنت من قبل أن نوحي إليك تقرأ الكتاب أو تخطه بيمينك، إذاً لشُكّ بسبب ذلك من أمرك، وما جئتهم به من عند ربّك، من هذا الكتاب الذي تتلوه عليهم، ولقال المبطلون: إنه سجع وكهانة وإنّه أساطير الأوّلين[٣].

قال الشيخ الطوسي: ووجه النعمة في جعل النبوة في أميّ موافقة ما تقدّمت البشارة به في كتب الأنبياء السالفة، ولِما فيه من أنه أبعد من توهم الاستعانة على ما أُتي به من الحكمة[٤].

ويقول الدكتور عبد الحليم محمود بخصوص هذا الموضوع:

إذا وقفنا قليلاً عند هاتين الآيتين فإننا نجد أنَّ الآية الأولى تريد أن تقول: إنّه حتّى لو فرضنا أن محمداً صلوات الله عليه كان يقرأ

---

(١) المصنّف لابن أبي شيبة الكوفي ٢: ٤٩٧ باب ٨٢ ط دار الفكر بيروت.

(٢) العنكبوت ٤٨ و ٤٩. وفي الآية اختصار وتقديره: لو كنت تتلو الكتاب وتخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون (تفسير التبيان ٨: ١٩٣).

(٣) ينظر تفسير الطبري ٤:٢١ ط الحلبي مصر. وقد روي عن ابن عباس أنه قال: كان نبيكم لا يقرأ ولا يكتب ولا يحسب وقرأ الآية (ينظر تفسير القرطبي ٧: ٢٩٨).

(٤) التبيان ٤: ١٠ وقد ذكر الطبري أيضاً: أنّه في التوراة والإنجيل آية نبوته أن يخرج حين يخرج ولا يعلم كتاباً، ولا يخطّه بيمينه (تفسير الطبري ٥:٢١).

ويكتب، وأنه كان يتلو من قبله كتاباً، أو كان يخطّه بيمينه لاقتصر الارتياب على المبطلين فحسب؛ ذلك أنَّ معاني الكتاب ومفاهيم الدعوة التي أتى بها والقواعد والمبادئ التي يبشّر بها، كلّ ذلك آيات بيّنات في صدور الذين أُوتوا العلم، لا ينفيها ولا يجحدها إلاّ الظالمون، والظالمون في كلّ آونة يجحدون الحقّ، وينكرون المنطق السليم[١].

والمطلوب من النبيّ بصفته مبلّغ وصاحب رسالة هو لغة الكلام التوصيلي، لا لغة الكتابة، وإن كانت الكتابة ضرورة حضارية لتدوين التشريعات والنظم، والكتابة آنذاك ذات غرض توصيلي أضيق، ويمكن حصرها بأفراد وجماعات قليلة يمكنها التفاعل مع الرسالة المكتوبة.

واللغة بمفهومها العام تتضمن جميع صور التخاطب والاتصال، سواء كان لفظياً أو غير لفظي، بينما لا تُطلق لغة الكلام في الغالب الأصحّ إلاّ على صورة التخاطب اللفظي الإنساني، سواء كان هذا التخاطب منطوقاً أو مكتوباً.

والكلمة نقطة انطلاق الإبداع الذي يُعدّ قوّة أساسية يعتمد عليها الإنسان في تكوين شخصيته وتثبيت وجوده الاجتماعي، وفي تحقيق رغباته وطموحاته، وهي المنطلق الذي يسير عبره أو من خلاله ليبعث في حياته القدرة على البقاء الاستمرار، ويحقّق الرقي والتقدّم له وربّما للبشرية جمعاء.

وفي الكلمات طاقة كامنة وقدرة خاصة لا تمتلكها وسائل التعبير الأخرى[٢]... ولقد تأثر الجنس البشري بخصائص الكلمات التي هي

---

(١) القرآن والنبيّ ٢٥٠ ط دار المعارف مصر.

(٢) اتخذ أرباب الفكر والثقافة وسائل تعبير متعددة، منها الرسم والنحت مثلاً في بثّ أفكارهم ونظرياتهم إلاّ أنها تظلّ أدنى مستوى في التأثير من العبارة الناطقة.

أدوات للسيطرة على الأشياء.

وبما أنَّ البراعة في الإلقاء، والفصاحة والسلاسة في التعبير، والبلاغة في القول عامّة، لا تتم إلاّ مع قوّة الملَكَة البيانية، وإنَّ وجود الملكة البيانية الراقية القويّة متوقّف أساساً على ثراء الحصيلة اللغوية.

ولا تظهر أهميّة الحصيلة اللغوية من ألفاظ اللغة، مهما بلغت هذه الحصيلة من الثراء، مالم تكن هناك قدرة على صياغة وتركيب وسبك وربط المفردات اللغوية المكتسبة على نحو سليم، وطبقاً للمقاييس والقواعد اللغوية المتفق عليها في اللغة الواحدة.

ومالم يوافق وجود كل ذلك ذوق فني صقيل، وطبع صاف مهذب، يتمكن معه صاحب هذه الحصيلة من تحقيق التلاؤم والانسجام التام بين الأفكار والانفعالات التي يريد نقلها للآخرين وبين القوالب اللفظية التي يوصلها بها ويختارها لها[(١)]، وهذا ما نجده ماثلاً في النصوص الصادرة منه ﷺ.

وإذا كانت الإرادة السماوية تقتضي ـ على فرض ـ أن يكون فصيح الأمّة وسيّد بيانها وبلاغتها نبيّنا محمد ﷺ نبي الرحمة، لا يقرأ ولا يكتب[(٢)]، كان هذا لبيان فضيلته، وأنَّ ما لديه من حصيلة لغوية

---

(١) ينظر الحصيلة اللغوية ٦٢ـ ٦٦.

(٢) وقد تأوّل بعضهم الأميّ بأنه منسوب إلى أم القرى، أي مكة، وإن كان لا يخلو من قوة، إلاّ أن هذا التأويل لا يمكن لنا أن نفسّر به النصوص التي وصفت العرب بذلك، فليس كلّ العرب ينسبون إلى مكة. وفرض توفر الكتابة لديه ﷺ أو عدم توفرها لا يرتبط بعلمه وثقافته ﷺ، فهذه المقاييس لنا عموم البشر أمّا بالنسبة إلى نبيّ معصوم كامل فهذا خارج حدود القراءة والكتابة، فنحن نتزوّد بالعلم والمعرفة عن طريق الكتابة والقراءة، أمّا النبيّ فلا يحتاج إلى كتاب أو معلّم، بل هو صانع هذه الوسائل وموجدها، وقد انبثقت العلوم كلّها من إشارات كانت من وحي علومهم وإشاراتهم. =

وعلمية هي إلهام ونفث رحماني، وجد لهذا الإلهام لوحة عظيمة مصورة في قلب المصطفى ﷺ، ونطق بها لسانه في أروع بيان.

إلاّ أن رسالة النبوة والبلاغ الربّاني لابدّ لها من توصيل أبعد، وهذا التوصيل أداته الكتابة، ولابدّ من كاتب يوصل الرسالة التي تعبر حدود التوصيل الشفاهي، فكانت الكتابة والرسالة موضع اهتمامه ﷺ لتعبر رسالته حدود مكة والمدينة.

وإذا كان المصطفى ﷺ يدرك بفطرته السليمة أنَّ الرسالة الأدبية هي خطابة مدوّنة، كما هو دور الصحافة والإذاعة ووسائل الإعلام المعاصرة في القيام بمهام تبليغية خطيرة تضع الإنسان تحت تأثير هذه الوسائل طائعاً أو مختاراً مؤثراً أو متأثراً.

وقد فهم المصطفى ﷺ أنَّ الرسالة المكتوبة هي سفير الدولة الإسلامية والناطق الرسمي لها، فكانت لذلك تتميز بالترسّل، وبخلوّها من عنصري الإيقاع والتصوير لحدٍّ ما، وتتوفّر عنصر الفكر في الرسالة مع كثافة الألفاظ وقصر الجمل فيها.

ومن ذلك رسالته إلى كسرى ملك الفرس:

= إلاّ أنّ ما رواه الصدوق من توفّر مهارة الكتابة لديه ﷺ يفسّر حصول ذلك بعد بعثته، ولنتأمّل ما روي عن جعفر بن محمد قال: سألت أبا جعفر محمد بن علي الرضا فقلت: يا ابن رسول الله لِمَ سُمّي النبيّ ﷺ الأمّي ؟ فقال: ما يقول الناس ؟ قلت: يزعمون أنّه سُمّي الأمّي لأنّه لم يكتب. فقال عليه السلام: كذبوا عليهم لعنة الله، أنّى ذلك، والله ﷻ يقول في محكم كتابه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ (الجمعة / ٢) فكيف كان يعلّمهم ما لا يُحسن، والله لقد كان رسول الله ﷺ يقرأ ويكتب باثنين وسبعين، أو قال: بثلاثة وسبعين لساناً، وإنّما سُمّي الأمّي لأنّه كان من أهل مكة ومكّة من أمّهات القرى، وذلك قول الله ﷻ ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾. (معاني الأخبار للصدوق :٥٣ ح٦ ط مكتبة الصدوق طهران، بصائر الدرجات :٢٤٦ والآية في سورة الإنعام ٩٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس:

سلامٌ على من اتّبع الهدى، وآمن بالله ورسوله وشَهِد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمداً عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الله فإنّي أنا رسول الله إلى الناس كافةً، لأُنذر من كان حيّاً ويحقّ القول على الكافرين، أَسْلِم تَسْلَم، فإنْ أبيتَ فعليك إثم المجوس»[(١)].

ومن ذلك رسالته إلى قيصر ملك الروم:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن عبد الله إلى هِرَقل عظيم الروم:

سلامٌ على من اتبع الهدى، أمّا بعد فإنّي أدعوك بدعاية الإسلام، أَسْلِم تَسْلَم، يُؤتك الله أجرك مرتين، فإنْ تولّيت فإنّما عليك إثمّ الإرّيسين[(٢)].

---

(١) سيرة ابن كثير ٣: ١٩٥ ط دار الفكر بيروت بتحقيق صدقي العطار، بحار الأنوار ٢٠: ٣٨٩.

(٢) قال ابن الأعرابي: أَرَس أرْساً، إذا صار أريساً، وأرّس يُؤرّس تأريساً، إذا صار أكّاراً، وجمع الأريس أريسون، وجمع الإرّيس إرّيسون وأرارسة وأرارس. قيل إنّما قال ذلك لأنَّ الأكّارين كانوا عندهم من الفُرس وهم عبدة النار فجعل عليهم إثمهم. وقيل يريد الذين هم قادرون على هداية قومهم ثمّ لم يهدوهم، وأنت إرّيسهُم الذي يجيبون دعوتك ويمتثلون أمرك، وإذا دعوتهم إلى أمرٍ أطاعوك، فلو دعوتهم إلى الإسلام لأجابوك، فعليك إثمّ الإرّيسين الذي هم قادرون على هداية قومهم ثمّ لم يهدوهم، وذلك يُسخط الله عليهم ويعظّم إثمّهم. وقال بعضهم: في رَهْط هِرقَل فرقة تُعرف بالأروسيّة فجاء على النسب إليهم. وقيل إنّهم أتباع عبد الله بن أريس، رجل كان في الزمن الأوّل، قتلوا نبيّاً بعثه الله إليهم، وقيل الإرّيسون: الملوك. وقيل: هم العشّارون. لسان العرب ٦: ٥ (أرس).

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[1].

ومن ذلك رسالته ﷺ إلى قيصر من تبوك:

«من محمد رسول الله إلى صاحب الروم:

إنّي أدعوك إلى الإسلام، فإن أسلمت فلك ما للمسلمين وعليك ما عليهم، فإنْ لم تدخل في الإسلام فأعطِ الجِزية، فإنَّ الله تبارك وتعالى يقول:

﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾[2] **وإلاّ فلا تَحُل بين الفلاحين وبين الإسلام أن يدخلوا فيه أو يُعطوا الجزية»** [3].

ومن ذلك رسالته إلى المُقَوْقَس عظيم القِبْط:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن عبد الله إلى المُقَوْقَس عظيم القِبْط:

سلامٌ على من اتّبع الهدى، أمّا بعد فإنّي أدعوك بدعاية الإسلام، أَسْلِم تَسْلَم، يُؤتك الله أجرك مرّتين، فإنْ تولّيت فإنّما عليك إثم القِبط.

---

(١) آل عمران ٦٤، تاريخ اليعقوبي ٢: ٧٧، بحار الأنوار ٢: ٣٨٦، مسند أحمد ١: ٢٦٣.

(٢) التوبة ٢٩.

(٣) الأموال لأبي عبيد ٢٨ ح٥٥ ط دار الحداثه بيروت.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾» [١].

ومن كتاب له ﷺ إلى النجاشيّ الأول:

بسم الله الرحمن الرحيم

«من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم[٢] ملك الحبشة:

سلامٌ عليك فإنّي أحمد إليك الله الملك القدّوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونَفَخَه، كما خلق آدم بيده ونفخه، وإنّي أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتّبِعَني فتؤمن بي وبالذي جاءني، فإنّي رسول الله وقد بَعثتُ إليكم ابن عمّي جعفراً ومعه نفر من المسلمين، فإذا جاءوك فأقرّ ودع التجبّر وإنّي أدعوك وجنودك إلى الله ﷻ وقد بلّغت ونصحت فاقبلوا، والسلام على من اتّبع الهدى» [٣].

وقد وصف الدكتور البستاني الرسالة التي كتبها ﷺ إلى عظيم الروم بأنها تماثل البرقية التي يُراعى فيها ما أمكن من الاقتصاد

(١) عيون الأثر لابن سيد الناس ٢ : ٣٣١، بحار الأنوار ٢٠ : ٣٨٣، والآية ٦٤ من سورة آل عمران.

(٢) الأصحم والصحمة: سواد إلى الصفرة. وقيل: هي لون من الغُبرة إلى سواد قليل. وقيل: هي حمرة وبياض. وقيل صفرة في بياض. اللسان (صحم).
والنجاشي لقب له ولملوك الحبشة، مثل كسرى للفرس والقيصر للروم. ينظر سفينة البحار ٤ : ٤٦٠ (نجش) ط البحوث الإسلامية مشهد.

(٣) السيرة النبوية لابن كثير ٢ : ٤٢، بحار الأنوار ١٨ : ٤١٩، تاريخ الطبري ٢ : ٢٩٤.

اللغوي، بحيث لا يمكن أن يُستغنى عن كلمةٍ واحدة منها.

وقال: قد تميّزت بإحكام ومتانة إيقاعاتها وهندستها وتقطيعها إلى خطوط متوالية متجانسة مثل العبارة: **«أَسْلِم تَسْلَم، يُؤتك الله أجرك مرّتين» كما تميّزت بملاحظة السياق الذي ورد فيه، فاستشهدت بآية عن أهل الكتاب، والمرسل إليهم منهم، وحمّلته مسؤولية التخلّف بالنسبة إلى رعاياه أيضاً، وهم الفلاّحون الذين شكّلوا غالبية مجتمعه.**

وقد لوحِظ السياق في رسائله الأخرى التي وجهها إلى عظيم فارس والقبط، حيث تضمنت نفس الدلالة والعبارة، ولكنّه ﷺ حمّلهما إثم المجوس والأقباط، تحقيقاً للسياق الفني الذي أشرنا إليه.

ثمّ قال: لكنّه عندما وجّه رسالته إلى النجاشي سلك منحىً أدبياً آخر يتناسب مع تركيبته الفكرية والنفسية، فقد خاطبه مركّزاً على المسيح عليه السلام الذي ينتسب إليه، كما استشهد بالآية الكريمة التي تضمنت صفات الله تعالى ومنها: السلام، وألمح إلى عيسى والبتول، وكل أولئك يتناسب مع عاطفته الدينية عن المسيح عليه السلام، حيث أن جوابه للنبي ﷺ تضمَّن التأكيد على أنَّ عيسى لم يزد على ما قاله الرسول ﷺ، ممّا يعني أنّه ﷺ خاطبه وفقاً لما يخبره عن تركيبته النفسية والعبادية.

وقال الدكتور البستاني: أمّا رسائله إلى أمراء العرب فتختلف لغتها بطبيعة الحال، فمثلاً بعث برسالته إلى ملكي[1] عمان، وجاء فيها:

«إنكما إن أقررتما بالإسلام وليتُكما، وإن أبيتما أن تقرّا

---

(١) هما جيفر وعمّار ابنيّ الجلندي الأزديين. ينظر سيرة ابن كثير ٣: ٢٠٠.

بالإسلام فإنّ مُلككما زائل عنكما، وخيلي تحلّ بساحتكما وتظهر نبوتي على ملككما» [١].

وكذلك في رسالته ﷺ إلى أمير آخر، ملوّحاً له بأن: **الإسلام سيظهر إلى منتهى الخُفّ والحافر**، مهدداً إيّاه بنفس اللغة السابقة التي ترهص بالفتح، حيث أن معرفته بمزاج العربي والموقع الجغرافي لبلده سوّغ له مثل هذه اللغة المهددة من جانب، والملوّحة ببقاء الملك له من جانب آخر.

ثمّ قال: وأمّا رسائله ﷺ إلى الأمراء الذين استجابوا للرسالة الإسلامية، أو إلى ولاته في الأرض التي أسلمت، فتتفاوت لغتها ومضموناتها، حيث تضمّن بعضها المصالحة، والبعض الآخر التخيير بين الإسلام والجزية، والبعض الثالث فرض الزكاة ونصبها المختلفة، بالنسبة للأمصار والقبائل الإسلامية، فضلاً عن التوصية بالمبادئ العامة المرتبطة بالصلاة وإقامة الأحكام والقضاء ... إلى آخره [٢].

مراعاة النبيّ ﷺ لأحوال المخاطبين

وتجد في هذه النصوص مراعاة منشئها (عليه وعلى آله الصلاة والسلام) المعنى المقامي، والمعنى المقامي، أو بعبارة أخرى مقامات الكلام، أي أحواله موفرّة في رسائله وخطبه ﷺ.

وقد كان رسول الله ﷺ يخاطب حضوره بما يدركون، ففيهم البدوي الجافي فيخاطبه بما يناسب جفاءه وقسوته، ويُفهِم الحضري بما يلائم حياته وبيئته، كما أنّه كان يراعي تفاوت المدارك، وانتباه

---

(١) نصب الراية ٦: ٥٦٥، عيون الأثر لابن سيد الناس ٢: ٣٢٤.

(٢) تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي ١٥٠.

أصحابه وقدرتهم الفطرية والمكتسبة فتكفي منه الإشارة إلى الألمعي الذكي، واللمحة العابرة إلى الحافظ المجيد.

ومن ذلك ما رواه أبو هريرة قال:

جاء رجل من بني فزارة إلى النبيّ ﷺ فقال: إنَّ امرأتي ولدت غلاماً أسود وإنّي أنكرته.

فقال له النبيّ ﷺ: **هل لك من إبل** ؟ قال: نعم.

قال ﷺ: فما ألوانها ؟ قال: حُمُر.

قال: هل لك فيها من أورق ؟ قال: إن فيها لورقاً.

قال ﷺ: فأنّى أتاها ذلك ؟ قال: عسى أن يكون نزعة عِرق.

قال: وهذا عسى أن يكون نزعة عِرق[١].

وقد عرف البلاغيون المعنى المقامي في البلاغة في مراعاة مقتضى الحال، يقول القزويني:

ارتفاع شأن الكلام في الحسن والقبول بمطابقته للاعتبار المناسب، وانحطاطه بعدمها، فمقتضى الحال هو الاعتبار المناسب[٢].

والاعتبار المناسب في مقامات الكلام متفاوت حسب المقام، فمقام التنكير والإطلاق، والإيجاز والإطناب، وكذا خطاب العالم والجاهل، والذكي والغبي، هو الاعتبار المناسب للكلام الذي ينشئه ﷺ.

---

(١) ينظر صحيح البخاري ٨: ١٥٠، صحيح مسلم ٤: ٢١١.

(٢) التلخيص في علوم البلاغة : ٣٤

وقد قسّم الاستاذ تمام حسّان المعنى إلى معنيين: معنى مقامي ومعنى مقالي، وقد حصر المواقف الاجتماعية المختلفة بالمعنى المقامي وقال:

فمقام الفخر غير مقام المدح، وهما يختلفان عن مقام الدعاء أو الاستعطاف أو التمني أو الهجاء وهلمَّ جرّاً.

وقال في المعنى المقالي(١): هو ما حدث لليهود في المدينة حين سمعوا الآية القائلة ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾(٢)، قالوا: إنّ الله فقير ونحن أغنياء.

فقال أبو الدحداح وقد فهم المقام فهماً حقيقياً: إنّ الله كريم قد استقرض منا ما أعطانا(٣).

وقد قال ﷺ فيه: «كم من عِذْقٍ رَداح(٤) لأبي الدحداح في الجنة» (٥).

---

(١) وقد أخذ مصطلح المقاميات مكاناً واضحاً في الدراسات اللغوية الحديثة فهو يعني تفسير نصٍ ما تفسيراً شاملاً إلى جانب المكوّنات اللغوية الداخلية له القرائن الخارجية المصاحبة التي تؤثّر تأثيراً واضحاً في تحديد دلالته الدقيقة ونجد أنّ المقامات بهذا التصوّر تقترب من القول المأثور في البلاغة العربية لكلّ مقام مقال. ينظر معجم اللسانيات الحديثة ١١١ ط لبنان مكتبة لبنان.

(٢) البقرة ٢٤٥.

(٣) اللغة العربية معناها ومبناها: ٣٣٧.

(٤) رَداح: من قولهم دوحة رداح: عظيمة، وكبش رداح: ضخم الإلية. ينظر لسان العرب ٢: ٤٤٧ (ردح).

(٥) كنز العمال ١١: ٦٥٨ ح ٣٣١٨١، مستدرك الحاكم ٢: ٢٠ كان من قصة أبي الدحداح على رواية: أنه كانت لرجل من الأنصار نخلة في دار رجل، فكان يدخل عليه بغير إذن، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لصاحب النخلة: بِعني نخلتك هذه بنخلةٍ في الجنة. فقال: لا أفعل، فقال ﷺ: فبعنيها بحديقة في الجنة. فقال: لا أفعل، وانصرف فمضى إليه أبو الدحداح واشتراها منه وأتى النبيّ ﷺ فقال أبو الدحداح: يا رسول الله خذها واجعل لي ـ

فالمعنى المقامي هو مظهر من مظاهر الفصاحة والبلاغة، وإدراك هذا العلم يتطلّب سليقة صافية ومعرفة بأسرار الكلام.

أصوات وقراءات الحديث

يظهر للمتتبّع والدارس لعلوم القرآن أنّ علم القراءات القرآنية نشأ وبدأ في عصر النبوّة، فالنبيّ ﷺ برأفته وبُعد نظره أسس هذا العلم ؛ لضرورات تشريعية وإنسانية تقتضيها البيئة الإسلامية التي كانت عربية اللغة وذات لهجات متعددة[(١)]، فيكون من العسير على هذه الدعوة التي اتّخذت من اللغة العربية لغة تشريع، أن تتخاطب مع أمّة ذات عقليات ولغات متفاوتة، فكان النبيّ ﷺ يكلّم هذه الأمّة على قدر الفهم الذي تستوعب به معطيات هذه الرسالة الجديدة.

وروي عنه ﷺ أنه قال: **«إنّا معاشر الأنبياء أمرنا أنْ نكلّم الناس على قدر عقولهم»** [(٢)].

وقد تجلّى هذا الإدراك واللطف بما وصل إلينا من نصوص منها:

ما روي عن أُبيّ بن كعب قال: كنت في المسجد، فدخل رجلٌ

= في الجنة الذي قلت لهذا فلم يقبله، فقال رسول الله ﷺ: لك في الجنة حدائق وحدائق. (تفسير علي بن إبراهيم القمي ٢: ٤٢٥).

(١) حُكيَ من أثر اختلاف اللغات بين العرب أنّه خرج ذوجدن الملك يطوف في أحياء معد فنزل ببني تميم فضُرِب له فسطاط على قارةٍ مرتفعة، فجاءه زرارة بن عُدَس فصعد إليه، فقال له الملك: ثب ـ أي اقعد بلُغَته ـ فقال: ليعلم الملك أنّي سامعٌ مطيع، فوثب إلى الأرض فتقطّع أعضاءً، فقال الملك: ما شأنه ؟ فقالوا: أبيت اللعن، إنّ الوثب بلغتهم الطّمر، فقال: ليس عربيتنا كعربيتكم، من دخل ظَفار فليُحَمِّر ـ أي فليتكلّم بكلام حمير ـ ثمّ تذمّم فقال: هل له من ولد ؟ فأتيَ بحاجب فضرب عليه القبّة، فكانت عليه إلى الإسلام. (جمهرة اللغة ٢ :٣٧٨ ط حيدر آباد).

(٢) بحار الأنوار ١٦ : ٢٨٠، الكافي ١ : ٢٣ ح ١٥، أمالي الصدوق : ٥٠٤.

يصلّي فقرأ قراءةً أنكرتها عليه، ثمّ دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه، فلمّا قضينا الصلاة دخلنا جميعاً على رسول الله ﷺ.

فقلت: إنَّ هذا قرأ قراءةً أنكرتها عليه، ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه.

فأمرهما رسول الله ﷺ فقرءا، فحسّن النبيّ ﷺ شأنهما، فسقط في نفسي من التكذيب، ولا إذ كنت في الجاهليّة.

فلمّا رأى رسول الله ﷺ ما قد غشيني ضرب في صدري، ففضت عرقاً، وكإنّما أنظر إلى الله ﷻ فرقاً.

فقال لي: يا أُبيّ ! أُرسِل إليّ أن اقرأ القرآن على حرفٍ، فرددت إليه: أن هوّن على أمّتي. فردّ إليّ الثانية: اقرأه على حرفين، فرددت إليه: أن هوّن على أُمّتي. فردّ إليّ الثالثة: اقرأه على سبعة أحرف، فلك بكلّ ردّة رددتها مسألة تسألنيها.

فقلتُ: اللّهم اغفر لأُمّتي، اللّهم اغفر لأُمّتي. وأخّرت الثالثة ليوم يرغب إليّ الخلق كلهم، حتّى إبراهيم عليه السلام[١].

وعن أبيّ بن كعب أيضاً قال: إنَّ النبيّ ﷺ كان عند أضاة[٢] بني غفار قال: فأتاه جبرائيل عليه السلام فقال: إنّ الله يأمرك أن تقرأ أمّتك القرآن على حرفٍ.

فقال ﷺ: **أسألُ الله معافاته ومغفرته، وأنّ أُمّتي لا تطيق ذلك.**

ثمّ أتاه الثانية فقال: إنّ الله يأمرك أن تقرأ أمّتك القرآن على حرفين.

---

(١) صحيح مسلم ١: ٥٦١ رقم ٢٧٣ (٢٨٠)، بحار الأنوار ٣١: ٢٠٩

(٢) الأضاة: الغدير، والماء المستنقع من سيل أو غيره، والجمع أضوات وأضاً مقصور مثل قناة وقنا. اللسان ١٤: ٣٨ (أضا).

فقال ﷺ: **أسألُ الله معافاته ومغفرته، وأنّ أُمّتي لا تطيق ذلك.**

ثمّ جاءه الثالثة فقال: إنّ الله يأمرك أن تقرأ أُمّتك القرآن على ثلاثة أحرفٍ.

فقال ﷺ: **أسألُ الله معافاته ومغفرته، وأنّ أمتي لا تطيق ذلك.**

ثمّ جاءه الرابعة فقال: إنّ الله يأمرك أن تقرأ أُمّتك القرآن على سبعة أحرفٍ فأيّما حرفٍ قرءوا عليه فقد أصابوا[١].

ومنها ما روي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال:

«أقرأني جبرائيل عليه السلام على حرفٍ فراجعته، فلم أزل أستزيده فيزيدني حتّى انتهى إلى سبعة أحرف» [٢].

وقد اختلف العلماء[٣] في تفسير هذه الأحرف، وذهب بعضهم إلى أبعد من معناها اللغوي، وتأوّل بعضٌ تأويلات بين منكرٍ لهذه الأحرف وبين مقرٍّ لها.

والأشبه بظواهر الأحاديث أنَّ المراد بهذه الأحرف اللغات، وهو أن يقرأ كلّ قوم من العرب بلغتهم وما جرت عليه عادتهم، من الإظهار والإدغام، والإمالة والتفخيم، والإشمام والهمز، والتليين والمدّ، وغير ذلك من وجوه اللغات، إلى سبعة أوجهٍ.

وكلّ كلمة تقرأ على الوجوه من القرآن تُسمّى حرفاً.

والحرف في الأصل: الطرف والجانب وبه سُمّي الحرف من

---

(١) صحيح مسلم ١: ٥٦٢ رقم ٢٧٤ (٨٢١).

(٢) صحيح مسلم ١: ٥٦١ رقم ٢٧٢ (٨١٩).

(٣) ينظر تفصيل هذا الاختلاف في التبيان في علوم القرآن للصابوني ٢٢٠ ط عالم الكتب بيروت.

حروف الهجاء[١].

فالمراد بالحرف هو الطرف والوجه في القراءة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾[٢]، أي على وجهٍ واحد، وهو أن يعبده في السرّاء دون الضرّاء.

وهذه الوجوه هي القراءات السبع التي قرأها القرّاء السبعة[٣]، فإنها كلها صحّت عن رسول الله ﷺ وهو الذي جمع عليه عثمان المصحف، وهذه القراءات السبع اختيارات هؤلاء القرّاء، فإنّ كلّ واحد اختار فيما روى وعلم وجهه من القراءة ما هو الأحسن عنده والأولى ولزم طريقةً منها ورواها وقرأ بها واشتهرت عنه ونُسِبت إليه، فقيل: حرف نافع، وحرف ابن كثير، ولم يمنع واحدٌ منهم حرف

---

(١) ينظر اللسان (حرف).

(٢) الحج ١١.

(٣) ولأبي مزاحم موسى بن عبد الله بن خاقان قصيدة قالها في مدح القرّاء السبعة، يقول فيها:

فللسبعة القرّاء حقّ على الورى ... لإقرائهم قرآن ربّهم الوتر

فبالحرمين ابن كثير ونافعٌ ... وبالبصرة ابن العلاء أبو عمرو

وفي الشام عبد الله وهو ابن عامرٌ ... وعاصم الكوفيّ وهو أبو بكر

وحمزة أيضاً والكسائي بعده ... أخو الحِذْق بالقرآن والنحو والشعر

والقرّاء السبعة حسب ترتيب ابن مجاهد (أحمد بن موسى بن العباس المتوفّى ٣٢٤ هـ):

- نافع بن عبد الرحمن المتوفّى ١٦٩هـ.
- عبد الله بن كثير المكي المتوفّى ١٢٠هـ.
- عاصم بن أبي النجود المتوفّى ١٢٧هـ.
- حمزة بن حبيب الزيات المتوفّى ١٥٦هـ.
- علي بن حمزة الكسائي المتوفّى ١٨٩هـ.
- أبو عمرو بن العلاء المتوفّى ١٥٤هـ.
- عبد الله بن عامر المتوفّى ١١٨هـ.

ينظر قراءات القرّاء المعروفين للأندرابي ٢٩، ١٣١ بتحقيق الدكتور أحمد الجنابي ط بيروت، مؤسسة الرسالة.

الآخر ولا أنكره، بل سوّغه وحسّنه، وكلّ واحد من هؤلاء السبعة رُوي عنه اختياران وأكثر، وكلّ صحيح.

وقد أجمع المسلمون في هذه الأعصار على الاعتماد على ما صحَّ عنهم، وكان الإنزال على الأحرف السبعة توسعةً من الله سبحانه وتعالى ورحمةً على الأمّة، إذ لو كلّف كلّ فريق منهم ترك لغته والعدول عن عادةٍ نشأوا عليها، من الإمالة والهمز، والتليين والمد، وغيره لشقّ عليهم(١).

ولكنّ الأصل في نصوص الحديث هو الوقوف على لفظ النبيّ ﷺ وقراءته(٢) به، وقد أكد ﷺ ذلك بقوله:

«نضَّر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها، وحفظها وبلّغها من لم يسمعها، فرُبّ حامل فقهٍ غير فقيه، وربّ حامل فقهٍ إلى من هو أفقه منه»(٣).

وممّا لا اختلاف فيه أنَّ كلّ ما تضمّنته بطون الكتب والأوراق من أحاديث نبوية منذ بدء التدوين الخاص في عهده ﷺ هو واجب الرواية على اللفظ والجمود على النصّ، ولقد علَّم رسول الله ﷺ أصحابه الحرص البالغ على أداء الحديث باللفظ والنصّ.

ومن ذلك ما روي عن البراء بن عازب أن النبيّ ﷺ قال:

يا بُراء كيف تقول إذا أخذت مضجعك؟

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١ : ٢٢٧.

(٢) وقد توفرت لنا نصوص تفيد أن النبي ﷺ ندب إلى قراءة القرآن بلغة وقراءة معيّنة كما في الرواية التي نسبت إلى عبد الله بن عمر أنّه قرأ على النبي ﷺ قوله ﷻ: ﴿مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ (الروم / ٥٤)، فقال النبي ﷺ له: ﴿ضُعْفٍ قُوَّةً﴾ يا غلام، فضم. جمهرة اللغة ٢ : ٩٠٣ ط بيروت.

(٣) أصول الكافي ١ : ٣٠٤ ح ١.

قال: قلتُ: الله ورسوله أعلم.

قال: إذا أويت إلى فراشك طاهراً فتوسّد يمينك، ثمّ قل: اللهم أسلمتُ وجهي إليك، وفوّضتُ أمري إليك، وألجأت ظهري إليك رغبةً ورهبةً إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلاّ إليك، آمنتُ بكتابك الذي أنزلت، وبنبيّك الذي أرسلت.

فقلتُ كما علّمني، غير أني قلت: (ورسولك)، فقال بيده في صدري «**وبنبيّك**»[١].

ومن هنا جاء اهتمام الصحابة وتشددهم في رواية الحديث بلفظه، وحرصهم على ذلك أشدّ الحرص وأبلغه، يساعدهم في ذلك تلك الحوافظ القوية الواعية، وتلك المجالس التي كانوا يعقدونها لتحمّل الحديث وروايته، ورحلاتهم المختلفة في طلب الحديث[٢].

وقد فسّر الصادق عليه السلام قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾[٣] بأنه: هو الرجل يسمع الحديث فيحدّث به كما سمعه لا يزيد فيه ولا ينقص[٤].

---

(١) الكفاية في علم الرواية: ٢٠٩، السنن الكبرى ٦: ١٩٥.

(٢) روي أن أبا أيوب رحل إلى عُقْبة بن عامر، فلما قدم مصر أخبروا عقبة فخرج إليه، قال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ لم يبق أحد سمعه غيرك، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من ستر مؤمناً على خزيةٍ ستر الله عليه يوم القيامة. قال: فأتى أبو أيوب راحلته فركبها وانصرف إلى المدينة وما حلَّ رَحْلَه. (جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر الأندلسي ١: ٩٣).

ولأبي سفيان التابعي حكاية أخبر بها أحمد بن حنبل، قال: حدثنا هشيم، أخبرنا أبو بشر قال: قلت لأبي سفيان: ما لي أراك تحدث كما يحدّث سليمان اليشكري ؟ قال أبو سفيان: إنّ سليمان اليشكري كان يكتب، ولم أكن أكتب. (تقييد العلم للخطيب البغدادي ١٠٨ نشر دار إحياء السنّة النبوية بتحقيق يوسف العش).

(٣) الزمر ١٨.

(٤) أصول الكافي ١: ٥١ ح ١، منية المريد: ٣٧٣.

ولما أخذ الحديث المنزلة الثانية من التشريع والتقنين، كانت العناية بلفظه من زمن الصدور إلى أزمان متأخرة، من ضرورات الدين الإسلامي ومتعبداته.

ولا خلاف عندهم في أن الأولى إيراد الحديث بلفظه دون التصرف فيه، وأن ذلك أمرٌ من أمور الشريعة عزيز، وحكم من أحكامها شريف، وأنّه الأصل الحقّ في نقل الحديث وتبليغه إلى الناس.

وممّا لا خلاف فيه أيضاً أنَّ كلّ ما تضمّنته بطون الكتب والأوراق من أحاديث نبوية منذ بدء التدوين الخاص في عهده ﷺ هو واجب الرواية على اللفظ والجمود على النص، فليس لأحد أن يغيّر لفظ شيء من كتاب مصنَّف ويثبّت بدله لفظاً آخر بمعناه، فإنَّ الرواية بالمعنى رخص فيها من رخص لما كان عليهم في ضبط الألفاظ والجمود عليها من الحرج والنصب، وذلك غير موجود فيما اشتملت عليه بطون الأوراق والكتب، ولأنه إنْ مَلَك تغيير اللفظ لم يملك تغيير تصنيف غيره[1].

ومهما قيل من تجويز النقل بالمعنى، فإن صفة الحديث عند تغيير ألفاظه تصبح منتفية عنه، فيصبح إطلاق مصطلح الحديث من باب التجوّز والمجاز، فكأنّه صار كلاماً عادياً، وهذا ما لا يمكن اعتباره أصلاً من أصول التشريع، وبالتالي تكون الجرأة على تغيير النصوص وهذا ما لا يحمد عقباه.

وباعتبار أنَّ الكتاب العزيز هو تشريع مجمل، وأنَّ السنّة النبوية هي المعنية بالتفصيل والتفريع، وفيها المخصّص من العموم، والمقيّد

---

(١) الحديث النبوي وأثره في الدراسات اللغوية والنحوية ٣٨٥.

من المطلق، والمفصّل من المجمل، كان التأكيد على حفظ نص الحديث وإعرابه.

إلاّ أنَّ بعض النصوص التي رويت(١) جوّزت نقل الحديث بالمعنى، ولكن هذا التجويز يكون لطبقة قليلة، هي طبقة الأصحاب الفقهاء المجتهدين الذين هم وكلاء النبيّ ﷺ والأئمة (عليهم السلام)، وليس يحقّ لكلّ من اشتغل بالعلم والتصنيف أو كلّ من صحِب النبيّ ﷺ والإمام عليه السلام ذلك.

قال المجلسي: إذا لم يكن المحدّث عالماً بحقائق الألفاظ ومجازاتها ومنطوقها ومفهومها ومقاصدها لم تجز له الرواية بالمعنى(٢).

وإذا كان أثر إعراب الحديث العادي واضحاً في تنظيم معاملات الناس وحقوقهم وعقودهم، وعليه المعوّل في الإفتاء والقضاء، فكيف يكون كلام المشرّع الواضع لأحكام العباد على مدى الأزمان.

وكان ﷺ فصيحاً يعرف الأثر الإعرابي واللفظي(٣) في تحديد

---

(١) روي أنّه قال بعضهم للنبي ﷺ: يا رسول الله، نسمع منك الحديث فلا نقدر أن نؤدّيه كما سمعناه، فقال: إذا لم تحلّوا حراماً، ولم تحرّموا حلالاً وأصبتم المعنى فلا بأس. (المعجم الكبير للطبراني ٧: ١٠٠ ح ٦٤٩١.

ومن ذلك ما روي عن السيّاري عن بعض الأصحاب عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا أصبت معنى حديثنا فأعرب عنه بما شئت (مستطرفات السرائر ٥٠ ح ١٢).

(٢) بحار الأنوار ٢: ١٦٢. والظاهر أنّ هذا الترخيص في النقل بالمعنى كان محدداً جداً وفي حالات اضطرارية، وكأن يكون الحديث يشمل مواضيع وصفية كوصف الجنة والنار، أو الحديث عن الأمم الماضية، أو عن مكارم الأخلاق، وليس في الحديث التشريعي أو السياسي من هذا شيء، ويدلّ على ذلك قوله ﷺ: إذا لم تحلّوا حراماً، ولم تحرّموا حلالاً وأصبتم المعنى فلا بأس. المعجم الكبير للطبراني ٧: ١٠٠ ح ٦٤٩١.

(٣) روي من ذلك أنه اجتمع الكسائي وأبو يوسف القاضي عند الرشيد فقال الكسائي: أبا يوسف لو قُتِل غلامُك، فقال رجل: أنا قاتل غلامِك . بالإضافة . وقال آخر: ـ

الأحكام وتوضيحها، ولكن اختلاف ألسن الرواة، وكثرة المناسبات التي ولّدت هذه الأحاديث، والمنع من تدوين الحديث في أعصر التشريع الأولى، كان من عوامل بروز هذه القراءات في الحديث[١].

وقد تلقّى التابعون عن الصحابة حديث الرسول ﷺ محكم الرواية، مضبوط الألفاظ، تضم الصحف وتحفظ الوثائق كثيراً منه، وقليلاً ما ألزمت الضرورة بعض الصحابة برواية شيء من الحديث

= أنا قاتلٌ غلامَك . بالتنوين . فأيّهما كنت تأخذ به ؟ فقال القاضي: كنت أخذتهما جميعاً، فقال له الكسائي: أخطأت، إنّما يُؤخذ بالقتل الذي جَرَّ دون النصب، والوجه فيه أنّ اسم الفاعل المضاف بمعنى الماضي، فيكون إقراراً، وغير المضاف يحتمل الحال والاستقبال أيضاً فلا يكون إقراراً (ينظر الحكاية في معجم الأدباء لياقوت الحموي ١٣: ١٧٧ ط دار الفكر بيروت).

(١) كان من كثرة اختلاف اللغات أن ذكروا لجبرائيل عليه السلام عشر لغات:

الأولى: جِبريل، بكسر الجيم، وهي لغة أهل الحجاز، قال حسان بن ثابت: وجِبريلٌ رسول الله فينا. وبها روي الحديث: أنّ جِبريل نزل على رسول الله ﷺ في أول ما أوحي إليه فعلّمه الوضوء (السنن الكبرى للبيهقي ١: ١٦١).

الثانية: جَبريل، بفتح الجيم وهي قراءة الحسن وابن كثير، وروي عن ابن كثير أنه قال: رأيت النبيّ ﷺ في النوم وهو يقرأ: جَبريل وميكاييل، فلا أزال أقرأهما أبداً كذلك.

الثالثة: جَبْرَئيل، بياء بعد الهمزة، مثال جبرعيل كما قرأ أهل الكوفة وأنشدوا:

شهدنا فما تلقى لنا من كتيبةٍ مدى الدهر إلاّ جَبْرَئيل أمامها

وهي لغة تميم وقيس. وبهذه اللغة روي الحديث: أذّن جبرئيل وأقام الصلاة لما أسرى برسول الله ﷺ. (علل الشرائع للصدوق ص٨).

الرابعة: جَبْرئِل، على وزن جَبْرَعِل، مقصور، وهي قراءة أبي بكر عن عاصم، وبهذه اللغة روي الحديث: أن جَبْرئِل نزل على رسول الله ﷺ بحنوط. (علل الشرائع ٣٠٢).

الخامسة: مثلها، وهي قراءة يحيى بن يعمر إلاّ أنّه شدد اللام.

السادسة: جبرائِل، بألف بعد الراء ثمّ همزة، وبها قرأ عكرمة.

السابعة: مثلها، إلاّ أنّ بعد الهمزة ياء، وبهذه اللغة روي حديثه ﷺ: إن جبرائيل الروح الأمين نزل عليّ. (أمالي الصدوق ٢٢٣ ح ٥).

الثامنة: جبرييل، بياءين بغير همزة، وبها قرأ الأعمش.

التاسعة: جَبرئين، بفتح الجيم مع همزة مكسورة بعدها ياء ونون.

العاشرة: جبرين، بكسر الجيم وتسكين الياء بنون من غير همزة، وهي لغة بني أسد. (ينظر تفسير القرطبي ٢: ٣٧).

على المعنى، ولكن بألفاظ قريبة جدّاً من ألفاظه، وإن كانوا أرباب اللسان العربي، وأُولي السلائق اللغوية السليمة والفطرة الصافية من شوائب اللحن والزيغ.

وتلقّى التابعون عن الصحابة هذا، فبادروا إلى تسجيله التسجيل العلمي الأمين، حفظاً وصيانةً.

وكانت الرهبة الدينية والفزع من الدخول في حكم الكاذب على النبيّ ﷺ قد ملكت مشاعر أصحاب الحديث، حتّى إنّ بعض أصحاب الحديث رُئي في المنام وكأنه قد مرّ من شفته أو لسانه شيء، فقيل له في ذلك، فقال: لفظة من حديث رسول الله ﷺ غيّرتها برأيي ففُعل بي هذا.

وقد منعوا إبدال كلمة بكلمة غيرها، وإن ساوتها في المعنى وراودتها، ويبلغ الحرص بهم غايته المتناهية، حين حظروا تقديم حرف واحد من لفظة وردت في الحديث النبوي على حرف آخر منها، كإيراد أبي زرعة لفظة عوثاء حسب سماعه من أبي هريرة دون أن يسمح لنفسه بتبديله إلى وعثاء، كما وهو سائد ومعروف، وقد علل ذلك بقوله: كان أبو هريرة رجلاً عربياً لو شاء أن يقول وعثاء السفر لقال.

وحين حذروا من إبدال حرفٍ بحرف مهما كانت صورتهما واحدة، كالذي روي عن مالك بن أنس أنه كان يتّقي في حديث رسول الله ﷺ ما بين (التي) و(الذي) ونحوهما[(١)].

وكان حرص النبيّ ﷺ على أن تكون ألفاظ الحديث محفوظة من التغيّر والتبدّل الصوتي واضحاً في صياغة هذه الأحاديث بلغة سهلة ميسورة، وبعبارة مسجوعة موشّحة بإيقاع موسيقي، وبمفردات قليلة

---

(١) الحديث النبوي وأثره في الدراسات اللغوية والنحوية ٣٨٩.

مكثّفة وبديباجة مشرقة ناصعة، لحاظاً منه ﷺ للمتغيّرات اللغوية والصوتية التي تنال النصوص الشفاهية[1]، وعلماً منه ﷺ بأن تدوين الحديث وضبطه في بداية قيام الدعوة الإسلامية يُعدّ من الصعوبة، وأكثر أصحابه أُمّيون، والذين يعرفون الكتابة معدودون، وما رافق الدعوة من مشكلات سياسية، وبعضها يتعلّق بالوضع النفسي لأصحابه.

ويلحظ المتابع لنصوص الحديث في نظرته الإجمالية أنّه قد خلت نصوص الحديث من مستبشع اللغات ومستقبح الألفاظ، كالكشكشة: وهي في ربيعة ومضر، يجعلون بعد كاف الخطاب في المؤنث شيناً، فيقولون: رأيتُكش، وبكش، وعليكش، فنمهم من يثبتها حال الوقف فقط، وهو الأشهر، ومنهم من يثبتها في الوصل أيضاً، ومنهم من يجعلها مكان الكاف ويكسرها في الوصل، ويسكّنها في الوقف، فيقول: مِنْشِ، وعَلَيْش.

---

(١) من المقرر في علم اللغة أنه: تنتاب اللغات الحية تطورات أصواتية تنشأ عنها تغيرات أساسية في اللغات، فينجم عن ذلك تغيير ملحوظ بطبيعة الصيغ الكلامية، ويحدث تطوير في الوحدات التركيبية، وأهم من ذلك ما ينشأ من تغيير في الأصوات يمكن حصره باختصار كبير في عاملين أساسيين هما: التحول التاريخي، والتحول التركيبي.

فالتحوّل التاريخي: عبارة عن تغيير وتحوير في القواعد والأصول في نظام الأصوات في اللغة، نابع عن تحولات المجتمعات البشرية من ساذجة إلى متطورة، أو من بدائية إلى متحضرة، وما يُرافق هذا التحول من تحول بالعلاقات الاجتماعية والمناخ القومي العام، ممّا ينطبع أثره على الظواهر الاجتماعية وأبرزها اللغة ؛ لأنها أكبر ظواهره التفاهمية والتخاطبية، فتتحول تدريجياً إلى لغة متطورة في كثير من أبعادها المرتبطة بتطور مجتمعها، إذ لا يمكن أن ينفصل التفكير في تحوّل مسار لغة عن التفكير في تحوّل مسار متكلّمي تلك اللغة، فاللغة في تطورها جزء لا يتجزأ من المحيط في تطوره، وليس بالضرورة التطوّر إلى الأفضل، بل قد تتطور اللغة إلى شيء آخر يعود بها إلى التدهور والانحطاط، تفقد فيه جملة من خصائصها الفنية أو الصوتية أو الجمالية، وتنسلخ فجأة عن ملامحها الذاتية وتستبدلها بما هو أدنى قيمة لغوية، وقد تزدهر ازدهاراً يفوق حدّ التصوّر، إذا كانت بسبيل من حماية أصالتها، كما هي الحال في اللغة العربية إذ يحرسها القرآن الكريم. (الصوت اللغوي في القرآن ٢٣).

ومن ذلك الكَشْكَسة: وهي في ربيعة ومضر، يجعلون بعد الكاف أو مكانها في المذكر سيناً على ما تقدّم، وقصدوا بذلك الفرق بينهما.

ومن ذلك العَنعَنة: وهي في كثير من العرب في لغة قيس وتميم، تجعل بعد الهمزة المبدوءَ بها عيناً، فيقولون في أنّك عنّك، وفي أسلم عَسْلَم، وفي أُذُن عُذُن.

ومن ذلك الفَحْفَحة: في لغة هذيل، يجعلون الحاء عيناً.

ومن ذلك الوكْم: في لغة ربيعة، وهم قوم من كَلب، يقولون: عليكِم وبِكم، حيث كان قبل الكاف ياءٌ أو كسرة.

ومن ذلك الوهم: في لغة كلب، يقولون منهِم وعنهِم وبينهِم، وإنْ لم يكن قبل الهاء ياء ولا كسرة.

ومن ذلك العَجْعَجة: في لغة قضاعة، يجعلون الياء المشدّدة جيماً، يقولون في تميميّ تميمجّ.

ومن ذلك الاستنطاء: في لغة سعد بن بكر، وهذيل، والأزد، وقيس والأنصار، تجعل العين الساكنة نوناً إذا جاوزت الطاء كأنطى في أعطى[1].

ومن ذلك الوتم: في لغة اليمن، تجعل السين تاءً كالنات في الناس.

---

(١) روي عنه ﷺ: «الامانع لما أنطيت، ولا منطي لما منعت» وقوله ﷺ: «اليد المنطية خير من اليد السفلى» النهاية ٥: ٧٦ (نطا).
وقد قرأ الحسن وطلحة بن مصرف قوله تعالى: (إنّا أنطيناك الكوثر) بالنون، وروته أم سلمة عن النبيّ ﷺ. (ينظر تفسير القرطبي ١٠: ٧٥٦٠، المعجم الكبير للطبراني ٢٣: ٣٦٥ ح ٨٦٢).

ومن ذلك الشّنشنة: في لغة اليمن تجعل الكاف شيناً مطلقاً كلبَّيش اللّهم لبّيش، أي لبّيك.

ومن العرب من يجعل الكاف جيماً كالجعبة يريد الكعبة(١).

ولئن لم ينطق الرسول ﷺ ببعض الأصوات القبلية كالعنعنة والكشكشة والكسكسة والشنشنة . . . ممّا وصفه علماء اللغة العرب بالمذموم الرديء من اللغات، لما ألغى ذلك تأثير الحديث النبوي وترابطه مع هذه الأصوات عن طريق النقلة والرواة الذين كانوا أقواماً من العرب لا من قريش فحسب، وكانوا يتناقلون حديث النبيّ ﷺ ويحملونه بلغاتهم، لا بلغة قريش تيسيراً عليهم بالتحمل والأداء، وهكذا كان يردد البعض من أهل اليمن الدعاء النبوي المشهور في مراسيم الحجّ «**لبّيك اللّهمّ لبّيك**» وفقاً لشنشنتهم قائلين: لبيش اللّهمّ لبيش.

أو كالحديث النبوي الذي كان أهل عدن يقولون فيه (ركس) لا (رجس)، وذلك على لهجتهم التي تجعل الجيم كافاً أو جيماً غير معطشة.

وتحتفظ مصنّفات الحديث النبوي بمظاهر الإبدال الصوتي بشكل واسع ودقيق، كإبدال الياء واواً في حديث ابن عمر (إرم بهما حوث وقعتا)(٢)، بدلاً من حيث ؛ وذلك أن حوث لغة تميم.

---

(١) ينظر المزهر ١٠ : ٢٢١.

(٢) قال ابن دريد: يقال اذهب حوث شئت في معنى حيث، وفي الحديث: (ضعهما حوث وقعتا) أي حيث وقعتا، يعني يديه في الصلاة إذا سجد (جمهرة اللغة ١ : ٤١٧ باب الثاء والحاء في الثلاثي الصحيح ط بيروت) وفيها ثلاث لغات، ومن ذلك قولهم: تركهم حوثاً بوثاً، وحوث بَوْث، وحيث بيث، وحاث باث، إذا فرقهم وبددهم (ينظر مجمع الأمثال ١ : ١٤٣ رقم ٧١٨).

أو كالإبدال المعاكس المتمثل باستعمال (لغيت) بدلاً من (لغوت)، إذ يروي أبو هريرة عن النبيّ ﷺ قال: **«إذا قلت لصاحبك والإمام يخطب يوم الجمعة: أنصت، فقد لغيتَ»** [١]

ولغيت كما يقول بعض أئمة العلم لغة أبي هريرة وإنّما فقد لغوت.

وسواء روى أبو هريرة هذه اللغة بالنصّ عن الرسول ﷺ، أو على حسب لغته هو، فإن الحديث قد ثبّت هذه اللغة وادخرها في مظانه العلمية الشهيرة، وحتّى عنعنة تميم التي عدّها أئمّة اللغة الأوّلون ممّا يضعف اللغة، كان من رواة الحديث من ينقل الحديث بها لأنها لغته، ولا داعي عنده للنفور منها أو الرغبة عنها، كما يتّضح من استعمال (عنّ) في الحديث النبوي بدلاً من (أنّ).

ومن مظاهر الإبدال الصوتي في لغات الحديث إبدال الهمزة دالاً إذ ينقل لنا رواة الحديث أن النبيّ ﷺ قال: **«اللّهم اشدد وطأتك على مضر»** [٢]، فقال بعض الرواة **«وطدتك» لا «وطأتك»** .

وقد تبدّل الهمزة هاء في بعض مناطق العرب، وفي هذا ورد الحديث النبوي **«أخاف أن تنكه قلوبكم»** والمعنى: أخاف أن تنكأ قلوبكم، فهي لغة في إبدال الهمزة هاء.

ومن اللهجات التي وردت في الحديث واختلف فيها الصوت الأخير من اللفظة، ما ذُكر في الحديث القائل: **«لا بأس بقتل الحدو والأفعو»** أراد الأفعى، وهي لغة أهل الحجاز[٣].

---

(١) مسند أحمد ٢: ٢٤٤ و ٥٣٢ و ٢٧٢، مسند الحميدي ٢: ٤٢٨.

(٢) قرب الإسناد: ٣٢٤، المجازات النبوية: ٦٣ رقم ٣٧.

(٣) ينظر لسان العرب ٥: ١٥٩ (فعا)، أثر الحديث في الدراسات اللغوية والنحوية ٦٣.

ومن ذلك الحديث المروي: **«فيسمعون جرس طير الجنّة»**[(١)]، فقد روى الأصمعي قال: كنتُ في مجلس شُعبة فقال: (فتسمعون جَرش طير الجنة) بالشين، فقلتُ: جرس، فنظر إليّ وقال: خذوها عنه فإنه أعلم بهذا منّا[(٢)].

ومن مظاهر الإبدال الصوتي ما رواه الأعمش في حديث عبد الله بن مسعود: أن رسول الله ﷺ كان يتخوّلنا بالموعظة مخافة السآمة.

وكان أبو عمرو العلاء قاعداً عنده بالكوفة، فقال الأعمش: يتخوّلنا، وقال أبو عمرو: يتخوّننا، فقال الأعمش: وما يُدريك ؟

فقال أبو عمرو: إن شئت أن أعلمك أن الله ﷻ لم يُعلمك حرفاً من العربية أعلمتك.

فسأل عنه الأعمش فأُخبر بمكانه من العلم، فكان بعد ذلك يُدنيه، ويسأله عن الشيء إذا أشكل عليه[(٣)].

ويتخوّلنا بالموعظة: أي يصلحنا بها ويقوم علينا بها.

وكان الأصمعي يقول: يتخوَّننا، أي يتعهَّدنا، والحمّى تخوَّنه: أي تعهّده.

قال ذو الرمّة:

لا ينعش الطَّرف إلاّ ما تخوَّنَه   داعٍ يناديه باسمِ الماء مَبْغومُ

---

(١) النهاية ١: ٢٦٠ (جرس).

(٢) جمهرة اللغة ٢: ٧٥ ط حيدر آباد، الصحاح للجوهري ٣: ٩١٢، تفسير ابن كثير ٤: ٤١٤. قال ابن فارس: سمعتُ جَرْسَ الطير، إذا سمعت صوت مناقيرها على شيء تأكله، وجَرْش الشيء: أن يُدقّ ولا يُنعَم دقّه، يقال: جرشته وهو جريش. معجم مقاييس اللغة ١: ٤٤٢ (جرس) و (جرش).

(٣) الخصائص ٣: ٢٨٩.

أي: لا ينعش طرف الغزال إلاّ ما تعهده[١].

ولا يقتصر الحذف الصوتي على نهاية الألفاظ، بل قد يقع في بدايتها ،وقد يستعمل الحديث لغة الإثبات وقت تكون فيه لغة الحذف هي الشائعة، فالحديث النبوي مصدر مهم من مصادر الدراسات الصوتية عند العرب، والحديث المروي بلغات العرب جميعاً، قد يحمل أصواتاً لا تحملها القراءات القرآنية المشهورة المقيّدة، بما كان ينطق به النبيّ ﷺ والناقلة عنه بالنص والأثر[٢].

ومن قراءات الحديث قول عائشة: كان رسول الله ﷺ أَمْلَكَكُم لأَرَبه، أي لشهوته[٣]، وأكثر الرواة يقولون: لإرْبه، والإرب: العضو.

والخطّابي يقول: إنّما هو لأرَبَه، مفتوحة الألف والراء، وهو الوَطَر وحاجة النفس، وقد يكون الإربُ الحاجة أيضاً، والأول أبين[٤].

وقال أبو عبيد: هو في الكلام المعروف لإربه، والإرب: الحاجة، أو لإرْبَتِه، والإرْبَة: الحاجة أيضاً، قال الله ﷻ: ﴿غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾[٥] فإن كان هذا محفوظاً ففيه ثلاث لغات: الأرَب، والإرْبَة، والإرْب[٦].

وباعتبار الحاجة في الإرب جاء قوله تعالى حاكياً عن موسى عليه السلام: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾[٧] لِما في عصاه عليه السلام من منافع.

---

(١) تهذيب إصلاح المنطق ٣٥١.

(٢) الحديث النبوي وأثره في الدراسات اللغوية والنحوية ٦٨.

(٣) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢: ٦٥.

(٤) إصلاح غلط المحدثين :٣٥

(٥) النور ٣١.

(٦) غريب الحديث للهروي ٢: ٣٦٤.

(٧) طه ١٨.

وحديث أبي ذر رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ عن الصلاة فقال: **خيرٌ موضوعٌ فاستكثر منه**[١]. يُروى على وجهين:

أحدهما أن يكون موضوعٌ نعتاً لِما قبله، يريد أنها خيرٌ حاضرٌ فاستكثر منه.

والوجه الثاني: أن يكون الخير مضافاً إلى الموضوع، يريد أنها أفضل ما وضِع من الطاعات وشُرع من العبادات.

وممّا يُروى من هذا الباب على وجهين، حديث ابن عباس رضي الله عنه: (أن رسول الله ﷺ صلّى على قبرٍ منبوذٍ)، فمَن رواه على أنه نعتٌ للقبر أراد: على قبرٍ مُنْتَبَذْ من القبور، ومن رواه على الإضافة أراد بالمنبوذ اللقيط، يريد أنه صلّى على قبرِ لقيطٍ[٢].

وقوله ﷺ: «**وليس لعِرقٍ ظالم حقٌّ**»[٣]، من الناس من يرويه على إضافة العرق إلى الظالم، وهو الغارس الذي غَرس في غير حقّه.

ومنهم من يجعل الظالم من نعت العِرق، يريد الغراس والشجر وجعله ظالماً؛ لأنّه نبت في غير حقّه[٤].

ومثل هذا الاختلاف في قوله ﷺ: «**كم من عذق مُعلّق أو مذلل لأبي الدحداح في الجنة**»، روي عذق بفتح العين وكسرها[٥].

---

(١) كنز العمال ٧: ٢٨٨ ح ١٨٩١٦، إصلاح غلط المحدثين: ٦٨.

(٢) إصلاح غلط المحدثين ٣٩. ونحوه الخبر (انتهى إلى قبر منبوذ وصلّى عليه) يروى بتنوين القبر والإضافة، فمع التنوين هو بمعنى الأول، ومع الإضافة يكون المنبوذ اللقيط، أي بقبر إنسان منبوذ، وسُمّي اللقيط منبوذاً لأن أمّه رمته على الطريق. النهاية ٥: ٦ (نبذ).

(٣) سنن أبي داود ٣: ١٧٨ ح ٣٠٧٣، المجازات النبوية: ٢٥٥ رقم ٢٠١.

(٤) إصلاح غلط المحدثين ٣٩.

(٥) كنز العمال ١١: ٦٥٨ ح ٣٣١٧٩ ـ ٣٣١٨٢.

والعَذْق بالفتح: النخلة بحملها، وبالكسر: العُرجون بما فيه من الشماريخ.

ومنه حديث أنس: **«لا قطع في عِذق معلَّق لأنه ما دام معلقاً في الشجرة فليس في حِرز»**

وحديث: **«لا والذي أخرج العَذق من الجريمة»** أي النخلة من النواة[١].

واختلفوا في قوله ﷺ: **«ذكاة الجنين ذكاةُ أمّه»**، ويروى لفظ «ذكاة» الثاني في هذا الحديث بالرفع والنصب، فمن رفعه جعله خبر المبتدأ الذي هو ذكاة الجنين، فتكون ذكاة الأم هي ذكاة الجنين ؛ فلا يحتاج إلى ذبح مستأنف.

ومن نصب كان التقدير ذكاة الجنين كذكاة أمّه فلمّا حذف الجار نصب، أو على تقدير: يُذكّى تذكية مثل ذكاة أمّه فحذف المصدر وصفته، وأقام المضاف إليه مقامه، فلابدّ عنده من ذبح الجنين إذا خرج حيّاً.

ومنهم من يرويه بنصب الذكاتين، أي ذكّوا الجنين ذكاة أمه[٢].

وفي حديث النبيّ ﷺ في صلح أهل نجران: **«أنه ليس عليهم رُبِّيَّة ولا دم»**[٣].

قال أبو عبيد: وبلغني ذلك عن عمرو بن دينار، هكذا الحديث بتشديد الباء والياء.

قال الفرّاء: إنّما هي ربية مخففة، أراد بها الربا.

---

(١) لسان العرب ١٠: ٢٣٩ (عذق). قال ابن السكّيت، العَذق: النخلة، والعِذق: الكِباسة. تهذيب إصلاح المنطق ١٠.

(٢) النهاية ٢: ١٦٤ (ذكا).

(٣) الفايق في غريب الحديث ٢: ٥ (ربا).

قال أبو عبيد: يعني أنه صالحهم على أن وضع عنهم الربا الذي كان عليهم في الجاهلية والدماء التي كانت عليهم يطلبون.

قال الفرّاء: ومثل رُبية من الربا، حُبية من الاحتباء، سماع من العرب، يعني أنهم تكلموا بهما بالياء، فقالوا: رُبية وحُبية، ولم يقولوا: رُبوة وحُبوة، وأصلهما الواو من الحبوة والربوة.

قال: والذي يُراد من هذا الحديث أنه أسقط عنهم كلّ دمٍ كانوا يطالبون به، وكلّ ربا كان عليهم إلاّ رؤوس الأموال فإنّهم يردّونها، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾[1].

وهذا مثل حديثه ﷺ الآخر: **«ألا أن كلّ دمٍ ومال ومأثرة كانت في الجاهلية فإنها تحت قدمي هاتين، إلاّ سدانة البيت وسدانة الحاج»**[2].

ومن الإبدال الصوتي في الحديث ما روي عنه ﷺ في قوله لعائشة: **«أيتكنّ صاحبة الجمل الأدبب التي تنبحها كلاب الحوأب، فيُقتل عن يمينها ويسارها قتلى كثيرة ثمّ تنجو بعدما كادت»**[3].

فقد روي فيه (الجمل الأزبب) بالزاي، قال ابن السكّيت: في رواية الحديث (الأزبب) أو (الأدبب)، والأدبب من الإبل بمنزلة الأزب[4].

والدّبب والدّببان: كثرة الشعر والوبر، وأراد ﷺ في الحديث

---

(١) البقرة ٢٧٩.

(٢) غريب الحديث للهروي ١: ١٣٤،

(٣) معاني الأخبار :٣٠٥، وينظر مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٧: ٢٣٤.

(٤) تهذيب إصلاح المنطق ٢١١.

الأدبّ فأظهر التضعيف ليوازن به الحوأب(١).

وقد يستعمل ﷺ بعض اللغات التي تقال بوجهين أو أثر أحدهما على الحذف والآخر على التمام.

كقوله ﷺ: **«لستُ من دِدٍ ولا الدد مني»** (٢)، والدد: هو اللهو واللعب.

قال الأحمر: وفي الدد ثلاث لغات، يقال: هذا دَد على مثال يد ودم، وهذا دداً على مثال قفاً وعصاً، وهذا دَدَن على مثال حَزن.

قال الأعشى:

أتـرحـلُ مـن لـيـلـى ولَـمّـا تَـزَوَّدِ وكنت كمن قضى اللبانةَ من دِدِ

وقال عدي بن زيد:

أيّـهـا الـقـلـب تَـعَـلَّـل بِـدَدَنْ إنّ هـمّـي فـي سـمـاعٍ وأَذَن(٣)

وهذا الخلاف الصوتي المبني على حذف الصوت الأخير أو إثباته، سمة من سمات التمايز بين لغة وأخرى من لغات العرب، وهو شبيه بقطع اللفظ قبل تمامه في لغة طيء، ويسمّي ذلك قطعة طيء، (يا أبا الحك) في (يا أبا الحكم) ولم يكن هذا مقصوراً عندهم على المنادى(٤).

---

(١) ينظر لسان العرب ١: ٣٧٣ (دبب). قال السيوطي في بعض تصانيفه: إنّه قد يُفكّ ما استحقّ الإدغام لإتباع كلمة أخرى كحديث: «أيتكنّ ... إلى آخره» فكّ الأدبب وقياسه الأدبّ إتباعاً للحوأب. ينظر بحار الأنوار ٣٢: ٢٧٩و٣٨: ٣٥٠.

(٢) المعجم الكبير للطبراني ١٩: ٣٤٤ رقم ٧٩٤، الأدب المفرد للبخاري: ١٧٠ ح ٧٨٥ وفي الموضعين من الحديث مضاف محذوف تقديره: لست من أهل دد، ولا الدد من أشغالي. ينظر اللسان ١٣: ١٥٢ (ددن).

(٣) غريب الحديث للهروي ١: ٣٤.

(٤) الحديث النبوي وأثره في الدراسات اللغوية والنحوية ٦٥.

وسجّلت لنا المصادر اللغوية الحديثية بعض النصوص الواردة عنه ﷺ خالية من النبر، والنبر بالكلام: الهمز.

وفي الحديث: قال رجلٌ للنبي ﷺ: يا نبيء الله. فقال: **لا تنبر باسمي**. أي لا تهمز.

وفي رواية فقال: «**إنّا معشر قريش لا نَنبُر**»[١]، والنبر: همز الحرف، ولم تكن قريش تهمز في كلامها[٢].

والظاهر من النصوص أنّ الحجازيين وهذيل وأهل مكة والمدينة كانوا لا يميلون للنبر، ولا شكّ أن عدم النبر من لهجات الحجاز والشمال، ووقعت المدينة ذات الجذور اليمانية تحت تأثير اللهجة الشمالية.

أمّا النجديون في شرق الحجاز، ومنهم بنو تميم فهم الذين كانوا ينبرون، وعنهم وردت روايات كثيرة شاذّة في نبر بعض الألفاظ التي نسي العرب أنها كانت تنبر أو تهمز[٣].

وروي عن عليّ عليه السلام أنه قال: «نزل القرآن بلسان قريش، وليسوا بأصحاب نبر، ولولا أنّ جبرئيل عليه السلام نزل بالهمز على النبيّ ﷺ ما همزنا»[٤].

وما روي أنّ رجلاً قال للنبي ﷺ: يا نبيء الله، فهمز. فقال ﷺ منكراً عليه: **لستُ بنبيء الله ولكني نبي الله**. هو من مظاهر

---

(١) بحار الأنوار ١: ٢٩ في بيان ح ١٩، الفائق في غريب الحديث ٣: ٢٧٢.

(٢) ينظر لسان العرب ٥: ١٨٩ (نبر).

(٣) دراسة اللهجات العربية القديمة: ١٢٧.

(٤) تاريخ آداب العرب للرافعي ١: ١١٤، شرح شافية ابن الحاجب ٣: ٣٢، الفهرست للشيخ الطوسي: ٦٠.

التعدد اللهجي في العربية وهذا له تأثير في فقه الكلام ومغزاه.

وقد فسّر ابن دريد هذا الاختلاف فقال:

النبوّة، الارتفاع عن الشيء، ومن ذلك قولهم: نبا السهم عن الهدف، لأنه تنحّى عنه، ومن لم يهمز النبيّ فاشتقاقه من هذا، لأنه نبا أي ارتفع، فكأنّ النبيّ فعيل من هذا.

قال الشاعر:

فأصبح رَتْماً دُقاق الحصى   مكان النبيّ من الكاثِب

ومن همز فهو من النبأ، من قولهم: أنبأتك بكذا وكذا، أي أخبرتك[١].

وجاء قوم من جهينة إلى النبيّ ﷺ بأسير يرعد فقال ﷺ: **أَدْفُوه**. فقتلوه[٢]

وكان ﷺ أراد الإدفاء من الدفء، فحسبوه الإدفاء بمعنى القتل في لغة أهل اليمن.

يقال: أدفأت الجريح ودفأته ودافقته ودفّوته ودافيته: أجهزت عليه، والأصل: أدفئوه فخففه بحذف الهمزة[٣].

وأمّا إبدال الميم من لام (الـ) في لغة اليمن فلهجة معروفة ومشهورة وتسمى: الطمطمانية، والميم في غالب الرأي عوض اللام فقط وليس عن (ال) لأن الألف في (الـ) ألف وصل تُكتب ولا تظهر في اللفظ.

---

(١) الاشتقاق لابن دريد : ٤٦٢

(٢) جمهرة اللغة ٣: ٢٤٣ ط حيدر آباد.

(٣) ينظر لسان العرب ١ : ٧٦ (دفأ).

ومنه الحديث النبوي الشريف: **«ليس من امبرّ امصيام في امسفر»** [١].

ويبدل الميم من الباء فيقال في (ميد): (بيد) بمعنى غير، وفي الحديث الشريف: **«أنا أفصح العرب ميد أنّي من قريش ونشأت في سعد بن بكر»** ، وفسّره بعضهم بأن معناه من أجل أني [٢].

ويبدو أن اللهجة يمانية لأن أهل اليمن يبدلون الميم من الباء، فيقولون: الكحب وهو الحصرم: الكحم.

ويُبدل كذلك من الفاء عند بعض بني سليم فيقولون: ثفلة من تمر، ثملة من تمر، أي بقية منه [٣].

---

(١) مسند أحمد ٥ : ٤٣٤، الكفاية في علم الرواية: ٢١٧.

(٢) غريب الحديث للهروي ١ : ٨٩ الصحاح للجوهري ٢ : ٥٤١ وهذا الاستثناء في الحديث تأكيد، وهذا يسمّيه البلاغيون تأكيد المدح بما يشبه الذم. ينظر التلخيص في علوم البلاغة : ٣٨١.

(٣) دراسة اللهجات العربية القديمة ٨٤.

الأمثال النبوية

الأمثال في أي لغة من اللغات هي خلاصة تجارب الشعوب والأمم، وقد صُبّت في قالب لفظي موجز، كما أنَّ الأمثال مرآة صادقة لثقافة الأمّة واتجاهاتها الفكرية، ونظرتها إلى الحياة وفهمها لها؛ لذلك تجدها مشحونة بالأفكار والحكم والمواعظ.

والمثَل بالأصل اللغوي بمعنى المِثْل أي النظير ثم يُستعار للحال أو القصة أو الشأن.

قال الراغب: المثل عبارة عن قولٍ في شيءٍ يشبه قولاً في شيء آخر بينهما مشابهة، ليُبيّن أحدهما الأخر ويصوّره، نحو قولهم: (في الصيف ضيّعت اللبن)، فإنّ هذا القول يشبه قولك: أهملت وقت الإمكان أمرك، وعلى هذا الوجه ما ضرب الله تعالى من الأمثال، فقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾[1].

وقال المبرّد: المثل مأخوذ من المِثال، وهو قولٌ سائرٌ يُشبَّه به حال الثاني بالأوّل، والأصل فيه التشبيه، فقولهم: مثُل بين يديه، إذا انتصب. معناه أشبه الصورة المنتصبة، و (فلان أمثل من فلان)، أي أشبه بماله من الفضل.

---

(١) المفردات ٤٦٢ (مثل)، والآية في سورة العنكبوت ٤٣.

والمثال: القِصاص ؛ لتشبيه حال المقتصّ منه بحال الأوّل، فحقيقة المثل ما جُعل كالعلم للتشبيه بحال الأوّل، كقول كعب بن زهير:

كانت مواعيدُ عُرقوبٍ لها مثلاً   وما مواعيدها إلاّ الأباطيل

فمواعيد عرقوب مثل لكلّ ما لا يصحّ من المواعيد.

وقال ابن السكّيت: المثّل لفظ يخالف لفظ المضروب له، ويوافق معناه معنى ذلك اللفظ، شبّهوه بالمثال الذي يُعمل عليه غيره.

وقال غيرهما: سُمّيت الحكم القائم صدقُها في العقول أمثالاً ؛ لانتصاب صورها في العقول، مشتقّة من المثول الذي هو الانتصاب.

وقال إبراهيم النظّام: يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية، فهو نهاية البلاغة.

وقال ابن المقفّع: إذا جُعل الكلام مثَلاً كان أوضح للمنطق، وآنق للسمع، وأوسع لشعوب الحديث[(١)].

ويرى الأستاذ أحمد الزيات: أن الأمثال منشؤها الشرق ؛ لأنّه كان موطن الحكم المطلق والاستبداد العنيف، انبعث في صدور الضعفاء المستعبدين صدى خافتاً ؛ لاحتجاج مكظوم صامت، لم يجدوا له متنفّساً ولا طريقاً إلى آذان الطغاة إلاّ هذه الكنايات والرموز يسترون وراءها ما يريدون من نصحٍ وعِظة.

وقد بدأ ظهور هذا النوع في الهند، ثم انتقل منها إلى الصين، ثم إلى فارس فبلاد العرب فبلاد الإغريق، وأقدم ما عُرف منه أمثال

---

(١) مجمع الأمثال للميداني ١ : ٦.

لقمان الحكيم، وإيزوب الرومي، وبيدبا الهندي[١].

وفي ضرب الأمثال من تقرير المقصود ما لا يخفى، إذ الغرض من المثل تشبيه الخفيّ بالجليّ، والشاهد بالغائب، فالمرغّب في الإيمان مثلاً إذا مُثّل له بالنور تأكّد في قلبه المقصود، والمزهّد في الكفر إذا مُثّل له بالظلمة تأكّد المجحود[٢].

ويلاحظ في المثل العبارة القصيرة المكثّفة بالأفكار، مع سجع وإيقاع يسهل معه حفظ المثل وبقائه في مستودع الذاكرة، فالمثل وسيلة من وسائل التهذيب والتوجيه الاجتماعي ؛ لذلك حظيت الأمثال بموقع مكين في سلّم الآيات القرآنية، ورصّع ﷺ كلامه بنظم بديع من أمثاله الحكمية.

ومن ذلك قوله ﷺ: «إنّ من البيان لَسِحراً»، قاله النبيّ ﷺ حين وفد عليه عمرو بن الأهتم والزِّبْرِقان بن بدر، وقيس بن عاصم، فسأل (عليه الصلاة والسلام) عمرو بن الأهتم عن الزِّبْرِقان، فقال عمرو:

مُطاع في أَدْنيْه، شديد العارضة، مانعٌ لما وراء ظهره.

فقال الزِّبْرِقان: يا رسول الله إنّه ليعلم منّي أكثر من هذا، ولكنه حسدني.

فقال عمرو: أما والله فإنه لَزَمِر المروءة ضيّق العَطَن، أحمق الوالد، لئيم الخال، والله يا رسول الله ما كَذَبتُ في الأولى، ولقد صدقت في الأخرى، ولكني رجل رَضِيت فقلت أحسنَ ما علمت، وسَخِطت فقلت أقبح ما وجدت.

---

(١) تاريخ الأدب العربي ٢٩١.

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١ : ٤٨٧.

فقال ﷺ: «إنّ من البيان لَسِحراً»(١).

يعني أنّ بعض البيان يعمل عمل السحر، ومعنى السحر إظهار الباطل في صورة الحق.

والبيان اجتماع الفصاحة والبلاغة وذكاء القلب مع اللّسِن، وإنّما شُبّه بالسحر ؛ لحدّة عمله في سامعه وسرعة قبول القلب له.

يُضرب في استحسان المنطق وإيراد الحجّة البالغة(٢).

وقال الشريف الرضي: المراد به أنّ البيان قد يخدع بتزويقه وزخارفه وحسن معارضه ومطالعه، حتّى يستزلّ الإنسان من حال الغضب والمخاشنة إلى حال الرضا والملاينة، ويُنزع حُمات السخائم، ويفسخ عقود العزائم، ويكبح الجامح حتّى يرجع، ويسفّ بالمحلّق حتّى يقع، ويعود بالخصم الضالع موافقاً، وبالضدّ الأبعد مقارباً.

والسحر في الأصل هو التمويه والخديعة والتلبيس والتغطية.

وقال بعضهم: السحر ما نقلك من حالٍ إلى حال.

وكانت العرب تعتقد أنّ السحر يصرف الوجوه ويقلّب القلوب، ويُمرِض الأجسام، ويسفّه الأحلام، ويفرّق بين المتحابين، ويجمع بين المتباغضين، وهذا بالحقيقة نقل من حالٍ إلى حال، وهو عندنا باطل إلاّ أن يراد به ما قدّمنا القول فيه من خديعة الإنسان بلين القول، وحسن اللفظ حتّى يرضى بعد اشتطاطه، وينثني بعد جِماحه، وهذا الوجه هو الذي ذهب إليه النبيّ (عليه الصلاة والسلام) دون ما يقوله

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٣ : ١٥، مجمع الزوائد ٨: ١١٧، وينظر بحار الأنوار ٥٦ : ٢٧٨.

(٢) مجمع الأمثال للميداني ١ : ٧ رقم ١.

أهل الجهالة وطغام الجاهلية[١].

ومن حديثه ﷺ الذي يجري مجرى المثل قوله ﷺ: **«إنّ هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، ولا تبغّض إلى نفسك عبادة الله، إنّ المنبّتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى»**[٢].

المنبتّ: المنقطع عن أصحابه في السفر. والظَّهر: الدابّة.

قاله (عليه الصلاة والسلام) لرجل اجتهد في العبادة حتّى هجمت عيناه، أي غارتا، فلمّا رآه قال له ﷺ: **إنّ هذا الدين متين فأوغل فيه برفق**، إنّ المنْبَتَّ أي الذي يجدّ في سيره حتّى ينبتّ أخيراً، سمّاه بما تؤول إليه عاقبته كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[٣].

يُضرب لِمَن يبالغ في طلب الشيء، ويفرِط حتّى ربّما يفوّته على نفسه[٤].

وقال الشريف الرضي: ووصف الدين بالمتانة هاهنا مجاز، والمراد أنّه صعب الظهر شديد الأسر، مأخوذ من مَتن الإنسان، وهو ما اشتدّ من لحم منكبيه، وإنّما وصفه (عليه الصلاة والسلام) بذلك لمشقّة القيام بشرائطه، والأداء لوظائفه، فأمر (عليه الصلاة والسلام) أن يدخل الإنسان أبوابه متفرقاً، ويرقى هضابه متدرّجاً، ليستمرّ على تجشّم متاعبه، ويمرن على امتطاء مصاعبه.

وشبّه (عليه الصلاة والسلام) العابد الذي يُحسر متنه، ويستنفد

---

(١) المجازات النبوية ١٠٧ رقم ٩٤.

(٢) الكافي ٢: ٨٧ ح٦، المجازات النبوية: ٢٦٠ رقم ٢٠٥، السنن الكبرى للبيهقي ٢: ١٨.

(٣) الزمر: ٣٠.

(٤) مجمع الأمثال ١: ٧ رقم ٢.

طاقاته، بالمُنْبَتِّ، وهو الذي يغذّ السير، ويكدّ الظهر منقطعاً عن رفقته، ومنفرداً عن صحابته، فَتَحسِرُ مطيّته، ولا يقطع شُقَّته . . . وهذا من أحسن التمثيلات وأوقع التشبيهات[1].

وقال ﷺ: **«إنّ ممّا يُنبِتُ الربيع ما يَقتُل حَبَطاً أو يلم»**، قاله (عليه الصلاة والسلام) في صفة الدنيا والحثّ على قلّة الأخذ منها.

والحَبَط: انتفاخ البطن، وهو أكل الإبل الذُرَق [2]فتنتفخ بطونها إذا أكثرت منه، ونصب حَبَطاً على التمييز.

وقوله: **«أو يلم»** معناه يقتل أو يقرب من القتل، والإلمام: النزول، والإلمام: القرب، ومنه الحديث في صفة أهل الجنة: **«لولا أنه شيء قضاه الله لألم أن يذهب بصره لما يرى فيها»**[3].

وقال ﷺ: **«حولها نُدندن»**، قاله لأعرابي قال: إنّما أسأل الله الجنة، فأمّا دَنْدَنَتُك ودَنْدَنة مُعاذ فلا أحسنها.

قال أبو عبيد: الدَّندَنة أن يتكلم الرجل بالكلام تسمع نغمته ولا تفهمه عنه؛ لأنّه يخفيه، أرادﷺ أنّ ما تسمعه منّا هو من أجل الجنة أيضاً[4].

---

(١) المجازات النبوية : ٢٦٠ رقم ٢٠٥.

(٢) قال أبو عمرو: الذُرَق: الحَنْدَقُوقى، واحدتها ذُرَقة. اللسان (ذرق).

(٣) مجمع الأمثال ١ : ٨ رقم ٣، شرح مئة كلمة لابن ميثم البحراني :١٥٩.

(٤) مجمع الأمثال ١ : ٢١٥ رقم ١١٦٢، غريب الحديث للهروي ١ : ١٥٧.

أدب الدعاء

الدعاء: واحد الأدعية، وأصله دعاو ؛ لأنّه من دعوت، إلاّ أن الواو لما جاءت بعد الألف همزت.

والدعاء: هو الرغبة إلى الله ﷻ، يقال: دَعاه دُعاءً ودعوى.

ومن معاني الدعاء: الاستغاثة، والنداء، والعبادة.

وقيل الدعاء على ثلاثة أوجه:

فضربٌ منها: توحيده والثناء عليه، كقولك: (يا الله لا إله إلاّ أنت)، وكقولك: (ربّنا لك الحمد) إذا قلته فقد دعوته بقولك ربّنا، ثمّ أتيت بالثناء والتوحيد، ومثله قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي﴾ [1]، فهذا ضرب من الدعاء.

والضرب الثاني: مسألة الله العفو والرحمة وما يُقرب منه، كقولك: (اللّهمّ اغفر لنا).

والضرب الثالث: مسألة الحظّ من الدنيا، كقولك: (اللّهمّ ارزقني مالاً وولداً).

---

(١) غافر ٦٠.

وإنّما سُمّي هذا جميعه دعاءً ؛ لأنّ الإنسان يصدّر في هذه الأشياء بقوله: يا الله يا رحمن، فلذلك سُمّي دعاءً[١].

قال الله تعالى في الحثّ على الدعاء: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[٢].

وقال ﷺ في الندب إلى الدعاء: «**الدعاء سلاح المؤمن، وعماد الدين ونور السماوات والأرض**»[٣].

وقال ﷺ أيضاً: «**الا أدلّكم على سلاح يُنجيكم من عدوّكم ويدرّ أرزاقكم؟** قالوا: نعم. قال: **تدعون بالليل والنهار فإنّ الدعاء سلاح المؤمن**»[٤].

وقال ﷺ: «**الدعاء مخ العبادة ،ولا يهلك مع الدعاء أحد**»[٥]

وقال ﷺ: «**أفضل عبادة أمّتي بعد قراءة القرآن الدعاء**، ثم قرأ ﷺ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[٦].

ومن بليغ الدعاء وجامعه، دعاء له ﷺ دعا به على رجل من المشركين، فقال ﷺ: «**اللّهُمّ اقطع أثره**»[٧].

---

(١) ينظر لسان العرب ١٤: ٢٥٧ (دعا).

(٢) البقرة ١٨٦.

(٣) عيون أخبار الرضا ٢: ٣٧ ح ٩٥.

(٤) ثواب الأعمال للصدوق ٤٥.

(٥) الدعوات للراوندي: ١٨ ح٨، بحار الأنوار ٩٠: ٣٠٠ ح٣٧.

(٦) الدعوات للراوندي :١٩ ح١٠، البحار ٩٠: ٣٠٠، والآية في سورة غافر ٦٠.

(٧) سنن أبي داود ١: ١٦٥ ح٧٠٥، التاريخ الكبير للبخاري ٨: ٣٦٥ ح٣٣٤٩.

وهذا يحتمل ثلاثة أوجه من التأويل:

الأوّل: أنّه دعا عليه بالزمانة ؛ لأنه إذا زَمِن لا يستطيع أن يمشي على الأرض، فينقطع حينئذٍ أثره.

والوجه الثاني: أنه دعا عليه بألاّ يكون له نسل من بعده ولا عَقِب.

الوجه الثالث: أنه دعا عليه بألاّ يكون له أثر من الآثار مطلقاً، وهو ألاّ يفعل فعلاً يبقى أثره من بعد كائناً ما كان، مِن عَقِب، أو بناء، أو غِراسٍ، أو غير ذلك(١).

ويقوم الدعاء على عنصري المحاورة، وهي المحاورة الخارجية وتتجسد بكلام وخطاب خاشع رقيق. والمحاورة الداخلية مع النفس غالباً، وهي محاورة خطابية خافتة، وتتجسّد بتوبيخ النفس وتقريعها، يستدرّ الداعي في الأولى عطف الله ﷻ ورحمته، ويبغي في الثانية سلّ سخامة النفس ونزوعها إلى العجب والزهو بلغة هامسة موسيقية بليغة.

والدعاء المروي عن النبيّ ﷺ والأئمة المعصومين (عليهم السلام) يقول فيه البستاني:

(والدعاء محاورة مع الله تعالى حيث يتجّه العبد إلى مصدر الإشباع الوحيد للإنسان في شتى حاجاته دنيوياً وأخروياً، لذلك لا يمكن أن نتصوّر إمكانية أيّة فاعلية غير الدعاء بمقدورها أن تحقّق التوازن الداخلي للإنسان، ما دام التوازن يتوقّف على حجم الإشباع الذي يتحقّق للشخص، مع ملاحظة أنَّ الإشباع يتم على مستويات عقلية ونفسية وجسمية.

---

(١) المثل السائر ١ : ٦٧.

وما دام الله تعالى هو مصدر الفيض للكون حينئذٍ فإن الحاجات العقلية، وهي التقدير أو التثمين الموضوعي الصرف، تظلّ في مقدّمة المواد التي ترفد الدعاء، بصفة أنَّ الله تعالى يتسم بسمات القدرة والإبداع والهيمنة المطلقة، ثمّ بسمات الخير المطلق، وهذه وحدها كافية في تثمين الإنسان وتقديره الموضوعي لسمات الله تعالى.

ولذلك فإنَّ النخبة البشرية المصطفاة يتحقّق إشباعها في صعيد الحاجة العقلية، وهي أنها تعبد الله تعالى لا من أجل الثواب أو اجتناب العقاب، بل من أجل أنّه تعالى أهل للعبادة، بخلاف البشر العاديين فيما يتحقّق إشباعهم من خلال الحاجات النفسية والجسمية دنيوياً وأخروياً)[١].

والدعاء الذي تعبّد به الرسول ﷺ من أروع الأمثلة في التربية الروحية، وهو صادر من إنسان كامل عالم، صادر من نَفَس رحماني يقطر خشوعاً وخشية من الله ﷻ.

وأراد أن يبين ﷺ انه مهما بلغ الإنسان من القدرة والسيطرة فهو محتاج، ولابدّ أن يتصل بقنوات الدعاء، وهذه القنوات تتمثل بالخشية والخشوع والخضوع والشكر والأمل والرجاء.

ومن ذلك قوله ﷺ:

«اللّهُمّ اجعل أوسع رزقك عليَّ عند كبر سني وانقطاع عمري، اللّهُمّ اجعلني أخشاك حتّى كأني أراك، وأسعدني بتقواك، ولا تشقني بمعصيتك، وخِر لي في قضائك، وبارك لي في قدرك حتّى لا أُحبّ تعجيل ما أخرّت، ولا تأخير ما عجّلت، واجعل غناي في نفسي».

---

(١) تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي ٣١٨.

وفي الدعاء تتمثّل العبودية لله ﷻ واضحة جلية، أي أنه تتمثل فيه العبادة في صورة من أصدق صورها، يقول الدكتور عبد الحليم محمود:

(أما العزوف عن الدعاء فإنّه عادة ينشأ عن نوع من عدم المبالاة بالدين، أساسه الكبرياء الذي ينشأ عن الكثير من المعاصي والبدع والانحرافات)[1].

وتجد في لغة الدعاء السلاسة والعذوبة نابضة بأحاسيس الخشوع والشكر والرجاء والخوف من الله ﷻ.

ومن ذلك ما روي من دعائه ﷺ أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال:

«الحمد لله نور السماوات والأرض، والحمد لله قيّوم السماوات والأرض، والحمد لله ربّ السماوات والأرض ومن فيهن، أنت الحق، وقولك الحق، ولقاؤك حقّ، والجنّة حقّ، والنار حقّ، والساعة حق.

اللّهمّ لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدّمتُ وأخرت، وما أسررتُ وما أعلنت، أنت إلهي لا إله إلاّ أنت».

وروى أمير المؤمنين ؑ قال: «كان رسول الله ﷺ يقول حين يستيقظ من منامه:

الحمدُ لله الذي بَعَثني من مرقدي هذا، ولو شاء لجعله إلى يوم القيامة، الحمدُ لله الذي جعل الليل والنهار خلفةً لِمَن أراد أن يذكّر أو

---

(١) القرآن والنبي ١٧٨.

أراد شكوراً، الحمدُ لله الذي جعل الليل لباساً، والنوم سباتاً، وجعل النهار نشوراً، لا إله إلاّ أنت سبحانك إنّي كنتُ من الظالمين، الحمدُ لله الذي لا تجنّ منه البحور، ولا تكنّ منه الستور، ولا يخفى عليه ما في الصدور»[1].

موقع الحديث والنصوص النبوية من الأدب العربي

اعتاد مؤرخو الأدب العربي ودارسوه إلى تقسيم الأدب العربي تقسيماً ثنائياً تقليدياً، وهو النثر والشعر، ويأخذ الشعر العربي حصّة أكبر في الدراسة والبحث في فنونه التقليدية المشهورة، من مدح، وفخر، وغزل، وخمريات، وحماسة...

والدارسون للأدب في المعاهد والجامعات والمدارس بمستوياتها كافة يجدون فقر هذا التاريخ لدراسات عن النثر العربي قبل ظهور الإسلام لما عُرف عن العرب من ميلهم واهتمامهم بالشعر، وقد سجلوا مفاخرهم في قصائد شعرية عُدّت من تراث الأمة العربية ومجدها.

ولا ينفك تاريخ العرب عن تاريخ المسلمين، فترابط اللغة العربية وأدبها ونماؤها منوط بهذا الدين الجديد الذي انتشر في أرضهم ومنها انطلق إلى العالم، فكانت فترة عصر صدر الإسلام، والعصر الأموي، والعصر العباسي، بمثابة امتداد طبيعي لهذا الشعر الذي يُدرس أوّله من عصر الجاهلية إلى العصور المتأخرة من العصر العباسي.

---

(١) مكارم الأخلاق ٢٩٢، بحار الأنوار ٧٣: ٢٠٣ و ٢٠٤.

وكلّ تأريخ الأدب أصبح كأنه تأريخ شعر، وقد برزت أهمية النثر في الأدب العربي في دواوين الملوك والخلفاء؛ لحاجة البلاط لكتّاب ومؤدّبين، فكان النثر آنذاك نثر الكتّاب، وقد لمس المسلمون الأوائل الحاجة إلى ذلك في مراسلة النبيّ ﷺ إلى الملوك والقبائل، ولم ينس مؤرخو الأدب العربي تسجيل هذا التطور عند كتابتهم عن تاريخ الدولة الإسلامية.

وكانت الدولة محتاجة أيضاً إلى الخطابة كأسلوب من أساليب التبليغ والإعلان السياسي، وقد أرسى دعائم هذا الفن النبيّ ﷺ بخطبه البليغة التي كانت أساس الكلام الفني المنثور عند المسلمين وبدايته.

((والحقيقة أنَّ النثر أسبق أنواع الكلام في الوجود؛ لقرب تناوله، وعدم تقيده، وضرورة استعماله، وهو نوعان: مُسَجَّع إنْ التزم في كلّ فقرتين أو أكثر بقافية، ومُرسَل إن كان غير ذلك.

وقد كان العرب ينطقون به معرباً غير ملحون؛ لقوّة السليقة، وفعل الوراثة، وقلّة الاختلاط بالأعاجم، اللهم إلاّ هيئات المنطق فقد اختلفت لأسباب طبيعية في الترقيق والتفخيم والإبدال والإمالة.

ولم يُعن الرواة من منثورهم على كثرته إلاّ بما علق بالذهن؛ لنفاسته وبلاغته وإيجازه، كالأمثال والحِكم والوصايا والخطب والوصف والأقاصيص.

ويمتاز النثر في الجاهلية بجريانه مع الطبع، فليس فيه تكلّف ولا زُخرُف ولا غلُوّ، يسير مع أخلاق البدوي وبيئته، فهو قوي اللفظ، متين التركيب، قصير الجملة، موجز الأسلوب، قريب الإشارة، قليل الاستعارة، سطحي الفكرة، وربّما تساوقت فيه الحكم واطّردت

الأمثال من غير مناسبة قوية ولا صلة متينة))[١].

ومن فنون النثر الجاهلي التي استأثرت باهتمام الباحثين هي الكهانة، والكهانة والعرافة هما لفظان لمعنى واحد، وفرّق بعضهم بينهما فقال: الكهانة مختصّة بالأمور المستقبلية، والعرافة بالأمور الماضية.

والعرب كانوا يعتقدون في الكاهن القدرة على كلّ شيء، فكانوا يستشيرونه في حوائجهم، ويتقاضون إليه في خصوماتهم، ويستطبّونه في أمراضهم، ويستفتونه فيما أشكل عليهم، ويستفسرون عن رؤاهم، ويستنبئونه عن مستقبلهم.

والكهانة من العلوم الدخيلة على العرب، جاءتهم من الأمم المجاورة لهم، وأصلها من عند الكلدان، ولعلّ الذين حملوا علم النجوم إلى العرب هم الكهنة الكلدانيون أنفسهم، فكانت الكهانة في جملة ما حملوه إليهم.

ويؤيّد ذلك أنَّ العرب كانوا يُطلقون لفظ الحزّاء على الكاهن والمنجم، على أن أهل بابل ما زالوا يتواردون على بلاد العرب إلى ما بعد الإسلام يجلّونهم لعلمهم وتعقلّهم.

واشتهر في بلاد العرب جماعة كبيرة من الكهّان والكواهن، أقدمهم شقّ وسطيح، وحكايتهما أشبه بالخرافات منها بالحقائق.

وكان للكهّان عند العرب لغة خاصّة تمتاز بتسجيع خصوصي يُعرف بسجع الكهّان مع تعقيد وغموض، ولعلّهم كانوا يتوخّون ذلك للتمويه على الناس بعبارات تحتمل غير وجهٍ، كما يفعل بعض مشايخ

---

(١) تاريخ الأدب العربي للزيات ١٨.

التنجيم، حتّى إذا لم يصدق تكهّنهم جعلوا السبب قصور الناس في فهم الكاهن.

ومن أمثلة سجع الكهّان ما يروونه عن طريفة كاهنة اليمن حين خاف أهل مأرب سيل العرم وعليهم مزيقياء عمرو بن عامر، فإنها قالت لهم:

(لا تؤمّوا مكّة حتّى أقول وما علّمني ما أقول إلاّ الحكم المحكم ربّ جميع الأمم من عرب وعجم.

قالوا لها: ما شأنك يا طريفة؟

قالت: خذوا البعير الشذقم فخضبّوه بالدم تكن لكم أرض جرهم جيران بيته المحرم)[1].

وكان ظهور الإسلام بمثابة انقلاب ديني سياسي اجتماعي، ولابدّ لكلّ انقلاب من آثار يخلّفها في نفوس أصحابه وعقولهم، فيحدث تغييراً في آدابهم وعلومهم.

((والتغيير الذي أحدثه الإسلام في آداب الجاهلية يرجع إلى ثلاثة أوجه:

١ ـ أنه أبطل بعض تلك الآداب.

٢ ـ أنه نوّع البعض الآخر.

٣ ـ أنه أحدث آداباً جديدة لم تكن من قبل.

فالآداب التي أبطلها الإسلام الكهانة وفروعها، والآداب التي أحدثها، بعضها اقتضاه الإسلام، كالعلوم الشرعية واللسانية، وبعضها

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية لزيدان ١: ١٨٢.

نقل عن الأمم الأخرى[1].

وقد جاء القرآن الكريم في عصر يُعنى بالعبارة الأدبية الحافلة بعنصري الإيقاع والصورة بخاصّة، وتبعاً لذلك تحدّث القرآن الكريم بلغة الفن الذي خبره مجتمع ما قبل الإسلام، لكن ليس بالشكل المألوف بل بنحو متفرّد يتناسب مع تفرّد الرسالة ذاتها، سواء أكان ذلك من حيث الشكل العام للنصّ، أو من حيث الأدوات الفنيّة التي اعتمدها الشكل.

فالرسالة الجديدة التي تحدّت الأمّة العربية وأظهرت عجزهم لابدّ لها من طرح فنّي جديد وهذا الطرح أخذ شكل الآية والسورة (فالشكل الذي انتخبه النص القرآني يتفرّد بطابع خاصّ يطلق عليه اسم السورة، وهي تتكون من مجموعة فقرات يطلق على كلّ واحد منها اسم آية، كلّ فقرة تتكون من جملة أو أكثر حتّى لتتجاوز العشر، كما أنَّ كلماتها قد تتضخم حتّى لتقارب المائة كلمة، وتقلّ حتّى لتكون كلمة واحدة، والسورة تجسّد شكلاً فنياً خاضعاً لِبناء هندسي خاص يتميّز عن الفنّ المألوف شكلاً ولغة)[2].

وقد اختلف مفهوم النثر المعاصر عن مفهوم النثر المتوارث عن العصور القديمة، فالنثر المعاصر أصبح يعني المسرحية والرواية والقصة والأقصوصة والمقالة والخاطرة الأدبية، وأدب السينما والتلفزيون والإذاعة والصحافة، بينما يكاد يقتصر النثر في عصور الإسلام وما قبله على الخطابة والمثل والوصية.

إلاّ أن النبيّ ﷺ بإلهام ربّاني وطبع سليم وذوق رفيع جعل كلّ

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية لزيدان ١ : ١٨٧.

(٢) تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي ٦٣.

صوت وكلمة صادرة منه فنّاً وأدباً، وقد نقل اللغة العربية إلى عالم الفن والأدب، فكلما نطق به ﷺ تجد عليه مسحة الجمال والفن البديع، فمفردات اللغة تشكل لوحات فنية رائعة بنظم رائع.

والأديب الملهم هو الذي يُضفي على مفردات اللغة من روحه ما يُغنيها ويجعلها أكثر حيوية وإنارة وإشراقاً، فلم يكن النبيّ ﷺ يستخدم اللغة على النحو التقليدي المألوف، فلم يكن يخضع لسلطان اللغة، بل وضع اللغة تحت سلطان أدبه وفصاحته، فكانت أشكال الأدب المعاصر لها حضور في نصوص أحاديثه ﷺ.

فتجد في حديثه القصة والمثل والحكمة والمقالة، إلاّ أنها كانت تناسب المرحلة الزمنية للعقل البشري، ومتلقي هذه النصوص من المخاطبين آنذاك.

وقد ساهم الأدب النبوي في خلق النثر الفنّي للعرب كما هو محقّق عند دارس الأدب العربي، فالقيم اللفظية والبنائية التي حفلت بها النصوص النبوية كانت قدوة في الفن، فقد كانت رسائله ﷺ البذور الأولى لنشأة الكتابة الفنّية لدى المسلمين.

وقد أصبحت الكتابة من مستلزمات كيان الدول الإسلامية فيما بعد، فدواوين الجند والدولة وحسابات بيت المال كلّها بحاجة إلى كاتب يضبطها.

ولقد أثّر القرآن الكريم والحديث الشريف في أدباء المسلمين، فأصبحت قصائد الشعراء من قصائد غزل وفخر ووصف للإبل والحيوان إلى قصائد ذات بعد ومحتوى اجتماعي وسياسي، فارتقى الأدب العربي بفضل القرآن والحديث رقياً كبيراً، وأصبح الشعراء يتناشدون بالأخلاق والآداب وبالأفكار السياسية والنظريات الجديدة

التي حملتها الرسالة السماوية التي بعث بها نبيّنا محمد ﷺ.

فانتقلت اللغة الأدبية من لغة بدائية ساذجة إلى لغة أدبية عالية أخذت موقعها الرائد بين الآداب العالمية وحظيت بالدراسات العلمية والأدبية وما زالت.

أثر الألفاظ النبوية في اللغة العربية

كان للكتاب الكريم والحديث النبوي أثر كبير في مسار اللغة العربية وتنميتها وتهذيبها، وقد أخذ اللفظ النبوي، سواء كان خطبة، أو رسالة، أو حديثاً مفصلاً، أو مجملاً، أو جواباً لمسألة أو دعاءً، دور الفاعل والمؤثر في كيان اللغة العربية وآدابها ومسارها.

وإذا كانت بداية وانطلاق النهضة اللغوية للناطقين بالعربية من بداية نزول القرآن الكريم وحتّى تكاملت آياته بالنزول، فإنَّ حديثه ﷺ قام بدور الصقل والتهذيب وانتقاء الألفاظ بما يناسب المدنية الجديدة والحضارة القائمة التي اقترنت بنزول القرآن واكتمال حجّته، فصارت اللغة التي كانوا يتحدّثون ويتحاورون بها قبل بعثته ﷺ هي غير اللغة التي نعرفها، والتي تجلّت فيها مفردات وتراكيب جديدة، وما زالت هي لغة العلم والثقافة العربية.

وقد امتزج الحديث النبوي واللغة العربية امتزاجاً واضحاً ظهر أثره في:

١) **توحيد اللغة العربية**: وهذا التوحيد اللغوي ما زال إلى الآن يُطلق على اللغة العربية التي عرفت بها كلغة كتابة وثقافة وعلم، بعد أن انصهرت اللهجات وذابت تحت ظلّ لغة الكتاب والسنّة فصار هذا الاتحاد اللغوي جزءاً من مستلزمات العقيدة الإسلامية ومتعبداتها، فقراءة القرآن وممّارسة الطقوس الدينية مقيّدة بنصوص القرآن والسنة،

وما زالت الآداب والسنن الدينية تُكتب وتُنطق بلغته ﷺ المهذبة.

يقول بلاشير: إن وحدة اللغة العربية هي وحدة أخلاقية ودينية قبل كل شيء، مؤسسة على وحدة تاريخ اللغة، وإنّنا كلّما درسنا اللغة الفرنسية لاحظنا أنّها تطوّرت عبر العصور بحيث نجد لها أطواراً، فإذا قارنا حالة اللغة الفرنسية في العصور الوسطى وجدنا أنها مغايرة كلّ المغايرة للغة المستعملة في القرن السابع عشر، وهذه أيضاً مختلفة عن لغتنا اليوم، هذه الوحدة في اللغة الفرنسية لا تتّضح إلاّ بالبحث والمقارنة، في حين أنَّ الوحدة في اللغة العربية تتّضح للقارئ ولو كان أجنبياً لأول وهلة[١].

وقد فسّر علّة ذلك في طريقتها في التوليد والاشتقاق، حيث جُعل آخر اللغة يتّصل بأوّلها في نسيج ملتحق من غير أن تذهب معالمها أو ينبهم ما خلفه السلف من تراث على الأجيال بعدهم.

فإذا أخذنا مثلاً كلمة (كتب)، واشتققنا منها كاتب وكتاب ومكتبة ومكتوب ومكتب، وجدنا أنّ الحروف الأصلية موجودة في كلّ كلمة من هذه الكلمات المشتقّة، وأن معنى الكتابة موجود أيضاً، على عكس اللغات الأوربية حيث لا توجد في كثير من الأحيان صلة ما بين كلمات الأسرة الواحدة، فكتبَ في الإنجليزية: Wrote، والكتاب: Book، ومكتبة: Library، ولا علاقة بين حروف هذه الكلمات.

وهذا ما جعل لغة مثل الإنجليزية تختلف من جيل إلى جيل، ولا توجد تلك الصلة اللغوية بين ماضيها وحاضرها، فلغة شكسبير، وهو من أدباء القرن السابع عشر، لا تكاد تُفهم عند جمهرة المثقفين

---

(١) الفصحى لغة القرآن لأنور الجندي ١٦.

اليوم، اللهم إلاّ المتخصصين في الأدب الإنجليزي، وهذا يرجع إلى اختلاف النطق وتطوره من جيل إلى جيل، والى نمو اللغة بطريقة غير طريقة الاشتقاق العربي، وانقطاع الصلة بين كلمات الأسرة الواحدة في غالب الأحيان[١].

٢) انتشار اللغة العربية خارج حدودها الجغرافية: وهذا الانتشار يعود سببه إلى الفتوحات الإسلامية التي كانت تحمل معها هذه اللغة، بصفتها اللغة الرسمية للدولة الإسلامية، وبصفتها لغة المحدّثين والفقهاء والمبلّغين.

وقد صار لزاماً لمعتنقي الدين الجديد من تعلم اللغة العربية لأداء الواجبات الدينية للمكلّفين بها، فالتوحيد والنبوّة من أصول هذا الدين الجديد، والفروع التفصيلية من أحكام وعبادات تستدعي معرفة الحديث والإطلاع عليه، وهذا مروي باللغة العربية، فكان الوصول إلى الحديث والسنة لهذه الشعوب يتم بواسطة اللغة العربية فكان حافزاً لهم لتعلّم اللغة العربية ممّا جعل هذه اللغة تخرج من حدودها الجغرافية خروجاً اضطرارياً لابدّ منه.

وأظن أنه قد أصاب الحقيقة بعض الباحثين في ذلك فيما يقول:

(إنّ الواقع التاريخي للشعوب الإسلامية يؤكد التلازم بين اللغة العربية والإسلام، فاللغة العربية سارت في رحاب الإسلام وحلّت حينما حلّ، ثم مضى الإسلام وحده إلى كثير من الأرجاء التي لم تتمكن اللغة العربية من اقتحامها أو انحسر مدّ اللغة وبقيَ الإسلام)[٢].

---

(١) نفس المصدر ١٧.

(٢) الفصحى لغة القرآن لأنور الجندي ٥٦ ط دار الكتاب اللبناني.

٣) الاتساع في اللغة العربية ومفرداتها: تعود الألفاظ الإسلامية في نشأتها إلى زمن الرسول ﷺ، ويعود أمر ظهور معانيها الجديدة التي لم تعهدها لغة العرب قبل ذلك، إلى أنّ رسول الله ﷺ لما بيّن ما في آيات القرآن من إجمال، فسّر بعض الألفاظ بغير معانيها اللغوية، وبيّن أن المراد منها حقائق شرعية، فصّلها بأقواله وأفعاله ﷺ.

فبيّن أنَّ الصلاة في قوله ﷻ: ﴿أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ليست بمعناها اللغوي، وهو مطلق الدعاء، بل معناها العبادي خاصّة بيّنها بفعله ﷺ، وقال: «**صلّوا كما رأيتموني أصلّي**»[(١)].

وأثر الرسول ﷺ في نقل اللفظة من معنى أصلي إلى معنى جديد غير مسبوق، حتّى صار الوجه في هذا إذا سئل الإنسان عنه أن يقول في الصلاة اسمان، لغوي وشرعي[(٢)].

ومن المزايا التي عُرفت بها العربية: المطاوعة، فلها قابلية طبيعية لمجاراة الزمن، وللتطور تطوراً معتمداً في طبيعتها على النحت والاشتقاق والتعريب.

وكان من أثر ذلك أن طوّعها النبيّ ﷺ في مجمل تشريعاته، فكان من أثر ذلك أن استُمِدّ من الأحاديث النبوية بدو المصطلحات العلمية، التي أخذت موقعها في دراسات العلماء في العلوم الشرعية، فكان لابدّ للعلماء المسلمين من غير الناطقين بالعربية من دراستها والوقوف على دقائقها وإتقان علم من العلوم غير منفصل عن إتقان اللغة التي تعبّر عنه.

---

(١) عوالي اللآلي، ١: ١٩٨ و ٣ : ١٥، بحار الأنوار ٧٩: ٣٣٥.

(٢) الحديث النبوي وأثره في الدراسات اللغوية ١٢٧.

كما أنّ اكتساب تقنية من التقنيات الحديثة[(١)] يقتضي اكتساب اللغة التي وضعت بها هذه التقنيات.

وقوام لغة العلم هي المصطلحات الدالّة على المفاهيم والأشياء، ومن هذه المصطلحات التي استحدثها ﷺ وكانت أصولها من مجمل أحاديثه ﷺ، فكان حديثه ﷺ دافعاً لنشر اللغة العربية وتعلمها ليكون أهل العلم على بينة من المعنى الاصطلاحي أو الشرعي.

النبيّ ﷺ والتغيير اللغوي أو التطوّر اللغوي

يقول إميل دور كايم: إنَّ التغييرات في اللغة تحدث بسبب التغيرات التي يحدثها الأفراد في كلامهم، ولاشكّ أنَّ اللغة تعبير ذاتي شخصي أساساً، وأنّ التغيير اللغوي عمل واعٍ للأفراد، وربّما يعكس أيضاً مشاعر قومية، والاعتبارات الجمالية اعتبارات غالبة في حوافز الإبداع.

وهناك أشخاص معيّنون ويكونون من خلال وضعهم الاجتماعي أو مكانتهم الأدبية العالية في وضع أفضل يمكنهم من بدء تغييرات يتبناها آخرون وينشرونها في اللغة، كما أنَّ أهميّة الكتّاب العظام في تطوير لغة معينة، مثل دانتي في اللغة الإيطالية يجب أن لا يبخس قدرها[(٢)].

---

(١) كما يتجلّى واضحاً في الاصطلاحات العلمية في مجال التكنولوجيا والصناعات الحديثة، حيث نجد لها أسماء موضوعة من اللغة الإنجليزية مثلاً أو الفرنسية لأن اختراعها ونشأتها في أحضان هذه اللغة، فاكتسبت هذه الاصطلاحات ثباتاً لغوياً.

(٢) موجز تاريخ علم اللغة في الغرب لروبنز ٣٠٦ و ٣٢٠ ط الكويت.

وقد شهدت اللغة العربية كسائر اللغات، تبدّلاً لغوياً واضحاً بعد استتباب الدين الجديد الذي جعل اللغة العربية لغة العبادة والدولة، وقد بدأت حركة التغيير والتبديل بخطوات حثيثة وضعها مشرّع الشريعة في نصوص أدخلت التغيير الذي نلمسه في تاريخ اللغة وما زال أثره واضحاً.

إنّ سنّة الحياة التي يحياها الإنسان في تغيير متواصل وتطوّر مستمر منذ أن خلق الله ﷻ آدم وأهبطه إلى دار التكليف، وهذه المتغيرات تتم وفقاً لحاجات الناس وأغراضهم وأساليب حياتهم فينعكس في أسلوب تعبيرهم، وتتطوّر لغاتهم ولهجاتهم وألفاظهم ومعانيهم طبقاً لهذا التغيير الاقتصادي والعمراني والثقافي، فتشتقّ كلمات من أصول قديمة، وتُقترض مفردات من لغات أُخرى مجاورة أو مؤثرة فيها كما حدث من تجاور الفرس للعرب، وتجلّى ذلك بنقلهم الألفاظ الفارسية إلى اللغة العربية، وكان ذلك قبل هجرته ﷺ.

وقد ازداد هذا الاقتراض اللغوي والتطوّر والتغيير اللغوي والثقافي بعد انبثاق فجر الإسلام وظهور كوكبه ﷺ في سماء الدنيا فتولّدت صيغٌ وتراكيب جديدة لم تكن معهودة من قبل، وشهد العرب ألفاظاً جديدة لم تكن مألوفة، وهذا التغيير أوجد مفاهيم جديدة ومدلولات مستحدثة، وقد لوحظ ضمور مفردات ونمو مفردات واتساع دلالات الألفاظ، وهذا الاتساع ينشأ طبقاً لكلّ مرحلة زمنية، فالرجعة عند العرب المرّة من الرجوع [1]، وإذا باللفظ تتسع معانيه من الرجعة، وهي العودة، إلى معنى الكرّة في الحياة الدنيا للأئمة

---

(١) ينظر اللسان (رجع).

المعصومين (عليهم السلام) قبل قيام الساعة[1].

وظهور الألفاظ الجديدة واتساع دلالات الألفاظ، التي كانت شائعة، شيءٌ ملحوظ في تاريخ الثقافة واللغة العربية، وقد لوحظ غياب مفردات وموتها من قاموس حياة العرب والمسلمين.

فالمرباع: وهو ما يأخذه الرئيس، رئيس القبيلة كان في الجاهلية لرئيس القوم دون أصحابه، وهو ربع الغنيمة[2]، لم يجد له في صفوف المسلمين مكاناً بين مفردات لغتهم الإسلامية الجديدة، فمفردة جديدة ولدت، وهي الخمس قد حلّت محلّها.

والنشيطة: وهي ما أصيب من الغنيمة قبل أن يصير إلى مجتمع الحيّ، أو ما يغنمه الغزاة في الطريق قبل البلوغ إلى الموضع الذي قصدوه[3]، وقيل: ما أصاب الرئيس في الطريق قبل أن يصير إلى بيضة القوم.

قال الشاعر:

لكِ المرباع منها والصّفايا وحكمكَ والنشيطةُ والفضولُ[4]

وهذه مفردات كانت مألوفة ومتداولة أماتتها شريعة المصطفى (صلى الله عليه وآله) ولغة دينه، فسلوك الإنسان المسلم الذي يهتدي بخطبه ومواعظه (صلى الله عليه وآله)، لم يعد بحاجة إلى أن يضع مثل هذه المفردات في جريدة حياته، فلم تعد تُذكر وإنّما حفظتها لنا معجمات اللغة كجزء من تاريخ المفردة العربية. وقد حفظ لنا تاريخ اللغة أسماء لمفردات كثيرة كانت متداولة قبل

---

(١) ينظر تفصيل اعتقاد الشيعة بالرجعة في بحار الأنوار ٥٣: ٣٩ ط الدار الإسلامية طهران.

(٢) ينظر لسان العرب ٨: ١٠١ (ربع).

(٣) اللسان ٧: ٤١٤ (نشط) و(ربع).

(٤) اللسان ٨: ١٠١ (ربع).

ظهور الإسلام، ومن ذلك أسماء الأيام.

قال ابن دريد في باب أسماء الأيام في الجاهلية من الجمهرة:

السبت: شيار، والأحد: أوّل، والاثنين: أهون وأوهد وأهود، والثلاثاء: جُبار، وقال بعضهم: دُبار، والأربعاء: دُبار، والخميس: مؤنس، والجمعة: العروبة وربّما لم تدخل فيه الألف واللام (١).

والظاهر أنَّ هذه التسمية قديمة وقد كانت متداولة في اللهجات القديمة فماتت بموت هذه اللهجات.

وقد أكد الإمام الصادق عليه السلام ذلك بقوله: «كان أسماء الأيام التي خلق الله فيها السماوات والأرض: الأحد: الأوّل، الاثنين: أهون، الثلاثاء: جُبار، الأربعاء: دُبار، الخميس: مؤنس، الجمعة: عَروبة، السبت: شيار» (٢).

---

(١) جمهرة اللغة ٣: ٤٨٩ ط حيدر آباد.

(٢) روى الخبر جعفر بن أحمد القمي الرازي في كتاب العروس ١٤٨، بتحقيق السيد محمد الحسيني النيشابوري ط البحوث الإسلامية مشهد. والظاهر أنّ إطلاق أسماء الأيام يرتبط بتاريخ التشريع السماوي كما يظهر ممّا روي عن عليّ عليه السلام قال: كنّا مع رسول الله ﷺ إذا جاء رجل، فقال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي، أخبرني عن يوم الأحد كيف سُمي يوم الأحد؟

فقال ﷺ: لأنه أحد يوم خلق الله الدنيا، وهو أول يوم خلقه الله.

فقال: بأبي أنت وأمي يارسول الله، أخبرني عن يوم الاثنين كيف سُمي يوم الاثنين؟

قال: لأنه ثاني يوم خلق الله من الدنيا، وهو يوم ولدتُ فيه، ويوم نزلت فيه النبوة ،واخبرني حبيبي أنه يوم أُقبَضُ فيه.

فقال: بأبي أنت وأمي يارسول الله، أخبرني عن يوم الثلاثاء؟

فقال: هو ثالث يوم خلق الله من الدنيا، وهو يوم تاب الله فيه على آدم ورضيَ عنه واجتباه وهداه.

فقال: بأبي أنت وأمي يارسول الله، أخبرني عن يوم الأربعاء؟

فقال: هو رابع يوم خلق الله من الدنيا، وهو يوم نحس مستمرّ، فيه خلق الله الريح الصَّرصَر.

وهذه أسماء صارت في متحف اللغة، هجرها المسلمون، وأبدلوها بأسماء جديدة للأيام، وهي الأسماء المتداولة إلى اليوم.

ولدى تتّبع نصوص الأحاديث النبوية وخطبه ورسائله ﷺ، تجد مفردات وألفاظ كثيرة طفحت بها كتب العلماء الذين عكفوا على جمع أقواله ﷺ، وكلّما تصفّحت أكثر تجد للمعنى الواحد أكثر من لفظ، كما تجد للفظ الواحد أكثر من دلالة وضعتها قريحته ﷺ، وما وهب ﷺ من ذكاء وقوة ذهن وقدرة على توليد الألفاظ والمعاني له تفسيره العلمي في ميدان البحث العلمي الحديث.

فهناك علاقة إيجابية طردية بين ذخيرة الفرد من الكلمات ونسبة ذكاءه، فالأفراد الذين يفكرون تفكيراً عميقاً ومنوعاً مضطرون في الغالب للبحث الجبري عن المعلومات والمعارف، ونتيجة لذلك تجتمع لديهم حصيلة وافية من الأفكار.

ولا نشكّ أنَّ جزءاً من هذه الأفكار يشتمل على مجموعة من المفاهيم والمعاني الحسيّة والمجرّدة التي تفد إلى أذهانهم مقترنة بالمفردات أو الرموز اللغوية الدالّة عليها، أو المشيرة إليها.

إضافة إلى ذلك فإنّ مجموع الأفكار التي تفد إلى أذهان هؤلاء يستدعي البحث عن ألفاظ وصيغ لغوية تمكّن من نقلها إلى الآخرين ومن التعبير عنها على نحو يتوافق مع العرف اللغوي العام، وبذلك

= فقال: بأبي أنت وأمي يارسول الله، أخبرني عن يوم الخميس؟

فقال: هو خامس يوم خلق الله من الدنيا، ليله أنيس ونهاره جليس، وفيه رفع إدريس ولعن فيه إبليس.

فقال: بأبي أنت وأمّي يارسول الله، أخبرني عن يوم الجمعة؟

فبكى رسول الله ﷺ وقال: سألتني عن يوم الجمعة؟ فقال: نعم.

فقال رسول الله ﷺ: هي تسمية الملائكة في السماء يوم المزيد، ويوم الجمعة يوم خلق الله فيه آدم . . . الحديث. (العروس ١٤٧).

فإنّ الذكاء يسوق إلى التفكير، والتفكير يسوق إلى اكتساب المادة المعرفية التي يعمل فيها الفكر، والمادة المعرفية المكتسبة[١] تقود في العادة إلى البحث عن اللغة التي تنقلها وتعبّر عنها وتقايض بها أفكار الآخرين ومعارفهم، وبهذا يتكون الرصيد اللغوي الغزير ليكون دليلاً على الذكاء أو مشيراً إليه[٢].

ومن مظاهر التطور والتحول اللغوي الذي أوجده ﷺ في اللغة العربية هو إبدال الاستعمال اللفظي للألفاظ.

فالعرب تطلق لفظ العبد والأمَة على المملوك، وأصل العبودية الخضوع والتذلل، فكرّه ﷺ هذا الاستخدام في التعبير فقال:

«لا يقولنّ أحدكم عبدي وأمَتي، ولا يقولنّ المملوك ربّي وربّتي، وليقل المالك: فتاي وفتاتي، وليقل المملوك: سيّدي وسيّدتي، فإنكم المملوكون والرب الله ﷻ»[٣].

وذهب ﷺ بمعنى الفتى والفتاة إلى الجارية والغلام، والعرب تسمي المملوك ـ شاباً كان أو شيخاً ـ فتى، ويقولون: فتى من صفته كيت وكيت من غير تمييز بين الشاب والشيخ[٤].

قال الصادق ﵇: **«إن أصحاب الكهف كانوا كلّهم كهولاً فسمّاهم الله فتية بإيمانهم»**[٥].

---

(١) إنّ المادة المعرفية له ﷺ كانت من الله أولاً، وله بحث في فصل خاص (الفصاحة بين الملَكة والاكتساب).

(٢) ينظر الحصيلة اللغوية ٣٨.

(٣) سنن أبي داوود ٤: ٢٩٤ ح ٤٩٧٥ كتاب الأدب، المحلى لابن حزم ٩: ٢٤٩.

(٤) ينظر أساس البلاغة للزمخشري ٢: ١٨٥ (فتى).

(٥) تفسير العياشي ٢: ٣٢٣، وينظر بحار الأنوار ١٤: ٤٢٨. ويشير ﵇ لقوله ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ (الكهف ١٠).

ولفظ الفتى يحوم حول الفتوّة، وما في الفتوة من معاني المروءة والإيثار، فقد نقلت نفسه الكريمة هذا المعنى من معنى يدلّ على الخضوع إلى معنى أرفع تهشّ له النفس، ويتطلّع به المملوك؛ لقوله ﷺ عن جبرئيل عليه السلام في وصيّه ووارث علمه عليّ عليه السلام:

«لا فتى إلاّ عليّ»[1].

وقد تجلّى صفاؤه الروحي في تصفية اللغة من مفردات وتسميات دخلت في جسمها، ولم يكن ﷺ يتطيّر من الأشياء، وإنّما هو صفاء نفس لديه وملَكة ربّانية طاهرة، يشوبها لطفٌ وأحاسيس[2] ملؤها الرحمة والمحبّة، فلديه ﷺ إحساس مرهف، يتذوق الأشياء الطيّبة الكريمة، وتعاف نفسه وتنفر من الأشياء الخبيثة.

وحتّى الأسماء كان له ﷺ فيها نظر وحسّ خاص، حيث رووا عنه ﷺ أنّه كان لا يتطيّر من شيء، وكان إذا بعث عاملاً سأله عن اسمه، فإذا عجبه اسمه فرح به ورُؤي بشر ذلك في وجهه، وإن كره اسمه رؤي كراهية ذلك في وجهه ﷺ، وإذا دخل قرية سأل عن اسمها، فإن أعجبه اسمها فرح به ورُؤي بشر ذلك في وجهه، وإن كره اسمها رؤي كراهية ذلك في وجهه ﷺ[3].

وهذا يعكس أحاسيس الخير والمحبّة والرأفة التي يحملها ﷺ لأمته.

---

(١) ينظر الروايات الواردة بذلك في بحار الأنوار ٦٢: ٦٤.

(٢) روي أنه ﷺ لما نزلت سورة الانشراح خرج مسروراً فرحاً وهو يضحك ويقول: «لن يغلب عسر يسرين ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (مجمع البيان ٥: ٥٠٩)

(٣) سنن أبي داود ٢: ٢٣٢ ح ٣٩٢٠ كتاب الطب، السنن الكبرى للبيهقي ٨: ١٤٠. وبلغ الأمر من أناقته ﷺ وذوقه الرفيع وحبّه للجمال أن قال: «من أراد أن يشمّ رائحتي فليشم الورد الأحمر» (مكارم الأخلاق ٤٤).

روي عن سعيد بن المسيب قال: ولد لأخي أم سلمة من أمها غلام فسمّوه الوليد، فقال النبيّ ﷺ: **تسمّون بأسماء فراعنتكم؟! غيّروا اسمه.** فسمّوه عبد الله[1].

ومن ذلك ما روي أن رجلاً من بني شُقرة يقال له: أصرم، كان في النفر الذين أتوا رسول الله ﷺ، قال: فأتاه بغلام له حبشي اشتراه بتلك البلاد.

فقال: يارسول الله، اشتريت هذا فأحببت أن تسميه وتدعو له بالبركة.

قال: **ما اسمك أنت؟**

قال، قال: أصرم.

قال ﷺ: **بل أنت زُرعة**، قال ﷺ: **فما تريده؟**

قال: أريده راعياً.

قال ﷺ: **فهو عاصم**. وقبض النبيّ ﷺ كفّه[2].

ومن ذلك أيضاً ما رواه ابن سعد أن وفد حهينة جاءه ﷺ فقال لهم: **من أنتم؟**

قالوا: بنو غيّان.

قال ﷺ: **أنتم بنو رَشْدان**، وكان اسم واديهم غوى فسمّاه رسول الله ﷺ رَشْداً[3]

---

(١) إعلام الورى بأعلام الهدى للطبرسي ٤٥ ط بيروت، بحار الأنوار ١٨: ١٢٦.

(٢) المعجم الكبير للطبراني ١: ١٩٦ رقم ٥٢٣، كنز العمال ١٦: ٥٩٨ ح٤٦٠٠٠.

(٣) الطبقات الكبرى ١: ٣٣٣ ط دار صادر بيروت.

وإنّما كره ﷺ بعض الألفاظ لبشاعة الاسم ولفقدان مدلولها الأخلاقي والذوقي، وعلّمهم ﷺ الأدب في التسمية وإطلاق الألفاظ، فكان كلامه ﷺ في هذا المجال ما يمكن أن نسميه أدب الألفاظ.

ومن ذلك قوله ﷺ: **«لا يقولنّ أحدكم للعنب الكَرم، فإنّ الكرم الرجل المسلم»** [١]، وفي رواية: **فإن الكرم قلب المؤمن. لا تقولوا الكرْم، ولكن قولوا الحبَلة**، يعني العنب[٢].

ومن ذلك ما روي أنَّ رسول الله ﷺ كان يسمي الأنثى من الخيل فرساً [٣].

ومن ذلك قوله ﷺ: **«أُمرتُ بقرية تأكل القرى يقولون يثرب، وهي المدينة، تنقّي الناس كما ينقّي الكيرُ خبث الحديد»**[٤].

وجاء في حديث آخر أنّه سمّى المدينة طابة و طيبة، وكان اسمها يثرب، سميت باسم رجل من العمالقة، وهو الذي بنى مدينة النبيّ ﷺ[٥].

والثرب الفساد، فنهي أن تُسمّى به، وسمّاها طيبة وطابة، وهما تأنيث طَيْب وطاب، بمعنى الطيب، والطيب بمعنى الطاهر، لخلوصها

---

(١) مسند أبي يعلى الموصلي ١١: ٢٠٤ ح ٦٣١٥، مسند أحمد ٢: ٢٧٢.

(٢) ينظر صحيح مسلم ٤: ١٧٦ ح ٢٢٤٧ و ٢٢٤٩.

لقد كان ﷺ متآلفاً مع أسرار الجمال ومع تناسق الطبيعة والوجود فقد روي أنه لما أُسري بالنبي ﷺ إلى السماء حزنت الأرض لفقده وأنبتت الكَبَر، فلما رجع إلى الأرض فرحت فأنبتت الورد. (مكارم الأخلاق ٤٤).

(٣) سن أبي داود ٣: ٢٢ ح ٢٥٤٦.

(٤) صحيح البخاري ٣: ٢٦. باب فضل المدينة، الطبعة السلطانية، مسند أحمد ٢: ٢٣٧.

(٥) المصباح المنير ٨١ (ثرب).

من الشرك وتطهيرها منه، ومن هذا جاء حديثه: **«جُعلت لي الأرض طيبة طهوراً»** أي نظيفة غير خبيثة [١]. وقد كان يؤكد في حديثه ﷺ حقائق لغوية، تتخذ مسارها اللغوي ضمن المعجم اللغوي للغة كقوله: **«مولى الرجل أخوه وابن عمّه»**[٢].

والوليّ والمولى واحد في كلام العرب. والمولى اسم يقع على جماعة كثيرة منها الربّ والمالك والسيّد والمنعم والمعتق والناصر والمحبّ والتابع والجار وابن العم والحليف والعبد [٣].

وقوله ﷺ: **«مَن كنت مولاه فهذا عليّ مولاه»** من تلك المعاني.

أثر الحديث النبوي في اتساع الألفاظ العربية وإغنائها

لاشكّ أنَّ لغة الإنسان تخضع إلى نمط حياته وأساليب معيشته، فحياة الإنسان في تغيير متواصل وتطور منذ النشأة الأولى، واللغة تجاري تطور الإنسان، أي تتغير طبقاً لحاجات الإنسان، فتشتق كلمات جديدة وتُقترض ألفاظ من لغات أخرى، وتتولّد مفردات جديدة لهذه البيئة ولهذا الوضع التطوري الذي يشهده الإنسان؛ لأن ألفاظ اللغة تابعة لحياة الإنسان فتتحول بتحوله.

حينما يتبدّل فكر الإنسان، وتتبدّل قوانين حياته ورؤاه، تتبدّل لغته أيضاً وفقاً لذلك، فتجد في تاريخ المفردة إضافات وتحولات قد تظهر في محيط دون غيره، وتظهر في عصر وتضمحلّ في غيره،

---

(١) النهاية ٣: ١٤٩ (طيب).

(٢) المعجم الكبير للطبراني ٦: ٧٤ ح ٥٥٥٧، كنز العمال ٦: ٤٥٦ ح١٦٥١٨.

(٣) ينظر لسان العرب ١٥: ٤٠٨ (ولي).

وهكذا تتعدد معاني الكلمات ويزداد رصيد الترادف اللغوي، وتتوسّع دلالات الألفاظ بإضافة معانٍ جديدة لها.

وقد فتح القرآن الكريم والحديث النبوي للغة العربية أبواباً جديدة من فنون الكلام، فعولجت فيها أمور لم تكن العربية لتُعنى بها وتقدر على علاجها، ومن ذلك متطلّبات علوم الشريعة والقوانين الجديدة وعلوم الطبّ والفلك والعلوم الإنسانية التي ظهرت نواتها مع بداية تأسيس الدولة الإسلامية، فكان لابدّ من احتواء هذا التطوّر الحضاري ومسايرته، ويتجلّى هذا التساير بامتداد اللغة مع امتداد الحضارة وتطوّرها.

وإنَّ للرسولﷺ في نقل اللفظة من معناها الأصلي اللغوي الذي تعارفت عليه العرب في سنن كلامها إلى معنى جديد غير مسبوق هو من براعة المجاز والتوسّع، ولهﷺ قدرة فائقة في جعل هذه الألفاظ تُفصِح عن معنى خاص.

وقد يمتزج المعنى الحقيقي بالمعنى المجازي فيصير المعنى المجازي هو المعنى المتسابق إلى الذهن عند الإطلاق، كما هو المتعارف عند إطلاق كلمة كافر ومنافق ومصلّي، وقد أسمى أهل الأصول في مباحثهم هذه المفردات بالحقيقة الشرعية.

فالقول أصله كلّ لفظ مُذل به اللسان، تاماً كان أو ناقصاً ثم يُتّسع فيه، فيوضع القول على الاعتقادات والآراء، وذلك نحو قولك: فلان يقول بقول أبي حنيفة، ويذهب إلى قول مالك، ونحو ذلك أي يعتقد ما كانا يريانه ويقولان به، لا أنه يحكي لفظهما عينه، من غير تغيير لشيء من حروفه.

وتجوّزهم في تسميتهم الاعتقادات والآراء قولاً ؛ لأنَّ الاعتقاد

يخفى فلا يُعرف إلاّ بالقول، أو بما يقوم مقام القول، من شاهد الحال، فلمّا كانت لا تظهر إلاّ بالقول سُمّيت قولاً، إذا كانت سبباً له، وكان القول دليلاً عليها، كما يُسمّى الشيء باسم غيره، إذا كان ملابساً له[1].

ويقال للرجل أنّه لَمِقْوَل، إذا كان بَيّناً ظريف اللسان.

والتّقولة: الكثير الكلام البليغ في حاجته، وامرأةٌ ورجلٌ تِقْوالةٌ: مِنْطيق. وهو ابن أقوالٍ وابن قَوّالٍ، أي جيد الكلام فصيح.

والعرب تقول للرجل إذا كان ذا لسان طلق: انه لابن قَوْلٍ وابن أقوال[2].

وقد خرج معنى القول إلى معنى آخر في الحديث غير المعنى اللغوي، جاء حديثه ﷺ:

«**سبحان الذي تعطّف بالعز وقال به**»، أي أحبّه واختصّه، كما يقال فلان يقول بفلان، أي بمحبته واختصاصه، وقيل معناه حكم به، فإن القول يستعمل في معنى الحكم، وأصله من القيل الملك لأنه ينفذ قوله.

وفي الحديث أيضاً: «**أنه نهى عن قيل وقال**»، أي نهى عن فضول ما يتحدّث به المتجالسون، من قولهم: قيل كذا، وقال كذا[3].

وهذا مأخوذ من الأصل اللغوي للقول.

والمِقْوَل: اللسان، ويقال: إنّ لي مِقوَلاً، وما يسرّني به مِقْوَل،

---

(١) ينظر الخصائص لابن جني ١: ١٧و١٩.

(٢) اللسان (قول).

(٣) النهاية ٤: ١٢٢ (قول).

وهو لسانه، ومنه القالة: وهو القول الفاشي في الناس.

قال أبو زيد: يقال: قِيلَك وقَولك ومقالَتكَ ومقالك وقالَك، خمسة أوجه[(١)].

ومن هذا جاء حديث عليّ عليه السلام في خطبته: **«إنه قد كان على الأمة والٍ أحدث أحداثاً، وأوجد الناس مقالاً»** [(٢)]، أي جعل بتلك الأحداث طريقاً إلى القول عليه فقالوا، وهو عليه السلام يومئ إلى المعنى الاصطلاحي للقول، فهنا ظهر المعنى الجديد للقول وهو المقال السياسي أو البحث السياسي.

وإذا أخذنا معنى المفردة في قوله ﷺ لما أتى رجلٌ يتقاضاه فأغلظ، فهمّ به أصحابه، فقال رسول الله ﷺ: **دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً** [(٣)]، وجدنا لها معنى الدفاع الشرعي والحجة الشرعية.

وأراد ﷺ بقوله: **«علم لا يقال به ككنز لا ينفق منه»** [(٤)]، أراد به معنى النشر والتعليم[(٥)].

وإذا لحظنا التطور الذي حظيت به مفردة المقالة وجدنا أن اللفظة قد أصبحت أحد الأشكال الأدبية التي تتميز باقترانها بلغة العلم، أي تزدوج فيه العبارة الفنية والعلمية.

واحتفظت المقالة باستمراريتها في جميع العصور، قديماً وحديثاً، إلاّ أنها في العصر الحديث قد اكتسبت طوابع متنوعة بحيث

---

(١) ينظر لسان العرب ١١: ٥٧٥ (قول).

(٢) نهج البلاغة ضمن الخطبة ٤٣ ط منشورات دار الهجرة قم بتحقيق صبحي الصالح.

(٣) صحيح البخاري ٣: ١٣٠ كتاب الوكالة، مسند أحمد ٢: ٤١٦.

(٤) سنن الدارمي ١: ١٣٨، الدرّ المنثور ١: ٦٣.

(٥) وقد فسّره ﷺ بقوله: «علم لا ينفع ككنز لا ينفق».

شكلت فناً خاصاً عنيت الدراسات الأدبية به بمثل عنايتها بالأشكال الأدبية الأخرى، فهناك المقالة الاجتماعية والسياسية.

وقد اتخذت المقالة مظاهر مختلفة، منها المقالة المكتوبة والمسموعة. فالمكتوبة هي العنصر الغالب الذي فرضته نشأة الصحافة الحديثة، والمقروءة فرضتها طبيعة الحياة الثقافية التي تقترن بظهور المؤسسات الجامعية والعلمية والأدبية والثقافية بعامة، كالإذاعة والتلفزيون[١].

وقد اتخذ هذا التغيير اللغوي أشكالاً منها:

١ ـ نقل اللفظ من معنى إلى معنى آخر، وهو ما نعنيه بالمجاز[٢].

٢ ـ الوضع اللفظي من ارتجال ونحت واشتقاق.

النقل من معنى إلى آخر: عَرف اللفظ العربي قبل ظهور دعوته ﷺ معاني بدوية حملتها دلالات هذه الألفاظ، وبما أن اللغة ظاهرة اجتماعية إنسانية كالعادات والتقاليد تعكس نمط الحياة وتترجم مفرداتها هذه الظواهر، فبنيان حضارة جديدة ذات نظام مستقر حوّلت هذه الألفاظ إلى المعاني الجديدة التي شهدها المسلمون.

فالأصوات والكلمات ما هي إلاّ دلالات للظواهر الاجتماعية والسياسية للمجتمع الإسلامي، وقد أدرك ﷺ وظيفة اللغة فبدأ حركته بنقل هذه الألفاظ من اللغة إلى الشرع والحضارة، لتكون مصداق هذا التطور.

---

(١) ينظر القواعد البلاغية في ضوء المنهج الإسلامي ٣٠٦.
(٢) استوعبت المجازات النبوية للشريف الرضي هذا الجانب.

وقد تجلّى هذا النقل واضحاً بعد نزول القرآن الكريم، فألفاظ القرآن نقلت بعض المفردات العربية من معناها اللغوي التقليدي إلى المعنى الشرعي أو الاصطلاحي الجديد.

فالصلاة في أصل وضعها اللغوي هو الدعاء والاستغفار [١]، وفي المعنى الاصطلاحي والشرعي: هي العبادة المخصوصة المفروضة كلّ يوم.

وقد أدرك الإمام الصادق عليه السلام: هذا النقل الجديد فردّها إلى أصلها اللغوي بقوله: **«الصلاة من الله رحمة، ومن الملائكة تزكية، ومن الناس دعاء»**[٢].

والنفاق لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به، وهو الذي يستر كفره ويظهر إيمانه وإن كان أصله في اللغة معروفاً[٣].

قال أبو عبيد: إنّما سمي المنافق منافقاً ؛ لأنّه نافق كاليربوع ،وإنّما هو دخوله نافقاءه، يقال منه: قد نَفَق فيه ونافق وهو جُحره، وله جُحر آخر أيضاً يقال له: القاصعاء، فإذا طُلب قصّع فخرج من القاصعاء، وهو يدخل في النافقاء ويخرج من القاصعاء، أو يدخل في القاصعاء ويخرج من النافقاء، فيقال هكذا يفعل المنافق يدخل في الإسلام ثم يخرج منه من غير الوجه الذي دخل فيه[٤].

فعلى هذا سُمّي المنافق منافقاً للنفق، وهو السَّرَب في الأرض[٥].

---

(١) ينظر لسان العرب ١٤: ٤٦٦ (صلا).

(٢) معاني الأخبار للصدوق ٣٨٦ باب معنى الصلاة من الله ومن الملائكة.

(٣) لسان العرب ١٠: ٣٥٩ (نفق).

(٤) غريب الحديث للهروي ١: ٣٨٢.

(٥) لسان العرب ١٠: ٣٥٩ (نفق).

والكفر الذي عرف بالاصطلاح الشرعي لم يكن معروفاً بهذا الاستخدام الجديد، الذي هو ضدّ الإيمان.

والأصل اللغوي للكفر تغطية الشيء تغطية تستهلكه [(١)]، وكلّ شيء غطّى شيئاً فقد كفره، فقالوا لليل: كافر ؛ لأنّه ستر بظلمته ووارى [(٢)].

قال لبيد:

يعلو طريقة متنها متواتراً   في ليلةٍ كفرَ النجوم غمامها [(٣)]

وقد فسّروا إطلاق اسم الكافر ؛ لأنّه ستر نعم الله ﷻ، والنعم التي سترها الكافر هي الآيات الدّالة على توحيده [(٤)].

وبهذا التطوّر الذي حصل في مفردات اللغة العربية، فقد ارتقى اللفظ من حيّز المشترك اللغوي إلى حيز المصطلح، ذي المدلول الخاص، الذي يحيل على مفاهيم ومتصوّرات مضبوطة، وتمكّن اللفظ من التخلّص من التعميم الذي كان له في النص اللغوي ؛ ليكتسب دقّة المصطلح وخصوصيته.

فالكلمة في المعنى اللغوي تعتمد سياقها في الجملة والكلام، أما الكلمة في المعنى الاصطلاحي فتعتمد بشكل كبير على نظام التصوّر الذي تنتمي إليه في العلوم الإسلامية التي صنعت هذه المصطلحات.

وصنع الألفاظ وتوليدها جزء من تاريخ اللغة وكيانها، وذلك

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر ٤ : ١٨٧ (كفر).

(٢) إصلاح المنطق ٣٢٥ ترتيب محمد حسن بكاني.

(٣) المعلّقات السبع بشرح الزوزني ٩١ ط دار الكتب العلمية بيروت.

(٤) اللسان (كفر).

يعني أنَّ لكلّ لفظ نشأة وميلاداً، وأنَّ في كلّ لفظ اشتقاقاً وتوليداً، وأنَّ المناسبة الذاتية لا تُلتمس إلاّ في اللفظ عند نشأته الأولى، وأن هذه المناسبة لا تظهر فيما جدّده الاستعمال من مدلولات ذلك اللفظ إنّما تُحمل حملاً على معنى الأصل الأقدم.

ولا يخفى حينئذٍ على الباحث اللغوي أنَّ المناسبة الأخيرة لم تنشأ مع اللفظ ولم تحضر ميلاده، بل اكتسبت إيحاءها ودلالتها من كثرة الاستعمال(١).

ونقل اللفظ من معنى إلى معنى مظهر لغوي انفرد به ﷺ، ويُعتبر هذا النقل مظهر من مظاهر الفصاحة، ولقد نقل الحديث النبوي معنى اللفظ من معناه اللغوي التقليدي إلى معنى جديد اقتضته الحياة الإسلامية الجديدة، فاللفظة العربية التي وُضعت من أجل إعطاء معنى معيّن لحالة، أو دالّة عربية بدوية، أصبحت بلفظهﷺ تدلّ على معنى حضاري ومدني، ولم تعهد الأعراب هذه المعاني فالصرورة والصلاة والصوم نُقلت من معاني دالّة عليها في الوضع اللغوي إلى وضع جديد لم تألفه اذهان العرب.

وقد عُرفت في أبحاث الأصوليين بالحقيقة الشرعية، فأصل الصلاة في اللغة الدعاء، فقولهم: صلّ بمعنى ادعو، أمّا قوله ﷺ: «صلّوا» فهو المراد هذه الصلاة المتعارف عليها بركعاتها المحدودة في زمان معيّن.

وقد ارتجلﷺ ألفاظاً جديدة كانت مدعاة للسؤال والاستغراب من الصحابة، وقد حفظت لنا وثائق اللغة والحديث بعضها(٢).

---

(١) ينظر دراسات في فقه اللغة لصبحي الصالح ١٦٩.

(٢) قال أبو عبيد في حديث النبيّ ﷺ «أنّه نهى عن كسب الزمّارة»: لم أسمع هذا الحرف إلاّ فيه، ولا أدري من أيّ شيء أُخذ. غريب الحديث للهروي ١: ٢٠٤.

والارتجال هو خلق ألفاظ وتوليدها، ولا يكون الارتجال مقبولاً ومستساغاً إلاّ إذا صدر من فصيح ذو قدرة ومهارة تؤهله من صناعة الألفاظ وابتكارها.

فالارتجال حقيقة من حقائق اللغات جميعاً، ومنها العربية، وهو وسيلة إثراء وإغناء مارسها بعض المؤهلين من أبناء لغتنا العربية، وعلى رأسهم النبيّ الكريم ﷺ، وأن العربي الفصيح من أولئك المؤهلين يُعدّ ربّ اللغة ومالكها، فله أن يخلق من ألفاظها ما يشاء من غير نكير عليه، وأن يتصرّف في مفرداتها وتراكيبها وضبط حروفها التصرّف الذي يجري بالفطرة، وعلى مقتضى طبعه، وإلاّ فكيف تنشأ اللغة[1].

قال ابن جنّي: الأعرابيّ إذا قويت فصاحته، وسَمَت طبيعته، تَصرّفَ وارتجل ما لم يسبقه أحد قبله، فقد حُكي عن رؤبة وأبيه أنهما كانا يرتجلان ألفاظاً لم يسمعاها ولا سُبقا إليها[2].

أثر الحديث في توليد المعاني

إذا كان للحديث النبوي أثر واضح في توليد الألفاظ للغة العربية، فإنَّ توليد المعاني يبدو واضحاً أيضاً للمتتبّع للنصوص النبويّة، فقد عُرفت له ﷺ معانٍ جديدة لألفاظ اللغة العربية أغنت معجم المعاني وأثرته.

= والزَّمّارة: كناية عن الفاجرة. مفردات الراغب: ٢١٥ (زمر).

وقال أبو عبيد في حديث النبيّ ﷺ «إنّ رجلاً أتاه وهو يقاتل العدوّ فسأله سيفاً يقاتل به، فقال له: فلعلك إنْ أعطيتك أن تقوم في الكيّول»: والكيّول: يعني آخر الصفوف، ولم أسمع هذا الحرف إلاّ في هذا الحديث. غريب الحديث للهروي ١: ٣٤٣.

(١) ينظر الحديث النبوي وأثره في الدراسات اللغوية والنحوية ١٣٦.

(٢) الخصائص ٢: ٢٥.

فممّا يُروى له ﷺ أنّه قال لأصحابه: **ما تعدّون الرقوب فيكم؟**

قال: قلنا: الذي لا ولد له.

قال: **ليس ذاك بالرقوب، ولكن الرقوب الذي لم يقدّم من ولده شيئاً.**

قال ﷺ: **وما تعدّون الصرعة فيكم؟**

قال: قلنا: الذي لا تصرعه الرجال.

قال: **ليس ذلك، ولكن الذي يملك نفسه بالغضب** [١].

وقال ﷺ لهم أيضاً: **خير نساءكم نساء قريش ألطفهنّ بأزواجهنّ وارحمهنّ بأولادهنّ، المجون لزوجها، الحَصان لغيره.**

قالوا: وما المجون؟

قال: **التي لا تمنع** [٢].

وقال ﷺ: **شرار نساءكم المعقرة الدنِسة، اللجوجة العاصية، الذليلة في قومها، العزيزة في نفسها، الحصان على زوجها، الهلوك على غيره** [٣].

وهذه المعاني ولّدتها قريحته الصافية وأدخلتها اللغة في شعاب أوديتها لتنمو وتزدهر من فيض كلامه ﷺ.

من ذلك ما روي عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: **عليّ سيّد العرب.**

---

(١) مسند أبي يعلى الموصلي ٩: ٩٧ ح ٥١٦٢، صحيح مسلم ٨: ٣٠.

(٢) فروع الكافي ٥: ٣٢٦ ح٣ باب فضل نساء قريش.

(٣) فروع الكافي ٥: ٣٢٦ ح٢. والهلوك من النساء: الفاجرة المتساقطة على الرجال، سُمّيت بذلك لأنّها تتهالك، أي تتمايل وتنثني عند جماعها، ولا يوصف الرجل الزاني بذلك فلا يقال رجل هَلوك. اللسان (هلك).

فقلت: يا رسول الله ألست سيّد العرب؟

قال: **أنا سيّد ولد آدم وعليّ سيّد العرب.**

قلت: وما السيّد؟

قال: **مَن افترضت طاعته كما افترضت طاعتي**(١).

ومن ذلك قوله ﷺ كما رواه أبو سعيد الخدري قال: **إذا سألتم الله لي فسلوه الوسيلة.**

فسألنا النبيّ ﷺ عن الوسيلة، فقال: **هي درجتي في الجنّة**(٢).

ومن ذلك قوله ﷺ لَمّا سأله الأعرابي عن معنى الصليعاء والقريعاء وخير بقاع الأرض وشرّ بقاع الأرض، فقال ﷺ: **الصليعاء: الأرض السبخة التي لا تروى ولا تشبع مرعاها.**

والقريعاء: الأرض التي لا تعطي بركتها ولا يخرج ينعها ولا يدرك ما أُنفق فيها(٣).

ومن ذلك قوله ﷺ: **«الموتور أهله وماله من ضيّع صلاة العصر»**(٤).

ومن ذلك قوله ﷺ في عليّ عليه السلام: **سيّد المسلمين، وإمام المتقين، وقائد الغرّ المحجّلين، وقاتل الناكثين والمارقين والقاسطين.**

قالت أمّ سلمة له: يا رسول الله مَن الناكثون؟

قال: **الذين يبايعونه بالمدينة وينكثونه بالبصرة.**

---

(١) معاني الأخبار: ١٠٣ ح٢ معنى قول النبيّ ﷺ أنا سيد العرب.
(٢) معاني الأخبار: ١١٦.
(٣) معاني الأخبار: ١٦٨.
(٤) معاني الأخبار: ١٧١.

فقالت: مَن القاسطون؟

قال: **معاوية وأصحابه من أهل الشام.**

ثم قالت: مَن المارقون؟

قال: **أصحاب النهروان**[١].

ومن قوله ﷺ: **«إنّما مثل المرأة الصالحة مثل الغراب الأعصم الذي لا يكاد يُقدر عليه».**

قيل: وما الغراب الأعصم الذي لايقدر عليه؟

قال: **الأبيض إحدى رجليه**[٢].

ومن ذلك قوله ﷺ في وصف صلاة المنافق: **«يجلس يرقب الشمس حتّى إذا كانت بين قَرْنَي الشيطان قام فنقرها أربعاً لا يذكر الله فيها إلاّ قليلاً»**[٣].

وروى ابن عمر قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فحصنا حيصةً فدخلنا المدينة فتخبأنا قال: فقلنا: هلكنا يا رسول الله نحن الفرّارون.

قال: **لا، بل أنتم العكّارون**[٤].

فالمعاني التي جاءت في هذه النصوص لم تكن قائمة في

---

(١) معاني الأخبار: ٢٠٤.

(٢) فروع الكافي ٥: ٥١٥ باب في قلّة الصلاح في النساء.

(٣) صحيح مسلم ١: ٤٣٤ ح٦٢٢ كتاب المساجد. وقرن الشيطان يقال للأشعة التي تتقضّب عند طلوع الشمس ويُتراءى للعيون أنّها تُشرِف عليهم. وقيل: القَرن القوّة، أي حين تطلع يتحرّك الشيطان ويتسلّط فيكون كالمعين لها. اللسان (قرن).

(٤) أي الكرّارون إلى الحرب والعطّافون نحوها. والعكرة: الكرّة، عكر يَعْكر عكراً، عطف من قولهم: عكر به بعيره، إذا عَطف به. النهاية (عكر) والصحاح ٢: ٧٥٦ (عكر)، مسند أبي يعلى الموصلي ٩: ٤٤٧ ح٥٥٩٦.

أذهانهم ولم تختلج في صدورهم، فالمتتبّع والدارس يلحظ حدثان هذه المعاني، وإنْ كانت قد تبدو لبعض الفصحاء إشارات وإضاءات منها في خلده، فإنّها كانت محجوبة ومستورة في صفحات ذاكرته، فكشفها وأخرجها ﷺ في مطاوي حديثه بأروع بيان.

وإذا كانت بعض المعاني موجودة، على فرض عدم وجود جدّة وطرافة في حديثه ﷺ، فإنّه أحيا تلك المعاني ونفث فيها الروح لتحيا من جديد.

الأثر النبوي في المادة اللغوية للمعجم العربي

أسهمت النصوص النبوية في توسيع المادة اللغوية وإثرائها، فقد أمدّت هذه النصوص المعجم العربي بألفاظ لم تكن تستخدم في اللغة المتداولة بين قبائل العرب وشعرائها وأدبائها، وقد أخذت هذه الألفاظ مساحة كبيرة في صناعة المعجم العربي، فصارت الألفاظ النبوية تغطّي صفحات في هذه المعجمات، انبرى اللغويون في بيانها وشرحها.

ولعلّ (لسان العرب) لابن منظور أفضل شاهد لذلك، فلن تجد مادة لغوية وضعها أهل صناعة المعجم الذين نقل عنهم ابن منظور إلاّ وتجد هذه النصوص النبوية أخذت الموضع الأساس في المادة اللغوية المرتّبة.

وقد أصبحت اللغة في قرون وما زالت لغة الحديث النبوي، وقد أخذت مواد لغوية جديدة مكانتها في صناعة المعجم إضافة إلى توسيع المادة الموجودة المدرجة، وهذا من أسرار فصاحته وقدرته ﷺ في أن يُبنى المعجم العربي بهذه الألفاظ، فلن تجد مواد لغوية في اللغات الشرقية والغربية صنعها أديب أو عبقري من عباقرتهم ،كلّما

كان هو استخدام الألفاظ الجاهزة وتداولها في أعمالهم الأدبية.

وقد شكل الحديث مع نصوص القرآن أساس المادة اللغوية لأمهات المعجمات اللغوية، فتجد للحديث النبوي حضوراً في:

كتاب (العين) للخليل بن أحمد الفراهيدي المتوفّى ١٧٥ هـ، وهو أول عمل معجمي في اللغة العربية.

وفي (تهذيب اللغة) لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري المتوفّى ٣٧٠هـ.

وفي (جمهرة اللغة) لمحمد بن الحسن بن دريد المتوفّى ٣٢١هـ.

وفي (المحيط في اللغة) للصاحب بن عباد المتوفّى ٣٨٥هـ.

وفي (تَاج اللغة وصحاح العربية) لإسماعيل بن حمّاد الجوهري المتوفّى ٣٩٠هـ.

وفي (التقفية في اللغة) للبندنيجي المتوفّى ٢٨٤هـ.

وفي (البارع في اللغة) لأبي علي القالي المتوفّى ٣٥٦هـ.

وفي (معجم مقاييس اللغة) لأبي الحسين أحمد بن فارس المتوفّى ٣٩٥هـ.

وفي (المحكم والمحيط الأعظم) لعلي بن سيده المتوفّى ٤٥٨هـ.

وفي (أساس البلاغة) لجار الله محمود بن عمر الزمخشري المتوفّى ٥٣٨هـ.

وغيرها من المعجمات التي تزيّنت بدرر كلامه ﷺ شرحاً وشاهداً.

ونظراً لكثرة هذه النصوص المروية عن النبيّ ﷺ وتناثرها في

الكتب المتفرقة، شهد العصر الحديث حركة فهرسة لهذه النصوص، وكانت مسألة فهرسة الأحاديث لم تحظَ باهتمام العلماء والباحثين لقرون قد خَلَت، إلاّ أن معطيات العصر الحديث من توفر أجهزة الطباعة وإنشاء المدارس والجامعات العلمية المتخصصة في دراسة الحديث، دفع الباحثين لإعداد فهارس الحديث النبوي إدراكاً منهم في أهمية توفير الوقت واختزاله أمام الدارس والباحث، وتسهيلاً للأعمال العلمية التي تتطلب فهرسة النصوص وتنظيمها.

المصادر والمراجع

ـ ا ـ

الآحاد والمثاني لابن أبي عاصم تحقيق باسم فيصل ط١ دار الدراية ١٤١١ه.

الاحتجاج لأحمد بن علي الطبرسي منشورات دار النعمان للطباعة والنشر / النجف الأشرف ـ العراق.

الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي المتوفي ٩١١هـ طبع الحلبي / مصر.

الأحكام السلطانية للشافعي الماوردي طبع الحلبي / مصر.

الأدب الديني لزكي محاسني/ مؤسسة البلاغ /بيروت ـ لبنان.

الأدب المفرد لمحمد بن إسماعيل البخاري/ ط٣ مؤسسة الكتب الثقافية ١٤٠٩هـ.

أساس البلاغة للزمخشري المتوفي ٥٣٨هـ/ تحقيق عبد الرحيم محمود ـ طبع دار الكتب مصر.

أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني / دار المعرفة / بيروت ـ لبنان / سنة ١٤٠٢هـ.

الاشتقاق لابن دريد الأزدي المتوفي ٣٢١هـ، تحقيق عبد السلام هارون / طبع بغداد.

إصلاح غلط المحدثين للخطابي البستي المتوفي ٣٨٨هـ بتحقيق حاتم صالح الضامن / طبع بيروت.

إصلاح المنطق لابن السكيت المتوفي ٢٤٤ ترتيب محمد حسن بكائي، ط البحوث الإسلامية مشهد

أُصول الحديث علومه ومصطلحه للدكتور محمد عجاج الخطيب/ دار الفكر بيروت ١٤٠١هـ.

الكافي للشيخ الكليني محمد بن يعقوب المتوفي ٣٢٩ ط دار الكتب الإسلامية ـ مرتضى آخوندي / طهران ـ ايران / ط: ٣، سنة ١٣٨٨هـ.

الأضداد لأبي حاتم السجستاني المتوفي ٢٥٥هـ طبع / دار المشرق بيروت ـ لبنان / وضمن ثلاث كتب في الأضداد.

الأعشى حياته وشعره/ طبع دار كرم دمشق ـ سوريا.

إعلام الورى بأعلام الهدى للفضل بن الحسن الطبرسي طبع دار المعرفة ـ بيروت.

الألفاظ لابن السكيت بتحقيق فخر الدين قباوة/ طبع بيروت.

الأمالي = أمالي الصدوق للشيخ الصدوق محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي المتوفي ٣٨١هـ نشر مؤسسة البعثة / قم ـ ايران/ ط: ١ سنة ١٤١٧هـ وطبع مؤسسة الأعلمي ـ بيروت.

الأمالي = أمالي الطوسي لمحمد بن الحسن الطوسي المتوفي ٤٦٠هـ النجف ـ العراق.

الإمامة والتبصرة لابن بابويه القمي والد الشيخ الصدوق نشر مدرسة الامام المهدي «عج» / قم ـ ايران.

الأموال لأبي عبيد / دار الحداثة بيروت ـ لبنان.

- ب -

بحار الأنوار الجامعةُ لدرر أخبار الأئمة الأطهار للعلامة محمد باقر المجلسي المتوفي ١١١١هـ مؤسسة الوفاء / بيروت ـ لبنان / ط: ٢ سنة ١٤٠٣ هـ وطبعة أخرى في دار الكتب الاسلامية / طهران ـ إيران.

البداية والنهاية لابن كثير المتوفي ٧٧٤هـ/ طبع دار الفكر ـ بيروت.

البرهان في علوم القرآن للزركشي/ طبع دار المعرفة ـ بيروت.

بصائر الدرجات لمحمد بن الحسن بن فروخ الصفار المتوفي ٢٩٠هـ مطبعة الأحمدي / طهران ـ ايران / سنة ١٤٠٤هـ.

البيان والتبيين للجاحظ / طبع بيروت.

- ت -

تاريخ آداب العرب لمصطفى صادق الرافعي/ طبع دار الكتاب العربي بيروت ـ لبنان.

تاريخ الأدب العربي لأحمد حسن الزيات دار المعرفة / بيروت ـ لبنان.

تاريخ الأدب العربي لشوقي ضيف دار المعارف / مصر.

تارخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي للدكتور محمود البستاني/ طبع مجمع البحوث الإسلامية ـ مشهد.

تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان دار مكتبة الحياة / بيروت ـ لبنان / سنة ١٩٨٣.

تاريخ الإسلام السياسي والثقافي للدكتور حسن ابراهيم حسن دار احياء التراث العربي / بيروت ـ لبنان / ط: ٦.

تاريخ الطبري لمحمد بن جرير الطبري / طبع مؤسسة الأعلمي ـ بيروت.

التاريخ الكبير لمحمد بن إسماعيل البخاري / طبع دار الفكر ـ بيروت.

تاريخ اليعقوبي لأحمد بن أبي يعقوب المتوفي ٢٨٤هـ / طبع دار صادر ـ بيروت.

تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة المتوفي ٢٧٦هـ بتحقيق صقر/ طبع دار التراث ـ القاهرة.

التبيان في علوم القرآن للصابوني عالم الكتب / بيروت ـ لبنان.

تحف العقول عن آل الرسول ﷺ لابن شعبة الحراني مؤسسة النشر الاسلامي لجماعة المدرسين / قم ـ ايران / ط: ٢، سنة ١٤٠٤هـ.

التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي الكلبي المتوفي ٧٤١هـ منشورات أم القرى / القاهرة ـ مصر، ودار الكتاب ـ بيروت.

تفسير الإمام الحسن العسكريعليه السلام المنسوب إلى الإمام أبي محمد الحسن بن علي العسكري عليه السلام نشر مدرسة الإمام المهدي «عج» / قم ـ إيران / ط: ١، سنة ١٤٠٩هـ.

تفسير التبيان لشيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي مكتب الإعلام الاسلامي / قم ـ ايران / ط: ١، سنة ١٤٠٩هـ.

تفسير الصافي للمولى محسن الفيض الكاشاني المتوفّى ١٠٩١هـ

مكتبة الصدر / طهران ـ ايران/ ط: ٢ سنة ١٤١٦هـ.

تفسير الطبري لمحمد بن جرير الطبري/ طبع دار الفكر ـ بيروت.

تفسير العياشي للنظر محمد بن مسعود بن عياش السلمي السمرقندي المتوفى ٣٢٠هـ المكتبة العلمية الإسلامية / طهران ـ ايران.

تفسير القرطبي = الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي المتوفي ٦٧١هـ نشر مؤسسة التاريخ العربي ـ بيروت، ودار الغد العربي القاهرة ١٤٠٩هـ الطبعة الثالثة.

تفسير القمي لأبي الحسن علي بن إبراهيم القمي المتوفي ٣٢٨هـ مؤسسة دار الكتاب / قم ـ ايران / ط: ٣، سنة ١٤٠٤هـ.

التفسير الكبير = تفسير الفخر الرازي للامام محمد فخر الدين الرازي المتوفي ٦٠٤هـ دار الفكر / بيروت ـ لبنان / ط: ٣، سنة ١٤٠٥هـ.

تفسير مجاهد طبع مجمع البحوث الإسلامية / باكستان / بتصحيح عبد الرحمن السورتي.

تفسير مجمع البيان للشيخ أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي المتوفي ٥٤٨هـ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات / بيروت ـ لبنان / ط: ١، سنة ١٤١٥هـ.

تقييد العلم للخطيب البغدادي نشر دار احياء السنة النبوية بتحقيق يوسف العش ١٩٧٤م.

التكملة والذيل لمحمد بن الحسن الصغاني / طبع دار الكتب القاهرة.

التخليص في علوم البلاغة للقزويني طبع في مصر / بتحقيق الاستاذ عبد الرحمن البرقوقي.

تنوير المقباس في تفسير ابن عباس طبع في طهران ـ ايران.

تهذيب الأحكام لشيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي دار الكتب الإسلامية/ ايران / ط: ٤، سنة ١٣٦٥ ش.

تهذيب إصلاح المنطق للخطيب التبريزي مكتبة لبنان ناشرون / بيروت ـ لبنان بتحقيق فخر الدين قباوة.

تهذيب اللغة لمحمد بن أحمد الأزهري ٣٧٠هـ/ طبع الدار المصرية للتأليف والنشر ـ القاهرة ١٩٦٤م.

التوحيد للشيخ محمد بن علي بن بابويه القمي ط جماعة المدرسين قم

ـ ث ـ

الثقات لابن حبّان/ طبع حيدر آباد الدكن الهند ـ مجلس دائرة المعارف العثمانية.

ثواب الأعمال وعقاب الأعمال للشيخ الصدوق محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي منشورات الشريف الرضي / قم ـ ايران / ط: ٢، سنة ١٣٦٨ ش.

ـ ج ـ

جامع الأحاديث لجعفر بن أحمد القمي الرازي / نشر مجمع البحوث الإسلامية ـ مشهد.

جامع الأخبار للشيخ تاج الدين محمد بن محمد الشعيري

مؤسسة الاعلمي للمطبوعات / بيروت ـ لبنان / ط: ١ سنة ١٤٠٦هـ.

جامع الأصول للإمام المبارك بن محمد الجزري المعروف بابن الأثير دار احياء التراث العربي / بيروت ـ لبنان.

جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر الأندلسي ط بيروت

الجامع الصغير لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي دار الفكر / بيروت ـ لبنان / ط: ١، سنة ١٤٠١هـ.

جامع المقاصد في شرح القواعد مؤسسة أهل البيت / قم ـ ايران.

جمهرة اللغة لابن دريد الأزدي دار العلم للملايين / بيروت ـ لبنان / بتحقيق رمزي منير بعلبكي، وطبعة أخرى في حيدر آباد ـ الهند.

- ح -

حجة القراءات لابن زنجلة بتحقيق سعيد الافغاني بيروت، مؤسسة الرسالة ١٤٠٤هـ

الحديث النبوي وأثره في الدراسات اللغوية والنحوية للدكتور محمد ضاري حمادي بغداد ـ العراق / سنة ١٤٠٢هـ.

حسن التوسل إلى صناعة الترسل لشهاب الدين محمود الحلبي المتوفي ٧٢٥هـ ط بغداد ١٩٨٠م بتحقيق أكرم عثمان.

الحصيلة اللغوية للدكتور أحمد المعتوق طبع الكويت / سنة ١٩٩٦ م.

حقيقة الاعلال والأعراب لراسم الطحان / بيروت ـ لبنان / ط: ١، سنة ١٩٩٠م.

الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام لمحمد عبد المنعم خفاجي دار الكتاب / بيروت ـ لبنان.

- خ -

الخرائج والجرائح لقطب الدين الراوندي المتوفي ٥٧٣هـ مؤسسة الإمام المهدي «عج» / قم ـ ايران.

خزانة الأدب لعبد القادر البغدادي/ طبع بيروت دار الكتاب العربي بتحقيق عبد السلام هارون.

الخصائص لابن جني بتحقق محمد علي النجار المكتبة العلمية / بيروت ـ لبنان.

الخصال للشيخ الصدوق محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي جماعة المدرسين في الحوزة العلمية / قم ـ ايران.

الخلاصة في أصول الحديث للحسين بن عبد الله الطيبي /عالم الكتب بيروت ـ لبنان / بتحقيق صبحي السامرائي.

- د -

دراسات في فقه اللغة للدكتور صبحي الصالح/ دار العلم للملايين ـ بيروت لبنان / سنة ١٩٨٩ م.

دراسة اللهجات العربية القديمة للدكتور داود سلوم عالم الكتب / بيروت ـ لبنان / سنة ١٩٨٦ م.

الدر المنثور لجلال الدين السيوطي دار المعرفة / بيروت ـ لبنان / ط: ١، سنة ١٣٦٥هـ.

دعائم الإسلام لنعمان بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيون

التميمي المغربي دار المعارف / القاهرة ـ مصر / سنة ١٣٨٣هـ.

الدعوات لقطب الدين الراوندي / نشر مدرسة الامام المهدي «عج» / قم ايران / ط: ١، سنة ١٤٠٧هـ.

دلائل الإعجاز للجرجاني دار الكتب العلمية / بيروت ـ لبنان.

- ر -

رجال النجاشي لأبي العباس النجاشي المتوفي ٤٥٠هـ / طبع جماعة المدرسين في الحوزة العلمية / قم ـ إيران.

الرعاية في علم الدراية للشهيد الثاني مكتبة المرعشي / قم ـ ايران / بتحقيق محمد علي بقال، سنة ١٤٠٨ه.

روض الجنان وروح الجنان في تفسير القرآن لأبي الفتوح الرازي مجمع البحوث الإسلامية / مشهد ـ إيران.

روضة الواعظين لمحمد بن الفتال النيسابوري منشورات الشريف الرضي / قم ـ إيران.

- س -

سبل الهدى والرشاد لمحمد يوسف الصالحي الشامي دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان / ط: ١، سنة ١٤١٤هـ.

سفينة البحار للشيخ عباس القمي مؤسسة الوفاء / بيروت ـ لبنان/ وطبعة أخرى في البحوث الإسلامية / مشهد ـ إيران.

سنن ابن ماجة لمحمد بن يزيد القزويني دار الفكر / بيروت ـ لبنان.

سنن أبي داود لسليمان بن الأشعث السجستاني دار الفكر / بيروت ـ لبنان/ ط: ١، سنة ١٤١٠هـ.

سنن الترمذي لمحمد بن عيسى الترمذي دار الفكر / بيروت ـ لبنان / سنة ١٤٠٣هـ.

سنن الدارقطني لعلي بن عمر الدارقطني دار الكتب العلمية / بيروت ـ لبنان/ ط: ١، سنة ١٤١٧هـ.

سنن الدارمي لعبد الله بن بهرام الدارمي مطبعة الاعتدال / دمشق ـ سوريا.

السنن الكبرى = سنن البيهقي لأحمد بن الحسين بن علي البيهقي دار الفكر / بيروت ـ لبنان.

سنن النسائي لأحمد بن شعيب النسائي دار الفكر / بيروت ـ لبنان / ط: ١، سنة ١٣٤٨هـ.

سيرة ابن هشام لمحد بن اسحاق بن يسار المطلبي مكتبة محمد علي صبيح وأولاده / ميدان الازهر ـ مصر / سنة ١٣٨٣هـ.

السيرة النبوية لأبي الفداء إسماعيل بن كثير دار المعرفة / بيروت ـ لبنان / ط: ١، سنة ١٣٩٦هـ.

ـ ش ـ

شرح شافية ابن الحاجب لمحمد الاسترابادي/ طبع دار الكتب العلمية ـ بيروت.

شرح نهج البلاغة لابن ميثم البحراني المتوفي ٦٧٩هـ / طبع مؤسسة النصر ـ طهران.

شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي دار الكتب العربية / بيروت ـ لبنان / ط: ١، سنة ١٣٧٨هـ.

شرح مئة كلمة لابن ميثم البحراني/ نشر جماعة المدرسين ـ قم.

الشعر الإسلامي تحت سلطة الخلفاء لداود سلوم عالم الكتب / بيروت ـ لبنان.

الشفاهية والكتابية والترأونج ترجمة الدكتور حسن البنا عز الدين طبع في الكويت، سنة ١٩٩٤ عالم المعرفة.

شهاب الأخبار للقضاعي/ طبع طهران.

شواهد التنزيل للحاكم الحسكاني/ طبع مجمع إحياء الثقافة الإسلامية ـايران.

ـ ص ـ

الصاحبي في فقه اللغة العربية لأحمد بن الحسين بن فارس المتوفى ٣٩٥هـ / طبع مؤسسة أبدران ـبيروت.

الصحاح لاسماعيل بن حمّاد الجوهري المتوفي ٣٩٠هـ دار العلم للملايين / بيروت ـ لبنان / ط: ٤، سنة ١٤٠٧هـ.

صحيح البخاري للإمام البخاري أُفسيت دار احياء التراث العربي / بيروت ـ لبنان.

صحيح مسلم لمسلم بن الحجاج النيسابوري دار الفكر / بيروت ـ لبنان.

الصراط المستقيم لعلي بن يونس العاملي / نشر المكتبة المرتضوية.

الصوت اللغوي في القرآن للدكتور محمد حسين علي الصغير

دار المؤرخ العربي / بيروت ـ لبنان / سنة ١٤٢٠هـ.

ـ ط ـ

الطبقات الكبرى لابن سعد منشورات بيضون العلمية / بيروت ـ لبنان.

ـ ع ـ

كتاب العروس لجعفر بن أحمد القمي / طبع مجمع البحوث الإسلامية ـ مشهد.

العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي / طبع دار الفكر ودار الكتب العلمية بيروت.

علل الشرائع للشيخ الصدوق محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي المكتبة الحيدرية / النجف ـ العراق / سنة ١٣٨٥ه.

علم أصول القرآن لعبد الله مصطفى دار المكتبة الوطنية / بغداد ـ العراق.

علم المعاني لبسيوني عبد الفتاح مؤسسة المختار / القاهرة ـ مصر.

العمدة لابن البطريق المتوفي ٦٠٠هـ / طبع جماعة المدرسين ـ قم.

العمدة في الشعر وآدابه لابن رشيق القيرواني / بيروت ـ لبنان.

عوالي اللآلي لابن جمهور الإحسائي مطبعة سيد الشهداء / قم ـ ايران / ط: ١، سنة ١٤٠٣هـ.

عيون الأثر لابن سيد الناس٧٣٤هـ / طبع مؤسسة عز الدين.

عيون أخبار الرضا عليه السلام للشيخ الصدوق محمد بن علي بن الحسين بن بابوية القمي مؤسسة الأعلمي للمطبوعات / بيروت ـ لبنان / ط: ١، سنة ١٤١٤هـ وط رضا مشهدى ١٣٦٣هـ ش.

العين لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي ١٧٥هـ مؤسسة دار الهجرة / ايران/ ط: ٢، سنة ١٤٠٩هـ.

عيون الحكم والمواعظ لعلي بن محمد الليثي الواسطي دار الحديث / قم ـ ايران / ط: ١، سنة ١٣٧٦ ش.

- غ -

الغدير للشيخ عبد الحسين الأميني / طبع دار الكتاب العربي ـ بيروت.

غرائب القرآن ورغائب الفرقان للحسن بن محمد النيسابوري المتوفي ٨٢٧هـ = تفسير النيشابوري/ طبع مصر.

غريب الحديث لأبي عبيد الهروي المتوفي ٢٢٤هـ / طبع دار الكتب العلمية ـ بيروت.

غريب الحديث لأبي سليمان الخطابي البستي نشر جامعة أم/ القرى / مكة ـ السعودية / بتحقيق العزباوي.

غريب القرآن لفخر الدين الطريحي المتوفي ١٠٨٥هـ بتحقيق محمد كاظم الطريحي/ انتشارات دار الزاهدي.

غريب القرآن وتفسيره لأبي عبد الرحمن اليزيدي المتوفي ٢٣٧هـ عالم الكتب / بيروت ـ لبنان / بتحقيق سليم الحاج.

- ف -

الفائق في غريب الحديث للزمخشري / طبع دار الكتب العلمية - بيروت.

الفاضل في صفة الأدب الكامل لمحمد بن أحمد بن إسحاق/ طبع دار الغرب الإسلامي - بيروت بتحقيق يحيى الجبوري.

فتح القدير للشوكاني / طبع عالم الكتب - بيروت.

الفصحى لغة القرآن لأنور الجندي/ نشر دار الكتاب اللبناني.

الفصول المختارة للشيخ المفيد/ نشر دار المفيد - بيروت.

فصيح ثعلب لأحمد بن يحيى ثعلب طبع القاهرة - مصر / بتحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، سنة ١٩٤٩ م.

فقه اللغة وخصائصها للدكتور إميل بديع دار العلم للملايين / بيروت - لبنان.

فلسفة التشريع في الإسلام للدكتور صبحي محمصاني دار العلم للملايين / بيروت - لبنان.

الفهرست للشيخ الطوسي محمد بن الحسن/ مؤسسة نشر الفقاهة.

الفهرست لابن النديم الوراق دار المعرفة / بيروت - لبنان.

- ق -

قراءات القراء المعروفين للأندرابي مؤسسة الرسالة / بيروت - لبنان / بتحقيق الدكتور أحمد الجنابي.

قرب الأسناد لأبي العباس عبد الله الحميري البغدادي مؤسسة

آل البيت لإحياء التراث / قم ـ ايران / ط: ١، سنة ١٤١٣هـ.

قصص الأنبياء المسمى بالعرائس للثعلبي المتوفي ٤٢٧هـ / طبع بيروت.

القواعد البلاغية في ضوء المنهج الإسلامي للدكتور محمود البستاني / طبع مجمع البحوث الإسلامية ـ مشهد.

ـ ك ـ

الكامل في التاريخ لابن الأثير / طبع دار الفكر ـ بيروت.

الكشاف للزمخشري / طبع دار المعرفة ـ بيروت.

كشف الظنون لحاجي خليفة/ طبع دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي/ طبع دار الكتاب العربي ـ بيروت.

كنز العمال للمتقي الهندي مؤسسة الرسالة / بيروت ـ لبنان / سنة ١٤٠٩هـ.

ـ ل ـ

لسان العرب للعلامة ابن منظور دار احياء التراث العربي / بيروت ـ لبنان / ط: ١، سنة ١٤٠٨هـ وط دار الفكر.

اللغة العربية معناها ومبناها للاستاذ تمام حسان/ طبع بيروت.

اللغة والتفسير والتواصل للدكتور مصطفى ناصف طبع في الكويت، سنة ١٩٩٥ م عالم المعرفة.

- م -

ما الأدب لجون بول سارتر ترجمة محمد غنيمي هلال دار العودة / بيروت - لبنان.

المبسوط للشيخ الطوسي/ طبع المكتبة المرتضوية.

المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين بن الأثير/ طبع مصر تحقيق بدوي وطبانة.

المجازات النبوية للشريف الرضي أبي الحسن محمد بن الحسين الموسوي تحقيق مروان العطية ومحمد رضوان الداية / دمشق - سوريا/ سنة ١٤٠٨ هـ وطبعة أخرى بتحقيق طه عبد الرؤف سعد / مصر.

مجاز القرآن لأبي عبيدة / طبع مؤسسة الرسالة - بيروت.

مجالس المفيد = أمالي المفيد للشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان البغدادي المطبعة الإسلامية / قم - ايران.

مجمع الأمثال للميداني المتوي ٥١٨هـ تحقيق محمد محيي الدين / طبع السنة المحمدية ١٣٧٤هـ، وطبع دار الكتاب - بيروت.

مجمع البحرين للشيخ فخر الدين الطريحي مؤسسة الوفاء / بيروت - لبنان / ط: ٢، سنة ١٤٠٣هـ وط إيرلان بتحقيق أحمد الحسيني

مجمع البيان للشيخ الطوسي/ منشورات مكتبة المرعشي - قم.

مجمع الزوائد لنور الدين الهيثمي دار الكتب العلمية / بيروت - لبنان / سنة ١٤٠٨هـ.

المحاسن لأحمد بن محمد بن خالد البرقي المتوفي ٢٧٤هـ دار الكتب الإسلامية / بيروت - لبنان ودار الكتب الإلامية قم.

المحلى لابن حزم الأندلسي/ طبع دار الفكر ـ بيروت.

المزهر في علوم اللغة للسيوطي دار الفكر ودار الجيل / بيروت ـ لبنان / بتحقيق أحمد جاد المولى وآخرين

مستدرك الحاكم = المستدرك على الصحيحين لمحمد بن محمد الحاكم النيسابوري دار المعرفة / بيروت ـ لبنان / سنة ١٤٠٦هـ.

مستدرك سفينة البحار للشيخ علي النمازي الشاهرودي مؤسسة النشر الإسلامي لجماعة المدرسين / قم ـ ايران / سنة ١٤١٩هـ.

مستدرك الوسائل للحاج ميرزا حسين النوري الطبرسي مؤسسة آل البيت لإحياء التراث / قم ـ ايران / ط: ١، سنة ١٤٠٧هـ.

المستشرقون والدراسات القرآنية للدكتور محمد حسين الصغير دار المؤرخ / بيروت ـ لبنان.

مستطرفات السرائر لابن إدريس الحلي / طبع مؤسسة المهدي ـ قم.

مسند أبي يعلي الموصلي لأحمد بن علي بن المثنى التميمي دار المأمون للتراث / دمشق ـ سوريا.

مسند أحمد للامام أحمد بن حنبل دار صادر / بيروت ـ لبنان.

مسند الحميدي لعبد الله بن الزبير الحميدي/ طبع عالم الكتب ـ بيروت.

مسند الشهاب لمحمد بن سلامة القضاعي/ طبع مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

مصابيح الأنوار في حل مشكلات الأخبار لسيد عبد الله شبر مكتبة بصيرتي / قم ـ ايران.

المصباح المنير لأحمد بن حمد بن علي الفيومي المقري المتوفي ٧٧٠هـ مكتبة لبنان / بيروت ـ لبنان / سنة ١٩٨٧ م.

المصنف لابن أبي شيبة الكوفي دار الفكر / بيروت ـ لبنان / ط: ١، سنة ١٤٠٩هـ.

المصنف لأبي بكر عبد الرزاق المكتب الإسلامي / بيروت ـ لبنان / ط: ٢ سنة ١٤٠٣هـ.

معالم العلماء لابن شهرآشوب المازندراني/ طبع قم.

معاني الأخبار للشيخ الصدوق محمد بن علي بن الحسين بن بابوية القمي نشر جماعة المدرسين / قم ـ ايران / سنة ١٣٦١ ش.

المعرب لأبي منصور موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر الجواليقي دار الكتب / القاهرة ـ مصر / بتحقيق الدكتور عبد الوهاب عزام، سنة ١٩٦٩ م.

معجم الأدباء لياقوت الحموي دار الفكر /بيروت ـ لبنان.

معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا مكتب الأعلام الإسلامي / طهران ـ ايران / سنة ١٤٠٤هـ.

المعجم الكبير لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني مكتبة ابن تيمة / القاهرة ـ مصر / ط: ٢ وطبعة أخرى بتحقيق حمدي عبد الحميد. دار إحياء التراث العربي / بيروت ـ لبنان.

معجم اللسانيات الحديثة للدكتور سامي عيّاد وآخرين/ مكتبة لبنان ناشرون ـ بيروت.

المعجم المختص تأليف جمعية المعجمية التونسية ط دار الغرب الإسلامي /بيروت ـ لبنان

المعلقات السبع بشرح الزوزني دار الكتب العلمية / بيروت ـ لبنان.

معدن الجواهر للكراجكي بتحقيق أحمد الحيني منشورات مكتبة المرعشي قم.

المغني لابن قدامة المقدسي دار الفكر / بيروت ـ لبنان / سنة ١٩٨٣ م.

مفردات الراغب = مفردات غريب القرآن للراغب الإصفهاني أبي القاسم الحسين بن محمد دفتر نشر الكتاب / ايران.

مقدمة الاشتقاق لابن دريد مكتبة المثنى / بغداد ـ العراق.

مقدمة شرح نهج البلاغة (فن البلاغة والخطابة) تقديم وتحقيق الدكتور عبد القادر حسين دار الشروق / مصر / ط: ١، سنة ١٤٠٧هـ.

مكارم الأخلاق للحسن بن الفضل الطبرسي مؤسسة الأعلمي / بيروت ـ لبنان / ط: ٦، سنة ١٣٩٢هـ.

مناقب آل أبي طالب = مناقب ابن شهرآشوب

مناقب أهل البيت ﷺ للمولى حيدر الشيرواني/ مطبعة المنشورات الإسلامية.

منتهى المطلب في تحقيق المذهب للعلامة الحلي الحسن بن يوسف بن المطهر البحوث الإسلامية / مشهد ـ ايران.

منهج النقد في علوم الحديث للدكتور نور الدين عتر دار الفكر / دمشق ـ سوريا.

من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق محمد بن علي بن الحسين

بن بابوية القمي انتشارات اسلامي التابعة لجماعة المدرسين / قم - ايران / ط: ٢ سنة ١٤٠٤ هـ وطبعة أخرى في الدار الإسلامية / طهران - ايران.

منية المريد في آداب المفيد والمستفيد للشهيد الثاني/ نشر مكتب الإعلام الإسلامي - قم.

موجز تاريخ علم اللغة في الغرب لروبنز - ترجمة الدكتور أحمد عوض طبع الكويت ١٩٩٧ م عالم المعرفة.

الموجز في الأدب العربي وتاريخه لحنا فاخوري دار الجيل / بيروت - لبنان.

موسوعة الطير والحيوان في الحديث النبوي لعبد اللطيف عاشور مكتبة القرآن / القاهرة - مصر.

الموضوعات في الآثار والأخبار لهاشم معروف الحسني دار الكتاب اللبناني / بيروت - لبنان/ ط: ١، سنة ١٩٧٣.

- ن -

القرآن الكريم والنبي للدكتور عبد الحليم محمود دار المعارف / مصر.

نصب الراية لجمال الدين الزيلعي/ ط١ دار الحديث القاهرة.

نظرية الرواية للدكتور عبد الملك مرتاض طبع المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب - الكويت.

النهاية في غريب الحديث والأثر للمبارك بن محمد الجزري المعروف بابن الأثير دار الفكر / بيروت - لبنان / ط: ١، سنة ١٤١٨هـ.

نهج البلاغة (خطب وحكم لأمير المؤمنين عليه السلام) بتحقيق صبحي الصالح/ منشورات دار الهجرة ـ قم.

نهج السعادة للشيخ محمد باقر المحمودي/ طبع دار التعارف ـ بيروت.

النوادر للسيد ضياء الدين أبي الرضا فضل الله بن علي الحسني الراوندي دار الحديث / قم ـ ايران / ط: ١، سنة ١٤٠٧هـ.

ـ و ـ

الوجيز في فقه اللغة لمحمد الانطاكي / طبع بيروت.

وسائل الشيعة للفقيه المحدث الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي مؤسسة آل البيت لإحياء التراث / قم ـ ايران / ط: ٢، سنة ١٤١٤هـ.

وصف المطر والسحاب لابن دريد دار صادر / بيروت ـ لبنان / بتحقيق عز الدين التنوخي.

وفيات الأعيان لابن خلكان / طبع دار الثقافة ـ بيروت.

فهرست الكتاب

MAWSOUAT AL- RASOOL AL- MOSTAFA (11)

Address: P.0. Box 25/138
Al- Ghobairi- Beirut- Lebanon
E-mails: almawsouah@hotmail.com
almawsouah@yahoo.com
Website: www.almawsouah.org

First print- 1423 - 2002

Shahrur bldg. Dakkash St, Bir Al-Abed- Beirut- Lebanon
Tel: 01-270574, 03-349237
Em: alathar 2002 @ hotmail. com

MAWSOUAT AL-RASOOL AL - MOSTAFA

A highly informative encyclopedia
of Prophet Mohammad's life
Administered by: Mohsen Ahmad
Al-Khatami

PROPHET MOHAMMAD'S RHETORIC AND ELOQUENCE

By: Aadel - AL-BAdri

Dar- Al- Athar
Beirut- Lebanon